

جون ستوفر

# العمالة



وكالة سفينكس

obeikandi.com

العمالة

---

# العمالة

---

---

جون ستوفر

---

ترجمة / محمد المغربي  
الغلاف / هانيبال - هيبو  
سلسلة من كل بلد كتاب - كتاب من الولايات المتحدة الأمريكية  
الطبعة الأولى/ القاهرة ٢٠١٠

رقم الإيداع: ٢٠١٠/١٣٤١٢  
ISBN: 978 - 977 - 6299 -27-6



وكالة سفينكس  
٧ شارع معروف الدور السابع  
وسط البلد - القاهرة  
ت/ف: ٠٠٢ ٠٢ ٢٥٧٩٢٨٦٥  
[www.sphinxagency.com](http://www.sphinxagency.com)  
[info@sphinxagency.com](mailto:info@sphinxagency.com)

---

جميع الحقوق محفوظة للناسر، ويحظر نشر أو اقتباس هذا العمل أو أي جزء منه بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات دون إذن كتابي من الناسر، ومن يخالف ذلك يتعرض للمساءلة القانونية

Sphinx Agency © 2010

## مفتّح

أود أن أشير بالنسبة لأبراهام لنكولن . . أن الأمر كان مسألة حفظ للتوازن داخل ذاته بين فكرتين متناقضين، أولاهما أننا يجب أن نتحاور وإن نصل لدرجة من التفاهم العام، وتحديدًا لأننا جميعاً غير كاملين ولا يمكننا العمل رغم يقيننا أن الله معنا، إلا أننا نتصرف- في بعض الأحيان وبالضرورة - بشكل عبثي.

و ثانيهما أن أفضل ما يمكنني أدائه في مواجهة تاريخنا هو أن أذكر نفسي أن الرحمة لم تكن أبداً ولا صوت المنطق، ولا قوة التوافق هي التي خلقت الظروف المواتية من أجل الحرية، إذ إن الحقائق القاسية الباردة هي التي تذكرني بما كان عليه رجال مثل فردريك دوجلاس الذي أدرك أن القوة لن تثمر دون كفاح.

باراك اوباما

جراحة الأمل . . أفكار حول إصلاح الحلم الأمريكي ٢٠٠٦



## تمهيد

يعد كل من فردريك دوجلاس وأبراهام لنكولن أبرز رجلين عصامين في التاريخ الأمريكي، حيث ولد لنكولن في فقر مدقع، ولم يحصل إلا على أقل من عام واحد من التعليم الرسمي، ثم أصبح واحداً من أعظم رؤساء الأمة الأمريكية في حين قضى دوجلاس أول عشرين سنة من حياته عبداً، ولم يحصل على أي مستوى من التعليم الرسمي، أصبح بعدها أكثر الرجال السود شهرة في العالم الغربي وواحداً من أعظم حملة الأقلام في الأمة.

ما كنت لأحلم - بأية صورة - قبل بداية مشروعي هذا أن أجد هما قد عاشا حياتين متماثلتين بشكل مذهل، فقد تعلمتا القراءة وبناء نفسيهما من نفس المنهل ونفس مجموعة الكتب كالكتاب المقدس، وما كتبه شكسبير ولورد بايرون وروبيرت بيرنز، وأساطير أيسوب ومجموعة موضوعات "الخطيب الكولومبي"؛ والأخيرة هذه مختارات من الخطب الملائمة للنشء، وقد اجتنبا - معا - تدخين التبغ وشرب الكحول في عصر كان الناس يعتادون احتساء الخمر ومضغ العلك أثناء عملهم.

أصبحا - معا - أكثر خطباء المجتمع إيهارا حينما كان



الخطاب العام واحداً من المظاهر القليلة للترفيه "الاجتماعي"، مساوياً لرياضة المحترفين أو الموسيقى الشعبية اليوم. كانا - كذلك - من أطول الرجال قامّةً على الأقل بنصف قدم أطول من نظرائهم، حينما يكون التكوين الجسماني هو المحدد - المحتمل - للنجاح أو الفشل أو حتى الحياة والموت؛ وحينما تقوم بتفسير قدريهما نجد أن كليهما قد اقتبس نفس السطر الذي كتبه شكسبير في هاملت (هناك يد إلهية تشكل نهاياتنا، وتصبغها، وتحدد الكيفية التي نريد بها ذلك).

كما جسدا - معا - حلم أمريكا بالتمسك بحقوقهما الشخصية الفردية وإعادة صياغة نفسيهما باستمرار، وقاما بالغوص في الماضي لتشكيل طريقتهما قدماً، إذ كانا مصلحين يؤمنان بأن التاريخ هو ملهم نشطاء المجتمع ومحركه.

خلال تقدمهما، خاضا في وحل التفرقة العنصرية. بالتالي، أصبحا أعداء تارة وأصدقاء تارة أخرى، فأكثر من مرة أطلق دوجلاس على لنكولن مسمى "مثل العنصرية" و"أكبر عقبة أمام الحرية في أمريكا"، حيث عرض بذكاء حدود قدرات لنكولن كبطل للحرية، في حين قضى لنكولن معظم حياته مؤملاً في تخليص بلاده من السود والعبودية معا. كانا أيضاً برجمائين، قادرين على التجاوز عن الاختلافات الهائلة ليقتربا بعدها كأصدقاء.



فى عام ١٨٦٠م قام دوجلاس بالمساعدة فى انتخاب لنكونل رئيسا، وفى زمن كان معظم البيض لا يمكن أن يدعوا رجلاً اسود يمر عبر عتبات بيوتهم، قام لنكونل باستقبال دوجلاس ثلاث مرات بالبيت الأبيض، إذ كانت صداقتهما قائمة على المنفعة بصورة أساسية حيث احتاج لنكونل لدوجلاس فى تحطيم القوى الاتحادية "الكونفيدراس" لولايات الجنوب كما عرف دوجلاس أن لنكونل يستطيع معاوته فى إنهاء حالة العبودية. لكهما أيضاً كانا يحملان التقدير لبعضهما البعض وعند مقارنة حياتيهما واحدة مقابل الأخرى، وتمييز إحداها عن الثانية، فإننا نحصل على صورة متكاملة لشخصية كل واحد منهما ومدى مكاته، وكذلك نصل لفهم أفضل لتأثير الأصدقاء والخلصاء والمستشارين بل والمنافسين فى تشكيل حياتيهما، كما نكتسب إحساساً أكثر ثراء بطبيعة تحولاتهما الشخصية وحدودها، ثم الاعتماد على كلماتهما وتصرفاتهما لتوفير منظور واقعي يبين كيف أثر الاختلاف العرقي فى تشكيل النسيج العام لحياتيهما وأوقاتها.

تؤدى بعض أدوات السخرية الفعالة إلى تعقيد أفكارنا المقدره سلفاً حول هذين الرجلين، وحول الرجال العصاميين بوجه عام، فدوجلاس ولنكونل من بين أعظم مفكري أمريكا، إلا أنهما كبرا وسط عوالم فاحشة، وكانا يشيران فيهما إلى المشاجرات القتالية فى



أحيائهما بأنها نقطة تحول في أوضاعهما الاجتماعية، وكانا من صناع الكلمة الذين لم يتعلموا حتى لغة أجنبية واحدة. بدلاً من ذلك، تطوروا من الحديث بلهجة محلية - تكاد تكون بلهجة أجنبية - إلى التحدث بلغة إنجليزية مهذبة رغم أن أغلب الناس اليوم تظن لنكون واحداً من أعظم خطباء الأمة حيث كان دوجلاس - في وقته - يُعدّ نموذجاً للأدب. أقر كلا الرجلان بأن الخطاب العام يهيم المجتمع أكثر من صلات النسب أو العلاقات الشخصية كمدخل للحياة العامة كما اتصرا على اليأس مستعينين بمزاجهما المرح. كما أن كلاهما تزوج، وأصبحت المرأة - جزئياً - مسئولة عن نجاح كل منهما.

فاق دوجلاس ولنكون مفهوم الإنسان العصامي حتى قبل ظهور هذا المصطلح عام ١٨٣٢ إذ بينما كانا يقومان بصنع مكاتهما دفعا الآخرين للاقتداء بهما، فهما ينفصلان عن الناس عندما يفوقانهم نمواً وتقدماً، ثم يعودان للتواصل معهم عندما تتلاقى طرقهم، حيث لاشيء ساكن وثابت بالنسبة لهما في أمور الصداقة أو الذاتية. تسمى إحدى أشهر خطب دوجلاس "الرجال العصاميون" وقد ألقاها أكثر من خمسين مرة وكان يراجعها باستمرار خلال تطور حياته، مثلما كتب سيرته الذاتية ثلاث مرات. كان صلب الخطاب يدور حول كيف يمكن للرجال والنساء تحسين ظروفهم عبر العمل الجاد والتعلم الذاتي، وقد آمن لنكون أيضاً بتلك المبادئ باعتبارها





الوسائل الأولى لتحسين الذات. لكن الهدف النهائي لتلك التحولات كان تحسين المجتمع لا الوصول للثراء، ففي إعادة صناعة الذات إصلاح للمجتمع.

كان وجود العبودية - سواء في صورة "الأجور المدنية" في سخرة الرجال البيض أو عبودية الأقنان السود - يقف حائلاً أمام المواطنين يمنع إمكانية إعادة صناعة ذواتهم إذ شكل وجود المرء ثابتاً وساكناً من الناحية الاجتماعية مدى حياته مأساة قومية في قناعة كل منهما. لقد ضم لنكون السود إلى حلمه في إتاحة الفرصة أمام الإنسان لصناعة ذاته قبل أن يصادق ودجلاس بزم طويل: "أريد لكل إنسان فرصته والإنسان الأسود مدعو لذلك أيضاً، حيث يقوم من خلال هذه الفرصة بتحسين أوضاعه." لكن لنكون كانت لديه قناعة بأن على السود مغادرة البلاد لتحسين أحوالهم. هنا ساعده دوجلاس على تغيير وجهة نظره.

أدرك لنكون ودوجلاس أن صناعة الذات "العصامية" تتناقض - بصورة مطلقة - مع وجود العنصرية، وكان ذلك لأن فكرة "بياض البشرة" كعلامة على التفوق ومبرر لقهر السود اعتمدت على الإقناع بأن "الذات الشخصية" ثابتة لا تتغير. لقد تجاوز دوجلاس ولنكون الفكرة التقليدية التي تعد "الشخصية" ظاهرة ساكنة ثابتة ومؤسسة على الوراثة والمكانة الاجتماعية، إذ رأى أن الذات الشخصية هي



حالة من التدفق الدائم أساساً وقد تمسك دوجلاس بأهمية ذلك التطور في مدح لنكون: "كلما ارتقينا في المرتبة الإنسانية والسمو الأخلاقي، ابتعدنا عن التعسف وإساءة الأحكام، فالجمود يقود لضيق الأفق والتفاهة."

كلاهما وقف في مقدمة النقلة الرئيسية في تاريخ الثقافة التي ثارت على الوضع القائم بشأن الأوضاع الاجتماعية الثابتة بما في ذلك أوضاع السود والبيض - والنساء نادراً - في إطار المثل القومية للحرية والمساواة. لكن ذلك التحول كانت له حدوده، إذ ظهر دوجلاس ولنكون في عصر الاحتقال بالعصامين. في الوقت الذي كانت حكايات " القفز من الفقر إلى الغنى " وقائع حقيقية تروى، كان امتلاك العبيد في الجنوب أضمن طريقة لصناعة الذات والثراء. لسخرية القدر، برز لنكون ودوجلاس كأصدقاء خلال حرب غيرت المجتمع الأمريكي، وأعاقت أثناءها احتمالات تحقق صناعة الذات، فالحرب أنهت العبودية ومنحت الرجال السود حق التصويت تحديداً، لكنها جلبت هجمة من العنصرية، وضربة سوط وحشية ضد السود، وخلقت ذريعة لإعادة توحيد الشمال والجنوب، مع كم هائل من البيروقراطية وسوء توزيع الثروة مما أعاق الحراك الاجتماعي بين الطبقات الدنيا، ففي العصر الذهبي أضحت فكرة الإنسان العصامي أسطورة شائعة، وبهذا المعنى صعد دوجلاس ولنكون من

قاع المجتمع إلى قمته بطرق يصعب تصديقها خلال الخمسين عاماً  
التالية.

تفتح تلك السيرة الذاتية الجماعية "الثانية" نافذة على تحول  
المجتمع الأمريكي بسبب الحرب الأهلية حيث تتوازي صراعات  
الرجلين - غالباً - مع صراعات الأمة، وعكس حوارهما الداخلي  
الحوار الذي ساد أمتهم، وفي الواقع تمدنا استجابات الرجلين  
لبعضهما البعض بخارطة طريق للمشهد السياسي المتغير، وقد تكرر  
فقدان دوجلاس لثقة في لنكولن وسرعان ما يستعيد لها مره أخرى،  
إذ ترسم رؤاه المتغيرة ليس فقط الانتقالات السياسية لكلا الرجلين،  
وإنما تبرز انتقال الأمة نحو الثورة الثانية، وتعدّ قصتهما المتشابكة في  
التغير وصناعة الذات وتحالفهما وصراعاتهما نفس قصة الأمة.



## مقدمة

### لقاء الرئيس

١٠ أغسطس ١٨٦٣

حلم فريدريك دوجلاس بعودة حميدة لموطنه أفضل من تلك التي رآها . ففي الليلة الدافئة الرطبة من العاشر من أغسطس من عام ١٨٦٣ ، دلف قطاره إلى محطة بالتيمور ، المدينة التي هرب منها على نفس الطريق قبل ذلك بخمسة وعشرين عاماً . غادرها متنكراً بواسطة قطار الأنفاق ليعود إلى بالتيمور وأوهايو في قطار النوم بالدرجة الأولى ، وبينما يقترب قطاره من محطة شارع رئيس الدولة ، تطلع بشغف عبر " شيش " النافذة نحو الشوارع المألوفة - الحالية الآن - والحدود القائمة للملاح المباني ، وعقد أمله على وقفة قصيرة ، فالعبودية ما زالت قانونية في ميريلاند ، وكان قد قرأ عن بعض المزارعين الذين يخطفون السود الأحرار ويقومون بتشغيلهم كعبيد .

كان يمر مروراً عابراً متجهاً نحو واشنطن إلى البيت الأبيض . كان الكونجرس قد قام بإلغاء العبودية هناك منذ عام سابق ، وكان أمل ذلك العبد السابق مقابلة الرئيس لتكون . لم يكن لدى دوجلاس أي

موعد محدد مع الرئيس، وفى الحقيقة كانت رحلته فجائية التخطيط. لكنه رغم ذلك سعى لمواجهة لنكون لإبلاغه شكواه حول سوء معاملة الإدارة للجنود السود، إذ كان يُخطر لنكون منذ بداية الحرب من خلال خطبه وكتاباته الصحفية بضرورة تسليح السود، وظلّ خلال الأشهر الست السابقة - بعدما سمحت الحكومة أخيراً للسود بالخدمة في الجيش - يحرّض ويحند "الملونين" للقوات المسلحة كوسيلة للقضاء على المتمردين وتحقيق حرية السود وحقوق المواطنة، فساعد على حشد سجلات متطوعي القوة الرابعة والخمسين لولاية ماساتشوستس - أول كتيبة من السود ولاية حرة في الأمة - وكان اثنان من أبنائه من أوائل المسجلين بها.

لقد جرح ابنه الأكبر خلال القتال اليأس الذي وقع بمحضر فورث واجنر. لكن الجنود السود كانوا يتقاضون نصف أجر الجندي الأبيض، ولم يكن يسمح لهم بأداء الخدمة المميزة وبقي أمامهم الأسوأ. كان السجناء السود يُغتالون أو يُستبعدون بواسطة الاتحاديين، وبسبب هذا الظلم هجر دوجلاس مسألة تجنيد السود وقرر الذهاب إلى واشنطن لتقديم شكواه للرئيس، وقد تلاشى إيمانه تقريباً - بأن لنكون رجل أعمال لا أقوال، حيث أعلن أنه يأمل أن يستعيد إيمانه بذلك الرجل "الرئيس" وبالأمة الأمريكية.

كانت الرحلة الطويلة من روشيستر على وشك الانتهاء، ورغم اعتياد دوجلاس على السفر بالقطارات - وقد ازداد السفر تحسناً أثناء الخدمة بشكل ملحوظ منذ ركوبه الأول في باليمور عام ١٨٣٨- فقد كانت رحلة غير مريحة. الأسرة في كبائن النوم كانت- أساساً مقاعد قُلبت إلى ألواح رفيعة، ومع الاهتزازات المستمرة وتأرجح العربات أضحت تأثيرها "كمحاولة للنوم على ظهر حصان هارب"، إذ كان الاهتزاز حاداً لدرجة أن القراءة والكتابة- فرضاً بدت مستحيلة، وانهمرت خلال الرحلة الأتربة والشرر ودخان الفحم عبر "شيش" النوافذ. بينما اقترب دوجلاس من نهاية رحلته التي استغرقت عدة أيام، كان التعب قد أجهدته وآلمته عضلات جسمه من قلة حركتها، وغطته طبقة رقيقة من السناج- الهباب الأسود- إلا أن ملابسه القاتمة وسحنه "السوداء" أخفيا ذلك. كانت هذه إحدى اللحظات القليلة التي تحوز فيها البشرة السوداء ميزة ما. مع نهاية الرحلة، بدا كل واحد "أكثر سواداً من مواطن أسود"، مثلما ذكر أحد المعاصرين، ولم يكن هناك مكان "لفصل أنفسكم مثل كل الناس".

بينما اقترب القطار من واشنطن، تساءل دوجلاس عما إذا كان يجب عليه القدوم لهذه الزيارة أم لا، حيث كان من الخطر على رجل أسود السفر إلى بلاد مازالت بها العبودية قائمة. عندئذٍ، هدأت

حدة غضبه وضيقة إلى حد ما، لأنه عندما ترك مسألة تجنيد السود علم أن لنكونن وقع على قرار يستهدف منع الاتحاديين من اغتيال السود، ينص على "أن كل جندي يقتل - منتهكاً لقوانين الحرب - جندياً متمرداً سوف يُنفذ فيه حكم الإعدام." كان هذا القرار واجب الصدور من عدة أشهر مبكرة قبل اغتيال المئات من الجنود السود. "لقد صدر متأخراً، لكنه صدر على أية حال."

كان الوقت يوشك على الفجر عندما غادر دوجلاس المحطة عند ميدان نيوجيرسي شارع سى، على بعد عدة بنايات من مبنى الكابيتول، إلا أن المدينة كانت مزدحمة، ولم يملك نفسه من ملاحظة الأعداد الكبيرة من السود. بعضهم أخذ في العمل فعلاً، والقليل منهم كانوا ينامون في العراء، إذ خلال فترة تزيد قليلاً عن العام انحدر أكثر من أحد عشر ألفاً من السود المحررين، رجالاً ونساء - وكانوا يسمونهم محظورات الحرب - إلى وسط المدينة بينما قطن ثلاثة آلاف آخرون ضاحية الإسكندرية "بالقرب من نيوجيرسي".

لم يشبه دوجلاس أياً من أولئك السود "المسمون محظورات الحرب"، فهو - صاحب الخمسة وأربعين عاماً - كان يحمل شكلاً مميزاً، فهو طويل يتجاوز الستة أقدام ورياضي ويرتدى زياً رسمياً مع معطف داكن اللون وقميصاً أبيض ذا ياقة عالية، وقد اختلط اللون الرمادي بشعره الذي يحيط برأسه مثل كرة أرضية سوداء رغم أنه

قام بتصفيفه للخلف، وأعلى عينه اليمنى من فروة رأسه خصلات بيضاء تمتزج بانتظام وتمتد حتى تتحول للون الرمادي عند مؤخرة الرأس، ولحيته رفيعة مشدبة بعناية فحمية اللون، تضيف جاذبية لهيئته ويبدو بها كلها "عظيماً في هيئته" وفقاً لما ذكره أحد الملاحظين. فى المقابل، كان بقية السود يرتدون خرقاً بالية وملابس مهلهلة أخذوها حينما كانوا يهربون من أسيادهم السابقين، وكان بعضهم عارياً، وأغلبهم حافياً، وبدأ على العديد منهم المرض والإعياء.

كان دوجلاس يعرف أن الجدري قد انتشر بين هذه الجماعات التي كانت تقطن معسكراً للجيش يسمى داف جرين ويقع على شمال مبنى الكابيتول، وانتشرت بينهم الحصبة - كذلك - والدفتريا والزهري وحمى التيفود. كانت تمر - في بعض الأيام - جثث عشرات الموتى بديف جرين مسجلين خلال أربع وعشرين ساعة. مقارنة بدوجلاس، تبدو تلك الجماعات منحدرية تقريباً من صنف مختلف من البشر كان يعلم أن معظم البيض سوف يصلون الحلقة بينه وبين أولئك بسبب لون بشرته مباشرة. اختلطت جموع المخطورين هؤلاء بجنود ولايات الاتحاد في الشوارع. كان بعضهم في نوبة عمله، والبعض الآخر يمضى بجراحه الواضحة أو بساق أو ذراع مبتورة مرتدياً بذلته الرسمية، ويظهر على البعض الآخر معالم المرض أو التشرد. كانت



المدينة تعج بالمستشفيات، التي كانت من قبل كنائس وكليات وفنادق تم تحويلها إلى مجمعات أضخم لإدارات السلاح والقضاء . حتى مكاتب السجلات تحولت إلى مستشفيات . وفيما بين تجمعات "المحظورين" هؤلاء وبين المستشفيات، بدا الأمر كمدينة للموتى والمحضرين .

لم يكن في المكان هناك إلا قلة من البيض الذين يملكون مالا، كما ساهمت درجة الحرارة المرتفعة والرطوبة ووجود مئات من المحررين الجدد رجالاً ونساءً في جعل المدينة أكثر عرضة للمرض، وقد غادر الأثرياء المدينة إلى منتجعاتهم الصيفية. كتب جون هاى -سكرتير لنكولن- لأحد أصدقائه قبل وصول دوجلاس بثلاثة أيام عن ذلك قائلاً: "أصبحت هذه المدينة كثيفة كشاهد قبر ممسوح، فكل إنسان ذهب بعيداً . إذا ما كان يملك الوسيلة لذهابه . " مما يعنى أن كل إنسان يجد مكاناً آخر فإنه يغادر على الفور، وكان هؤلاء يشكلون نسبة ضئيلة وسط مواطني واشنطن البالغ عددهم خمساً وسبعين ألف نسمة .

بينما كان دوجلاس يمضى قاصداً البيت الأبيض، لم تكن لديه أدنى فكرة عما إذا كان سيحصل على موافقة اللقاء أم لا، وإذا ما تم ذلك اللقاء فما نوع الاستقبال الذي سيلقاه لأن كل ما كان يملكه كمدخل لهذا الشأن مجرد علاقات واهية مع قليل من أعضاء

الكونجرس المناهضين للعبودية، وسمّته ككاشط ضد الاستبعاد ومؤلف وصحفي مع خطاب يحمله في جيبه من جورج ستريز، وهو ثوري من يوسطون ينتمي للطريقة البراهمانية كان يقود حركة التطوع في الشمال وله علاقات جيدة بالمسؤولين في واشنطن، ويصرح جورج لدوجلاس في خطابه بأن يذهب لواشنطن "كوكيل عنه للقيام بالأعمال المتعلقة بخدمات التطوع" ولم يكن أكثر من مجرد خطاب للتعريف والرعاية يشمل الغموض حيث كان جورج لا يعرف لنكون جيد بالنسبة للتصريح بدخول البيت الأبيض، كان دوجلاس يأمل في أن يحدث اسمه تأثيراً أكبر من ذلك الخطاب البراهمي، وقد انقلب حظه فجأة عندما اصطدم بصامويل بوميروى - عضو الكونجرس المعارض للعبودية عن ولاية كانساس والمولود في ماساتشوستس والذي تلقى تعليمه في كلية أمهيرست. كان بوميروى خليطاً من التهذيب الإنجليزي وبدائية مدينة دودج و"كان ضخماً وسميناً بالرغم من عدم طوله"، برأس أصلع عدا بضع شعيرات تجرى عبر فروة رأسه إلى الخلف حيث تتناثر في تعرجات من الخصل حول أذنيه ولحية مكتملة تكاد تخفى شفّيته الرقيقتين، اللتين حينما يغلقهما تبدوان كابتسامة باهتة أو ساخرة لا يمكن تحديدها.

صنع بوميروى لنفسه اسماً - في البداية - كوكيل تمويلي لشركة مساعدة مهاجري نيو إنجلاند، تملك مايرو على مائة ألف دولار تمد

بها المستوطنين الذين يرغبون في الاحتفاظ بكانساس آمنة من العبودية، وكان دوجلاس وبوميروى يتشاركان الهدف مع ثالث هو جون براون. لكن فيما بينهما، كان كل من دوجلاس وبراون صديقين حميمين ولم يكن هناك حب بين بوميروى وبراون إذ كان الأخير نافذ الصبر مع الرجال الثرثارين، ومن هنا شبه بوميروى بديك يمشى محتالاً.

لكونه نائباً بالكونجرس تمتع بسمعة ذات وجهين، فمن ناحية كان معروفاً بمعارضته العنيدة للعبودية، لأنه بالفعل كان قد قدم مشروع القانون الذي أصبح قانون المصادرة في السابع عشر من يوليو عام ١٨٦٢، والذي أدى لتحرير العبيد الذين هربوا من سادتهم إلى حدود ولايات الاتحاد، وقام بتشجيع لتكون لإصدار إعلان الاتفاق في الأول من يناير عام ١٨٦٣ الذي أكد أن العبيد في الولايات المتحدة هم "دوماً أحرار". من ناحية أخرى، ارتبط اسمه في الآونة الأخيرة بالصفقات السرية والفساد والرشوة. سواء عرف دوجلاس ذلك الجانب السيئ لبوميروى أم لا، فقد قبل عرض النائب بمرافقته في مهمته بكل سعادة. ذهباً أولاً إلى مبنى إدارة الحرب بالقرب من البيت الأبيض في منزله الرئيس، حيث طلب دوجلاس لقاء إيدوين ستانتون "وزير الحرب" وكان معروفاً بإدارته الجيدة للقاءات بطريقة فعالة، وكان موظفاً كفوفاً بارعاً يشبه أساتذة الجامعة ويسهل

التعرف عليه بواسطة بداته الماثلة لشرائح اللحم السمكة وحيته الطويلة المستقيمة المتأرجحة فوق صدره. كان يعرف دوجلاس، فأتاح له مقابلة تمتد لثلاثين دقيقة اعتبرها دوجلاس ميزة خاصة له خلال اللقاء، وجد دوجلاس ستاتون "رجلاً بارداً وعملياً إلى حد ما". "شرح دوجلاس له أن على الحكومة أن تفهم أمراً تبيين له أثناء عمله في تجنيد واستخدام السود وهو أن "الزنخي كان ضحية لرأين مطرفين"، ففي النموذج الإيجابي فاق السود البيض في ورعهم وطبيعتهم والتضحية بالنفس. لذا كانوا يمثلون العمّ توم. بذلك أصبحوا مصدراً للخلاص الفردي والوطني بالتضحية بأنفسهم. وفي النموذج السلبي، كان السود هم الشيطان مجسداً، إذا ما تم تسليحهم سوف يقتالون الرجال البيض ويغتصبون نساءهم. يتجه النموذجان نحو اعتبار السود عديمي الكفاءة أو الشجاعة كجنود عاديين. رأى ستاتون أنه لا ينبغي أن يُنظر إلى الرجل الأسود باعتبارهِ شيطاناً أو ملاكاً، ويضيف دوجلاس مؤكداً على ذلك بقوله:

- إنه إنسان ويجب أن يُعامل على أنه كذلك بصورة مجردة، فالجنود السود - شأنهم شأن البيض - بعضهم شجاع، والبعض الآخر جبناً، بعضهم طموح وملهم، والبعض الآخر متبلد الإحساس، وعند تشكيل قوات من السود، على الحكومة أن تتوافق مع تلك الحقائق.

هنا قاطعه ستاتون فجأة متسائلا:

- كيف تتعارض الظروف الحالية المحيطة بقوات الجنود السود مع ما تبينه من آراء؟  
وكان رد دوجلاس :

لدى الجنود السود مشكلات في الأجر غير المتساوي الذي يتقاضونه، ولا يوجد ما يحفزهم. كما أن التعليمات تحصرهم عند مستوى "النفر" - الجندي العادي - أو عند مستوى الضباط غير العاملين.

وجد ستاتون نفسه الآن في موقف دفاعي فاضطر لشرح الصعوبات والأحكام المسبقة التي يجب تخطيطها قبل تحقيق المساواة المطلوبة، وقدم وصفاً لجهوده في سبيل صرف نفس مرتبات وملابس وأدوات الجندي الأبيض للسود . وبالفعل ادعى أنه قدم مشروعا للكونجرس بنفسه في هذا الشأن وقبله البيت الأبيض، لكنه هُزم في تصويت النواب.

الأكثر من ذلك، لم يخبر ستاتون دوجلاس بأنه في أغسطس سنة ١٨٦٢ مُنح الجنرال روفروس ساكستون في جنوب كارولينا صلاحية حشد وتجميع خمسة آلاف جندي أسود سوف يتلقون "نفس راتب ودرجات الجنود البيض"، وكان من الواضح بقاؤه عصبياً عند إصدار القرار لأنه ألحقه بمذكرة يصير فيها على "أن ذلك



القرار لا يجب أن يظهر للملأ لأنه يتقدم الرأي العام بدرجة كبيرة لا  
يتحملها. " كما لو كان يقدم نصيحته الخاصة، فتراجع عن تعليمات "  
الراتب المتساوي " لانذا بقانون الميلشيا الأهلية الصادر في يوليو عام  
١٨٦٢ الذي ينحاز ضد المتطوعين السود بمنحهم راتباً كعمال فقط  
(وهو سبعة دولارات في الشهر )، لا كجنود (ثلاثة عشر دولاراً  
شهرياً ) . لكنه كان صريحاً مع دوجلاس وكان ليخبره بما قاله  
لمنقديه من البيض : "إن بعض سرايا الجنود البيض قد شكوا من  
مساواتهم بالجنود الزنوج وغن ذلك ( الراتب المتساوي)

سيمنع تطوع الجنود البيض. " وادعى - بدلا من ذلك - أنه كان يبذل  
كل ما في وسعه لمنح السود نفس راتب البيض .

شعر دوجلاس بأن ستاتون يداهنه في الحديث وأن مجرى  
الحديث قد يتحول إلى عراك، ولو كان على حساب إنجاح مهمته -  
كما قرر - فلا بد من التوافق . لذا أخبر ستاتون أن الراتب على  
المدى البعيد ليس له أولوية حالية، فالجنود السود لهم قضية بعيدة  
تماماً عن الراتب أو الدرجة، بل هم يسعون لنيل حرية جنسهم  
والإقرار بأنهم مواطنون أمريكيون . هنا جاء دور ستاتون ليتوافق مع  
ضيفه، فهو حقيقة رغب في توفير أجور متساوية من أجل السود -  
وكرر ذلك مرات - وسعى لجعل الكفاءة استحقاقاً للترقية بغض  
النظر عن الجنس، وقد أقسم على ترقية كل رجل أسود يوصى به

ضابطه الأعلى . عندئذٍ ، ولبين لدوجلاس كم كان صادقاً عندما عرض عليه العمل معه كضابط عامل، وعده بوظيفة مساعد ضابط التعليمات للمعونة في تجنيد الرجال المحررين في الجنوب . أكد ستاتون لدوجلاس مدى احتياجه له وتساءل متى يكون جاهزاً لذلك ، فأجابه دوجلاس "خلال أسبوعين " و"يمكن لك أن ترسل لي التعليمات في روبيستر . "عندئذٍ ، أمره ستاتون "بالرجوع إلى: الجنرال لوريتزو توماس" المسئول عن تنظيم القوات السوداء في فيكسبرج بولاية مسيسيبي والتعاون معه في حشد هذه القوات . كما أمره بلقاء جون أشر وزير الداخلية للحصول على تصريح مرور يسمح له بالسفر بحرية عبر خطوط الاتحاد . بهذا ، أنهى ستاتون المقابلة .

أصاب دوجلاس الذهول ، فهو قد ناقش وحاجج عشرات من المسئولين لكنه لم ير مثل ستاتون رجلاً نافذاً ، إذ لم يمدحه ستاتون حتى ولا مرة واحدة ، وإنما طلب منه أن يصبح أول مساعد ضابط تعليمات أسود في تاريخ الجيش الأمريكي ، وكان ذلك أقصى مشاركة يمكن لستاتون تقديمها ، وبذلك يمكن للشرائط الذهبية- رتبة الضابط- على أرضيتها الزرقاء أن تعلو كنف رجل أسود !

تمالك دوجلاس نفسه بصعوبة بينما أصابت الدهشة بوميرو الذي كان حاضراً طوال اللقاء ، والذي أدرك أنه ليس له مكان

بجانب مهارة دوجلاس في مخاطبة الجماهير فى عصر كان الخطباء العظام يتساوون مع نجوم الرياضة، فقام بتدوين بعض الملاحظات الفكرية بشأن تحسين وتطوير أسلوبه الخطابى . ثم اقتاد دوجلاس إلى مكتب أشر رغم أنه كان لا يزال تحت تأثير صدمة ذلك الرجل الأسود، في حين قام أشر - الذي علم بزيارة دوجلاس من أحد المساعدين - ليقابلهما في الحال وكتب المذكرة التالية:

"إدارة الداخلية"

واشنطن د . س العاشر من أغسطس ١٨٦٣

إلى من يهمة الأمر / —————

حامل هذا التصريح، فردريك دوجلاس معروف لنا كرجل حر مخلص . لذا، فهو مكلف بالسفر دون إعاقة، ونحن واثقون أنه سيكون معروفًا في كل مكان كرجل حر وسيد مهذب .

مع وافر احتراماتي

ج . ب . أشر

وزير الداخلية"

أضاف بوميروى اسمه وتوقيعه لذلك التصريح شاعراً أنه قد أهمل في هذا اللقاء في وثيقة بمثل تلك الأهمية، وبينما كانا يغادران إدارة الداخلية التقيا بموتجومرى بلير مدير عام البريد فشرح له دوجلاس ما حصل عليه من تفويض وأراه التصريح فأضاف بلير اسمه للوثيقة



مع تذييل مختصر يقول: "اسمحو بمرور حامله، فردريك دوجلاس، الذي أعرفه كرجل حر!" وبذلك حصل دوجلاس خلال ساعة أو نحوها على إقرار وتأيد ثلاثة من أكثر رجال الأمة قوة.

أصبح دوجلاس الآن أكثر إصراراً - عن ذي قبل - على مقابلة الرئيس فأسرع إلى البيت الأبيض، ومعه بوميروي ينفخ ويتعرق محاولاً مجاراته. رغم أن الوقت كان لا يزال مبكراً، فإن الطريق إلى مكتب لنكون كان قد امتلأ فعلاً بالساعين للحصول على حماية ورعاية الرئيس، وكانوا جميعهم من الرجال البيض، ولم يبدُ عليهم السرور لوجود رجل أسود بينهم. أرسل دوجلاس بطاقة تعريفه وجلس على السلم، كان قد اجتاز بالكاد عائقاً حاسماً. لكن القادم أكثر اختلافاً تماماً في الأهمية، فقد يطول الانتظار كثيراً.

غادر لنكون البيت الأبيض أثناء تلك الليالي الحارة من أغسطس لقضاء المساء في "بيت الجنود"، وهو منتجع لقدامى المحاربين يقع في التلال الغابية شمال شارع باونداري، ورغم أنه يبعد أميالاً قليلة فقط، فإنه يوفر راحة قصيرة من روائح وعرق المدينة ومن تلك الصفوف التي لا تنتهي من طالبي لقاء الرئيس. فبعضهم كان ينتظر طوال الليل، ويعود الرئيس أغلب الأيام صباحاً وسط كوكبة من الفرسان "شاهري السيوف المرفوعة عالياً فوق أكافهم" لقد شاهد والت وايتمان - الذي يعمل كممرض خاص وبسته يطل على نفس

الطريق- هذه المسيرة الرئاسية "يوميًا تقريبًا"، ولم يبد لنكون  
لوايتمان كرئيس لأنه كان يرتدى معطفًا أسود اللون "صدئًا ومعفرًا  
بالتراب إلى حد ما، وقبعة جافة سوداء، وبدا عاديًا في  
مظهره" مثل "عامة الناس".

ذكر وايتمان ذلك كنوع من المدح، وعلى أية حال بعد كل ذلك  
دعا وايتمان نفسه بأنه "واحد من الرجال ذوي المشاعر الصلبة".  
وفى الواقع، كان وايتمان واقعيًا في عاطفته لتقدير شخص لنكون،  
يتلصص عليه ويدون آراءه في يومياته. وكان وصفه للرئيس يشير إلى  
ولعه به: "وجاءت سحابة فريدة صغيرة بيضاء، الوحيدة الموجودة في  
ذلك الجزء من السماء وحلقت كالطائر فوقه تمامًا." وادعى وايتمان  
وجود علاقة حميمة مع لنكون بدرجة معينة: "كانت بيننا علاقة  
حتى أننا كما تتبادل الانحناءات الترحيب، انحناءات ودودة جدًا."  
لكن الشاعر والرئيس لم يلتقيا أبدًا.

لم يعرف لنكون وايتمان- على سبيل الاحتمال- وإن كان قد قرأ  
له، وكانت الانحناءات الودودة- ربما- ميلًا لدى لنكون أو اتجاهًا-  
يعتاده- لإمالة رأسه للأمام إذ كان قبلها بيوم- أي في التاسع من  
أغسطس عام ١٨٦٣- يجلس لدى أليكساندر جاردنر لالتقاط  
صورة له وقد أحنى رأسه فوق يده، وهو وضع يجب تكراره كثيرًا،  
وربما كانت تلك العادات ناتجة عن الإرهاق حيث كان ينام ساعات

قليلة أثناء الليل، وقد أجهده الحرب تماما . وفقاً لما ذكره أحد رفاقه من قدامى أصدقائه، فإن "الحامى البشوش " لنكون " يبدو الآن شاحبا، وهيئة أكثر انحناء، وسحنه باهتة، وتبدو نظراته خارجة من عينيه المحوفتين الواسعتين ."

كانت الأسابيع الستة الأخيرة مزعجة على وجه الخصوص، إذ كان لنكون قلقاً لتوقف الجنرال مييد عن التحرك عقب هزيمة "لي" عند جيتسبرج يوم الرابع من يوليو، تاركا "لي" ينسحب متراجعا إلى فيرجينيا وتلك سقطة من أعظم أخطاء الحروب . كتب لنكون خطاباً إلى الجنرال مييد، لكنه لم يرسله أبداً إليه قال فيه: "لقد كان "لي" في قبضتك وكان بإمكانك أن تسد عليه المنافذ، فذلك . . سينهى الحرب، ولكن ما ألت إليه الأمور الآن سيجعل الحرب تمتد بلا نهاية . " بل، وعبر عن إحباطه لأكبر أبناءه روبرت بقوله: "لو كنت هناك . . لألحبت ظهورهم بالسياط بنفسي . " ثم قال لجون هاى: "لقد أمسك جنود جيشنا الحرب في قبضة يدهم، ولم يغلقوها جيدا . " أما الانتصار العسكري الآخر في يوم الرابع من يوليو باستيلاء جرات على فيكسبرج، فقد كان أكثر تأثيرا إذ كان واحداً من أهم انتصارات الحرب، حيث أتمن جرات حوض نهر المسيسيبي قاسما الجنوب إلى جزئين، واضطر ثلاثون ألفاً من جنود قوات الاتحاد إلى الاستسلام غير المشروط ، وأخبر لينكون جرات بأنه قد قدم

للبلاد خدمة لا تقدر وقال لهاى: "إن جرانت هو الرجل المقدر لي وأنا المقدر له لبقية أيام الحرب."

وفى مستهل هذين الانتصارين مباشرة، اقترح لتكون الاحتفال بيوم قومي "لشكر" دعا فيه الأمريكان للإقرار بدور الله في تحقيق الانتصارات الحالية وللصلاة من أجل هؤلاء الذين عانوا في سبيل نهاية سريعة للحرب، وأصبح اقتراحه بيوم الشكر تظاهرة دعائية نوعاً ما، وذلك لأنه في اليوم الذي اتخذ فيه القرار وهو الخامس عشر من يوليو أطلقت الطبقة العاملة في نيويورك غضبها العام ضد قانون الحكومة بالتجنيد الإجباري، وقتلت واعتدت على السود واشتكى العامة - المكونة غالباً من الديمقراطيين الأيرلنديين - من أن الأحداث قد جرّتهم جرّاً "للقتال من أجل الزنوج" الذين قد يأتون إلى الشمال ويحتلون أماكنهم في العمل، وبينما بدأ ضباط التجنيد في اختيار أسماء المستجدين، أشعل أولئك ثورة وهياجاً استمر أربعة أيام يقتلون ويمزقون كل إنسان أسود تصل أيديهم إليه، فقتلوا بعضاً ممن كانوا يجوار أعمدة النور بدم بارد، بل أنهم قاموا بشي أسود آخر حياً في ميدان ماديسون ثم أحرقوا ملجأً للأيتام الملونين وسووه بالأرض، وهي أحداث قتلت فيها أكثر من مائة نفس (معظمهم من السود) قبل أن تتمكن قوات الاتحاد من فرض النظام في المدينة.

وقد لخص دوجلاس المزاج العام وقتها بأنه "اضرب .. أطلق النار .. اشنق .. اطعن .. اقتل .. احرق ودمر كل زنجي . كانت تلك هي صرخة العامة"، فقام بتحريض الحكومة على تقديم الحماية للسود ومطاردة المجرمين وعقابهم، ولكن لنكون شعر بالعجز عن فعل أي شيء حيال أسوأ تمرد في تاريخ أمريكا، لأن: "تمرداً واحداً فقط هو كل ما يمكننا التعامل معه في وقت واحد . "لكن، أضحت الأمور أكثر هدوءاً الآن، وتم تأجيل اجتماعات الكونجرس . كان عدد قليل من الناس هم فقط الذين يقلقونه الآن . لذا، كان في حاله معنوية أفضل، فعندما ذهب إلى استوديو جاردنر لالتقاط صور له، أخبر جون هاى أن "قوى التمرد بدأت أخيراً في التشتت"، وأنهم سوف يتساقطون قطعاً متناثرة لوبقينا صامدين"، وبدأ الآن في التركيز في عناية أكثر على دور السود في الحرب والأمة لأن مصير العبيد السابقين - كما يعتقد - كان "أكبر قضية تواجه قيادة الدولة عملياً ."

بعد عامين ونصف على انتهاء الحرب، أدرك لنكون قيمة السود في دولة الاتحاد، ومنذ أسبوع مضى كتب جرانت يقول: "إن تسليح السود وإعلان تحريرهم معاً كانت الضربة القاصمة الموجهة للقوة الاتحادية في الجنوب"، وقد وافقه لنكون "والآن ونهر المسيسيبي مفتوح لآخره..." يضيف: "أظن أن مائه ألف (من القوات السوداء) على الأقل يمكن - بل ويجب - تنظيمها بسرعة على ضفافه ."

ومضيفاً: "يمثل الجنود السود مورداً إذا ما تم استخدامه بهمة، سوف ينتهى ذلك السباق عاجلاً بأضعاف ذلك العدد وتقوية صفوفنا." لقد كانت جملة مدهشة. السود يمكنهم كسب الحرب من أجلنا، وتأكيد حريتهم الشخصية كما كان يقول. رغم الثقة الغامضة التي وضعها لنكون في السود، فإنه ظل متشككاً في قدرتهم على العيش كمواطنين متساوين وأحرار في الولايات المتحدة .

لعدة سنوات، كان يشجع حركة الاستعمار كحل لمشكلات العبودية والتعصب العنصري، إذ إن إرسال السود إلى أراضٍ بعيدة قد يحرر الأمة من مشكلة العبودية والفرقة العنصرية، وقد خصص مبلغ ٦٠٠.٠٠٠ دولار لتوطين السود في مستعمرات، وكان يعلم أنه يستطيع الحصول على أموال أكثر إذا احتاج لذلك. لكن المشكلة أن معظم السود لم يرغبوا في مغادرة بلدانهم. فى عام ١٨٦٢ قام بتوقيع عقد بين الولايات المتحدة وبين شركة تسمى "شيريكي للتنمية" على أمل إرسال السود إلى جمهورية كولومبيا وعين صامويل بوميروى كوكيل رئيسي لتنفيذ الخطة، وذلك بسبب نجاح بوميروى في إرسال مستوطنين إلى ولاية كانساس، وقد سلم لنكون ٢٥٠.٠٠٠ دولار لبوميروى لتطبيق هذه الخطة وبحلول شهر أغسطس ١٨٦٢،

رتب بوميروى أموره لإرسال خمسمائة مواطن أسود إلى مضيق شيريكي (الآن هو جزء من بنما) .

لتطوير المشروع، قام لنكونن بدعوة مجموعة من أهالي واشنطن من السود إلى البيت الأبيض لتشجيعهم على مغادرة الولايات المتحدة ليصبحوا عمالاً بمناجم الفحم بمنطقة شريكى قائلاً: "نحن وأنتم من جنسين مختلفين، إن ما بيننا هو اختلاف واسع أكثر مما يوجد بين أي جنسين آخرين.. فجنسكم يعانى - في رأيي - من أعظم خطأ يقع على أي شعب آخر، لكن حتى لو توقفت عبوديتكم، فقد نحيتم بعيداً جداً عن أي موقع للمساواة بالجنس الأبيض، وأضاف لنكونن أن وجود السود ذاته في البلاد كان هو السبب في نشوب الحرب بالرغم من أن الناس على كلا الجانبين لا يهتمون بكم بصورة أو بأخرى محتماً كلامه قائلاً: "من الأفضل لكلينا أن نفصل." وقد نشر كلامه على مدى واسع - وفقاً لما اتواه - ولكن معظم السود سخروا منه، وأقصى صورة للنقد جاءت من فردريك دوجلاس الذي احتضن حملة معارضة ضده. ففي أمريكا الجنوبية والوسطى عاشت أجناس مختلفة معاً بسلام مستمتعين بحقوق متساوية دونما حرب أهلية، كما سخر من فكرة أن السود كانوا سبباً للحرب، فلص الجياد لا يعتذر عن سرقة بإلقاء اللوم على الجواد، لذا نادى لنكونن قائلاً "لا.. يا سيدي الرئيس، ليس الجواد البري هو الذي صنع لص الجياد، لكن تلك الشراهة الشريرة والوحشية لأولئك الذين طمعوا في امتلاك الجياد والنقود والزنجير بواسطة السرقة

واللصوصية والتمرد وأطلق على لنكونن أنه نموذج أصيل للتعسف الأمريكي، فهو يمتلك قليلاً من مبادئ العدالة والإنسانية. لذا، كان الشكل مغلوطة مثل المحتوى؛ فالسيد لنكونن قد أظهر خلطاً شديداً في تمكنه من اللغة الإنجليزية في كل ما كتب.

كان على لنكونن أن يهجر المشروع بعدما اعترضت عليه البلدان المجاورة مثل هندوراس ونيكاراجوا وكوستاريكا، وهددوا بإرسال قواتهم لمنع المستوطنين ولم يسترد لنكونن مبلغ الـ ٢٥٠.٠٠٠ دولار التي أعطاه لبوميروي لتنفيذ المشروع أبداً، وسرعان ما ارتبط بموقع آخر هو الكاواي لاند جنوب شبه جزيرة هايتي، إذ كان يائساً جداً من إيجاد مكان للسود لدرجة أنه تجاهل ما ترمز إليه عملية شحن "السود" إلى مكان فحص حيوانات النقل "جزيرة البقر"، وقد عرض بعض رجال المال بنيويورك تمويل عملية شحن خمسمائة مواطن أسود إلى جزيرة البقر هذه مع توفير بيوت ومدارس ورعاية صحية وأراض زراعية لهم مقابل خمسين دولاراً لكل مهاجر أي ما جملته ٢٥٠.٠٠٠ دولار ورغم أن معظم مستشاريه قد عارضوا تلك الخطة، فقد وافق عليها لنكونن، وفي أواسط إبريل ١٨٦٣ أبحر ٤٥٣ عبد سابق على السفينة أوشن رانجر تنفيذاً لذلك.

بدا كل شيء خطأ، فطوال الشهر الماضي علم لنكونن أن مرض الجدري قد انتشر فوق السفينة، وعندما وصل المهاجرون حوصروا



بجى الملايا التي تسببها الحشرات. فوق كل ذلك، غش الممولون لنكون والمهاجرين معا، إذ لم يجدوا بيوتا ولا مدارس ولا مراكز صحية فوق أرض الجزيرة، وكانت التربة فقيرة، ولم يحصلوا على تأكيد لبقائهم من حكومة هايتي. بعد سماع تلك الأنباء من جزيرة الكاو، هجر لنكون فكرة الاستعمار، ففي منتصف يوليو اخبر لنكون جون إيتون - وهو قس يقوم بتنظيم الرجال المحررين حديثا - كيف أن مهاجري الكاو آيلاند كانوا يعانون بشدة من وباء الطفيليات البحرية الذي لا فكاك منه ولا حماية. كان حزن لنكون حادا وصادقا واعتبره إيتون "دلالة على طيبة قلبه" وحقيقة، أثاره مشهد رئيس الولايات الذي حزن للاضطراب الذي أصاب مجموعة صغيرة من الزوج بسبب حشرة لا تزيد عن رأس الدبوس. وبدا ذنب لنكون من كارثة المهاجرين ملموسا حيث أمر بإعادة نقل المهاجرين إلى الوطن.

كان لنكون يحاول الحلم بمجتمع يمكن للسود والبيض الحياة فيه معا في حرية وسلام ومساواة. لقد وافق إيتون على أن الاستعمار فشل في حل مشكلة الزوج، وسأل القس أسئلة عديدة حول الناس المحررين الذين أتوا داخل حدود اتحاد الولايات مثل: ماذا كان هدفهم؟ كيف كانوا يفهمون الحرية؟ وماذا يمكنهم أن يفعلوا من أجل أنفسهم؟ وبعد أيام قليلة كتب لنا ثانييل بانكس، وهو قائد منطقة

لويزيانا المحتلة، كي يعبر عن آماله بأن الولاية "سوف تبنى نظاماً عملياً، يتمكن من خلاله الجنسَان من العيش معاً بالتدرّج بعيداً عن علاقتهم القديمة تجاه بعضهم البعض". يجب أن تشمل الخطة تعليم السود، بما في ذلك التدريب على العمل في ظل عقود بدلاً من السِياط. لكن بعيداً عن ذلك، ظل غير متأكد من شكل العلاقة الجديدة بين السود والبيض إذ اعتقد أن الزوج - شأنهم شأن الناس الآخرين - يتصرفون وفقاً لدوافع، فلماذا إذن سيفعلون شيئاً من أجلنا بينما لانفعل نحن شيئاً من أجلهم؟

ربما كانت تلك القضية تحتل مكاناً في ذهن لنكون عندما أخبره حارس بابه أن فريدريك دوجلاس قد أرسل بطاقة تعريف توّاً وأنه مع زميله بوميروى ينتظران عند الطابق الأول للقاء، فأمر لنكون بإدخالهم فوراً. سمع دوجلاس عن أناس انتظروا أسبوعاً كي يروا الرئيس، وبعض طالبي اللقاء أمامه في الصف بدوا منتظرين هذه المدة بالفعل، وبعضهم الآخر بدا متشوقاً وقادماً توه وتوقع أن ينتظر نصف يوم على الأقل، وما حدث أنه خلال دقيقتين من إرساله بطاقة التعريف عاد الساعي ليطلبه وبينما يشق دوجلاس طريقه عبر السلم يتبعه بوميروى، سمع أحدهم يعلق على الموقف بقوله: "نعم .. اللعنة! .. كنت أعلم أنهم سيسمحون للزنجي أولاً."

عندما دخل دوجلاس وبوميروى مكتب الرئيس لنكون، كان

الرئيس جالسا بشكل غير رسمي على مقعد يصغر كثيرا على جسمه البالغ ستة أقدام وأربع بوصات طولا، وكان يحرك قدميه ببساطة في عدة اتجاهات داخل الحجرة. هذا ما لاحظته دوجلاس. نهض لنكون لتحيته ماذا يده قائلا: "سيد دوجلاس! إني أعرفك. . . لقد قرأت عنك. اجلس! أنا مسرور لرؤيتك." وبالتالي وضع دوجلاس في حالة ارتياح في الحال. لكنه تجاهل بوميروى - فرضا - وهو ما جعله يظل صامتا خلال معظم اللقاء. انتقل لنكون في الحال إلى موقف الدفاع وهو يعلم أن دوجلاس كثيرا ما انتقده. لذا، سعى إلى توضيح موقفه، فرغم أن الرئيس لم يشيد مستعمرات للسود ولا دوجلاس انتقدها، فقد أشار إلى خطاب لدوجلاس كان قد ألقاه في بوسطن في بدايات عام ١٦٨٢- وانتشر سريعا قال فيه: "إن معظم ملامح الأسى للحرب لم تكن في الكوارث الحربية، ولكن في السياسة المترددة البطيئة وغير الثابتة للرئيس، خاصة سياسات الرئيس حول تسليح وتحرير السود." وقد أقر لنكون بأنه أحيانا كان بطيئا في اتخاذ القرار. لكنه أنكر عدم ثبات قراراته: "عندما أأخذ قرارا، لا أراجع عنه." وذلك ما منح دوجلاس ثقة إذ شعر بأن "أي شخص آخر يمكنه التخلي عن سياسة تحرير العبيد سيقتف الرئيس ضده مجسم." ولم يفكر لحظة في وقت قد يتراجع فيه لنكون عن موقفه. وقدم دوجلاس الشكر

للرئيس على إصداره أوامر بالرد الفوري على المتمردين الذين قتلوا أو استعبدوا الأسرى من الجنود السود، وسأله لماذا استغرق إصدار الأمر كل هذا الوقت، فأجابه لنكون: "لأن الوطن كان يحتاج لمناقشة الأمر، فلو أنه أصدره في عجلة فتلك هي اللحظة التي سيرتفع فيها صوت العامة بأحكامها المتسريعة، وكان الناس سيقولون: "آه... لقد قدرنا أن المسألة ستصل لهذا الحد، سيقتل البيض من أجل الزنوج." لذا انتظر لنكون حتى يثبت أن الجنود السود الذين قتلوا أو استعبدوا كانوا - من هنا - أضحيات ضرورية." إذ مهدوا الطريق لصدور قراره بالتعامل مع المتمردين.

عندما أثار دوجلاس قضية الأجور غير المتساوية برر لنكون ذلك بأن وجود الجنود السود أثار "تعصب العامة". لذا فالأجر غير المتساوي - وقتها - كان "توافقاً ضرورياً" لتسجيل السود في الجيش. الأكثر من ذلك أنه كان لدى السود من الدوافع والخوافز ما يحضهم على أن يكونوا جنوداً أكثر من البيض، و"كان عليهم أن يكونوا راغبين في الخدمة تحت أي ظروف". إلا إن لنكون أكد لدوجلاس أن الجنود السود - مستقبلاً - سيتقاضون نفس الأجر مثل البيض، ووعد بتوقيع أية ترقية لهم يرفعها إليه الجنرال ستاتون.

على الرغم من أن دوجلاس لم يكن راضياً تماماً عن آراء  
لنكولن، فقد ذهل لصدق وإخلاص الرئيس فقال: "لم أر أبداً نفساً  
شفافة مثله، إذ لم يعلوها أدنى ظل من الشك بعد أول لحظة من  
اللقاء". لم يتصرف لنكولن بتعال مفترض، لأنه كان ببساطة من  
البيض وذلك ما لاحظته دوجلاس "لم يذكرني - بأية صورة -  
بأصلي المتواضع أو بلوني المختلف". . لان افتقاد لنكولن للمشاعر  
العنصرية كان بادياً عليه بصورة ملحوظة وذلك لأنه لم يعتبر نفسه  
ثورياً أو من دعاة تحرير العبيد أبداً، وعلى العكس، فقد كان من بين  
أصدقاء دوجلاس البيض من هم من دعاة إلغاء الرق، كانت تظهر  
لحظات ضعف - خاصة لحظات الجدل في القضية- وتخاذل ينسبها  
دوجلاس إلى الاختلافات العرقية كما أدهشته طلاقة لنكولن بقوله:  
"لقد تحدث بحماسة وطلاقة لم تثر في نفسي أية ريبة منه."

بدا على الرئيس ارتياح عميق لدوجلاس، وذلك ما دعا  
دوجلاس للارتياح أيضاً، وفعلًا في نهاية اللقاء أخبر دوجلاس  
الرئيس بأن الجنرال ستاتون قد أناط به تفويضاً وظيفياً، وأنه "ينتوى  
الذهاب للجنوب والمعاونة في عمليات تجنيد الرجال المحررين". ثم  
أظهر - بفخر - تصريحه الرئاسي فقرأه. ثم أخذه وأداره جانباً  
ليكتب عليه "أوافق". أ. لينكولن في العاشر من أغسطس ١٨٦٣.  
في صبيحة ذلك اليوم، تلقى دوجلاس توقيعات من الرئيس، وعضوين

من مجلس الوزراء، ونائب من الكونجرس على تصريح بالسفر عبر خطوط ولايات الاتحاد ممثلاً لجيش الولايات المتحدة. استقل دوجلاس القطار التالي من واشنطن، إذ لم يكن يريد إطالة مكوثه ضيفاً ورغب بشدة في الاستعداد للسفر جنوباً، وحالما وصل إلى منزله تسلم خطاباً من ستاتون يأمره بالتوجه إلى فيكسبرج والاتصال بالجنرال توماس، فرد عليه دوجلاس يوم الرابع عشر من أغسطس طالباً بعض الإيضاحات بشأن مهمته ومعرفة رتبته وراتبه وما ستكون عليه واجباته.

وبعد يومين ودّع قراء الجريدة، اذ ظلّ طوال عشرة أعوام مكرساً نفسه لجريدته الأسبوعية ذات الصفحات الأربعة التي أصبحت فيما بعد شهرية عام ١٨٦٠، وبرغم مشكلات التمويل وجدول الندوات المكثف، أصبحت جريدته من أشهر دعاة إلغاء الرق في البلاد وكان ذلك الجزء العاطفي حيث كتب لقرائه: "لن أتوقف مطلقاً عن اعتبار تلك السنوات، سنوات الكدح في تحرير الجريدة من جانبي، والتعاطف والدعم من جانبكم، أكثر سنوات السعادة والفرح في حياتي." ذلك ما تضمنه موضوع بعنوان "الوداع" الذي ألحقه بالصفحة الأخيرة من عدد أغسطس لذلك العام. ثم شرح باعتزاز لماذا سينقطع عن صحيفته: "إنني ذاهب للجنوب لمساعدة ضابط التجنيد الجنرال توماس في تنظيم قوات السود الذين سوف ينتصرون

من أجل الملايين المستعبدين والخير الذي لا يقدر للحرية وللوطن .  
بدأ دوجلاس يقلق في الأيام القليلة التالية، لأن ستاتون لم يرد  
على طلبه بشأن المعلومات التي سعى إليها، وقد قال دوجلاس في  
أحد خطابه لأصدقائه أن ستاتون أبقاه بعيداً عن المعلومات  
الأساسية فظل في "الظلام بلا نقاط أولية . وكل ما فعله أن أمرني  
بالذهاب مثلما فعل الملك لويس (في مسرحية شكسبير "هنري  
السادس") إذ يعتقد أن أي مواطن عليه واجبات وليس له حقوق،  
ولسوف أطيعه على أي حال أملاً في أن يتم كل شيء على خير ."  
بعد عدة أيام، تسلم الخطاب المنتظر، وفي ظل الواجبات طلب منه  
ستاتون "مساعدة الجنرال توماس بأية صورة تجعل نفوذك بين الملونين  
(السود) جاهزاً للتأثير في مجال جهود الخدمة العسكرية"، وهذا أمر  
غامض بالتأكيد، ولم يأت ذكر في الخطاب عن مهمته أو رتبته  
العسكرية. أما بالنسبة للأجر، فقد أفاد الخطاب دوجلاس بأنه  
سوف يستمر في تلقي راتبه من جورج ستيرنز الذي كان مستمراً في  
إرساله له من تبرع خاص مخصص لعمليات التجنيد للسود في  
الشمال. وكان ذلك أمراً غريباً، فلماذا لا يأتي راتبه مباشرة من  
مكتب إدارة الحرب؟

لم تأت مهمة دوجلاس أبداً ولم تصدر أية كلمات بشأنها من قسم  
إدارة الحرب بالوزارة ولا حتى كلمة واحدة من البيت الأبيض، إذ إنه

مع وجود مثل هذا الكم من البيروقراطيين يأتي الرفض في صورة صمت مطبق، لذا قرر ألا يذهب للجنوب حتى على الرغم من عرض ستيرنز له بإرسال راتب قدره ١٠٠ دولار شهرياً مضافاً إليه النفقات الشخصية مما يصل تماماً لراتب ملازم أول. لقد هزه الأمل. لكن نظراً للخطر المتزايد، رفض أن يكون مخلباً للحكومة التي خدعته، ولسوف يذهب فقط كضابط تجنيد خاص. "أنا أعلم كثيراً جداً عن حياة المعسكرات وقيمة تلك الشرائط على الأكتاف داخل الجيش مما لا يجعلني أذهب للخدمة العسكرية دون إشارة واضحة لرتبتي". استنبح دوجلاس أن ستاتون قد تغير كلية وقرر أن "الوقت لم يحن بعد لاتخاذ خطوة ثورية". كان ستاتون رجلاً "ذا طبيعة هوائية، يعطي وعوداً متعجلة سرعان ما يتراجع عنها دون أسف أو اعتذار."

لم يلق دوجلاس لوماً على لتكوين مطلقاً رغم أن الرئيس علم بالمهمة وكان يجب عليه أن ينتظر خطاباً من ستاتون لإقراره، وفي محاضرته في شهر ديسمبر ١٨٦٣ أشار دوجلاس بفخر إلى لقائه مع الرئيس، وبدلاً من انتقاده في مسألة "التردد" بشأن مهمته أو ارتكابه لكذبة ما بشأن إهماله الاتفاق أعلن أنه كان هناك يوماً للقاء الرئيس واعتبر رسوخ اسم لتكوين شعبياً مسألة صحيحة: "لسوف يتقدم نحو النجاح وعند تمام إنقاذ البلاد باسم (أبراهام الأمين)".



فجأة، بدا الأمر كما لو أن دوجلاس تذكر ما حدث له فعلاً  
 في قلب واشنطن، لأنه مع أول كلمة تألية قال: "لن يتم إنقاذنا  
 على يد أبراهام لنكولن، وإنما بواسطة تلك القوى الكامنة خلف  
 سدة الحكم"، قاصداً بذلك السود ودعاة إلغاء الرق، وبالفعل لمس  
 دوجلاس روحاً طيبة في لنكولن كما لو كان الإعجاب متبادلاً.  
 "سيد دوجلاس، لا تأت لواشنطن دون الاتصال بي أبداً!" هكذا  
 طلب منه لنكولن عند لقائهما الأول في العاشر من أغسطس  
 عام ١٨٦٣، إذ كان يعتبره "واحداً من أكثر الناس جدارة، إن لم يكن  
 أجدرهم على الإطلاق في الولايات المتحدة." في حين دعا دوجلاس  
 لنكولن بلقب "ملك رجال أمريكا العصامين" والسؤال هو لماذا تواجد  
 الإعجاب والود والاحترام المتبادل رغم وجود الفروق الشاسعة  
 بينهما؟ فلقاؤهما كان الأول، حيث يقابل فيه رجل أفريقي  
 أمريكي رئيس الولايات المتحدة عن قرب. تساوى فيه الإثنين بمعنى  
 أن كلاهما كان سفيراً ثقافياً لجنسه، واستطاعا مساعدة بعضهما  
 للقضاء على العبودية وخلق وحدة جديدة، إذ أرادا أن يحب كل  
 منهما الآخر ويحترمه. كانا متشابهين في العديد من الجوانب وتشاركا  
 بصورة غريبة في خلفية ثقافية متشابهة . .

obeikandi.com



## الفصل الأول عبدٌ مميّزٌ وأبيضٌ بائس

{ { يفع الصبي للرجولة في البرية، وصنع لنفسه بيتاً من بلاد خيالية  
فشربت روحه أشعة شمسها. } }  
لورد بايرون<sup>١</sup> من قصيدته "الحلم" ١٨١٦

---

<sup>١</sup> جورج جوردون بايرون "لورد بايرون ولد عام ١٧٨٨ وتوفي عام ١٨٢٤، شاعر إنجليزي، أول أعماله "ساعات الفراغ" وآخرها "رؤى الآخرة" عام ١٨٢٣ - المترجم

في عيد رأس السنة الجديدة عام ١٨٣٤، مشى صبي متمرد عمره ١٥ سنة سبعة أميال إلى مزرعة قمح فقيرة في مقاطعة تالبوت على الشاطئ الشرقي لولاية ماري لاند، وأثناء مروره بطريق قذر ممهد على شبه جزيرة مثل مخلب ثلاثي الأظافر، شعر بقلق وإحباط. تردد صدى ربح يناير القارصة مع شتاء نفسه الشاحبة، وشبه نفسه بسمكة وقعت في الشباك "وسُمح لها باللعب لوقت ما" لكنها الآن "يتم سحبها نحو الشاطئ بسرعة، والشبكة مؤمنة من جميع أركانها". "كان فريدريك على وشك بداية حياته كعامل زراعي، وهو أقسى صور العبودية وأكثرها وحشية في الولايات المتحدة، كان قوياً وسليماً و طوله حوالي ستة أقدام، لكنه لا يعرف شيئاً عن الزراعة إذ كان يعتبر نفسه "ابن المدينة" الذي مازال يرتدى ملابس قطنية من بالتمور، وإن كانت قد تهللت وتمزقت من طول الاستعمال بدلاً من القميص الكتان الجمعد والبنطلون- المعروف بهم

العامل الزراعي- وبينما كان يقترب من مزرعة القمح، شعر بنفسه صبياريفياً أخضر يدخل المشاهد المفزعة للمدينة للمرة الأولى كان مفتوح عمله الزراعي تعميذاً بالدم، لأنه في اليوم الثالث لعمله، أمره صاحب العمل الجديد مستر إدوارد كوفى بربط إحدى العربات بثورين وجلب حمل من الخشب من الغابة. بدا العمل مهمة بسيطة بصورة كافية، لكنه لم يكن قد اقترب من أي ثور من قبل

لأنها - أي الثيران - غير مروضة تقريباً وأعطوا له تعليمات بالسيطرة عليها بواسطة ألفاظ مثل "وا"، "باك"، "جى"، "و"هيزر"، وكان الثور "باك" هو الذي يتم ربطه أمام العربية والثور "داربى" هو الذي يتم ربطه بجانبه، وبدأت كل تلك الألفاظ يونانية على سمعه وما أن بدأ قيادة العربية، وانطلق باك وداربى بأقصى سرعة نحو الغابة، متعشرين بالشجيرات، اصطدما ببعض الفروع والأوراق فتفككت أجزاء العربية، وأخيراً أوقفتها شجرة ضخمة، واستقرت إعادة تجميع العربية وتخليص الثورين من شراكهما عدة ساعات، فقام بتحميل العربية بشحنة ثقيلة لمنعها من الاندفاع الطائش، وعاد ليقصد طريق المزرعة. لكن لم تكن لديه أدنى فكرة عن مدى قوة الثورين؛ فعندما اقتربا من البوابة بدأ الاندفاع من جديد وهجم الثوران محطمين البوابة والعربة معاً، بل وسحقها تقريباً. حاول فريدريك شرح ما حدث. لكن السيد كوفى لم يلق بالاً لشرحه، وإنما أمره بالعودة إلى الغابة معه حيث لاحظ فريدريك - أثناء قيامه بقطع الحطب - وجود ثلاثة أفرع ضخمة لشجرة صمغ تمثل عصياً مصقولة وقوية نزع عنها لحاؤها بمهارة ومعقودة عند أطرافها. هنا أمر السيد الصبي بخلع ملابسه، وعندما رفض فريدريك الأمر انفجر السيد في هياج مندفعاً نحوه كذئب متوحش ومزق ملابسه وألحبه ضرباً على فترات - عصاً لكل مرة - حتى أبلى عقد العصا كلها على ظهر الصبي، ويتذكر

فريدريك أن "تحت ضرباته العنيفة تدفق الدم غزيراً تاركاً ندوباً بارزة على ظهري بججم إصبعي الصغير."

كانت تلك هي أسوأ ضربات تلقاها في حياته، فبدأ يتعاطف مع الثورين رغم أنهما السبب في جلده، لأن هذه الحيوانات كانت عبيداً للإنسان وفقاً لأعراف تعود قديماً حتى أرسطو. هنا يخلص فريدريك إلى قول: "إنهم من ملكية الإنسان، وهكذا أنا أيضاً، وهى مخلوقة للانكسار وهكذا أنا، أكرس كيفما أكرس. هذه هي الحياة!" هو أيضاً حيوان نذل، ولعبة لآلهة العبيد، ونادراً ما عرف أن التعميد بالدم سيضعه على طريق الحرية، فتراه يمزق قميصه ويعرض ظهره المتشقق عارياً أمام المشاهدين البيض الذين صدمهم المشهد، مبيناً "البرهان الذي لا يدحض" مؤكداً على مروره بـ"خبرة" "الجحيم الحي" للعبودية. ذلك اليوم كانت المسألة أن عبداً آخر سيجلد. وحتى تلك اللحظة كان فريدريك عبداً مميزاً، لأن سنواته الست الأولى تماثلت مع سنوات ولد أبيض بائس، إذ عاش في كوخ خشبي مع جدته عند حافة خليج صغير يدعى توكاهو بمقاطعة تالبوت حيث نشأ برياً، ونادراً ما رآها ناساً من البيض، وكان "خالياً من أية ضغوط." أما عن الشيء الوحيد الذي كان يميزه عن أي طفل أبيض فقير، فهو أنه لم يكن يعرف تاريخ ميلاده.

(وفقاً لسجلات مالكة، كان ميلاده في فبراير ١٨١٨)

كان مالكة الأول آرون أتوني نسخة جنوبية لرجل عصامي، فهو ابن يتيم لمزارع أمي. أصبح أتوني رباناً لسفينة، ثم رئيساً لإحدى شركات أسرة إدوارد لويد وهي عائلة كبيرة من ماري لاند، وكان إدوارد لويد الخامس واحداً من أغنى أغنياء الولايات المتحدة، فهو يمتلك ١٣ مزرعة وخمسمائة عبد ينتشرون على مساحة عشرة آلاف هكتار (١٠٠ كم٢)، وقد ارتقى أتوني لطبقة السادة في الوقت الذي ولد فيه فردريك، فامتلك مائتي هكتار (٢ كم٢) وحوالي ثلاثين عبداً، وفي تلك الضيعة يمكن للمزارعين ترك أطفال عبيدهم ينشأون في البرية تحت إشراف امرأة عجوز منهم حتى يصبحوا كباراً بما يكفي لقيامهم بالعمل. كانت أول وظيفة لفردريك هي خادم منزلي حيث يتركز عمله حول البيت الكبير في حدائقه واسطبلاته. كان ذلك العمل من الأعمال المحببة لدى نفوس طبقة المزارعين. بعد سنوات قليلة، انتقل لموقع أفضل إذ أرسلوه إلى بالتيمور ليكون رفيقاً لولد أبيض وهو قريب لأتوني. هناك، كان يأكل أكلاً جيداً ويلبس ملابس جيداً، حتى أنه تعلم القراءة، وإلى أن وصلت به الحياة إلى مزرعة القمح كان نادراً ما يجلد، ويمكن أن يفخر بأنه لم ينتقل سوى بين ثلاثة ملاك؛ كلهم من نفس الأسرة، ولم ير مطلقاً مزاداً للعبيد. كان ذلك نادراً بالفعل بالنسبة لعبيد منطقة تشيسابيك، حيث أنه من

الشائع أن يباعوا مثل بالات القطن في أسواق الألباما والميسيسيبي  
ولوزيانا حيث لا تتوقف الطلبات على العبيد

حتى اسمه تمتع برنة مميزة: فردريك أوجسطس واشنطن بيلي .  
كان اللقب غير عادى بين العبيد، ويعود هذا اللقب إلى القرن الثامن  
عشر، فنجد أن اسميه الأوسطين عكسا تقاليد القادة الجمهوريين  
العظام. كانت أمه- هاريت بيللي- سيدة مثقفة معتزة بنفسها،  
وكانت تحمل آمالا كبيرة لمستقبل ابنها - على الرغم من أنه كان  
يعرفها بالكاد. كانت تعمل مزارعة في مزرعة تبعد ١٢ ميلا، وماتت  
وهو في السابعة من العمر، وقد سرت بعض الشائعات بأن

هاريت كانت من أصل هندي، وقد أشار فردريك لذلك في  
وصفه الغريب لها "إنها تبدو هادئة، وتحفظ كرامتها بصورة ملحوظة،  
تماما كهنديّة". في وقت ساد الاعتقاد خلاله أن الهنود ذوو قرابة  
عرقية وثيقة بالسكان الأصليين لأمريكا. عندما بلغ النضج، كانوا  
يسألونه "إذا ما كانت له جذور هندية أو أفريقية أو قوقازية؟" في  
إحدى خطبه أمام السكان الأصليين لأمريكا صرح بقوله: "لقد  
اشتهرت بكوني زنجيّا، لكنني أتمنى أن تعرفوني هنا والآن كهندي!"  
بعيدا عن تلك الهيئة الخطابية، كان فردريك دائما ما يُقدّم أمام  
الجمهور كرجل أسود، وكانت التقاليد الاجتماعية في ذلك الوقت تمنع  
الناس من التصريح بأنهم سود تارة، ثم إعلان أنهم هنود حمر تارة





أخرى؛ أو تمتعهم من توصيف أنفسهم سوداً وهنوداً معاً، فالعرق يحدد بالظروف الاجتماعية ويعتبر ثابتاً لا يتغير. علاوة على ذلك، نجد أن كلا من الهنود والسود يحتفظ بمسافة بينه وبين الآخر، إذ إن معظم الهنود أعلنوا أنهم يفضلون الموت على الاستسلام لقيود العبودية، ومعظم السود اعتقدوا أن الهنود ينقضون لأنهم غير قادرين على التعايش مع الحضارة. دون معرفة واضحة بأي من أحفاد الهنود، عبّر فردريك عن فخره بأمه وبجنسها، وغالباً ما صرّح بأن ما ورثه من خصال كان منها . لم يعرف أبداً من كان والده، لكن بعض الحمسات ترددت بين العبيد، أن أباه كان آرون أتوني نفسه، ولم يقم أتوني بجلده أبداً، وإنما كان يعامله بشكل أبوي كما يذكر فردريك: "كان يقودني بيده بلطف، ويربت على رأسي، ويخاطبني بصوت ودود ناعم، ويناديني باسم (الهندي الصغير)". كما عرف فردريك أن أتوني حذر النساء من العبيد وكان يضربهن عندما يقمن بركل فردريك غضباً. وتلك المعاملة الأبوية فسرت الحالة المتميزة التي تمتع بها فردريك، وبعدما مات أتوني أصبح فردريك من أملاك ابنته لوكرشيا التي ماتت ١٨٢٧. من لحظتها، انتقل للملكية توماس أولد - زوج لوكرشيا - وكان واضحاً أن أتوني ولوكرشيا قد عاملاه بعطف ورعاية.

لم يصرح فردريك دوجلاس الشهير بأنه كان عبداً مميزاً أبداً لأن تلك الصفة "عبدٌ مميزٌ" تحمل تناقضاً معنوياً كمصطلح، إذ يعني ضمناً أن "سيداً ما" يمكن أن يكون إنساناً، في حين سعى دوجلاس لإقناع قرائه أن العبودية شر أينما كانت وحتى "السادة الطيبون" هم متوحشون يعتمدون على التعذيب للحفاظ على النظام القائم، وكان أقرب قول للإقرار بما امتاز به كعبد حين صرح: "إن مشاكله منذ البداية كانت أقل من الناحية البدنية المادية عن المعنوية الذهنية" إذ بالنسبة لشاب قوى سليم يكون رعب العبودية أشد على العقل منه على البدن.

فجأة - بالرغم من كل ما سبق - أصبحت كل مشكلات فردريك جسمانية فعلاً فوضعه المميز وصل لنهاية مفاجئة فقد تلقى منذ تسعة أشهر مضت أمراً بالعودة إلى سانت ميشيل على جزيرة كول على الشاطئ الشرقي ليعيش مع توماس أولد . قبل ذلك، كان قد أمضى سبع سنوات في بالتيمور يعمل لصالح أخي توماس هيو أولد وزوجته صوفيا . لكن عراكاً نشب بين الأخوين، وطلب توماس استعادة عبده . كره فردريك العودة للشاطئ الشرقي لأن سانت ميشيل بدت مملوءة بالجهلة والرعاع البيض الذين افترقوا للطموح، يتجولون حاملين زجاجة من الخمر إلى كل مكان يقصدونه، ويعيشون في بيوت قبيحة باهتة، وباله من تناقض مع بالتيمور حيث تفاعل مع

أناس سعوا لتحسين أحوالهم بالعمل الجاد والملابس الخشنة والقراءة !  
كره الحياة مع توماس أولد وهو رجل رقيق الشفتين أبيض الشعر في  
الأربعين من عمره. كانت من خصاله "الأنانية الشديدة" والنفاق  
الديني، ففي كل صباح يصلى أولد داعياً الرب أن يبارك بيته بالخير  
والخبز، وحينئذ يترك فردريك ليعانى الجوع بينما يتغنى الطعام في  
مخزن اللحوم.

ظن أولد أن الحياة في المدينة قد أفسدت فردريك، فالعبد  
السعيد الذى أرسله لأخيه عاد متكبراً وغاضباً حيث رفض  
فردريك مخاطبته "بالسيد"، ودائماً ما كان ينسى الأوامر، وأخذته  
الجرأة لينظر فى عينه مباشرة تحدياً، ولم يكن لدى أولد أدنى فكرة  
عن كيفية تطوع فردريك لأنه قضى فترة طويلة من حياته يعمل بين  
البيض ولم يكن قد استوعب لوائح تنظيم العبيد (البروتوكول)، ولأنه  
تردد فى جلد فردريك قرر تأجيله لمدة سنة إلى سيد يجيد فن  
التعامل مع العبيد .

اشتهر مالك فردريك الجديد - السيد إدوارد كوفي بأنه "كسارة  
العبيد"، وكانت حيلته السادية التي نفذها، عندما أمر فردريك  
بإحضار الخشب من الغابة باستخدام ثورين غير مروضين، نموذجاً  
لأساليبه السادية. بعكس أقرانه، كان كوفي رجلاً عملياً هدفه أن  
يحقق الثراء عبر ممارساته المشهورة. فى أواخر العشرينيات من عمره



حين تزوج، كان فقيراً لدرجة كان يأمل معها أن تكون لديه مزرعته الخاصة. لذلك، عمل بجهد قاس واستغل تأجير العبيد جيداً فى زراعة قمح مزارع الجيران، وأمتلك عبداً واحداً وكانت أثنى، واستئسلها مجبئسها مع عبء مستأجر آخر كل ليلة، فولدت توأماً، وهكذا ضاعف استثماره ثلاث مرات. كان لكوفى دهاء حية وبراعة ثعلب وذلك وفقاً لوصف فردريك. كان كوفى معروفاً بين السود باسم "الحية" وهو أشبه بها من ذلك الجانب. كان أقصر من فردريك ببضع بوصات، رفيع الجسم لا يكل، بعينين صغيرتين يختلط فيهما الرمادى بالأخضر تستقران فى تجويف جبهته. يقول فردريك إنه بدلاً من أن يصدر هسيساً كالثعبان كان يتحدث من جانب فمه محدثاً زجرة منخفضة ككلب ينبج "عندما يحاول أحد الاستيلاء على عظمتة". كان كوفى - باختصار - أستاذاً فى تعذيب وإرهاب العبيد، واعتبره أولد مالكا مثالياً "لحفظ ملكيته"، وكان يتقاضى ١٠٠ دولار سنوياً من الإيجار وهو ما يعادل ٧٥٠٠ دولار اليوم، وما كان كوفى ليتورع عن كسر إرادة فردريك من أجله.

تحققت أمنية أولد - أولاً - إذ كان فردريك يُجلد كل أسبوع لمدة ستة أشهر بصورة طقسية سواءً بسوط مجدول من جلد البقر معقود عند أطرافه مُلحق بيد طويلة لتسريع عملية الجلد، أو بواسطة هراوة خشبية غير مستوية بطول مضرب كرة القاعدة -

البيسبول- لكنها أخف وزناً، وغالباً ما كانت الضربات أكثر إيلاماً  
من ضربات المواجهة الأولى فى واقعة الثورين، إذ لم تنل الجروح  
القديمه وقتاً كافياً للشفاء قبل أن يتحول لحم فردريك كله إلى جروح  
دامية من جديد . كان يعمل ستة أيام فى الأسبوع من الفجر حتى  
الغروب وأكثر، تبعاً لموسم العمل، وجعله كوفي يشعر أنه مراقب  
باستمرار من خلف الشجيرات أو من وراء الأشجار الكبيرة ليتأكد  
أنه لا يتباطأ فى العمل . هنا يقول فردريك: "أشهر قليلة تحت هذا  
النظام، وتم ترويضى، حيث نجح كوفي فى كسر إرادتي . لقد كسر  
فى جسدى ونفسى وروحى . " أحياناً فكر فى قتل كوفي وقتل  
نفسه . لكن منعه مجموعة من الآمال والمخاوف "إذ أمل فى شىء  
أفضل فى الحياة وخاف من الموت . " كان يوم الأحد يوم راحته، كان  
يقضيه فى إغفاءة شبه حيوانية بين النوم واليقظة فى ظل شجرة  
ضخمة "وغالباً ما كان يبدو مترنحاً ثملاً، لأن السادة كان من عادتهم  
منح عمالهم بعضاً من الويسكى والخمر طيلة السبت وخلال الأسبوع  
فيما عدا الكريسماس ويوم رأس السنة، وكان فردريك "يجب  
الشراب" لأن هذا كان واحداً من مجالات متعته، فاستهلك أكثر من  
نصيبه خمرًا . بعد أن يعمل من أجل كوفي طوال الأسبوع، كانت ليلة  
السبت هى الشىء الوحيد الذى كان يتطلع إليه متشوقاً، فالخمر  
يُشعره بأنه "كالرئيس" واثقاً من نفسه و"مستقلاً" . ذات ليلة، شرب

كثيراً وكان يمر بجوار حظيرة للخنازير، وغفا عندها قليلاً ليصحو مرتعشاً من البرد "فزحف إلى داخل الحظيرة" وعاد للنوم، وعندما عادت الخنزيرة ورضيعها حاولا إزاحته خارجها فاستيقظ منزعجاً وهو يصرخ: "النظام!.. النظام!" كما لو كان مشرفاً أو رئيساً لاجتماع غير منظم، وبعد سنوات عندما أصبح من معارضى الخمور أدرك سبب منح السادة الخمور لعبيدهم؛ لأنها تبقى أولئك العمال "فى حالة من البلاهة" خلال أيام إجازتهم كيما لا يفكروا فى حرمتهم، أو يقارنوا بينها وبين السكر والترنج، وعلى أية حال فإن الخمر تكبح الباعث على الهرب.

وبعيداً عن الخمر، كان عزائه الوحيد الآخر أن يذهب لصفاف تشيسابيك قرب منزل كوفي في أيام الآحاد صيفاً ويشاهد السفن تبحر عبر الخليج نحو كل الآتين من الكرة الأرضية. لقد هزه التناقض بين جسده المقرح وحالته فى العبودية وبين تلك السفن الجميلة المرسلة، المتحركة بحرية مثل "ملائكة مجنحة سريعة"، وكان غالباً ما يتحدث للسفن باثاً شكوى روحه لها مغمغماً: "أنتم تتحركون بمرح أمام الرياح، وأنا أسعى بجزن أمام سوطٍ دام." بدوا جميعاً كالأثير وهو يشاهدهم منزلقين بجواره، تلهمه الصلاة ليقول: "يا إلهى، أقتدنى! يا إلهى، ساعدنى! دعنى أتححر!" كانت صلاته للسفن أشبه برثاء عميق ومصدرا للعزاء والأمل. من حديثه إليهم، أقسم

أن يصبح مثلهم ويبحر بعيداً، فصرخ بقوله: "سوف أهرب،  
وليساعدني الله! سوف أفعل. لا يمكن أبداً أن أحيأ وأموت  
عبداً." وطهر هذا التصريح ذهنه، ووضح له مستقبله، إلا أن تلك  
الصلاة- شأنها شأن بقية الصلوات- بقيت مجرد صلاة غير مرئية  
مثل قطرة دمع وسط مطر غزير، وأحياناً ما تساءل هل سمع صلاته  
أحد؟ وإذا حدث ذلك، فهل أجيب؟

ذات يوم من شهر أغسطس عام ١٨٣٤، عندما كان فردريك  
وثلاثة آخرون يدرسون القمح، كان ذلك على شكل خط تجميع  
يحتاج إلى أن يقوم كل واحد بعمله في تآزر وتوحيد جهد؛ قام واحد  
منهم ببذر القمح فوق الأرض بشكل مستو في فناء الدراس ثم قاد  
آخر جواداً فوق حبات القمح ليفصل بين الحبوب وسيقانها، وقام  
الثالث بتذرية الحبوب ثم نخلها من خلال سلة كبيرة مخصصة لفصل  
الحبوب عن قشورها، وكانت مهمة فردريك جمع الحبوب المنفصلة من  
فناء الدراس وجلبها إلى مروحة التذرية، وكان كوفي قد وعد  
الرجال إذا ما أنهوا عملهم قبل الغروب يمكنهم عندئذ الذهاب  
للصيد وذلك ما حفزهم للإسراع. عند منتصف ما بعد الظهر،  
حيث لم يكن يبق على نهاية العمل سوى ساعات قليلة، شعر  
فردريك بالإعياء فجأة حيث كان الطقس حاراً جداً. كان واحداً  
من أشد أيام السنة حرارة، وأصابه الدوار وارتعد بدنه بشدة،

ودقت رأسه بقوة حتى إنه لم يعد قادراً على الرؤية إلا بصعوبة.  
حاول الاستمرار فى العمل. لكنه انهار تحت ضربة الشمس.  
تساند ليقف، فترنح قليلاً ثم سقط فى النهاية وزحف التماساً لظل  
قريب من السور، وأدى مرضه إلى توقف العمل كله.

أسرع كوفي الذى كان يتابع المشهد من منزله المريح وسأل عما  
يحدث، وبينما حاول فردريك شرح المسألة، ركله كوفي بوحشية  
وأمره بالعودة للعمل. حاول فردريك النهوض لكنه لم يستطع، فركله  
كوفي ثانية والتقط قطعة ثقيلة من شجر الجوز وضربه بها على  
رأسه وهويزوم: "إذا كنت تعاني من الصداع، لسوف أشفيك  
منه." بينما كان الدم يتدفق على وجهه وملابسه، تركه كوفي لمصيره  
وحل محله فى درّاس القمح. سرعان ما شعر فردريك بالتحسن،  
فالضربات أزلت أثر الألم من رأسه بصورة غريبة، وقرر أن يعود  
ماشياً الأميال السبعة عائداً للمنزل توماس أولد ليخبره بوحشية كوفي  
وساديته، طالباً سيّداً جديداً، وقد ملأه الأمل أن أولد حين يراه  
دامياً ومضروباً هكذا ستأخذه الخشية على فقد ما يملك ويوافق  
على عتقه من سيطرة كوفي.

كان الظلام قد حل عندما وصل الفتى لمنزل أولد. لقد حاول  
كوفي مطاردته، لكن فردريك التزم السير فى الغابة ليتجنب كشف  
مكانه. بدا كما لو كان هارباً فى التّو من وكر للنمور؛ شعره وقميصه



اختلطاً بالدم الجاف، وكانت دماء جديدة تتقاطر على ساقيه من الأشواك والنباتات البرية. صدم أولد لمراى الصبى، ولمح فردريك لمسة إنسانية فى عيني مالكة، فعاوده الأمل من أجل نفسه؛ وبينما كان أولد يخطو عبر الأرضية ظهرت عليه بصورة واضحة معاناة أزمة أخلاقية عميقة، ثم وقف فجأة فقد توصل لقرار حاسم.

قال أولد:

إنك تستحق الجلد، لأن مرضك كان ادعاءً، والدوار الذى أصابك كان كسلًا.

أجابه فردريك:

- إن تأكيد عودتي للحياة مع السيد كوفي ثانية هو تأكيد بأننى سوف أقتل على يديه ... إن كوفي لن يغفر لى أبداً مجيئى اليك لأشكو منه.. لقد حطم روحى تقريبا. لوعدت إليه سوف يدمرنى مستقبلاً، فحياتى لم تعد آمنة بين يديه.

قال أولد:

- هراء! ليس هناك خطر باحتمال قيام السيد كوفي بقتلك. إنه رجل طيب، عملي ومتدين، وماكنت لأفكر فى إبعادك عن بيت كوفي، لأنك تخص السيد كوفي لمدة عام وعليك العودة إليه مهما حدث. بالإضافة إلى أنك لوتركت كوفي الآن، ولم يمر من العام سوى نصفه، سوف تفقد أجرك عن العام كله.



كان أولد يميل إلى المخاطرة بما يملك - أي فردريك كعبد - مقابل الإيجار السنوي الذى يتقاضاه عن ذلك العبد . كما أنه لا يريد إلغاء العقد مع رجل طيب عملي ومتدين وجار له في نفس الوقت . على أية حال، قرر أن يترك فردريك للبقاء هذه الليلة وأمره أن يشرب جرعة كبيرة من "شربة الملح الانجليزي"<sup>٢</sup> وهو تقريباً الدواء الوحيد الذى يتاح للعبيد "ثم عُذ لكوفى فى الصباح قبل أي شيء !"

رغم الإرهاق الذى طغى عليه، لم يستطع فردريك النوم ليلته تلك . كان متأكداً، مثلما يتأكد أن الليل يتبع النهار، أن كوفى سيقوم بضربه بوحشية تبدو معها كل مرات الجلد السابقة تافهة، وشعر كأنه سجينٌ مدان يواجه لحظة إعدامه . ملأه ذلك بالإشفاق على نفسه، وأحس بكرهية للعالم بسبب كونه بلا مستقبل واستخلص العبرة: "إن محاصرة المرء كلية في ماضيه وحاضره مسألة تثير اشمزاز العقل الإنسانى ... "و"هى كالسجن للجسد، بالنسبة للروح التى لا تتوقف حياتها وسعادتها عن التطور، مأساة ودمار . إنها جحيم من الرعب . "حتى عند احتمال مواجهة ضربات تهدد حياته، بدا أكثر اهتماماً بعذاباته الذهنية عن اهتمامه بسلامته الجسدية، وما كان ليحب شيئاً أكثر من حبه لزجاجة ويسكى تلك الليلة حتى يدفع

<sup>٢</sup> "شربة ملح" Epsom salt: مركب دوائي يستخدم لإفراغ الأمعاء تماماً من أي طعام مع البراز كنوع من النضهير الداخلى- المترجم.

روحه للصمت و أحاسيسه للتبدل . لكن لم يبدُ بصيص من الأمل فى  
جرعة منسية من الشراب لأن تلك الليلة كانت الجمعة لا السبت ولا  
يوجد أي أثر للشراب فى المكان .

فى الصباح التالي، كان كوفي ينتظره، يحمل حبلاً فى يد وبالأخرى  
سوطاً من جلد البقر . عندما رآه فردريك، انطلق كالسهم نحو الغابة  
واختفى طوال اليوم وسط أحد حقول القمح . حاول الصلاة فلم  
يستطع، وفكر فى كل من كوفي وأولد، فوجدهما متدينين، يصليان  
لنفس الإله الذى يصلى له أيضاً . صعب عليه أن يتجاهل أن الإله  
كان إلى جانبيهما وأدت به "عقيدتهم المظهيرية" إلى الشك فى "جميع  
الاديان" .

مازال جسده ملطخاً بالدماء ولم يذق طعم النوم طوال ثمان  
وأربعين ساعة . منذ تناول شربة الملح لم يأكل شيئاً، وكان يعلم بما  
فيه الكفاية أن أكل القمح غير الناضج سيصيبه بالإسهال . إذا بقي  
داخل الغابة قد يموت جوعاً، وإذا ما عاد إلى المزرعة فسيجد  
جسمه قد تمزق إرباً، فمكث هناك آملاً لو يستطيع تبادل بشرته  
"مقابل حيوان أو ثور . "عندما حل الليل صنع لنفسه فراشاً من  
أوراق الشجر محاولاً أن ينام .

هنا بدأ حظه فى التغير . كان ساندى جنكيز- وهو عبدٌ يعمل  
فى مزرعة مجاورة- فى طريقه لقضاء ليلة السبت مع زوجته التى

كانت امرأة سوداء حرة، وعندما لمح فردريك راقداً وسط أوراق الشجر عرفه فمال نحوه عارضاً إيواؤه. كان ذلك موقفاً نبيلًا وخطراً في الوقت نفسه إذ لو قبضَ عليه سوف يتلقى تسعاً وثلاثين ضربة سوط وتُسجن امرأته.

بينما كان فردريك يغسل دماغه من جسمه، قامت زوجة ساندي بطهو وجبة من فطيرة الجمر المصنوعة من دقيق القمح والماء والملح، ونثرت عليها طبقة رقيقة من رماد الجمر (تزال عند أكلها)، والتهمها فردريك. كان دائماً ما يتذكرها كالأذ وجبة تناولها في حياته، وعندما امتلأت معدته عاد إليه الأمل وسأل ساندي عن فرصة للهرب إلى الشمال سعياً للحرية. لما كان ساندي يعرف المنطقة جيداً، أخبره استحالة ذلك، فلا مجال للهرب من مطاردة العبيد على مدى تلك الأرض الضيقة كالمخلب من شبه الجزيرة تلك. لكن ساندي لم يعدم حلاً لإيمان فردريك، فقام باعطاء فردريك - باعتبارهم المؤمنين بالسحر الأفريقي - جزءاً من جذور عشب شائع قائلاً:

ارتدِ هذا على جانبك الأيمن، وسيكون من المستحيل أن يستطيع كوفى ضربك ثانية.

راها فردريك نصيحة غريبة، لكن ساندي بدا صادقاً في معتقده، ويمتلىء بمشاعر الخير لدرجة أن فردريك وضع الجذور في

جيبه ليسعده، ومن يدري؟ ربما قاداته العناية الإلهية لمساعدته وربما كانت بركة الله فى تلك الجذور". هكذا كان تفكيره إذ إن الله يُدبر الأمر بطرقٍ لاندركها ولها أشكال شتى.

ويبدو أن الجذور آتت أكلها، ففى صباح الأحد سار فردريك بجرأة عائداً إلى المزرعة وقابل كوفى وزوجته اللذين كانا فى طريقهما إلى الكنيسة، وسأله كوفى - وابتسامة تعلو وجهه كالملك - باهتمام حقيقى "كيف حالك؟" وطلب منه بأدب شديد أن يقود الخنازير إلى حظيرتهم. أدهش سلوك كوفى المهذب فردريك. لقد جعل سلوكه غير المعتاد فردريك يظن أن فى جذور ساندى شيئاً ما. لكنه تذكر أن كوفى يعتبر نفسه مسيحياً طيباً، وذلك يعنى أنه رفض جلد عبده فى العطلة المقدسة.

قرر فردريك - متشجعاً بالجذور التى يحملها وبالتغير الطارئ فى سلوك كوفى - أن يضع "ربه" فى اختبار وأن يقوم بتخيره بين مالك العبد والعبد، فهو سوف يطيع كل أمر يصدر مهما كان غير معقول، إذا كان ممكناً لكنه أقسم لو استمر كوفى فى محاولات ضربه "لأدافع عن نفسى وأحميها لأقصى حدود طاقتى". بمعنى آخر، سوف يرفض مبدأً رئيسياً من مبادئ العقيدة المسيحية عند مُلاك العبيد يقول: "لا تقاوم سيدك أبداً!" لكنه سوف يتصرف وفقاً للمبدأ الذى ينص على أن عين الله ترى كل البشر متساوين.



مع صباح يوم الإثنين والوقت مازال مبكراً، عادت الزجرجة المنخفضة بصوت كوفي. كان فردريك فى الاسطبل يطعم الخيول وفقاً للأوامر عندما هبط عليه كوفي وأمسكه من قدمه محاولاً تقييده وتراجع فردريك موقعاً بكوفي أرضاً. كتب فردريك ملحوظة هنا: "استولى على جنون القتال، ووجدت أصابعي القوية ممسكة بزور كوفي بشدة، ذلك الجبان الذى عذبنى كثيراً، متجاهلاً كل النتائج... كما لو كنا نتواجه ندين متساويين أمام القانون."

كما يدرك جيداً، عقوبة مقاومة السيد هي الموت. لكنه يقول: "لقد وصلت إلى مرحلة لا أخشى معها الموت." لقد شعر "بأنه مرن كالقط وجاهز لمواجهة ذلك المخلوق الثعباني عند كل محاولة." كان يمكنه قتل كوفي بسهولة لأنه كان أكبر حجماً وأقوى وأنسب شكلاً، لكنه التزم مباشرة "تكتيك الدفاع ليمنعه من إلحاق أي إذى به"، وبدلاً من أن يؤذيه هو قام بإلقاء كوفي أرضاً عدة مرات كمصارع يحترق خصمه أو كقط يلعب بفأره، وذات مرة ألقى بكوفي على روث إحدى الأبقار، ومرة أخرى "أمسكت به من زوره بشدة لدرجة أن دمائه سالت على أظافري." لكنه لم يؤذِه بدرجة خطيرة.

استمر القتال ساعتين، قتالاً غريباً وملحمياً دونما انتصار أحدٍ منهما. "كنت أمسك به وكان يمسك بي." سأله كوفي وهو يرتعد خوفاً وإرهاقاً:

هل ستستمر فى المقاومة؟

أجاب فريدريك بأدب:

- نعم يا سيدى .

فى منتصف المعركة طلب كوفى المساعدة مدركاً أنه لن يتمكن من هزيمة فريدريك وحده، فأتى ابن عمه بيل هيوز- الذى يعمل ويعيش معه. لكن فريدريك اتّابه هياج العداء وركل هيوز فى خصيته "فأقعده"، وابتعد مترخاً ثم تكوّم من الألم الشديد ولم يتدخل بعدها . هنا صرخ كوفى مستنجداً ببيل سميث - وهو عبد مستأجر آخر- آمراً بقله : "أمسكه ! أمسكه !" لكن بيل لم يكن مستعداً لقتال فريدريك لصالح كوفى فأجابه:

إن سيدى أجرنى لك للعمل وليس لمعاونتك فى جلد فريدريك . وعندما رأى كوفى خادمتة الخاصة كارولين، أمرها صارخاً "أمسكه !" لاحظ فريدريك أنها كانت امرأة ضخمة وقوية "يمكنها السيطرة عليّ"- خاصة أنه أصبح مرهقاً من قتال دام أكثر من ساعتين- لكنها رفضت التدخل كذلك وهذا التضامن الزنجى جعل فريدريك فخوراً باتمائه لذلك الجنس الأسود، ودفعه ذلك قدماً . بعد ساعتين كان على كوفى أن يتوقف من الإجهاد محاولاً التقاط أنفاسه قائلاً:

أيها الوجد، عليك الآن أن تعود لعملك ! أنا ما كنت لأجلدك  
نصف ما فعلته بك الآن لو أنك توقفت عن المقاومة.

ملأت فريدريك الرغبة في الضحك من ذلك الادعاء إذ إن  
"الحقيقة أنه ما استطاع جلدى أبداً يومها . كان هذا أسلوب كوفي  
في حفظ ماء وجهه، وقد علم تماماً أنه هُزم ولم يلمس الفتى بعدها،  
وغالباً ما قال إن قتاله مع كوفي كان نقطة تحول في حياته كمبد، ثم  
شارحاً: "لقد شعرت بما لم أشعر به في حياتي . إنها قيامة مجيدة  
من مقبرة العبودية إلى سماوات الحرية النسبية . وارتفعت روحى التى  
تخطمت كثيراً، وارتحل الجبن ليحل محله تحدٍ مقدام . لقد قررت الآن  
مهما طال زمن بقائى فى العبودية شكلاً، فإن زمن بقائى عبداً في  
الحقيقة قد ولى، فالعبد الذى يرفض الجلد والضرب أصبح الآن أكثر  
من نصف حر ."

كان وصف فريدريك للحظة قتاله أنها "نقطة تحول فى حياته"  
مسألة إعادة نظر أساسية منطلقاً من ميزة تحطيمه لقيود العبودية  
باحثاً في ماضيه عن مفتاح يفسر سطوع نجمه . فى ذلك الوقت،  
أمدته القتال بالأمل . إن ذلك النصر قد يصبح المد الجديد بعد  
سلسلة من الهزائم، وأشبه كثيراً بما يحسه الرياضي عقب تحقيقه  
فوزاً كبيراً . كان ذلك الأمل "أو الإيمان" يهم فريدريك كثيراً مُشكلاً  
سلوكه، وماداً إياه بالثقة فى مواجهة لحظات الضعف .



تلقى فريدريك من ذلك الشجار درساً قيماً سيبقى معه طوال الحياة، دائماً عليك بمقاومة الطاغية ولا تحش الموت من المحاولة، لكن كن براجمائياً فى مواجهة ذلك! لم يقم كوفي بإخطار السلطات بموضوع عبده المتمرد الخاضع لمسؤوليته إذ كان يستطيع إخضاع فريدريك للجلد العلني أو قتله أو كليهما معاً. لكنه سعى لإبقاء القتال سراً، وقد انتاب فريدريك الشك أن كوفي خجل من التصريح "بأن ولداً صغيراً فى السادسة عشرة تمكن من السيطرة عليه." فوق كل ذلك، أراد كوفي الحفاظ على سمعته المعروفة "كسارة العبيد" التى مكنته من استئجار العبيد بأسعار متدنية عن أسعار السوق، كما حاول أيضاً الحفاظ على كرامته؛ فالرجل الأبيض ليس مفترضاً فيه أن يُهزم بواسطة قتلى أسود فى عراكٍ ما. خلال الفترة المتبقية له مع كوفي، كان فريدريك يرمقه باحتقار محاولاً إثارتة للعراك، وقال فى نفسه مرة أن المرة القادمة سوف يؤذيه حقاً. لكنه فى الواقع كان يتباهى فقط، فلو وقعت مواجهة أخرى لكان بلا شك سيعارك كوفي بنفس الأسلوب الدفاعي بتجنب الضربات والرد على القليل منها فقط إذ كان يعلم أن كوفي إذا ما قُتل أو جُرح، لن تكون هناك وسيلة للتكتم على خبر العراك الذى لو وصل للعامة لأدى ذلك إلى التعذيب أو الموت، وكما حدث فقد تركه كوفي لحاله وتظاهر بأن شيئاً لم يتغير فى حين بدا عالم فريدريك أكثر اشراقاً بالفعل.

لأن الهدف هو أن تكتسب احترام عدوك وأن ترسخ الكرامة في ذاتك، إذ عندما يحترمك العدو فإنه يخشاك أيضاً. لذا، لاتدرُ خدك الأيمن وتسلم مبكراً، أو تصادق عدوك (ما لم يتحول هو أولاً لصف قضيتك) ! إذ سيؤدي ذلك إلى الرضا بالواقع من جانبك وإلى فقدان السيطرة عليه. كذلك كما حددها فردريك "إنسان بلا قوة، هو إنسان بلا كرامة". فالسادة يهينون العبيد بعدم السماح لهم باستخدام القوة. لذا، على العبيد أن يقاوموا دائماً باستخدام القوة. لقد قام فردريك باختبار فلسفته هذه مع سيده الجديد، فبعدما اتهمت فترة عقده مع كوفي تم تأجيره لمزارع قمح آخر يدعى ويليام فريلاند، الذي كان عكس كوفي في صفاته، ففي حين كان كوفي فقيراً ووضيعاً وفاسداً، كان فريلاند "سيداً مهذباً طيب النشأة" وكما يقول فردريك كان صاحب سلوك جيد لا أموال جيدة. كان صريحاً وأميناً مع عبيده يقوم بإطعامهم جيداً ولا يرهقهم بالعمل، ولما لم يكن من رواد الكنيسة لم يحاول تغطية الجرائم المرتكبة ضد الإنسانية باسم الدين المسيحي لأبناء الجنوب. كان سيداً مثالياً بالفعل ولم يضرب فردريك أو يجلده مطلقاً. لكنه مازال سيداً، ولذا يُعد طاغية تجب مقاومته، ولكونه مختلفاً في أسلوب تسيده عن كوفي، يتطلب ذلك شكلاً جديداً من أشكال المقاومة، وهو الشكل الذي لخصه فردريك في الآتي: "امتح العبد سيداً ستره يأمل في

سيد طيب، واعطه لسيد طيب، هنا سيتمنى أن يكون سيد نفسه. هذه هى الطبيعة الإنسانية."

ما أن بدأ العمل مع فريلاندر حتى أقسم على الحرب. كان ذلك أشبه بنوع من القرارات المتأخرة للعام الجديد عام ١٨٣٦، وخلال الشهور الأربعة التالية خطط للهروب وأقنع خمسا من العبيد بالتعاون معه، بمن فيهم "ساندي جنكيز" رجل الجذور الذى سبق الحديث عنه. كانت الخطة بسيطة نسبيا. في ليلة السبت المقدسة والبيض مشغولون بالإعداد لمناسبة عيد الفصح، سيقومون بسرقة قارب صغير والتجديف عبر تشيسابيك متجهين إلى بالتيمور. ثم يرحلون مشيا حتى يصلوا إلى أراضى بنسلفانيا الحرة. حيث لم يكن معهم خريطة للطريق، ولم يدروا أين سيقودهم ذلك، قام فريدريك بكتابة تصريح مرور لكل واحد منهم يقول إن السيد قد أعطاهم كامل الحرية للذهاب إلى بالتيمور للاحتفال بالفصح. كادت الخطة أن تنجح لولا وجود خائن. لم يعرف فريدريك من كان ذلك الواشى، ولكنه شك فى رجل الجذور، ساندي، لأنه قد انسحب من المشروع ليلة إحدى أيام الجمع بعدما غشيه حلم سيء رأى فيه "فريدريك يطير به طائر ضخم يمسكه بين مخالبه متوجها نحو الجنوب"، وقد عدها فالاً سيئاً فقال لفريدريك: "يا عزيزى، اتبه لحلم يوم الجمعة! هناك مخاطرة كبرى. اختر حياتك، لأن الخطر هناك يا عزيزى! دعك من

الخطّة! "وأضاف: "والآن سوف يقبضون عليك ويرسلونك إلى آخر الجنوب. "من المحتمل هنا أن يكون ساندي قد قام بإفشاء سر الخطّة لسيدته ويحاول الآن أن يحمي فريدريك.

لم تكن مثل تلك المخادعات أمراً نادراً، فأيسر وسيلة أمام العبد ليصبح حراً ليس المشاركة في خطّة للهروب ولكن إفشاء سر تلك الخطّة لسيدته، فالواشى عندئذ إما أن ينال حريته أو يتلقّى معاملة خاصة نظير إخلاصه. كان واضحاً لفريدريك أن شخصاً ما قام بخيائته، ففي يوم تنفيذ خطّة الهروب أُحيط به وبرفاقه الأربعة. ثم أُلقي بهم في السجن فقاموا بتمزيق تصاريح مرورهم وأنكروا محاولة الهرب. لكن كل الرجال البيض تقريباً أكدوا أن هذه الجماعة مذبنة وأن فريدريك هو زعيم الجماعة إذ صرخت امرأة بيضاء في وجهه: "أيها الشيطان الأصفر طويل الساقين! أنت من زرعت في رؤس العبيد الآخرين تلك الفكرة كيما يهربوا. " ورأى بعض البيض أن فريدريك "يجب أن يُشنق" وقال آخرون: "اشووه حياً، فتلك هي العقوبة الصحيحة. " واتفق الجميع على أنه إذا لم يُقتل، فيجب أن يُباع في حقول القطن في منطقة الميسيسيبي أو الألباما حيث يستحيل الهرب هناك.

في الواقع، قام أحد الجيران بتحذير توماس أولد أنه إذا لم يبعد فريدريك فوراً من الشاطيء الشرقي سوف "يطلق عليه النار

بنفسه"، لأن فريدريك كان خطراً جداً حين يُسمح له بالتأثير على العبيد الآخرين. عندما استعاد توماس أولد فريدريك من الحبس أخبره - في الحال - بأنه يخطط لإرساله إلى الألباما. لكن ذلك كان إما كذباً أو أنه غير رأيه فيما بعد لأنه أمره - فجأة - بالعودة إلى بالتي مور للعيش مع هيو وصوفيا أولد كيما يتعلم "حرفة" كما قال. الأكثر من ذلك أنه إذا ما سلك فريدريك سلوكاً طيباً فإن توماس "سوف يعتقه عند بلوغه سن الخامسة والعشرين". لم يصدق فريدريك حظه "إذ بدا ذلك أمراً رائعاً أبعد من أن يكون حقيقياً". لأن أغلب السادة كانوا ليقتلوه أو يحطموا إرادته أو يقوموا ببيعه عند مصب النهر، وعامل زراعى مثل فريدريك يساوي حوالي ١.٠٠٠ دولار (أي يساوي ٧.٥٠٠ دولار اليوم). بينما كان فريدريك يبحر عبر تشيسابك متوجهاً لبالتي مور، بدأ يشعر بوجود ما هو أكثر من الحظ ووجود تدبير هو أكثر من الصدفة "تفسيراً للظروف التي تحيط به، وذات يوم اقتبس من شكسبير قوله إن هناك "عناية إلهية تقرر مصائرنا". "لكن في تلك اللحظة كان سعيداً - فقط - مجرد أنه رحل إلى الشاطئ الشرقي.

بدأت بالتي مور عالماً جديداً يمتلئ بالحرية جزئياً، وكان هيو أولد - كعرب أغنام محترف - جاف الطباع يملك قلباً إنسانياً، وذلك كما وصفه فريدريك. كان يحمل هيئة الأب إلى حد

ما، فى حين كانت صوفيا (التي كان يناديها بالآنسة صوفيا) امرأة طيبة القلب عاملته - غالباً - كابن لها. كان هيو يشرب كثيراً مما جعله مندفعاً وأهوج، وحاول أن يمنع فردريك من القراءة والكتابة. كذلك، عندما يتأجج مزاج الآنسة صوفيا غضباً تصبح عندئذٍ شرسة. لكنهما لم يقوما بضرب فردريك ولا بتبرير سيطرتهما عليه بأسباب دينية ورعة وأظهرا قدراً من الإحساس الإنسانى لا يملكه أغلب ملاك العبيد .

حصل هيو لفردريك على عمل كصبي ميكانيكى فى حوض السفن بالتيمور. كان عملاً سهلاً نسبياً يحتاج إلى القوة الجسمانية والتحمل أكثر من المهارة، وفردريك الآن يصل طوله ستة أقدام مع صدر مفتول وساقين قويتين من العمل بالحقول لثلاث سنوات طوال. تعلم فردريك بسرعة كيف يخلط الزيت "القطران" مع الألياف ويسد بها الثغرات فى آلات السفينة لمنع تسرب الوقود، وأصبح ميكانيكياً جيداً فى هذا المجال خلال عام عمل فيه فى حوض السفن حيث كان هيو يعمل مشرفاً للعمال. كان يكسب أكثر من تسعة دولارات فى الأسبوع وأكثر من أى "صناعى" آخر، مقرباً من أجور الطبقة الوسطى للمهنيين. لكنه مع نهاية الأسبوع كان عليه أن يسلم كل "مليم" قبضه لسيده هيو، وعندما كان هيو يمنحه منها البنسات الستة علامة على شكره، كان يفسر تلك الهبة بأنها الإقرار بحقه فى

امتلاك كل هذا الأجر، "فرغم إنسانية هيو النسبية فقد رآه فردريك لصاً وطاغية." كره فردريك العيش مع هيو وصوفيا، فاتخذ خطوة جديدة فى مايو ١٨٣٨ "باتجاه تحديد مستقبله فى عالم الحرية" وفقاً لنص كلماته. لم يكن نادراً فى بالتيمور، كمدينة كبرى تحوى آلاف من العبيد السود، أن يكون للأرقاء - رجالاً ونساءً - الحق فى تأجير أنفسهم فى أوقات خاصة إذ كان لهم أن يعيشوا ويعملوا حيثما شاءوا ويتمتعوا بحرية نسبية طالما كانوا يسددون لملاكهم مبلغاً متفقاً عليه كل أسبوع، وكل دخل إضافى زائد كان لهم أن يحتفظوا به، واستطاع بعض العبيد ادخار مبلغ كافٍ لشراء حريتهم، فنظام المجتمع حفز العبيد على العمل القاسى لإمداد ساداتهم بدخل مضمون. لكن ذلك كله يعتمد على ثقة السادة فى عبيدهم. هنا يقول فردريك عن سمعته بين السادة: "لم أكن فى وضع جيد أمامهم" وباللهعجب! وافق هيو على ترك فردريك كى يؤجر نفسه طالما كان قادراً على سداد ثلاثة دولارات مساء كل سبت مع تغطية جميع نفقاته سار النظام لأربعة أشهر على خير ما يرام، وتمتع فردريك بمزيد من الاستقلال أكثر مما شعر من قبل. "ثم انزلت فى الخطأ"، ففى أغسطس ذهب مع أصدقائه من الأحرار السود للقاء عقد بأحد المخيمات، وهو شكل شعبي من أشكال التعبير الدينى والترفيهى يشمل الغناء والاعترافات وحضور المؤمنين حديثاً ممن يرتعشون

ويتميلون ويتمددون أرضاً مُسَلِّمين أرواحهم وأجسادهم لله. ورغم أن فردريك يعتبر مُلاك العبيد من المسيحيين أكثر السادة وحشية، كان هو نفسه مسيحياً والتحق بالكنيسة الوطنية، وكانت بؤرة إيمانه رسالة المسيح حول الحرية، وأتاح لهم لقاء المخيم الانضمام لمجموعة من مجموعات الأخوة المسيحية متشابهى الإيمان. لكن ذهابه لحضور اللقاء أخره يومين عن تسليم عوائد عمله لحيو وهكذا فسخ عقده معه.

أضحى هيو شديد الغضب وعامل فردريك كابنٍ عاق غادر منزله لقضاء إجازة نهاية الأسبوع، لكنه عاد متأخراً عن مواعده ودون كلمة اعتذار، والأب وهو يتخيل أسوأ مصير لابنه لا يكاد يلمس النوم عينيه إذ ظن أن فردريك قد فر بنفسه بعيداً فصرخ فيه: "أيها الوغد! الآن تسيطر على فكرة ضربك بالسياط، ولن أسمح لك بتأجير نفسك بعد الآن، وأول شيء أتوقع أن أسمع بعد الآن سيكون هروبك." كانت لمخاوف هيو مبرراتها إذ بمجرد حرمان فردريك من حريته الجزئية حاول الهروب مرة أخرى، فمنذ عام سبق - أي سنة ١٨٣٧ - أكملت شركة بالتيمور وأوهايو للسكة الحديد خطأً جديداً يشق طريقه شمالاً من بالتيمور إلى ويلينجتون بولاية ديلاور وهي ولاية تقر العبودية" ماراً بوصلة خط مع فيلا دلفيا بواسطة سفينة بخارية، وكانت شركة بالتيمور وأوهايو تحمي السادة حماية شرسة أو كما ذكر فردريك "أنه حتى المسافرين الملونين



الأحرار كانت الشركة تستبعدهم"، وكان على أي مسافر أسود مغادرة بالتيور نهارا وتقديم "مستندات حريته" وهى تماثل جواز سفر يحوي تفاصيل عن المالك الأصلي. رغم تلك الصعوبات أدرك فردريك أن إنشاء تلك الشركة لخط سكك حديد يوفر أكثر الطرق أماناً نحو الحرية، فاستعار تصريح مرور خاص بأحد البحارة "مبيناً حالة الحرية التي يتمتع بها حامله" من صديق يشابههم إلى حد ما. ثم اشترى قميصاً أحمر، وربطة عنق سوداء، وقبعة "مزيّنة" ليبدو كالتجار، وكذلك تذكرة قطار، واستأجر حملاً لتوصيل أمتعته إلى المحطة صباح يوم الإثنين ٣ سبتمبر "ورغم أن فردريك لم يرتحل يوماً بالقطار إلا أنه سمع عنه كثيراً بما يكفي لتوقع كل الاحتمالات. كانت خدمة المسافرين لاتزال فى مهدها، ولم تكن هناك درجة أولى للسفر أو مركبات نوم بعد، ولم يدع أحد أن ركوب القطار مريح، إذ كان يجلس بكل عربة حوالى ثلاثين شخصاً فى صفتين متقابلين على مقاعد خشبية. كانت تبدو كالصندوق الضخم معتم النوافذ، وتجد أيضاً الاهتزاز والتمايل الذى جعل القراءة أمراً مستحيلاً تماماً، وكانت الضجة المثارة عالية لدرجة تجعلك تأخذ فى الصراخ عندما تتكلم، وقد قال أحد المعاصرين حينها أن تلك العربات أكثر ملاءمة للماشية عنها للناس، كما لاحظ مسافر آخر أن غبار الفحم المتطاير عبر النوافذ كان كثيفاً لدرجة تعوق التنفس، وعلى عكس سنوات

الحرب الأهلية، أجبرت الشركة الأهلى على الاختلاط ( نساء ورجالاً) مع عزل السود فى أكثر العربات صخباً وقذارة.

أضاف فردريك اهتزازات القطار وتعجل "كمسارى" القطار فى عمله إلى الظروف التى تعمل لصالحه . كان قد وصل إلى المحطة يوم ٣ سبتمبر قبل دقائق قليلة من قيام القطار ليتجنب تدقيقات عامل التذاكر وبينما كان القطار يطلق صفيره، ألقى الحمال حقيبة فردريك الصغيرة داخل عربة القطار، ولحظة مغادرته للمحطة قفز فردريك داخلها، وعندما دخل "الكمسارى" عربة الملونين كانت الرحلة عند منتصف الطريق إلى ديلاور . كان فردريك يعرف كيف يؤدى دور بحار من الترسانة، ورغم انفعاله وتوتره إلا أنه تلبسَ دور الحرِّ الواثق والمعتمد الذى ينتظر "الكمسارى" ليسأله عن أوراقه .

سأله الكمسارى:

لديك أوراق تثبت أنك رجلٌ حر، أليس كذلك ؟

قال فردريك:

نعم يا سيدى، أحمل مستنداً موثقاً بخاتم النسر الأمريكى الذى سيحملني عبر العالم .

كانت تلك هى الاستجابة السليمة مستغلاً احترام الآخرين للبحار الأمريكى وهو ما شاع حينذاك فى بالติมور، فألقى الكمسارى نظرة مجردة إلى أوراقه، وتسلم الأجرة وواصل طريقه .

واجهته صعوبات قليلة، فعلى سطح العبارة التى تمخر عباب نهر  
ساسكويهاًنا رآه أحد معارفه من السود وسأله أسئلة خطيرة مثل:  
"متى تعود؟" مما عرّض رحلته لخطر الانكشاف. كذلك عندما  
ركب قطار فيلادلفيا وكان يتطلع عبر النافذة، رأى فى عربة مجاورة  
فى القطار المواجه له ربان الباخرة التى عمل عليها منذ يومين  
سابقين. لكن الرجل رمقه ويبدو أنه لم يره جيداً. كما واجه ما هو  
أكثر إفزاعاً له حين التقى مجدّاد ألمانى يعرفه جيداً "ونظر إلى مدققاً"  
لكنه لم يتقوه بكلمة. تذكر فردريك ما حدث بقوله: "أعتقد أنه عرفنى  
حقيقة، لكن قلبه لم يطاوعه لحياتى" إذ بالنسبة للهاربين تعد مدينة  
كباتيمور - حتى لو كانت ضخمة - كقرية صغيرة. ثم مرت بقية  
الرحلة دون حوادث تذكر. استقل فردريك سفينة تجارية من  
ويلينجتون إلى فيلادلفيا ثم قطاراً ليلياً إلى مدينة نيويورك.

فى أقل من أربع وعشرين ساعة حوّل نفسه من عبد إلى رجل  
حر، من رجل جنوبى إلى رجل شمالى. كان يتذكر تلك الرحلة  
كأعظم أربع وعشرين ساعةٍ مرت بحياته كلها، كما لو كان وُلد من  
جديد. "إذ افتتح أمامى عالم جديد". كان يرى كل حادثة أخرى أو  
كل إنجاز آخر ضئيلاً مقارنةً بتلك اللحظات "لقد عشت خلال يوم  
واحد أكثر مما عشته فى عام كامل من أيام عبوديتى، لأن أحلام

صباى ورجولتي تتحقق الآن. "، وظل باقى عمره يحتفل بيوم ٣ سبتمبر بديلاً ليوم مولده المجهول.

لم يُعبر فردريك عن اعترافه بالجميل نحو توماس أولد لأحقاب طويلة حين أرسله شمالاً بدلاً من بيعه فى الجنوب كما كان يفعل معظم السادة، ولم يُظهر أبداً أى تقدير تجاه هيو وزوجته صوفيا لطبيعتهما العطوفة نسبياً نحوه، رغم أنه سعى سرا للتراضى مع هيو فقد كتب إليه عام ١٨٥٧ يقول: "إننى أحبك لكنني أكره العبودية." مع كل ذلك، فقد صرح فى نفس الوقت أن "لو قتل عبدٌ سيده، فإنه يحاكي أبطال الثورة فقط." وحتى قيام الحرب الأهلية كان يُشهر علانية بتوماس وهيو وصوفيا، ورغم أن أياً منهم لم يمتلك عبداً بعد عام ١٨٤٨ إلا أنهم لم يصبحوا من دعاة تحرير العبيد أبداً. لذا بقوا أعداء علنيين بالنسبة له. ظل الوضع هكذا لما بعد قيام الحرب حين تراضى فردريك مع مالكه السابق حيث أخبر توماس أولد بما فى نفسه: "لم أهرب منك وإنما هربت من العبودية." داخل شخصيته العامة، ظل مؤمناً بالدرس الذى تعلمه من قتاله مع كوفى، فدائماً كان يقول: "قم بمقاومة العدو- حتى لو تراضى معك- إلى أن يؤمن بقضيتك." وبعد انتهاء العبودية أدرك أن أولد لم يعد عدواً له.

بالنسبة لإدوارد كوفى- الثعبان- فقد سدد ثمن شهرته "ككسارة للعبيد" إذ مع قيام الحرب الأهلية وقد أصبح مزارعاً ثرياً مرموقاً

يملك العديد من العبيد والأملك التي تقدر بـ ٢٣.٠٠ دولار (أى ما يساوى ٢ مليون دولار بحسابات اليوم)، وبينما هو يتحول نحو الثراء، أشاع فردريك شهرته بتقديمه إلى عالم الأدب كشير كبير مساو لكل من سيمون ليجرى وفاجين، ففى سيرته الذاتية ثلاثية الأجزاء شبه كوفي بالشيطان الذى لا يُنسى خلال قصة حياته. لكن مزارعي الشاطيء الشرقى أحياناً ما اعترضوا على ذلك التشبيه، حيث هاجم أحد جيرة المنطقة عام ١٨٤٧ تصوير كوفي بالشعبان داعياً إياه بالطيب الأمين الجاد فى عمله كما أنه "عضو مخلص ضمن شعب كنيسة الظهور" ممن يعاملون رجالهم جيداً، وذلك "لحرفيته الصادقة، وقد اشترى كوفي مزرعة جميلة ويحصد الآن مكافأة كده". لكن رسم فردريك لشخصية كوفي التصق به إذ

ظل بيت كوفي القديم معروفاً باسم جبل البؤس.

ذات يوم شديد البرودة من شهر مارس ١٨٣٠ قام شاب عمره واحد وعشرون عاماً بقيادة زوج من الثيران مربوطين بنير واحد عبر إنديانا متوجهاً لإلينوى، وقد تجمدت الطرق ليلاً وتحولت إلى طين موحل خلال النهار، فى سفرة بطيئة وقاسية. سار بجوار الثورين مرتدياً قبعة من الفراء وسروالاً من جلد الغزال يصل إلى ركبتيه، وهو يضرب بسوطه قرون الثورين أو فوق جلد هما، وهو

<sup>٢</sup> منزل جبل البؤس يملكه الآن دونالد رامز فيلد وزير الدفاع الاسبق.

يصيح أمراً: "جى جى! هو هو! وي جيلانج! وهاي ذار!" إلخ، ليبقيهما مستمرين للأمام. بينما كانوا يعبرون مجرى مائياً ساطعاً بمزيد من القوة، ولم يكن الثوران قد فقد قوتهما تماماً فاستخدم السوط ليمنعهما من السرعة التى قد تؤذيها أو تقتله، ولم يكن قد اعتاد كلبه تماماً بعد، الذى فاجأه بالقفز فى الماء وبدأ يغرق، فخاض بنفسه فى الماء البارد حتى ارتفع لوسطه "فأمسكتُ به وأقذتُه" فيما يتذكر مكملاً: "لم أستطع أن أتحمّل فقد كلبى".

كان أبراهام ينتقل إلى مقاطعة ماكون بولاية إلينوى بالقرب من نهر يسميه الهنود (سانجamon) يعنى "الأرض كثيرة الخيرات" ولم يكن لديه أي شك فى صدق هذه المقولة، فهو ببساطة شديدة يقتضى خطي عائلته مبتعداً نحو الغرب باتجاه مستوطنات ما وراء الغابات شاعراً بأنه قطعة الخشب الطافية التى يدفعها القدر وتيارات الحياة التى تمر بها العائلة، وقليلًا ما كان يعرف أن هذا الانتقال سيجعله حر الحركة، ويمنحه إحساساً بوجود هدف أمامه.

كان والده - توماس لنكولن - قد وضع يده على أرض شمال ضفة نهر سانجamon تبعد أميالاً قليلة غرب ديكاتور، وطلب من أبراهام أن يقود عربة القافلة (حيث كان الناس ينادونه "آبيه" لكحه كان يفضل اسم أبراهام فى حين كان لقبه لنكهورن وباللهجة الشائعة لينكيرن). كانت القافلة تتكون من أبراهام ووالده توماس وزوجة آبيه

سارة بوش جونستون لينكولن وأسرتىَ ابنتىَ سارة من زواج سابق وزوجين من الثيران، وقد جلست النسوة داخل العربات المغطاة بالمشمع التى ساعد أبراهام فى صناعتها، بينما سار الرجال بمحاور الثيران، كانوا يغادرون منطقة بيدجون كريك وهى مستوطنة تقع جنوب إنديانا يعكس اسمها بداية حياة الغابات. لم تكن بيدجون كريك كريمة مع أبراهام، إذ عاش هناك أربعة عشر عاماً بعدما انتقل من هاردن كوتى من كينتوكى حيث كان قد قضى أول سبع سنوات من عمره، لأنها كانت "منطقة برية تمتلئ بالدببة والحيوانات المتوحشة الأخرى التى مازالت تعيش فى الغابات" ويتذكر أنها حتى لم تكن قرية بل كانت مستوطنة يقطن بها حوالى أربعين أسرة تقريباً يتناثرون فى دائرة قطرها خمسة أميال تحيط بمنزل لنكولن، ومثلت حياته هناك مأساة تعقبها مأساة، حيث ماتت أمه من مرض ينتشر من خلال تناول اللبن "وهو البروسيلا" وكان فى الثامنة من عمره، وماتت أخته الوحيدة وقت ميلادها، وكاد هو نفسه أن يموت جراء ركلة حصان بدا بسببها على وشك الموت، وكل ما تعلمه من مهارات كانت الزراعة، وبناء الأسوار، وقليلًا من أعمال النجارة التى كرهها بشدة وقد قرر والده الرحيل إلى "الأرض كثيرة الخيرات" سانجامون بعد عودة مرض اللبن إلى بيدجون كريك. أسعد

ذلك أبراهام لأنه كره المكان لدرجة أنه عندما زاره عام ١٨٤٦ أبدع قصيدة تطرح أسفه نحو هذه الأرض يقول فيها:

أجوب الحقول بخطى متأملة، وأخطو عبر المسافات الفارغة،  
واشعر "كرفيق للموتى"، أنى أعيش داخل المقابر.

أما عن الأمر الوحيد الذى عده جيداً وحدث له فى منطقة بيدجون كريك، فهو وصول زوجة أبيه سارة بوش جونستون، تلك الأرملة التى جاءت ومعها أطفالها من زوجها السابق، وقد تزوجها توماس بعد وفاة أم أبراهام. كان أبراهام حتى ذلك الوقت "قذراً رث الثياب همجي السلوك". وسرعان ما لاحظ التغيرات التى طرأت بعد قدومها إذ جلبت للبيت فراشاً من الريش ومكبباً من خشب الجوز بالإضافة لمنضدة وبعض المقاعد وعجلة للغزل، وبعض الفصيات، وكلها من وسائل الرفاهية بالنسبة إلى أبراهام. كما قامت بتنظيف البيت ثم أمرت توماس ببناء حائط لاستكمال الحجرة الصغيرة ذات الحوائط الثلاث، وقد أحبت أبراهام وأطعمته جيداً وعاملته بصورة لا تختلف عن معاملتها لأبنائها. لذا، كانت "أفضل أصدقائه فى الدنيا" وفقاً لوصف أحد أقاربه الذى أضاف

بقوله: "لم يوجد إنسان أحب أمه أكثر مما أحب هو تلك المرأة".

فى حين كانت أم أبراهام الحقيقية - واسمها نانسى هانكس



لينكون - مصدراً دائماً للحرص إذ أخبر أصدقاءه بذلك مؤخراً: "كانت أُمي ابنة غير شرعية للنبيل دُعي من فرجينيا. " حتى فيما بين أبناء الطبقة البيضاء البائسة الفقيرة، كان ابن "المولودة من زنا" علامة من علامات العار، ويمكننا أن ندرك رغبة أبراهام في إبقاء هذه المعلومة سرا، وكان له عزاء وحيد فيما يشاع عن أصله فيقول: "أبناء الزنا أكثر ذكاءً وتمرداً وفكراً - عامة - عن بقية البيض الفقراء. "لذا، فهو يعتبر أُمه أكثر ذكاءً من أبيه، لأنها ورثت صفات ذلك الرجل النبيل "وبالتالي فقد ورثتها أنا. " لقد أوقد اعتقاده في نُبْلِ أصله طموحاته وأخذ يسخر من فكرة قناعة الفقراء البيض بنصيبهم، وفي مستقبل أيامه حاول نسيان أيام فقره حين قال لأحد مدوني سيرته الذاتية: "من الحق محاولة استخراج شيء له قيمة من حياتي المبكرة ... ويمكن تلخيصها في جملة واحدة (تقتبسها من كتاب جراي (رثاء)؛ "إنها الحوليات البسيطة القصيرة للفقراء" وكان فقره، مثل أُمه، مصدراً للحرص.

لم يتفق أبراهام مع والده إذ عده جاهلاً وبائساً، وهكذا كان حكم جيرانه حيث دعاه أحدهم بقوله: "إن توماس لينكون نموذج مثالي لنفاية بيضاء بائسة... كسولة وتافهة. " في حين تذكره آخرون

٤ توماس جراي - شاعر انجليزي شهير ولد في لندن عام ١٧١٦ ومات ١٧٧١ ومن اعماله انشودة لايتون كوليدج، وقصيدة "رثاء" ..

على أنه كادحٌ يرتاد الكنائس وقد تمّ تعميده جيداً، إلا أنه رجل أعمال فاشل. "كان عجيجاً بلا طحن، عمل كثيراً لكنه لا يعمل شيئاً له قيمة."

قضى توماس أغلب أوقاته يقوم بالزراعة. أما من ناحية السلوك فكان صعلوكاً أو "هلفوتاً" حسب نص ما كتب. كان - بالكاد - يستطيع القراءة والكتابة، وكان يعتبر ابنه أبراهام كسولاً لأنه كان يكره العمل الجسماني، وأحبّ القراءة ودائماً ما كان "يخدع نفسه بالتعلم" ظاناً أنه سيحقق تقدماً ما بواسطته. هنا كان يضرب أبراهام لقيامه بالتصرف كأنه ذكي ومتفوق. ذات مرة، أوقعه ضرباً من فوق أحد الأسوار بسبب فضوله، ولم يردّ أبراهام الضرب أبداً. لذا كان توماس يفضل ابن زوجته - الذي كان يستمتع بالعمل اليدوي - أكثر من حبه لابنه الذي كان من صلبه.

كانت أكبر مخاوف أبراهام أن يشبّ مشابهاً لأبيه إذ كان يحقر افتقار أبيه توماس للتعليم مدرّكاً في نفس الوقت أنه هو نفسه قد تلقى أقل من عام من التعليم الرسمي. لقد كره استقرار والده في مناطق "لا يوجد فيها ما يثير الطموح من أجل التعليم مطلقاً". وذلك بنص قوله. رغم ذلك، ها هو يقتفي خطى والده لمكان آخر من تلك الأماكن، ولو شاء لانطلق بعيداً على مسؤوليته فمند شهر مضى وتحديدًا يوم ١٢ فبراير - بلغ من العمر واحداً وعشرين عاماً، مما يعني

أنه "وصل لمرحلة الرشد". الآن أصبح مواطناً حراً ولأول مرة فى حياته لن يتمكن من التصويت فى الاقتراعات العامة فقط، بل سيكون من حقه الاحتفاظ بدخله من عمله وألا يعطيه لوالده كذلك، وسيكون له الحق فى الذهاب لأى مكان دون حاجة إلى تصريح من والده. لكن مرة أخرى، يقوم توماس بتأجير ابنه أبراهام، تماماً مثلما قام توماس أولد بتأجير فردريك. كان على أبراهام أن يؤدي أعمال الحرث فى الحقول وشق الطرق، وحصاد القمح ومع نهاية الأسبوع يقوم بتسليم كل "مليم" كسبه لأبيه.

كان الأسوأ أن يخرجوه والده من المدرسة لتأجيره تخفيفاً لأعبائه المالية، ويتذكر أبراهام ذلك فيقول: "لقد اعتدت أن أكون كالعبد . لكنني الآن حرّ". حتى بلغ أبراهام الحادية والعشرين من العمر، بدأ يشعر باختلافه قليلاً عن الأولاد السود حيث لاحظ أن "كلنا نكون عبيداً فى وقت أو فى آخر". لكن إذا كان أبراهام قد أضحى الآن حراً، فلماذا لا يزال يتبع والده، ويعمل من أجله بلا مقابل؟ ربما فكر فى ذلك السؤال وهو يخطو أول ميل فى مسافة المائة ميل - أو أكثر - فى ذلك اليوم من شهر مارس عام ١٨٣٠، حاثاً الثيران على عبور الأنهار والطرق التى أوحلها المطر، وهو يسمع السكان يخبرونه وذويه عن مدى صلابة تربة إلينوى لدرجة أنها تكسر سلاح أى محراث. لكنه رأى بعض أشياء قليلة فى الطريق

ملأته بالأمل مثل آلة للطباعة (ولم يكن قد رأى واحدة من قبل)،  
و"مهرجاً" يؤدي بعض الحيل الخداعية بيديه، وتلك علامات تشير إلى  
أن الحياة هنا يمكن أن تكون مختلفة عن حياة الزراعة. حينما  
لا يغرق في تأملاته، كان أبراهام يلقي بعض النكات والقصص، فهذه  
من تقاليد العائلة، وأبراهام لنكون يميل كثيراً لسرد النكات الخفيفة،  
فيقول في واحدة منها أن زوجة وزوجها شعرا أن يوم القيامة حان  
وقته واتفقا معاً على الاعتراف بخطاياهما، فقالت المرأة:  
- حسناً، إن صغيرنا سامى ليس ولدك ياعزيزى.

فقال الزوج:

- لمن يكون إذن؟

فأجابت:

- للإسكافى الأعور. حين جاء لرؤيتي ذات مرة ولم تكن أنت  
بالبيت، وفي لحظة ضعف استسلمت له. فقال الزوج:

- حسناً، هل باقي الأولاد لى؟

فأجابته:

- لا، فهم للجيران.

عندما وصلت العربات أخيراً إلى سانجامون، لم تبدُ تلك الأرض  
"أرضاً تمتلئ بالخيرات"، فقطعة الأرض التى تخصهم كانت قائمة  
على مقطع منعزل يطل على النهر وتكاثف به الأشجار. كانت قرية

ديكاتور مكونة من حفنة من الأكواخ الخشبية، ولم تبدُ أكثر اختلافاً عن مدن الغابات الأخرى التى سكنها من قبل، بل بدت أشبه بمكان "تملاه صفوة المجتمع التى تفخر بقدرة رجالها على جلد إنسان ما". كما قال أحد الجيران يوماً، وقد قام نفس الجار بتلخيص عادات الذكور الإجتماعية فى مناطق الغابات هذه بقوله: "أوامر اليوم: اضرب، وانهض، واشرب واتخذ أصدقاء، وسوف تمضى الأمور جيداً!" لقد كبر أبراهام وسط عالم يعد القتال والإغراق فى الشراب وسيلتين لقضاء أوقات الفراغ وكان ذلك هو المصدر الأول لمعنى الرجولة والاندماجية الإجتماعية، ففى مواجهات العراك التى يدعونها "كن خشناً واطرحه أرضاً!" لم يكن الخروج من تلك المشاجرات بكسور فى إصبع أو أنف أو جرح فى شفة أو اقتلاع خصيتين أو انتزاع عين من محجرها والاحتفاظ بها كذكرى للمنتصر، أمراً نادر الحدوث. بالطبع، لم تكن كل المشاجرات من نوع عراك الخشونة والطرح أرضاً "المطلقة بلا حدود"، وإنما كانت معظمها جولات من المصارعة أو الملاكمة التى تحكمها نظم وقواعد. لكن حتى فى المنافسة المنظمة "لو اشتبكت مع خصم غير مكافئ"، فقد تخسر عيناً أو أذناً فى شجار يعتبره كل واحدٍ غير عادل. "لم تكن تلك المواجهات مجرد شكل من أشكال التسالى الشعبية للذكور فقط، بل كانت السبيل للوصول للمكانة الإجتماعية وحفظ الشرف

وتقدير الذات، وفي حين كان الأثرياء يقومون بمعاركهم ورجال الغابة بمشاجراتهم لحفظ ماء الوجه، كان عليك أن تميل لأن تفقد جزءاً من ماء وجهك.

كانت أسرة لنكون عائلة مقاتلة، فنانسي هانكس - أم أبراهام - كانت قادرة "على مغالبة الرجال الذين حاولوا وضع قوتها موضع اختبار." ونظراً لطولها الذي يصل إلى خمسة أقدام وعشر بوصات ووزنها الذي يصل إلى ١٤٠ رطلاً، كانت تفوق معظم الرجال الذين يصل طولهم عموماً إلى خمسة أقدام وسبع بوصات. كان والد أبراهام أيضاً مقاتلاً أسطورياً إذ كان بطول نانسي نفسها مع جسم عضلي يصل إلى ١٩٠ رطلاً، "فلا تشعر بذرة شك في احتمال وجود أى درجة من الجبن عنده." في إحدى مشاجرات "الحشونة والطرح أرضاً"، اقتلع أنف خصمه، وفي أخرى قام بجلد خصمه دون أن يناله خدش واحد، وبعد لحظات "صارا صديقين مخلصين". خلال فترة ما دعاه أصدقاؤه بطلاً، وفي المقابل انتشرت شائعات أن توماس كان قد سبق إخصاؤه ربما بسبب القتال، أو بسبب تحوله عقيماً وسواءً كانت تلك الشائعات حقيقية أم لا فهي تؤكد نقطة قوته، لكن ما يعد أكثر أهمية هو أن ثقافة العنف التي يتعرض فيها المرء لفقدان خصيته في مشاجرة ما، تؤدي حتماً إلى توهج تلك الأقاوصيص الوهمية.

عندما لا يكون الرجال منشغلين بتعطيم أنفسهم كانوا غالباً ما يقتلون أنفسهم غرقاً فى الخمر، وفي بيدجون كريك وسانجامون كان الخمر المعتق محلياً يفيض أكثر من الماء. فى الواقع، كانت أمريكا- فترة تكوين أبراهام- جمهورية "الخمر" إذ كان متوسط ما يعبه الرجل منها حوالي ثمان جرعات من الويسكى أو أية خمر أخرى فى اليوم وعادة خلال ساعات قليلة، وكان أكثر من ربع السكان من الذكور البالغين يجمعون اثنتى عشرة جرعة أو أكثر. كان التنافس فى ذلك جزءاً من مكانتهم فى المجتمع. كان الهدف أن تشرب أكثر وتبقى متيقظاً واعياً أكثر من منافسك. رغم أن تجرع الويسكى والاشتباك فى أي شجار قد يدوان مسألة همجية أمامنا اليوم، إلا أنهما كانا من طرق التعبير عن اللامبالاة أو إخفاء الشعور بالخوف من المخاطر التي تكمن وراء الغابات، ففي أية لحظة تمر يمكن أن يطرحك أرضاً وحش بري، أو أحد الهنود أو إعياء المرض، وكان وجود الأطباء أو المتخصصين نادراً لعلاج تلك الآلام. كانت أوقات الفراغ تلك تعد تجليات للديموقراطية، تعكس وجود الفرص المتكافئة وروح الحرية. لكنهما فى الغالب كانت سُبلاً للجهلاء والوضيعين كيما يصبحوا قادة وسط مجتمعاتهم.

كان أبراهام تابعاً لتلك الثقافة وتابعاً منها، لكنه حين تقدم فى العمر بدأ يرفضها بالتدريج، ففي بيدجون كريك نال حظه من

المشاجرات وكؤوس الخمر، بل إنه خلع كُف أحدهم فى مشاجرة منها . لكنه مع وصوله لولاية إلينوى هجر الشراب والشجار وأكفى بالاشتراك فى مباريات المصارعة المنظمة فقط التى كانت أقل دموية لكنها ما تزال عنيفة إذ كانت مباريات المصارعة وجولات الشجار وسهرات الشراب تبدو له من سمات الطغيان لا الديمقراطية . رغم أنه نادراً ما ارتاد الكنييسة، فقد توصل إلى اعتقاد أن العناية الإلهية المُدبِّرة تطلب منا الوعى والسلام . بالإضافة إلى أنه قد عاين الكثير جداً من آثار هذا الماضى، وجوه تشوهت وامتلأت بالندوب، ورجال ضاعوا أو ماتوا بعمر الخامسة والثلاثين . يذكر ليلة شتوية مرّ فيها على رجل ثمل راقد على أرض غطاها الصقيع، ولما أدرك مدى تعرض حياته للخطر حمّله أبراهام إلى منزله وأوقد ناراً بجواره كيما يتمكّن من النوم متخلصاً من آثار الويسكي . فيما بعد، أفاد ذلك الرجل أن لنكون قد أنقذ حياته . كما أن أبراهام لم يحتاج إلى الدخول فى شجار لإثبات تفوقه الجسمانى، فمعظم الرجال يتحدثون نظراءهم من نفس الحجم، والقليل هم الذين كانوا يطاولون أبراهام حجماً، لأنه عند وصوله أواسط عمر المراهقة كان طوله يتخطى الستة أقدام . أما الآن وطوله ستة أقدام وأربع بوصات ووزنه يفوق مائتى رطل، فهو يمشى مشرفاً على الأرض . كان معروفاً بقدرته على رفع ألف رطل من الحجارة المعبأة داخل صندوق وكان يمكنه



أن يفوق ويقذف ويقفز أكثر من متحديه، وهذه المظاهر البيّنة للقوة تجعل الرجل من هؤلاء يفكر مرتين قبل تحديه فى القتال، وعندما يفعلون يقوم بإيضاح قوته قبل البداية. ذات مرة، قام رجل نحيف قصير بدعوته للقتال فوافق أبراهام طالباً من الرجل أن "يقارن أولاً حجمه" بجسم لنكون وأن يحسب أية ضربة يوجهها خارج علامة يحددها بنفسه على أنها خطأ منه، وقد آتت كلماته آثارها إذ أدرك الرجل فجأة أنه ليست لديه فرصة أمام مثل ذلك العملاق فانسحب بحكمة وتعقل. فبمجرد رؤيتك لأبراهام، تدرك أنك قد تخسر أمامه.

قضى العملاق الصغير الربيع والصيف - السابقين - في مساعدة والده وابن عمه على تنظيف عشرة أفدنة وبنى معهما كوخاً خشبياً وسورا، وزرع فيها قمحاً وكانت ذراعاه واكتافه قوية - جراء عمله بقضبان السكة الحديد - لدرجة تمكنه من رفع فأس ثقيل على مستوى أفقى بيد واحدة ممسكاً بها بثبات دون أن يرتعش. لكنه كان لا يزال يكره العمل وبدأ يتطلع إلى فرصة ترفعه باعتماده على نفسه. لذا، كان سيقبل بأي شئ طالما كان بعيداً عن الفلاحة والنجارة، وهما مهنة والده.

على ضفة النهر وجد أبراهام الحرية. فى شتاء ١٨٣٠-١٨٣١ احتاج رجل أعمال - ممن يتكلمون بسرعة - اسمه ديتون أوفوت، من

يعاونه فى الحصول على قارب ويملاؤه بالمؤن للذهاب إلى نيواورليانز عبر نهر المسيسيبي، وقد عرض أوفوت- وهو رجل سكير مشهور وقاس- مبلغ عشرة دولارات شهرياً لبناء القارب وإنجاز الرحلة. بدت الصفقة مُربحة، ووقع أبراهام عقد العمل، وكذلك فعل ابن عمه وأخوه غير الشقيق. قد يكون السفر عبر النهر خطراً، حيث قام بذلك أبراهام مرة من قبل فى سن التاسعة عشر، إذ قبل والده تأجيريه كعامل على قارب مسطح متجه إلى نيواورليانز مقابل ثمانية دولارات فى الشهر، وذات ليلة وهم يرسون عند شاطئ "السُكر" بالقرب من باتون روج، هاجم بعض العبيد قاربهم محاولين سرقة حمولته وقتل بحارته فالتقط أبراهام هراوة ضخمة وبدأ بالضرب بها ليدفعهم بعيداً وسرعان ما نجح فى قطع حبل الهلب "الذى يربط القارب بالقاع" وواصلوا إبحارهم. أثناء الهوجة، أصيب بضربة عصا فى رأسه تركت ندبة فوق عينه اليمنى وأثراً دائماً.

لقد أحب كثيراً الإبحار عبر النهر، إذ يمنحه ذلك العمل وقتاً يفرغ فيه للقراءة أو رواية الأخبار أو تأمل النجوم أو حتى الإنصات إلى نقيق الضفادع الصاخبة على الشاطئ. بعد عودته من رحلته الأولى عبر نهر المسيسيبي، وتسليم مكسبه لوالده، طلب من أحد أصدقائه معاوته فى الحصول على عمل بأحد القوارب البخارية، موضحاً: "أريد بداية." لكن صديقه رفض شارحاً: "إن ألف باء

العمل، أن الصبى الذى لم يتعدَ الواحدة والعشرين ويعمل بدون تصريح من والده . . يصبح عمله غير قانونى . " انتهت الرحلة الثانية عبر المسيسيبى بسرعة بعدما بدأت إذ حينما كانوا عند نهر سانجامون بقاربهم المسطح الممتلىء ببراميل القمح والدقيق، "شَحَطَهُ" قاربهم عند مدينة نيو سالم فوق جسر مائى تحت النهر يستخدم لتدوير الطواحين حيث كان عمق الماء ضحلاً، فاستقر القارب على سطح الجسر مثل جذع شجرة اعترضه عائق وسط شلال منهمر . ارتفعت مقدمة القارب وأخذ الماء يتدفق لمؤخرته ببطء . لو لم يسارع هو لإخلاء القارب لغرق وتحطمت حمولته . أقنع أبراهام أوفوت بنقل الحمولة من القارب إلى قارب آخر لتخفيف وزن قاربهم المسطح . ثم حفر ثقباً فى مقدمته لتصريف المياه بعدها أستطاعوا تثبيت القارب فوق سطح السد . أقبل سكان نيو سالم لمشاهدة هذه الحنة من ناحية الشاطيء، واستولت الدهشة على بعضهم لمهارة ذلك العملاق الغريب الذى يرتدى بنطالاً من الجينز مطويًا حتى ركبته، وقميصاً مخططاً من القطن (يدعونه "قميص هيكورى")<sup>٩</sup> مع قبعة من القش .

<sup>٩</sup> مصطلح يطلق على السفينة التي يصطدم قاعها بقاع النهر أو البحر نتيجة لضحالة المياه فتتوقف عن السير . شط فى العربية تعنى للمكان بُعد وللالّة تعطلت لنفاذ وقودها .

ماكادت تلك الكارثة تمضى، حتى قرر أوفوت شراء حوالي ثلاثين خنزيراً لبيعها خلال الرحلة. لم تكن المشكلة هي كيف يعيش على ظهر قارب مسطح بين ثلاثين خنزيراً حياً وإنما كانت كيف تدخل تلك الخنازير إلى سطح القارب بداية. لم تجدهم أية محاولة في حل هذه المشكلة، وأخيراً خرج عليهم أوفوت بفكرة مجنونة، هي خياطة جفون الخنازير لعلق أعينها أملين أن تنصرف الخنازير كالجياذ حين تغشى أعينها. قام أبراهام بإمسك رأسها جيداً فى حين تولى أوفوت وضع الأبرة والخيط خلال جفونها. هنا ثارت الفوضى فصرخت الخنازير - مرتعبة - وهي عمياء تماماً، ورفضت التحرك لأي مكان. تمكن الرجال فى النهاية من إدخالها القارب بعد ربط أرجلها وحملها عنوة فى عربات يد صغيرة.

كان المسيسيين يومياً يعج بالعديد من القوارب والبواخر والسفن إذ كان شرياناً رئيساً للتجارة الأمريكية، وسوقاً شاسعة دائمة التحول تدور فيها كل أشكال التجارة والنقل: من الكتب المقدسة إلى طلقات الرصاص ومن النساء إلى الخمر، وقد "أتاح ذلك أعمالاً كثيرة لجموع الرجال الجادين الأقوياء" ممن كانوا مشهورين بالسُّكر ومعادي الشجار، ويذكّرهم مارك توين بأنهم "كبار المتباهين". كان أولئك البحارة معروفين بحكاياتهم الطويلة، ومن أكثرهم شهرة - على سبيل المثال - مايك فنك، وهو من معاصري أبراهام وربما أكثرهم

شهرة، وكان بطلاً فى انتزاع أعين خصومه وصياداً جريئاً . عاش بجوار النهر- أو عليه- وقد سما بمهارة الحكيم الطويل إلى شكل فى جديد، وتباهى بذلك قائلاً: "أنا حكاى منتظم قادم من نهر المسيسيبي العجوز... أنا هذا الطفل الذي رفض الرضاعة قبل أن تفتح عيناه وطلب زجاجة من خمر الرأي المعق! يمكنى أن أتفوق فى القفز، والعدو، وإطلاق الرصاص، والحكي، والشرب، والمقاتلة، وطرح الخصم أرضاً، والشجار بلا قيود، على أي رجل يسكن على ضفتي المسيسيبي."

كان أبراهام يعرف أخبار فنك ويعلم مستوى اللغة المستخدمة فى ولايتي كينتوكي وإنديانا وأنه لا يوجد مثل طلاقهما، كما كان يعرف أن مجارة النهر كانوا أكثر وضاعة وغدراً من أوغاد الشاطيء . لذا، حافظ ومعه باقى مجارته على بقائهم دوماً على مبعدة من القوارب الأخرى، فأى حديث طويل ينشأ يمكن أن يتحول إلى جولة دائمية . وبدت نيوا أورليانز، كبلد أجنبي يسكنها خمسون ألف نسمة تشمل ثلاثين ألفاً من الأمريكيين الأفارقة، وعدّها أبراهام مدينة سوداء فى كل من مقاطعة هارين وكنتوكي يوجد حوالي ألف فقط من العبيد (يمثلون ١٠% من السكان) . كانت بيدجون كريك وإنديانا كلها مجتمعات بيضاء . حقيقة أن كلا من إنديانا وإيلينوى قد حظرتا

هجرة السود، إلا أن المستوطنين كانوا غالباً من البيض الفقراء الذين كرهوا السود تماماً.

في الواقع، كانت نيو أورليانز أكبر مخزن للعبيد في شمال أمريكا وكانت تمتلئ بالعشرات من أسواق النخاسة حيث كان الناس يُباعون ويُشترَوْنَ مثل الخيول. كان من المستحيل تقريباً أن تتواجد في تلك المدينة ولا تمر بمشاهد العبودية وأصواتها: لسع السياط والصراخ، وقعقة السلاسل عبر الأرصفة، ونظرة نعمة من رجل أبيض لامرأة سمراء البشرة؛ وقد كتب أبراهام عن رؤيته للسود المكبلين في الأغلال وسوء معاملتهم وأن "قلبه نزع دماً" من أجلهم. لم يكن كل هذا العنف هو ما أزعجه، لأنه رأى كثيراً من حوادث العراك القذرة. لكن في تلك الإشتباكات التي يمارسها البيض، يقوم الرجال بتشويه بعضهم البعض بإرادتهم ورغبتهم، وسعيًا للدفاع عن كرامتهم بصورة جزئية. أما العبيد فلا كرامة لهم في عقول السادة، فهم في ثقافة العنف هذه مشاركون بلا إرادة. الأكثر من ذلك، ولكونه حديث التحرر الاجتماعي - بوصوله لسن الاستقلال عن والده - كان حساساً بصورة خاصة نحو مشاهد العبودية فيقول: "إن الصور المفزعة لا تزال راسخة بذهني حتى الآن." وما أدى لصدمته عندئذٍ ما أدركه بأن مأساة الآخرين تبدو في الذين يبقون غير أحرار للأبد.

عند نهاية الرحلة، وصل ديتون أوفوت إلى درجة من التأثر  
بأن يكون حتى أنه عرض عليه وظيفة كاتب المخزن العمومي الذي  
كان يجري افتتاحه في نيو سالم، فقبل لتكون العرض فوراً، فالوظيفة  
ستسمح له بأن يهجر حرفة الفلاحة وقطع الأخشاب وتتيح له فرصاً  
أكثر في نيو سالم لأنها كمدينة كانت أكبر من أي مجتمع آخر عاش فيه  
من قبل. كانت تحوي حوالي مائة إنسان، "ودسة" من المنازل  
والمخازن. كانت تماثل في ضخامتها مدينة شيكاغو عام ١٨٣١،  
وعملت كسوق مركزي للفلاحين الذين يأتونها لبيع حبوبهم وشراء  
الخمر والمواد التموينية الأخرى، وكانت بها كنيسة ومدرسة وطبيبان.  
كلهم على مسافات متقاربة، فهي موئل راحة بالنسبة لأبراهام، وبدأ  
أن سكان نيو سالم أكثر تهدياً من أولئك في بيدجون كريك، كما  
كان هناك الكثير من الكتب في كل مكان مع قليل من السكاري  
والمشاجرات لأنها مازالت تعد مدينة أمامية وسرعان ما وجد  
أبراهام نفسه في خضم عراك آخر.

انتشر الخبر بسرعة عن وصول الفتى الجديد للمدينة. كان جزء  
من ذلك يرجع إلى ثروة أوفوت ومباهاته بحجم وقوة هذا الموظف  
وعندما تنهى الخبر إلى جاك أرمسترونج أراد أن يختبره ويهزمه  
دفاعاً عن مركزه أمام تفاخر أوفوت، إذ كان أرمسترونج قائداً  
للعصابة المحلية في مستوطنة قريبة اسمها كلاري جروف. كان قويا



كالثور ومصارعاً منتظماً يبحث دوماً عن العراك والقتال . كان -  
ومعه عصابته - يجتذبون الغرباء للعب "الكوتشينة"<sup>٦</sup> ثم يضربونهم  
ويسلبونهم الأموال، بل هو أكثر وضاعة من ذلك إذ اشتهر بقيامه  
بشئ خنزير وهو حى مستمتعاً - بشكل ظاهر - بصرخات آلامه  
قبل أن يأكله . كانت تلك التصرفات الوحشية تجاه الحيوانات أمراً  
سائداً، ومعها حلقات صراع الديكة ونزع رقبة الأوز: "أى فصل  
رقبة الأوز وهو حى بجبضة واحدة"، وتحطيم سلحفاة على جذع  
شجرة أو قذفها فى النار ومشاهدتها تتلوى . كل تلك المشاهدات  
كانت جزءاً من طبيعة المكان . كان لينكون قد اعترض كثيراً على  
تلك التصرفات فى منطقة بيدجون كريك بقوله: "إن حياة النملة  
بالنسبة إلى النملة تعادل حلاوة حياتنا بالنسبة إلينا ."

وبعكس أرمسترونج، كان قادراً على التعاطف مع المخلوقات  
حتى لو كانت مختلفة تماماً عنه .

كان لينكون متردداً فى قبول القتال . لكن أوفوت حرضه على  
ذلك لأنه كان يرغب فى كسب بعض النقود من تلك الجولة، فوافق  
لينكون لكن بشروطه الخاصة فقط . وهي قيام مباراة مصارعة  
يمسك فيها المرء خصمه شالاً حركته ليمنعه من تحول المصارعة إلى  
ملاكمة مع منع العض، لكيلا نصل إلى الأسوأ مثل انزعاق مقلة العين أو

<sup>٦</sup> أوراق اللعب وتسمى فى العامية " الكوتشينة " .



الإخضاء، والهدف هو طرح الخصم أرضاً حتى تلامس كفه وإحدى إيديته الأرض، في حين أراد أرمسترونج مباراة تمتليء بالتدافع والتشابك وتكون أكثر وحشية. لكن لنكونن تمسك بشروطه.

جاء الناس من كل حذب وصوب لمشاهدة المباراة، وتراهنوا بالخمر والمُدَى، وراهن أوفوت على موظفه بعشرة دولارات. كان ميدان المصارعة أمام مخزنه (وهذا يساعد على إنعاش مبيعاته لاشك). التفت الجماهير حول المتصارعين، مُشككين حلقة، وما حدث بقي- بالفعل- غامضاً. بسبب ضباب الذاكرة وحقيقة أن جمهرة من الناس كانت تتكالب على المشاهدة، نجد قليلاً منهم فقط هو الذي تمكن من الرؤية الواضحة. لكن في لحظة ما كسر أرمسترونج القاعدة وأعلن لينكونن أن ذلك يُعد خطأ، وربما يكون أرمسترونج قد قذف لينكونن بعيداً، وربما يكون لينكونن أمسك بأرمسترونج قابضاً على زوره، وربما حاول رفاق أرمسترونج التكلّم ومهاجمة لنكونن الذي ظل ثابتاً وتحداهم أن يواجههم واحداً واحداً ورفض قتالهم دفعة واحدة. بكل المعايير، كاد أرمسترونج أن يقرّ بخطئه. ثم اتفق الطرفان على إعلان نتيجة المباراة بالتعادل، ولم يُصب أيُّ منهما بجراح خطيرة، ولم يخسر أحد أمواله في تلك المنافسة.

كانت تلك الواقعة "نقطة تحول" في حياة الصبي لنكون، وذلك تبعاً لما ذكره شريك لنكون في الحاماة مستقبلاً، وواقفه لنكون على ذلك ضمناً. بعد عدة سنوات، أطلق مصمم حملته الانتخابية على ذلك القتال "أنه واحد من أهم أحداث حياته المبكرة" وقد قرأ لنكون النسخة الخطية مصححاً أخطاء بعض الوقائع وبعض التفسيرات على هامشها وترك هذه الخلاصة لواقعة العراك تلك دون مساس بشأن أهميتها. بالطبع، كانت تلك إطلالة على الماضي خلال هروته نحو منصب الرئيس، وحتى في ذلك الحين تمنى لنكون أن يؤدي هذا العراك إلى تحسين موقفه أمام المجتمع. على أية حال، كان عندما وصل إلى هناك تقريباً غريباً تماماً؛ فهو "دخيل، بلا أصدقاء، وغير متعلم، وصبي، ومفلس" وذلك وفقاً لما ذكره بنفسه نصبت تلك الواقعة لنكون قائداً في نيو سالم، واكتسب احترام جاك أرمسترونج وجماعة كلاري جروف التي كانت لها سيطرة وفوق ولها اعتبارها، وأعجبوا بقوته وشجاعته وجراته. بعد أقل من عام - أي في ربيع عام ١٨٣٢ - ساعد فتيان كلاري جروف في انتخاب لنكون كقائد لجماعة متطوعي نيو سالم في فترة حرب الصقر الأسود (البلاك هوك)، ورغم أن جماعة لنكون لم تواجه أية عمليات قتالية - إذ استمرت تلك الحرب ثلاثة أشهر فقط - فقد قام لنكون بمحاربة البيض بدلاً عن الهنود حيث قام

بمصارعة الرجال من الجماعات الأخرى وفاز بكل الجولات عدا  
جولة واحدة، واتخذ رجاله مثلاً للقائد والمقاتل، وقد كرر لنكون  
قوله إن انتخابه كفائد "كان نجاحاً منحنى السعادة أكثر من أي  
شيء آخر حصلت عليه."

كانت تلك مقولة غير عادية لأنه حين قالها كان شخصاً مشهوراً  
على المستوى القومي، وخدم دورة كاملة بالفعل فى مجلس نواب  
الولايات المتحدة الأمريكية "الكونجرس" قام خلالها بمحاجاة النائب  
ستيفن دوجلاس. لكنه فضل أن يحترمه أنداده على أن يحترمه  
غيرهم، فالمقاتلة والقيادة جعلاه زعيماً يؤمن كرامته داخل المجتمع،  
مدعماً ثقته وموقداً طموحه، وأثبت الفتى الجديد فى المدينة  
مكاته. فور انتهاء موضوع العراق وخضوعاً لتشجيع رجال مدينته،  
رشح لنكون نفسه للمجلس التشريعي للولاية ولم تكن لديه خبرة  
سابقة. لكن تلك كانت سياسة تلك المدن الغابية حيث تضيف  
أبناء الشجار والسكر نسيجاً حياً لمجالات النقاش، واعتنق سياسة  
تحسين الملاحة على نهر سنجا مون أماً فى زيادة نمو مدينة نيو سالم  
وفُرس تجارتها وكان يقول - مجادلاً - أنه مؤهل بصورة فريدة لمناقشة  
ما يتعلق بالنهر لأنه يعرفه جيداً، ومر بكارثة كبيرة على سطحه فى  
وقتٍ ما ويمكنه مخاطبة السلطات بشأن سبل تطويره.

كما أكد لنكون على أهمية التعليم كوسيلة للتطهر من رزايا تلك المدينة المترامية عند أطراف الغابات رغم أنه لم يكن يملك خطة محددة لتحقيق ذلك حيث قال فى نشرة دعائية انتخابية- طبعها وكتبها مجهول من أجله: "إننى أود رؤية التعليم-ومعه بحكم الارتباط الأخلاق والوعى - والاستثمار والصناعة قد أصبحوا أكثر انتشاراً مما هم عليه الآن!.. إن ذلك أكثر الموضوعات أهمية والتي يجب أن نعمل عليها كبشر.. (إذ كان طموحه أن يكون) محترماً أمام رفاقه."

لقد جلبت له معركة مع أرمسترونج بعضاً من التقدير وأضحى يأمل اليوم فى أن يضيف إلى ذلك نوعاً جديداً من الانتصار. لكنه خسر تلك الجولة رغم حصوله على أغلبية كبيرة من الأصوات فى دائرة نيو سالم الانتخابية. ومن الواضح أن صداقة لنكون وأرمسترونج تطورت سريعاً، حيث أسفرت مهاراته وقدراته القتالية وميل أرمسترونج للإقرار بخطئه نحو صديقه عن الإحترام والتقدير المتبادل، ولو استجاب لنكون لتحدي أرمسترونج فى البداية بملاكمته وتشويه وجهه، وهو ما كان محتملاً حدوثه، لوقع فى مخاطرة إهانة أرمسترونج ولاكسبه عدواً أبدياً له، وكما هو متوقع استضافه أرمسترونج فى بيته ومنحه "طعاماً وكساءً" بعد العراك وأدى الخدمة كضابط صف فى جماعة لنكون أثناء حرب الصقر الأسود

تواصلت صداقتهما لأحقاب عدة، وأرمسترونج يقدم الدعم والتأييد لدور لنكولن السياسى حين قام الأخير بتوفير مساعدات ملحة لأسرة أرمسترونج. في عام ١٨٥٧ حينما اتهم "دوف" ابن أرمسترونج بجرمة قتل، هب لنكولن لإنقاذه. كان دوف - دمويًا كوالده - قد خرج ذات ليلة يلهو مع صديقين له، فنشبت بينهم مشاجرة، وهنا قام دوف وصديقه بتهشيم رأس صديقهما الثالث، ومات الأخير بعد أيام قليلة من الواقعة. كان عدد من الناس قد شاهدوا عملية القتل، وتمت إدانة ما فعله دوف (الذى قدم للمحاكمة أولاً بتهمة القتل العمد وحكم عليه بالسجن ثماني سنوات. باعتبار لنكولن محامياً عندئذ بولاية إلينوى، فقد وافق على الدفاع عنه، وتوسل إلى استخلاص ثغرات فى شهادة الشهود مع التأكيد على طيبة وصلاح أسرة أرمسترونج حيث كانوا "طيبين معه حينما كان صغيراً وحيداً بلا أصدقاء". هكذا قال هيئة المحلفين. من هنا رأوا أن دوف ليس مُذنِباً فخرج مطلق السراح رغم الأدلة الوثيقة ضده، بما فيها الذى صنعه بيديه، وكان عبارة عن كرة من الرصاص قذفت بواسطة شريط من الجلد نسميه "المقلاع"<sup>٧</sup> وقد علق وكيل النيابة على ذلك بقوله: "إن أرمسترونج الصغير لم يبرأ بسبب أي نقص فى الشهادة ضده وإنما كانت مرافعة لنكولن وقبول

<sup>٧</sup> المقلاع: يسميه العامة النبلّة.

هيئة الحلفين هما ما أنقذهما فعلاً. لم يتقاضَ لنكونل أية أتعاب عن ذلك من أسرة أرمسترونج، حيث يمكن للصدقة والوفاء أن يُبرءا قاتلاً.

أدى عراك لنكونل ثم الصداقة الناشئة مع جاك أرمسترونج إلى تلقيه درساً مثل مبدأً أساسياً في عمله. نجده يقول عن ذلك بعد عدة سنوات تالية من الواقعة: "إذا أردت أن تكسب امرأة ما في جانبك، أقنعه أولاً أنك صديقٌ مخلص ... قم بالتراضي مع عدوك حتى تصلاً لنقطة ما. عندها ثبت قدمك بالأرض وابدأ القتال!" في حين كان لنكونل على استعداد للتضحية بالمباديء في سبيل الصداقة، كان الصبي فريدريك يبلى يتعلم درساً آخر شديد الاختلاف مستخلصاً من عراكه مع كوفي، يقول: "لا تصادق - عمرك - عدواً ما لم ينتقل إلى جانبك أولاً لأن الصداقة تعتمد دوماً على القضايا والمباديء المشتركة، وسوف يقوم كلاهما - لنكونل وفريدريك - بتطبيق تلك المباديء خلال سنوات الاختبار في الحرب الأهلية، وبالنسبة للنكونل فهو لم يقيم أبداً بعقد علاقة وثيقة بوالده إذ بعد انتقاله إلى نيو سالم لم يراه إلا نادراً رغم أن والده توماس كان يعيش على مقربة من المدينة. ذلك لأنه لم يستطع أن يكسب صداقة والده كما لم يستطع أن يحوله إلى صفة في قضايا التعليم والتهذيب، حيث ظل توماس - في ذهنه - سيداً سابقاً وإنساناً

يُشكل عائقاً أمام محاولته للتقدم. من هنا حافظ على المسافة التي بينهما رغم أنه قام بتوفير احتياجاته عندما كبر في السن حقيقة، لم يحضر جنازة والده، فقد كتب عام ١٨٥١ ووالده يحضر: "لو أمكننا أن نلتقي الآن، يملأني الشك حول ما سيكون عليه اللقاء، فقد يبدو مؤلماً أكثر منه مُبهجاً". كان دائماً ما يربط بين والده وبين ذكريات العمل اليدوي الشاق، والجهل والقيود التي أفضل لها أن تمضي في طي النسيان. في المجتمعات التي تفرز قتيانا مثل فريدريك بيلي وأبراهام لنكولن تجد قاموساً من الاستفزازات اللفظية وعالمًا من الكلمات التي لا تقل عن كلمتي العراك والسكر، ففي محاولة أدبية له نجد أحد السادة - بعد ما استعاد عبده الذي حاول الهرب مرتين وقبل عقابه- يطلب أن يعرف سبب محاولة العبد الهرب. رغم أنه يحمل له مشاعر متعاطفة ويعامله بطيبة وإنسانية وينتظر اعتذاراً عن ذلك، لا يقول العبد سوى "إنني أستسلم لقدري، فأنا عبد!!" تلك الإجابة الساخرة تشعل جدلاً حول مدى أخلاقية العبودية.

السيد :

يوجد ذلك في النظام الإلهي، أن يكون الإنسان مسخراً لآخر. كان الأمر كذلك أبداً وسيظل.

العبد :



إن اللص الذى يوجه مسدساً نحو صدرك، يلمس لنفسه ذات العذر، فالإرادة الإلهية تمنحه القوة للسيطرة على حياتك وعلى ما تملك، وتوفر لأعدائى - كذلك - سيطرة على حريتي. لكنها منحني أقداماً كي أهرب بها .

السيد:

لكن قر فى نفسي ليس فقط أن أجعل حياتك مريحة لدرجة ميسرة فى الوقت الحاضر، ولكن أيضاً أن أوفر لك المعيشة عند كبر السن .

العبد:

- هل حياة كالتى أحيائها تستحق أن أفكر فيها عند الشيخوخة؟ لا، فحالما تنتهى، سوف أحصل على الراحة التى تتطلع إليها روحى .

عند كل جولة، كان العبد يدافع عن نفسه ببراعة مستعرضاً عنف ووحشية العبودية، وعند فوزه بالحاجة يفوز بحريته .

لقد اكتشف كل من الصبي أبراهام والصبي فردريك ذلك "الحوار" فى نفس الوقت - فيما بين عامى ١٨٣٠ و ١٨٣١ - وقد تبدى ذلك فى كتاب "الخطيب الكولومبي" وهو مجموعة من نصوص طبعات "القاريء الشعبي: دليل للمهارة الخطابية معدة للصغار" جمعها معلم ماساتشوستس الأشهر كالب بنجهام. كان ذلك الكتاب من أكثر



الكتب شعبية فى تلك الأمة الجديدة، وقد طبع منه ما بين الأعوام ١٧٩٧ حتى عام ١٨٦٠ حوالى ٢٣ إصداراً وبكل المنازل الأمريكية كان يُعد واحداً من الكتب الأساسية بالإضافة للكتاب المقدس، وكتاب للتلهجي، وآخر للتقويم الزراعي. كان كتاب الخطيب فى مادته كتاباً راديكالياً، لأنه استخدم القصص والخطب والشعر لتعليم الصبية أن كل الناس قد خلقوا متساوين ولهم حقوق لا تميز بينها فى الحياة والحرية والسعادة، وكان- لذلك- يُعدّ كتاباً ثورياً راديكالياً. فى الواقع، خلال التسعينات من القرن التاسع عشر "١٨٥٠!!!" وفى ذروة أزمة العبودية، شملته معظم جرائد وصحف الجنوب ضمن قائمة سوداء للكتب الممنوعة، وحظرته داخل المنازل والمدارس فى الجنوب الأمريكى مجزماً. أكشف فردريك بيلى "الخطيب الكولومبي" ذات يوم وهو صبي فى الثانية عشرة من عمره فى حوض سفن بالتي مور. كان قد سمع عنه من أحد الفتيان البيض الذين التقى بهم فى الشوارع أثناء قضائه "مشاويره" من أجل صوفياً وهيو أولد، وعلم- من هنا- أن الكلمات يمكن أن تكون سلاحاً خاصة وأن صوفياً أولد قد أعطته دروساً منتظمة للقراءة إلى أن أكشف زوجها ذلك فأوقفها، حيث قال إن "المعرفة لا تناسب طفلاً سيكون عبداً. عندها فكر فردريك فى نفسه: "حسناً!" سوف يحصل على المعرفة بنفسه.



في شوارع بالتيمور كان يسأل الصبية البيض عن دروس التهجي مُقدِّماً لهم قطع البسكويت مقابل الكلمات، وكانوا يمارسون دروس هجائهم وكلماتهم على سلام الأبواب وبراميل الدقيق، بل أحياناً كان يجعل الفتيان البيض يتعاطفون مع مأساته، عندما كان يقول لهم "إنهم سيصبحون أحراراً عندما يبلغ الواحد منكم عمر الواحد والعشرين ويمكنكم عندئذٍ الذهاب لأي مكان تشاءون، ولكنني . . . عبدٌ (مدى الحياة)". كانوا يوافقونه على أنه يملك نفس الحق في أن يكون حراً مثلما يملكون. كانوا يشجعونه على القراءة، وعرفوه بكتاب "الخطيب الكولومبي" الذي كانوا يدرسونه آنذاك، وذهب فردريك إلى محل لبيع الكتب بشارع توماس يملكه السيد نايت (وكان دائماً ما يذكر المحل) واشترى نسخة بنجسين سنناً أكسبها سراً بتمليع القوارب.

كان ذلك الكتاب "كزاً ثميناً" بالفعل كما قال، وقام بقراءته كلما استطاع وأخفاه في علية المطبخ حيثما كان ينام. كان يتذكر - تقريباً - الحوار بين "السيد والعبد"، وكانت له بعض الفقرات الأخرى المفضلة كذلك مثل "خطاب في تحرير أيرلندا" الذي كتبه دانييل أوكونيل، وخطاب رجل الدولة لويليام بيت وهو يمجّد الاستقلال الأمريكي في مجلس اللوردات الإنجليزي. بتصنيف فردريك مع الأبطال، تخيل نفسه العبد الذي شق طريقه متحرراً من القيود

فيصبح الآن "أوكونيل" الأسود أو "بيت" واقفاً فى مجلس النواب الأمريكى "الكونجرس" لتأكيد الحرية الكونية. لم يؤد الكتاب لتحسين مفرداته اللفظية فقط وإنما مكّنه من أن "يمنح لساناً" لأفكاره تلك التى "كثيراً ما التمعت عبر روحي، ثم تلاشت لافتقارها إلى اللفظ". ساعده الكتاب على تخيل عالم جديد خلال الكلمات أثناء قتاله بقبضات يديه وأقدامه، وساعده على التحدث مع "كمسارى القطار" بصوت هادئ مطمئن كما علمه بنجهام وهو يهرب نحو الشمال فى قطار الحرية.

كان الصبى أبراهام قد قرأ كتاب "الخطيب الكولومبي" خلال شتاء ١٨٣١م، بعد شهور من واقعة عراق جاك أرمسترونج، وكان نهماً للمعرفة مثل فردريك، وكان ذلك الكتاب واحداً من الكتب القليلة التى قرأها خلال فترات تكوينه الأولى بالإضافة لكتاب آخر هو الكتاب المقدس وكتاب أو كتابين آخرين. كان يقرأ بعمق مثل فردريك لساعات طويلة ويتذكر كثيراً مما قرأه. لما كان الأمر هكذا، رأى فى نص "حوار بين السيد والعبد" بعضاً من مظاهر علاقته بوالده، وتعلم من بنجهام كيف يوفق نفسه فى الحالات الحرجة مثل لحظة مواجهته لأرمسترونج وتحديد خطئه.

كان كتاب "الخطيب الكولومبي" هاماً بالنسبة لفردريك ولأبراهام بوجه خاص لأنهما علّما نفسيهما ولأن الكتاب كان دليلاً ممتازاً

لمساعدة الأفراد على التحدث والجدل اعتماداً على الذات، فلم تكن هناك مدارس للعبيد كما أن فردريك مُنِعَ من القراءة بعدما اكتشف هيد أولد مساعدة زوجته لفردريك تعليم نفسه. كذلك كان على لينكولن أن يتعلم بنفسه اعتماداً على ذاته، لأنه حُرِمَ الالتحاق بالتعليم الرسمي بسبب نقص المدارس والمعلمين المؤهلين ولأن والده كان دائماً ما يؤجره نظير مقابل مادي، وعندما وصل لمدينة نيو سالم كان لا يزال غارقاً في جهله. يقول عن هذا: "لم أكن أعرف كثيراً". كان كل ما يعرفه تعليمياً يكافيء الصف الثامن (الآن).

مكن ذلك الكتاب كلاً من لينكولن وفردريك وجلاس ليس فقط من أن يتخيلا عوالم جديدة وإنما علمهما كذلك مخاطبة العامة، ويعنى ذلك أنهما تعلما كيف يخفيا حركات الجملية وطرق كلامهم التي اكتسبها من قبل، فالقادة الديموقراطيون ينتظر منهم أن يكونوا ديمقراطيين وسلوكهم راقٍ لكن ليس إلى درجة زائدة، ومثل الرجال المهذبين لكن ليس كأرستوقراطيين. لقد وصف كالب بنجهام لقراءه كيف يطبقون هذه الطقوس، وكان النطق السليم مسألة حساسة لها نفس أهمية لهجة الحديث وأساليب تأكيده وإيقاع الكلام. عند هذه النقاط، أثبت الكتاب قيمته التي لا تقدر بالنسبة إليهما لأنهما عام ١٨٣٠ كانا يبدوان كريفين جاهلين، ففي عالم "أبراهام" تجد ألفاظاً مثل (الفاكهة تبوظ)، (الناس بتجيب الحاجة من الغابة )، و(انت لازم

تعلم لازم) أو (المتزلجن كانوا كثار زى الشجر فى الوادي)، وتبدو  
إحدى قصائد لينكولن المبكرة بذلك الاسلوب:

أبراهام لينكرن . . بشحمه ولحمه . . هاتحسن أحواله

وربنا يعلم امتى

ومن السهل -أيضاً- إعادة بناء لهجة فردريك لأنه فى حروف قليلة  
خاصة به يستثير شيئاً ما فى نفسه كصبي صغير يعيش على  
الشاطئ الشرقى حيث يقول :

كنت هاطرد أبويا وأنا كان مزاجى متعكر دي حقيقة !!

كل الغلط عندهم إنك تجيب حاجة للزنج ياكلوها<sup>٨</sup> !!!

بالنسبة لـبنجهام- الذى تعلم فى دارث ماوث- كانت تلك  
الكلمات تمثل أصوات الغباء وليست لرجال سيكونون عظماء. لكن  
صبيّة قرى ما وراء الغابات ما كان للأمل أن يتسرب من بين أيديهم،  
لأن كتابه علمهم كيف يتكلمون كالزعماء الديموقراطيين كما تؤدي  
خطبهم إلى تحسين طبيعتهم، كما هو متوقع من تأثير اللغة وقد تصبح  
كتب مثل "الخطيب الكولومبي" أكثر أهمية من المصارعة بالنسبة  
لفردريك بيلى دوجلاس ولأبراهام لينكولن، وما تزال قوتها  
ومهارتهما كمقاتلين لا تحتاج إلى الظهور فى اللعب، إذ لو كانو ضعافاً

<sup>٨</sup> يذكر المؤلف كلمات بالعامية الريفية الأمريكية يصعب نقلها للعربية  
صوتاً وأحاول هنا كتابتها بالعامية المصرية ليستبين هدفه.



رعاديد لما استطاعوا النهوض وسط عالمهما المتوحش ، ولفقدا  
الثقة فى نفسيهما وتقدير الذات الضرورين لإعادة بناء نفسيهما،  
فعبر المقاتلة تمكنا من الدفاع عن وجودهما وعن شرفهما، وقد  
يحتاجان إلى تعلم كيف يصبحان رجلين ديموقراطيين مهذبين.

obeikandi.com



## الفصل الثانی:

خطیبُ مطارَد . . وسیاسی ریفی

"لأن معركة الحرية قد بدأت مرة ،  
إذ أورثها الجدُّ النازفُ دماً لابنه ،  
ورغم تعرُّها إلا أنها غالباً ما تُكسب."  
لورد بايرون<sup>٩</sup> من قصيدته "المرتد"  
"من أجل هذا وذاك ، فسيأتي حتماً من أجل ذلك،  
فهذا الإنسان للإنسان، (بعد انتهاء العالم)  
سيكونون أخوة من أجل ذلك."

روبيرت بيرنز<sup>١٠</sup>

من قصيدته "هناك من أجل الفقر الحقيقي"

---

<sup>٩</sup>لورد بايرون شاعر إنجليزي سبقت الإشارة إليه.  
<sup>١٠</sup>روبيرت بيرنز شاعر إسكتلندي ولد بالوواي عام ١٧٥٩ ومات صغيراً عن عمر يناهز ٣٨ سنة عام ١٧٩٦.



عندما وصل فردريك إلى مدينة نيويورك في الرابع من ديسمبر ١٨٣٨م ، تبخرت آمال الحرية فجأة ، وشعر كأنه كان يشاهد ناراً جميلة انطلقت بلهبها خارج سيطرته لتلتهم كل ما يحيط به مخلقة تلك الأشياء رماداً ، وأضحت أثراً بعد عين خلال يقظته، وكان يتذكر ذلك فيتمتم: "تملكنى شعورٌ بالوحدة وعدم الأمان وقهرنى حزناً". كان وحيداً تماماً فى مكان غريب بلا تقود أو طعام وبلا أحد يلجأ إليه طلباً للمعونة، ويكمل: "وسط آلاف من رفاقى، إلا أننى أبقي وحيداً كلية". بدت نيويورك كمثاهة من الشوارع وخليط من أصوات ألسنة غريبة. كانت حاضرة البلاد تصل أعداد سكانها إلى ٣٥٠.٠٠٠ نسمة، وقد امتلأت الأرصفة بالناس الذين شكلوا تركيبة فريدة من ألوان القبعات والمعاطف، وازدحمت الشوارع بسيارات الأجرة، والعربات الخاصة، والخنازير "وجامعى قمامة المدينة الذين كانوا يتابعون وراء العربات والمارة كما لو كانوا يرغبون فى التعارف. حتى الهواء بدا مختلفاً، وكانت رائحته ممتزجة بالروث والعطر وروائح الأجسام والطعام المتعفن، وكان كل وجه يبدو له خصماً، حيث اعتاد فردريك أن ينظر للمجهولين البيض كأعداء وللأسود الغرباء على أنهم "كثيراً كانوا أم قليلاً فهم خاضعون للبيض". لكنه كان أكثر خوفاً من أولئك النيويوركيين وهم يتدافعون إلى الأمام وإلى الخلف من خوفه من مجموعة من الذئاب الجائعة.

وقد أشعلت مقابلة مع واحد ممن يعرفهم من السود مصادفة مخاوفه، فبعد التجوال بالشوارع لعدة ساعات التقى فردريك بجيك- وهو عبدٌ من بالتمور مُطارَدُ الآن- ويعمل "غَسَّالاً" ومن النوع الذي تهزمه شكوكه، وكاد سيده السابق يستعيد أسره تقريباً. حذره جيك أن المدينة تمتلئ بأثرياء الجنوب يقضون فيها إجازاتهم بينما السود على استعداد للوشاية به لدى صائدي العبيد الهاربين مقابل حفنة دولارات بقوله: "لا تثق بأحد، ولا تفكر في الذهاب إلى أرصفة الموانئ للعمل أو حتى الذهاب إلى نزل الضيافة للمبيت، وإلا سيتم القبض عليك!" رفض جيك أن يساعد فردريك أو حتى أن يرشده إلى مكان آخر يطلب فيه المساعدة، وقد تشكك - فعلاً- في أن يكون فردريك مأجوراً لصائدي العبيد، فاختفى بعدها وسط الجماهير حالاً. ما كانت مخاوف جيك، رغم المبالغة فيها، دون أساس لأن النيويوركيين أصبحوا أثرياء بفضل عبيد الجنوب والقطن معاً، ولأن المدينة- كانت تقديراً- ملحقاً من ملحقات الجنوب إذ كان لتجار نيويورك علاقات تجارية ممتدة ومرجحة مع التجار جنوب خط ماسون وديكسون. هذا ما ذكره أحد قاطنى جنوب ولاية كارولينا ممن استوطنوا نيويورك بعد ذلك.

كان بعض رجال المدينة من البيض قد أملوا فى تمديد مناطق العبودية وإنهاء حركة المطالبين بتحرير العبيد من أجل تحسين التجارة

وزيادة أرباحهم وبالتالي كان واجبا أن يبقى العدد المتزايد من الهاربين السود إلى المدينة تحت المراقبة المستمرة لسادتهم أو لصيادي العبيد . كما عاش البيض أيضاً فى حالة دائمة من الخوف، لأن واحدة من أسوأ فترات الإحباط فى التاريخ الأمريكى قد بدأت منذ عام سابق، ففى مايو ١٨٣٧ انهارت الأسعار بعد سنوات من الرخاء، وتوقفت البنوك عن الدفع بواسطة المقابل الذهبى والفضي لتبقى فى السوق . كانت المدن والبلاد بالشمال الشرقى قد ضربها الانهيار الاقتصادى بشدة بصورة خاصة، مستثيرة اليأس من الثروة المتواجدة فعلاً بنيويورك، وقد جذبت تلك الأوقات الصعبة عائلات الطبقة المتوسطة إلى الفقر والإفلاس، وأشعلت المخاوف من نشوب التمرد وحدوث الدمار . لقد وصل فردريك إلى مدينة تترنج تحت وطأة البطالة الشاملة، إذ فقد حوالي ثلث عمال المدينة وظائفهم . أما أولئك الذين حظوا بالاستمرار فى العمل فقد رأوا أجورهم تنخفض بمقدار حوالى ٣٠% .

شبه الناس ذلك الوضع "بإغلاق القفص على طائر بري" أو كارثة طبيعية، "فقد استيقظ الناس من أحلام عظيمة وسط دمار وخراب، حيث تناثر حصاد السنين فى يوم واحد . " لم يكن هذا وقتاً ملائماً للوصول المرء إلى المدينة مفلساً وباحثاً عن عمل . بنهاية يومه الأول فى نيويورك، نام فردريك بين بعض البراميل الملقاة على

رصيف الميناء، ومع خوفه المتنامي وجوعه وإحساسه بالعجز بمرور الوقت، خاصة وقد استيقظ عدة مرات، أدرك فجأة السبب في عدم فرار المزيد من العبيد، لأن من يعرفون من عائلاتهم وأصدقائهم وشوارعهم المعتادة، مهما كانت سيئة، أفضل كثيراً من الشعور بالعزلة التامة والوحدة اللتين ينهشان فيك كالجوع. لم يفهم فردريك العبيد الذين فضلوا العودة للأسر بعد نجاحهم في الفرار شمالاً أبداً من قبل إلا أنه الآن أدرك أنهم اختاروا "الدور الحقيقي مع ساداتهم بدلاً من حياة العزلة والخوف والجوع والقلق التي تقابلهم عند أول لقاء لهم في ولاية حرة." لو أن تلك هي الحرية فربما لا تكون العبودية سيئة عندئذ مقارنة بهذه الأحوال. هذا ما فكر فيه ساعتها: "كنت بالفعل حراً - من العبودية - لكن بلا طعام ولا مأوى أيضاً." ربما يكون فردريك قد مال للعودة فعلاً لولا إدراكه لواقع يحسم الامر؛ أنه كان مرتبطاً بالزواج، وخطيبته كانت متأهبة للحضور إليه فور استدعائها.

كان اسمها أنا موراى، وكانت امرأة حرة. ولدت حرة على الشاطئ الشرقي لمارى لاند، ذات عينين لوزيتين ووجه مستدير وبشرة سمراء. كانت تعمل خادمة لعائلة ويلز بشارع كارولينا فى بالتي مور. فى الخامسة والعشرين من عمرها، كانت أكبر من فردريك بخمسة أعوام وقد انتقلت إلى بالتي مور فى السابعة عشر من عمرها.

كانت هادئة تجدد في عملها، وأمية إلى حد ما لكنها تستطيع قراءة الموسيقى، وعندما تعزف مقطوعة هايدن أو لحن هاندل على "كمانها"، يبدو ترنيما أسراً لمن حولها، وقد قامت بتعليم فردريك العزف على الكمان، وكان سريع التعلم وأصبح "زوجاً موسيقياً" في الحال. كان بمقدورها - كذلك - أن تمسح الكتابة المسجلة على وجه قطعة معدنية فضية بيدها المجردة أكثر من أي شخص آخر قابله فردريك في هذا المجال. رغم أنه لم يقل عنها الكثير إلا أن أنا موراى كانت مسئولة - إلى حد ما - عنه وعن تمتعه بحريته وعن صناعته لنفسه.

لقد اشترى تذكرة قطار من مال أنا على خط سكة حديد بالتيمور/ أوهايو، وهو ذات المال الذي اشترى به قميصاً أحمر وربطة عنق سوداء وقبعة مانعة للماء مما جعله يشبه البحارة، كما أن نقود أنا هي التي وصلت ليد أحد الأصدقاء ليمثل فردريك كبديل للحصول على تصريح مرور يحميه، وفور عودته إلى بالتيمور في أواخر عام ١٨٣٦، تفاخر فردريك بذلك قائلاً إنه بالنقد تمكن من تدبير مسألة فراره ببسر وسهولة؛ فنقود أنا مع استقلالها كامرأة حرة جعلاً أمر هروبه ممكناً. غير أن فردريك أهمل تماماً دور أنا في مساعدته، سواء في وقتها أم في مذكراته حول ذلك الحدث، حيث كان إقراره بذلك يمحو صورته كرجل صنع نفسه بنفسه، وكمؤنّج

للأمريكي الأفريقي حتى اليوم. فى أوائل أيام حريته، بدأ فعلاً فى تثقيف ذاته، حيث يقول فى أحد خطاباتة لصديق مقرب بعد وصوله إلى نيويورك أنه "يشعر كأنسان آخذ فى الهروب من وكر الأسود الجماعية" وهى صورة شائعة للمقاتل الوحيد أو الأمريكى المنفرد وهو يقاتل العدو المتوحش ثم يخرج منتصراً. كان يشارك فى صنع صورة الإنسان العصامي - التى بدأت تدخل التراث الأمريكى - من بن فرانكلين وناتي بومير، ثم عبّر لنكون صعدوا حتى مالكولم إكس. تلك التقاليد التى أغفلت دور الزوجات والنساء فى تحقيق نجاحات الرجال، وما جعل فردريك متفرداً عن الآخرين كونه يؤسس لصورة العصامي الأمريكى الأسود.

كان فردريك وأنا قد تقابلا فى نادٍ ثقافى يسمى "جمعية بالتيومور للتقدم العقلى" حيث كان الطموحون من السود الأحرار من عمال أحواض الميناء يتقابلون لشحذ مهاراتهم الخطابية وسماع المحاضرات، وهو أساساً نادٍ للرجال يستقبل الجماعات المحترمة حيث يمكن للنساء والرجال التقابل والتواد. شعر فردريك بحسن حظّه لقبوله بالجمعية، لأن السود الأحرار فى بالتيومور يميلون للاحتفاظ بأنفسهم كعبيد مستعبدين ومنبوذين بقدر ما كان المجتمع الذى يقطنه البيض مقسماً إلى طبقات وقات. لعب فردريك دوراً ثابتاً فى المناقشات الدائرة داخل ذلك المجتمع، مُقدِّماً الكثير من الإرشادات بشأن

الخطابات العامة التي استقها من كتاب "الخطيب الكولومبي" في حين أخذ يتعلم كيف يقلد ساخراً مالكي العبيد . خلال تودده لآنا، وبحضور تلك الاجتماعات، خلقت ثقته في عليها، وذات ليلة بعدما انتصر في إحدى المناقشات تهادى إلى حد أن تفاخر بأنه لن يتوقف عن الصعود حتى يصل إلى مقعد عضو مجلس نواب الولايات المتحدة. كان ذلك نصريحا ثوريا صادرا عن عبد يعكس تأثير آنا والجمعية عليه معا .

هل كان فردريك يجب أنا ؟ ذلك يعتمد على نظرتك أنت للحب . بالنظر إلى طموحه، لم يستطع فردريك تمييز مشاعره نحو آنا عن قدرتها على مساعدته في تحقيق أحلامه، ولم يتمكن من استبعاد شخصها عما تمثله بالنسبة له، فمعها دخل عالم المال ومجالات ومظاهر الاحترام الأخرى مثل أدوات المائدة، والفضيات، والمفارش والسلوك المذهب وفراشين "مرتبين" محشوين بالريش، كانت قد باعت أحدهما لتساعد في تكاليف هروبه . الأكثر من ذلك، وباعتبارها امرأة حرة، فأى أطفال تنجبهم سيكونون أحرارا بغض النظر عن حالته هو . كامرأة مدبرة - حيث كانت تعمل كمدبرة منزل - استطاعت آنا تمكينه من تكريس كل طاقاته من أجل عمله، وبالنسبة لعبد كبر ونما وهو ينام فوق الأخشاب الخشنة والأرضيات

القذرة والمراتب المتعرجة "المكلكة"، ويبحث - غالباً - عن طعامه بين النفايات، بدت أنا مهيبة و"بعيدة المنال".

لا بد أن فردريك قد أصابه الذهول عندما وافقت على الزواج منه، إذ عندما حظي حبه بالقبول والتبادل، كان قد وسّع من دائرة الفرص المتاحة، فالحب والفرصة محال فك رباطهما . مع وجود أنا مستعدة للسفر إلى نيويورك حالما يدعوها فردريك، كان لديه حافز يدفعه لأن يبقى وحيداً مشرداً حتى يجد مأوى آمناً ويستطيع عندئذ أن يطلبها . هام في الشوارع عدة أيام قليلة باحثاً عن وجه متعاطف يستمع لأزمته ويقدم المساعدة، حيث وجدها في بحار اسمه ستيوارت كان قد لاحظ هيئة فردريك كبشار، وكان لقاءه أشبه بتوصيلة قائمة على الصدفة.

كان ستيوارت قد شاهد فردريك واقفاً على رصيف الطريق المقابل بالقرب من سجن المدينة المسمى "تومبز" فمضى ستيوارت نحوه، وأطلق فردريك ملحوظة تجاهه، وبدأ ستيوارت "يهتم بى". بعدها قضى فردريك تلك الليلة بمنزل ستيوارت المتواضع، وبالطبع، مشاركاً صديقه الجديد فراشه كما كانت العادة. نمت تلك التوصيلة من التعاطف أكثر منها رغبةً في الجنس. على أية حال، رافق ستيوارت- في اليوم التالي- فردريك إلى منزل دافيد راجلز وهو صحفي أسود حر وناشط اجتماعي كان يرأس جهاز سكك حديد



نقق نيويورك الذى يؤوى مئات من الهاربين الجدد ويساعدهم على الاستقرار فى المجتمعات الشمالية حيث يتمكنون من الحصول على

عمل ٢٤٠

من منزل راجلز، كتب فردريك إلى أنا أنه قد أصبح آمناً فى نيويورك وأن عليها أن تأتى فى الحال، وأعدت هى ترتيبات شحن أثاثها وفراشها، وقامت بحزم كمانها وبعض النوتات الموسيقية لداير ورويل شو ومجموعة من الترانيم ورداء حيرى ملون معد للزواج، ووصلت نيويورك خلال أيام قليلة. أحضر فردريك بذلة سوداء من أجل الزواج، وقد تجددت الآن بسبب تكومها فى حقيبته الجلدية بجوار كتابه المفضل. ثم تزوجا فى منزل لراجلز يوم ١٥ سبتمبر ١٨٣٨ بعد ١١ يوماً من فرار فردريك، وقام جيمس بينجتون - وهو هارب آخر من الشاطئ الشرقى تم ترسيمه مسئولاً دينياً حديثاً - برئاسة الاحتفال وكتب شهادة الزواج معلناً أنه "قد جمع معا فى زواج مقدس كلا من فردريك جونسون وأنا موراى كزوج وزوجة." بناءً على نصيحة راجلز، انتقلا إلى نيويورك فوراً بولاية ماساتشوستس التى كانت مركزاً لصيد الحيتان، وهى مكان مثالى للعبيد ولعمله "كربات" بالسفن. قَطْنَا شقة صغيرة مكونة من غرفتين تقع فى شارع ألم على مقربة من الميناء، حيث الطرقات المرصوفة وصفوف المنازل وأثاث أنا. كل ذلك يذكرهما عن بعد بمنطقة

فيلزبوينت وهى منطقة أحواض السفن بالتيمور حيث تقابلنا أول مرة. كانت أنا حاملاً - الآن - بطفلها الأول، وكانت أنثى أسموها روزيتا، وقد أدى ذلك لانتشار شائعات بأنها حملت خارج رباط الزواج. لكنهما تزوجا رسمياً - وهو أمرٌ محظورٌ على العبيد - واتخذنا اسمين جديدين، السيد والسيدة فردريك دوجلاس، لأن فردريك هجر اسم "جونسون" بعدما أخبره جاره الجديد بنوييد فور - وكان اسمه ناثان جونسون - أن المدينة مُتخمة بأسماء كلها "جونسون" واقترح لقب دوجلاس بدلاً لذلك. كان ناثان آنذاك يقرأ رائعة السير والتر سكوت "سيدة البحيرة" وتأثر بشدة بشجاعة البطل، واسمه دوجلاس، فأوصى فردريك باتخاذ لقباً. هنا، وافق الأخير على الاسم الجديد رغم أنه لم يقرأ ما كتب سكوت ولم يكن يعرف حتى كيفية تهجى اسمه، لكنه كان معتاداً على شارع

دوجلاس بالتيمور. لذا أضاف حرف "س" إلى نهاية اسمه واسم أنا من بداية زواجهما الذى دام أربعة وأربعين عاماً، عاش فردريك وزوجته أجواءً منفصلة تماماً حيث ظلت أنا تعتنى بالمنزل من أجل فردريك وتدبر بيوتات العائلات الأخرى عندما يحتاجان إلى دخل زائد. أما بشأن الأمر الوحيد الذى جمعهما معاً فكان أطفالهما وحبهما للعزف على آلة الكمان، فأننا لم نتعلم أبداً كيف نقرأ، وفردريك فضل القراءة على عزف الكمان والعناية بالأطفال عندما

يجد نفسه خارج العمل، حيث بقيت هي أسيرة الهوى بينما تطور هو من عامل يومي إلى خطيب وكاتب وصحفي وسياسي. كان ينادي أنا "عونه الأكبر" دون الإشارة إلى الطرق التي عاوته بها مطلقاً. إلى حين، أصبحت شخصية أنا "متداخلة في شخصية زوجها". هكذا كانا يصفان جيهما.

كان دوجلاس جاهلاً تماماً بشؤون المجتمع الشمالي إذ لم يفده كتاب "الخطيب الكولومبي" بشيء تقريباً في تحريره من أفكار مجتمع الجنوب نحو العمل الحر، حيث نشأ يؤمن بأن العبودية هي كل مصادر الثروة لأن البيض الذين لم يمتلكوا عبيداً كانوا "نفاية بيضاء بائسة" كما دعاهم مرة، وأن بيض الشمال كانوا - لذلك - معدمين وجاهلين ويتميزون بالوضاعة. لكن بيدفورد تخطت محنة الاضطراب المالي بفضل تجارتها في الحيتان، ولأنه لاحظ أن السود من أمثال نااثان جونسون امتلكوا كثيراً من الكتب وعملوا يجد "أكثر من كل مالكي العبيد في مقاطعة تالبوت بماري لاند مجوالي تسعة أعشار الجهد" الذي كانوا عليه، ذهب في اليوم الثالث من وصوله لنيوبيد فورد إلى أرصفة الميناء بحثاً عن عمل. كان أول عمله كعامل حر ينحصر في تحميل براميل زيت الحيتان فوق القوارب. كان عملاً قذراً وصعباً لكنه "استغرق فيه بقلب فرح وإقبال نشط" حيث لا ينتظر سيداً ليستولي على مكسبه في نهاية الأسبوع، ولأول مرة في

حياته لم يحتاج إلى الاعتماد على "سيد" أو صديق أو زوجة كيما يشعر باستقلاله، وهو يتذكر ذلك بقوله: "اعتبرتُ عملي ذلك اليوم نقطة البدء لشيء يبرز للوجود حديثاً ."

لكنه أدرك أن الهروب من العبودية لا يعنى التخلص من العنصرية، فرغم تسامح وتنوع نيو بيدفورد غير العاديين، إلا أنها تستحم فى مياه التعصب ممثلة لذلك الوباء الذى أهلك أمريكا، فعندما سعى دوجلاس للعمل "كربات"، قام مالك السفينة "كويكر" بتشغيله فى الحال. لكن العمال البيض أخذوا فى تهديد صاحب السفينة بأنهم سيتركون العمل ما أن يبدأ هو فى ممارسة عمله. ثم وافقوا على أن يدعوه يعمل عمالة يومية مقابل نصف ما يتلقونه من أجر، لكن دون أن يكون نداً لهم. حدثت واقعة أخرى مشابهة فى بالتيمور حيث قام العمال البيض بإضراب عن العمل حتى تقوم الإدارة بفصل عمالها من السود الأحرار، وكان دوجلاس قد سمع البيض فى بالتيمور يرددون: إن السود يجب أن يُقتلوا" وإلا "فإنهم سوف يحتلون البلاد". كما أن البيض هناك فى بالتيمور كانوا قد أوسعوه ضرباً حتى كاد أن يفقد إحدى عينيه، وعلى الأقل لم تتعرض سلامته الجسدية فى بيدفورد للأذى.

للسنوات الثلاث التالية عمل دوجلاس كعامل يومية ينشر الخشب، ويحفر الأقبية، ويكوم الفحم، وينظف المداخل، ويقود

العربات، ويقوم بالخدمة على الموائد . ثم عشر على عاملين ثابتين، أحدهما فى مصنع للشمع والآخر فى ورشة للنحاس، فمكّنه ذلك من "تثبيت جريدة على أحد القوائم بجواره والقيام بقراءتها أثناء العمل". يتذكر ذلك بقوله: "كان سعيًا وراء المعرفة وسط صعوبات جمة". وبقي مستوحداً نائياً عن رفاهه من العمال سوداً وبيضاً حيث بدوا قليلي الاهتمام بغذاء العقل.

يتذكر السيد كوب- رئيس عمال ورشة النحاس حيث كان يعمل دوّجلاس- ذلك العامل "المجد والقذر" بصورة دائمة. بعد عشرين سنة من ذلك التاريخ، يحضر السيد كوب محاضرة لدوّجلاس ثم يدعونه للصعود على المنصة ليحكى كيف وصل دوّجلاس يوماً للورشة للعمل بنوبته المسائية وهو مغطى بالسناج من عمله كمنظف للمداخل نهاراً ثم يقوم بتثبيت صحيفته ويبدأ فى نفخ الكير لعمل. تأثر كوب بأخلاق ذلك الشاب وقام بحمايته من أحد العمال البيض الذي كان قد حاول مهاجمته باستخدام رفش فى يده، وقد أدهشه بزوغ نجم هارب سابق "ليصبح واحداً من مفكرى البلد" فى نيويبد فورد. كان دوّجلاس يقرأ حيثما وحينما استطاع وأصبح واعظاً فى كنيسة المدينة، وكان فى أقصى لحظات سعادته لأنه تمكن من كسب (وتوفير) دولاراً فى اليوم وتحول إلى زعيم لمجتمع السود فى

المدينة، وله زوجة مخلصه وطفلان بديعان ( لويس طفله الثانى وُلِدَ عام ١٨٤٠). لكن السعادة لم تكن هدفه الأول فى الحياة .

كان باحثاً عن المعرفة، وبهذا المعنى مثل هيرمان ملفيل الذى كان متواجداً بالمدينة أيضاً عام ١٨٤٠ بانتظار الإبحار على ظهر سفينة صيد الحيتان "أكوشنت" وكان يصغر دوجلاس بعام واحد، وهو ساذج وفضولى لكنه طموح. لم يكن قد وصل لبيدفورد كبعد رغم أنه قد عُرف عنه مقولته: "ومن منا ليس عبداً؟ أخبرونى!" لقد أتى ليشق طريقه فى الحياة، وبعدما تبخرت ثروة عائلته هباءً، أضحت خبراته على سفينة صيد حيتان بنويبيدفورد أساساً لقصته "موبى ديك" - ١٨٥١م - وهي درة أدبية فى عالم الادب واستكشافٌ فريد للصداقة فيما بين الأجناس.

كانت نويبيد فورد مدينة صغيرة عام ١٨٤٠ سكانها حوالى ثلاثة آلاف، ويسير المرء فيها من طرفها إلى طرفها الآخر ببساطة وسهولة، ولربما مر دوجلاس بملفيل صدفة عند الميناء، فكل منهما وصف قناني زيت الحوت المكومة على أرصفة الميناء، وسفن الصيد على الرصيف، وأكوار نفخ النار بالورشة، حيثما كان دوجلاس يعمل ويقرأ جرائده؛ ولربما عرج ملفيل مصادفة على كنيسة المدينة أثناء قيام دوجلاس بالقاء موعظته أو استماعه إلى قداس دينى. بعد سنوات قليلة تالية، سيقرا كل منهما ماكتبه الآخر، مستعيرين من

بعضهما أفكاراً وتعبيرات متعددة. فى عام ١٨٦٤ استعار لينكون بالمثل مما كتبه ملفيل، مستخدماً تشبيهات ومجازات لغة صيد الحيتان ليصف بها قضايا العبودية: "نحن نبدو كصائدي الحيتان، أمضوا وقتاً طويلاً فى مطاردة... ثم قذفنا حربتنا فى قلب الوحش لكننا الآن علينا أن ننتبه لحركتنا، وإلا فبضربة واحدة من ذيله سيرسلنا إلى العالم الآخر." وبينما يبدو دوجلاس كشخصية "آهاب" فى ثورته وتطرفه فى الرواية، بدا لنكون كشخصية "ستاب" ذلك الشخص المحافظ المرح الذى "اعتلى قاربه الذى يصيد به الحيتان كما لو كان ذلك اللقاء المميت مجرد لقاء للعشاء."

كانت جريدة الليبراتور - عضو الجمعية الأمريكية المناهضة للرق فى بوسطن والتي كان محررها ويليام لويد جاريسون - أكثر أهمية فى تأثيرها المباشر على دوجلاس، حيث اشترك فيها بعد شهور قليلة من وصوله لبيدفورد. رغم أنه لم يستطع دفع قيمة الاشتراك دفعة واحدة، فقد كان يسدد الدولارين المطلوبين سنوياً على دفعات وأقساط. كانت جريدة الليبراتور أكثر الجرائد المعارضة تأثيراً فى التاريخ الأمريكى إذ كانت تعتمد على وثيقة إعلان الاستقلال وعلى الإنجيل والتوراة كصوص مقدسة، وطالبت بإنهاء فوري لحالات الرق وتطبيق الحقوق المتساوية لكل الناس، وتصور جنة سماوية على الأرض تستبدل فيها حكومة الله بالحكومة البشرية. كانت تنادي

باللاعنف مؤكدة أن تحقيق الثروة سيتم عبر الاقتناع الأخلاقي وحده كما رفضت الحلول الوسط لأن جاريسون أقسم في أول إصدار لجريدة "الليبراتور" في يناير ١٨٣١ قائلاً: "لن أنافق، لن أعذر، ولن أراجع ولو بوصة واحدة." وظل وقياً لعده. لكي ينطلق مُطبقاً تلك المثالية المُرهقة، استخدم جاريسون أسلوباً يمتاز بالمادة الصحفية غير العادية، فعلى صفحاتها يرتعد الطغاة وتهتز الأمم وتقفز التماثيل من أماكنها، وتنزف الضحايا دماً، وبينما يقوم الشعراء الرومانسيون "بإضفاء الروحانية على العالم الطبيعي"، قام جاريسون بتحويل الحرب الأخلاقية ضد الرق والعبودية إلى حرب حقيقية ملموسة. أدى صدور جريدة الليبراتور إلى غضبة عارمة وسط أمة لا يرغب مواطنوها عامة في إنهاء العبودية لأن الرق البشري ظل حقيقة واقعة في الحياة لآلاف السنين، وآمن الأمريكيون بأن إلغاء العبودية في الحال يُعد ضرباً من الجنون، وفي أفضل المواقف رأى الأمريكيون في العبودية شراً ضرورياً- أشبه بالتلوث في أيامنا هذي- ربما تكون قادراً على التحكم فيه، لكن إنهاؤه يتطلب تدخلاً إلهياً ويستغرق وقتاً طويلاً قد يصل لأحقاب عديدة أو قرون وفقاً لتصريح هاريسون جراي أوتيس عمدة بوسطن وأيضاً لأقوال لينكولن فيما بعد. كان أوتيس وغالبية البيض الأمريكيين يؤمنون أن الكتاب المقدس يُقر بالعبودية في مواضع متعددة أكثر من معارضته



لها، وأعلن الكثيرون من أهل الجنوب، إعتقاداً على النصوص المقدسة وأقوال الفلاسفة من أرسطو والقديس أوجسطين حتى رجل الدين جيمس سميث على ضفاف المسيسيبي، أن العبودية مفيدة للمجتمعات والسادة والعبيد أنفسهم، واستطاع الجنوبيون قمع الفكر والأدب المناهض للرق. لكنهم لم يتمكنوا من القبض على جاريسون، وعلى سبيل المثال عرض مجلس جورجيا التشريعي مكافأة قدرها ٥٠٠٠ دولار لمن يقبض على جاريسون وينقله إلى الولاية حيث تمكن محاكمته، كما حاول النائب جون كاهون - نائب كارولينا الجنوبية - تمرير قانون قومي يحظر تداول كل كتابات وصور دعاة تحرير العبيد، وفشلت كل محاولاته. هكذا كانت رسالة جريدة الليبراتور جديدة على الثقافة الغربية حيث كان دعاة تحرير العبيد يُنظر إليهم باعتبارهم ثوريين متطرفين يهددون بتدمير أركان المجتمع الأمريكي. كاد جاريسون عام ١٨٣٥ أن يقع تحت طائلة القانون في بوسطن. خلال معظم تلك الحقبة هاجمت جموع من المواطنين "المحترمين" مثل المصرفيين والمحامين أية لقاءات لها صلة بدعاة تحرير العبيد، ومن المفهوم طبعاً أن يكون الدعم الرئيسي لجريدة الليبراتور في أوائل أعوام صدورها قادماً من قبل السود الذين مثلوا نسبة ٧٥% من قرائها.

مع نهاية ذلك العقد، لم يعد دعاة تحرير العبيد منبوذين كما كانوا

من قبل إلا أنهم ظلوا أقلية هامشية لأن كثيراً من بيض الشمال ألقوا اللوم فى نشوب أزمة عام ١٨٣٧ المالية على النخبة الحاكمة فى الجنوب المسماة "قوة العبيد" إذ اعتقدوا أن الرق يؤدي لخفض الأسعار فى المجتمع الحر وبالتالي يهدد مستويات المعيشة عندهم، بالإضافة إلى أن قواعد الحظر المعروفة بالكونجرس منعت أية مناقشات حول العبودية داخل المجلس. نتيجة لذلك، ازداد تعريف حركة التحرير التصاقاً بحركة الحريات المدنية، وازدادت معها الاشتراكات بصحيفة "الليبراتور" والعضوية بالجمعية الأمريكية لمقاومة الرق كل عام بدءاً من ١٨٣٤ وحتى ١٨٤٠.

كان دوغلاس يقرأ جريدة الليبراتور بإخلاص يماثل إخلاصه للكتاب المقدس. كانت بالنسبة إليه نصوصاً مقدسة تعبر عن مبادئ إعلان حقوق الإنسان التى تؤكد الحرية الكونية والمساواة. كان يستوعب كلية كل محتويات الجريدة (أسبوعياً) حسب قوله وتم تعريفه بأناس يشبهونه فكراً عبر بلدان الشمال، وتعلم كيف يكافح العبودية بالكلمات واستخدام عدة أفعال حاسمة. هنا كتب يقول: "لقد أصبحت الأوراق طعامي وشرابي، وأوقدت النار فى روحي". باقتباس ما ذكره جاريسون - وكيله - الذى استخدم نفس الجملة لشرح سبب رفضه للتخفيف من غلوائه فى هذا الشأن يقول: "أنا بحاجة شديدة لأن أتقد غضباً هائلاً، لأننى محاط بمجبالٍ

من الثلج تحاصرني بجاجة للانصهار."

ألمت جريدة "الليبراتور" دوجلاس لحضور لقاءات دعاة التحرير رغم عمله الذي يستغرق النهار بطوله وأحياناً طوال الليل، حيث مكنته تلك الاجتماعات من ممارسة مهارته الخطابية بالجدل مع أصدقاء جدد، وتجربة بعض من العبارات التي قرأها بالجريدة. في أحد هذه اللقاءات عام ١٨٣٩ قام ومعه مجموعة من دعاة تحرير السود في بيد فور بمهاجمة الجمعية الأمريكية للاستعمار التي كانت تنقل الأحرار من السود إلى المستعمرة الأليفية "ليبريا" كحل تحفظي "لمشكلة" السود في أمريكا، لأن غالبية دعاة التحرير كانوا يكرهون دعاة الاستعمار، واستقر رأي دوجلاس ومؤيديه على ألا يتخذوا أبداً بآراء أولئك الآخرين، "فنحن مواطنون أمريكيون ولدنا بحقوق طبيعية وموروثة ومتكافئة لا يمكن تحريفها"، وامتدحوا جاريسون لمناداته "بخلاص فوري غير مشروط."

بعد قراءة "الليبراتور" لثلاث سنوات، سمع دوجلاس جاريسون يتحدث في اجتماع عقد يوم ١٩ أغسطس ١٨٤١ في بيدفورد، وكان قد أصبح واحداً من "عباد البطولة" بعدما قرأ كتاب توماس كارلايل الجديد عن البطولة، كما أحب جاريسون بالفعل "من خلال جريدته" والآن يميل لتقديسه، ولم تخنه آماله حيث قال: "لم أجد وجهاً ولا شكلاً أثاراً في نفسي تلك المشاعر بقوة (سواء)."



كان جاريسون مثلاً آخر للرجل العصامي، وكان يشبه دوجلاس كثيراً في بعض الأمور، إذ هجره والده السكير عندما كان صغيراً وأدى به ذلك إلى تسول الطعام من الجيران. كان بدون تعليم رسمي تقريباً، إلى أن صادفه الحظ عندما حصل على عمل "كصي مساعد" لأحد الطبّاعين الذي ساعده على تعلم حرفة، فعمل بلا توقف، وقرأ بشراهة، وأصبح فخوراً بنفسه وصاحب عزيمة ومقدماً مثل دوجلاس لأنه على مدار عدة سنوات واجه التهديد بالاعتقال وبالإفلاس بسبب جريدته وحلمه بالحرية، والآن حينما يتحدث تخرج الكلمات من فمه هادئة عميقة كما لو كانت هبة من الله، ويلتصع رأسه الأضلع ذو العينات الزجاجية عاكساً أشعة السماء.

لم يكن دوجلاس الوحيد الذي تأثر بما دار ذلك اليوم لأن جاريسون رأى ذلك الرجل الأسود الطويل الفتى، أنيق الملبس المتزن، بادى الوثوق بنفسه يقف مستشرفاً القاعة بنظراته وسط تلك الجماهير الممتعة، وحينما بدأ دوجلاس خطابه وسمع هو ذلك الصوت العميق ورأى "جماهير الحضور الغفيرة" تنصت إليه "باهتمام شديد"، تأثر جاريسون بشدة. في اليوم التالي اصطحب دوجلاس جاريسون مع أربعين من دعاة تحرير العبيد من السود والبيض إلى ناتوكيت لإجتماع ضخم سيستمر لمدة يومين.

كانت تلك أول إجازة لدوجلاس منذ هروبه من قبضة العبودية

وقد بدأت الرحلة بشكل منذر وغير مبشر، فعندما صعد دعاة التحرير إلى سطح السفينة المتوجهة إلى ناتوكيت، رفض ربانها بدء الرحيل ما لم يلجأ السود إلى ركن "الزئوج المخصص لهم عليها". اعترض الثائرون ضد ذلك الفصل متمسكين بأماكنهم، وعرضوا الدخول في نقاش مع كل راكب آخر على سطح السفينة مما تسبب في تأخير طويل للرحلة، ثم استسلم الربان في النهاية وسمح لهم بالجلوس على أرضية السطح العلوى. بينت تلك الواقعة لدوجلاس مدى قدرة الإقناع الأخلاقي على إحداث التغير الاجتماعى.

عند اجتماع ناتوكيت، دفعوا دوجلاس للحديث أمام أكثر من خمسمائة مشاهد أغلبهم من البيض، وبواسطة نظامهم المحكم كانوا أكبر جمهور من المشاهدين قام بمخاطبتهم فى حياته. كان متوتراً لدرجة أنه ارتعد خوفاً، واستدعى خوفه ذكريات العبودية الأليمة: "الحقيقة أننى شعرت بنفسى عبداً". لكن بعد حديثه لدقائق قليلة استعاد شعوره بالحرية وتدفقت منه الكلمات وارتقى جاريسون منصة الحديث بعده مستطرداً من كلمات دوجلاس صائحا: "هل كنا نستمتع لشيء أو لقطعة من أملاك أحد ما أم للإنسان الآن؟" فتصاعدت الإجابة موحدة: "الإنسان... للإنسان". فتساءل جاريسون: "وهل لمثل ذلك الإنسان أن يبقى عبداً فى أراضٍ مسيحية وجمهورية؟" فأته الإجابة: "أبداً... مطلقاً!" استمر

متسائلاً: "وهل ستقومون بحمايته وإغاثة كَأَخٍ لَكُمْ . . كمواطنٍ فى ولاية أولد باى؟" فصاحت الجماهير: "نعم!" بقوة بدت معها حوائط وأسقف الصالة "كما لو كانت ترتجف" وذلك وفقاً لما ذكره أحد المراسلين.

ذهل دوجلاس من المشهد، وأسر جاريسون مستمعيه فأصبحوا "كشخص واحد": صورة من ذات جاريسون نفسه؛ وعندما تحدث جاريسون ثانية فى جلسة المساء، حاول تطبيق بعض من أساليب جاريسون الخطابية، وجاء الدور على جاريسون لتصيبه الدهشة فأعلن الأخير هذا أن خطاب دوجلاس "يضفي شرفاً على باتريك هنرى" حيث أذهله تحكم دوجلاس فى نغمة صوته العميق الخصب كمطرب يأخذ بألباب مستمعيه. وقبل أن يتفرق المجتمعون، دعا وكيل الجمعية الأمريكية المناهضة للعبودية دوجلاس لقبول تعيينه محاضراً بأجر لدى الجمعية. لكن دوجلاس كان متردداً فى بداية الأمر لأنه لم يكن واثقاً من موهبته كما تبدو الآن بصورة لاتصدق. غير أنه وافق على عقد لمدة ثلاثة أشهر قابلة للتجديد بأجر سنوي قيمة ٤٥٠ دولار. كان بالكاد يدرك أنه قد وجد ضالته وأنه على وشك الصعود إلى مهنة حياته المرموقة، وسوف يذكر فيما بعد أن الخطاب الجماهيري هو أنجح وسيلة من وسائل المعارضة، وأنه أعظم إنجازاته ككفنان وناشط اجتماعي فيقول: "أنا لست بحاجة لتذكير

أولئك الذين يعرفوننى بأن الكتابة لأعين الجماهير لا تتأتى ببساطة ويسر مثلما تكون الخطابة لأذان الجماهير. " عبر السنوات القليلة التالية، أخذ يثقل مهارته وأصبح واحداً من أعظم خطباء أمريكا.

أصبحت الجمعية الأمريكية المناهضة للعبودية فى حاجة شديدة لدوجلاس أكثر مما كان هو فى حاجة إليها، وفى عام ١٨٤٠ انشقت الجمعية باختلاف فى الرأي حول موضوعي السياسة والنساء وبدأت تفقد أعضاءها وأموالها لأن جاريسون وأتباعه قاموا بمعارضة عمليات التصويت مع إهمال المحاورات السياسية إلى حد كبير، وقد فسروا مواد الدستور بأنها وثيقة مؤيدة للرق معتبرين الحكومة الأمريكية واقعة فى فساد لا يبرأ، وطالبوا بالانفصال عن جمهورية العبيد هذه أو كما يقول دوجلاس أنهم اعتبروا الرق بمفرده "مخلوقاً يفرزه الرأي العام". كما نادوا بأن يُسمح للمرأة باعلاء مراكز قيادية فى الجمعية الأمريكية لمناهضة العبودية، وقامت مجموعة من المخالفين الذين يؤمنون بفعالية صندوق الانتخابات بتكوين حزب الحرية "ليبرتى بارتى" وذلك لتحديد مرشحين مناهضين للرق والسعى لإحداث التغيير عبر العمل السياسى، حيث نظروا للعبودية باعتبارها "ذلك الكائن الذي يفرزه القانون". كما قامت مجموعة أصغر - تعارض حقوق المرأة اعتماداً على قراءات مصدرها الكتاب

المقدس والعادات الاجتماعية- بإنشاء الجمعية الأمريكية والأجنبية  
لمناهضة الرق التي منعت عقد اللقاءات المختلطة التي يمكن لكل من  
الرجال والنساء الحديث فيها معاً. تكاثرت المصادفات لدرجة أن  
دعاة التحرير لم يتمكنوا من توفيق اختلافاتهم. بعد الانفصال رفض  
جاريسون وتابعوه أن يتواءموا مع المخالفين لهم، ومضت كل مجموعة  
في طريق منفصل. كانت لطمة الانقسام أن رأت الجمعية الأمريكية  
لمناهضة الرق أعداد عضويتها تهبط للنصف ودخلها السنوي ينحدر  
من ٤٧٠٠٠ دولار إلى ٧٠٠٠ دولار. الأكثر من ذلك أن الجمعية  
احتاجت لخطيب ذى شخصية مميزة للدفاع عن قضايها،  
واحتاجت كذلك إلى شخص يمكنه الحديث عن العبودية بالدرجة  
الأولى لأن أهل الجنوب أغرقوا الأسواق بمطبوعات الدعاية والكتب  
والصور التي تصور العبيد فى سعادة ورضا، وأن سادتهم من رجال  
الخير والعطف الأبوى، واتهموا دعاة التحرير بأنهم لم يعرفوا حياة  
العبودية أبداً فالجنوبيون فقط هم من يملكون حق الحديث عن  
مؤسسات المجتمع ونظامه، بل وإن العمال المستأجرين فى الشمال  
أكثر تعرضاً للقهر من العبيد فى الجنوب، والجنوبيون يطلقون على  
أنفسهم- بالفعل- أفضل أصدقاء الزوج، ويؤكد أحد مطبوعات  
الدعاية أن "من بين كل ولايات الإتحاد تظل ولاية مارى لاند أول  
(صديق للأفارقة)" رداً على مثل تلك الانتقادات، أراد الاصلاحيون



الشماليون- بشكل جزئي- أن يعرفوا حقيقة العبودية ممن كان عبداً .  
لكن أغلب الهاربين المنتمين للجمعية كانوا يخافون العمل كمحاضرين  
فى المجال خشية اقتضاح أمرهم وتعرضهم لإعادة أسرهم من  
جديد . أما أولئك الذين رغبوا فى تحمل المخاطرة فلم تنطبق عليهم  
المعايير الدقيقة التى وضعتها الجمعية لمهمة المحاضر، والتى كانت تتطلب  
"قدرة على بعث الحياة فى الموت، والمثابرة على تحمل السفر المتواصل"  
ومواجهة الهجمات المتكررة.

كان دوجلاس أول عبد سابق يصبح محاضراً بدوام كامل لدى  
الجمعية . أما باقى المحاضرين السود من وليام كوبر نيل حتى تشارلز  
ريموند فكانوا ممن ولدوا أحراراً . أما توقيت ظهور دوجلاس فقد  
كان - بكلمات محددة - مناسباً تماماً . انطلق فى طريقه على  
الفور، واشترى رئيسه منزلاً لأسرة دوجلاس يقع بجوار شريط السكة  
الحديد فى "لين" بولاية ماساتشوستس . لكن نادراً ما مكث دوجلاس  
فى "لين" بسبب جدول محاضراته وخطبه فى حين بقيت أنا  
وطفلاها فى نيويورك فورى حتى أواسط عام ١٨٤٢ . لقد حصلت  
أنا على عمل إضافى كمديرة منزل لدعم الدخل الذى كان يحصل  
عليه فردريك، وأحياناً ما كان فردريك يضطر إلى طلب إرسال مبالغ  
تصل إلى ٢٥ أو ٣٠ دولار من الجمعية لها لتدير شئون العائلة . " وقد  
ولد طفلهما الثالث فردريك الصغير فى مارس ١٨٤٢ بنيو يورك فورى،

لكن فردريك لم يكن متواجداً لمساعدتها فى العناية بالوليد، ولم يكن الطفل يعرف والده بعدها لسنوات طوال .

كان دوجلاس يرتحل عادة بصحبة جون كولينز، وهو محاضر متطوع أبيض، وقد عبرا نيو إنجلاند فى عربات مرهقة أو بواسطة السكة الحديدية. كانا يناما فى منازل دعاة التحرير ويخطبان فى الكنائس والأجران والمدارس والحانات أو وسط حدائق البلدة إذا لم تتوفر فيها الأبنية، وعندما يقوم دوجلاس بزيارة مدينة ما بمفرده يواجهه التعصب العنصرى، وغالباً ما كان يلقى صعوبة فى توفير مكان للإلقاء كلماته. حدث هذا بالفعل فى مدينة جرافتون بولاية ماساتشوستس، فذهب فى الحال إلى فندق واستعار جرساً من أجراس المائدة ومضى عبر شوارع المدينة الرئيسية يدق جرسه ويصيح "انتبهوا ! إن فردريك دوجلاس العبد حالياً سوف يلقى محاضرة حول العبودية الأمريكية فى مجلس المدينة هذا المساء الساعة السابعة." وآتت خطته أكلها إذ حضرت جماهير غفيرة لسماعه وقتحت إحدى الكنائس أبوابها له فى اليوم التالى .

كما كافح دوجلاس مظاهر التعصب فى القطارات، وفى سبتمبر من عام ١٨٤١ عندما كان مسافراً على متن قطار سكك حديد الشرق بصحبة كولينز، قام المحصل بطرده من كابينة السفر إلى عربة البضائع التى يستخدمها السود، وطلب دوجلاس من كولينز أن يبقى

هو مكانه، لكن كولينز تبعه حتى قام المحصل بدفع كولينز للوراء  
فمزق ملابسه، وحدث أنهما ركبا معا بعد أسبوعين نفس القطار  
وحاول نفس المحصل التفريق بينهما فتمسك دوجلاس بمكانه وطلب  
معرفة سبب إجباره على الخروج من العربة بعدما دفع ثمن ذلك،  
فأجابه المحصل: "لأنك أسود." فرد عليه دوجلاس: "ذلك ليس  
سببا ولا مبررا لطلبك." وتشبثا - هو وكولينز - بمقعديهما، فقام  
المحصل بجمع نصف دسته من الرعاع "لإخراج الزنجى الملعون"  
واستطاعوا إخراجهما فى النهاية ولكن بعد إقتلاع عدة مسامير من  
أرضية القطار - أثناء الشد والجذب - محطمين المقعد  
خلالها. استمر دوجلاس ورفاقه فى معارضة تلك المظاهر  
العنصرية، وفى النهاية استسلمت شركات السكك الحديدية  
بماساتشوستس وقررت إلغاء عربات الفصل العنصرى.

حقق دوجلاس نجاحاً عظيماً فى الخطابة منذ البداية ، لأنه  
كان يحكي عن حياته كعبد مضيفاً كثيراً من البهجة على  
الموضوعات الكئيبة بروح مرحة وساخرة ومتهكمة. كان يرتدى  
ملابس رسمية ويولى اهتماماً خاصاً لمظهره ولأقواله بالمثل. كان  
أحياناً ما يطلب من خادم الكنيسة زيادة أنوار الغاز كيما يراه الناس  
بصورة أفضل، وكان يشير إلى ظهره "الممتلئ بالندوب" وأحياناً يقوم  
بتعريضه ليراه المشاهدون، ولكي يحمي نفسه أخفى أسماء سادته

السابقين والأماكن التي كدح بها، وحيث أن أتباع جاريسون "الجاريسونيون" كانوا يعارضون مبدأ المقاومة بالعنف، فقد أهمل ذكر شجاعته في العراك. لكنه سلب أبواب المشاهدين والصحفيين كذلك بشكل ومحتوى قصصه. في ديسمبر عام ١٨٤١ - بعد ثلاثة أشهر فقط من بداية استلام العمل الجديد - قام أحد الصحفيين بوصف طريقة أدائه بإسهاب قائلاً: "إنه رجل غير عادي . . . لقد خُلِق ليكون بطلاً . . . له قلبٌ يفكر ورأسٌ يدبر ويدٌ تقوم بالتنفيذ . . . إنه كخطيب أنداده قلائل." كان دوجلاس ليقول نفس الكلام بعد عقد تال ليصف بطلاً زنجياً خيالياً يمثل هو نفسه نموذج الأمتل.

أثمرت طرق أداء دوجلاس نتائج إيجابية، فجاب أراضى رود آيلاند في أواخر عام ١٨٤١ صارخاً ضد دستور مقترح للولاية يقصُر حق التصويت على الرجال البيض فقط . تحدث رفاقه البيض أولاً فأهاجوا المشاهدين . ثم صعد دوجلاس إلى خشبة المسرح فسحروهم، وأتى أسلوبه بالنتيجة المرجوة إذ مرر النخبون دستوراً يمنح السود حق التصويت. هنا قال دوجلاس: "إن عمالنا في رود آيلاند قدموا الكثير لتحرير العبيد في الولاية أكثر من أي جهود سابقة أو تالية." ألقى النجاح الذي أحرزه في رود آيلاند الضوء على الخيط الدقيق بين الرأي العام والقانون.

أراد دوجلاس - بصورة متزايدة - أن يزاوج بين القبول الأخلاقي والعمل السياسي لتحقيق الأهداف المرجوة، واستمر يستحث العمل السياسي حين قام بالثناء على مناهض الرق العظيم ورجل الدولة جون كوينسي أدامز الذي كان يكافح من أجل تعطيل قوانين الكونجرس المسماة (بقواعد الصمت عند المصلحة العليا)، ولأنه كان عبداً فقد تصادف أن قرأ خطاباً مناهضاً للعبودية كتبه أدامز في صحيفة بالتيمور، وعرف منه معنى مصطلح "الإنهاء" (ويعنى إنهاء كافة القوانين والنظم المكرسة للعبودية)، واكتشف أن قليلاً من سياسيي واشنطن كانوا "يتسلون من أجل حقوقنا، ويتحركون في سبيل حريتنا". فأدرك أن الحركة السياسية المناهضة للرق يمكنها أن تكون فعالة ومؤثرة مثلاً مثل الحركة الأخلاقية في ذات الاتجاه. في عام ١٨٤٣ استهل دوجلاس ومعه مجموعة من المحاضرين رحلة "المائة لقاء" التي تبدأ من نيو هامبشاير ثم تنتقل غرباً عبر فيرمونت، ثم ولاية نيويورك، مروراً بولاية بنسلفانيا، وأوهايو إختتاماً بإنديانا، وقد ارتحل المحاضرون أزواجاً، وكان هدفهم إنهاء نظم العبودية بكل مجتمع يقومون بزيارته موضحين للناس أهوال العبودية للتعجيل بالقضاء عليها. كانت تلك الخطوة مرهقة لكن آفاق الحوار الجماهيري فيها ملأت دوجلاس بالأمل. كان يشعر كأنه أحد حوارى المسيح داعياً الناس لحظيرة الإيمان، وكانت مدينة روشيستر

واحدة من محطاته المفضلة رغم أنها كانت ميداناً ملتهباً لسياسة المناهضة العنصرية، ومع اعتبار دوجلاس - كنتم للحركة الجاريسونية - أن السياسة مفسدة، إلا أنه تلقى ترحاباً ودوداً وقابل العديد من رجال حزب الحرية.

كان دوجلاس أحياناً ما يجد نفسه وحيداً، داعياً للتحرير في بعض المدن، ففي مدينة بوفالو وهي مدينة تزدهر من تجارة السفن البخارية الجديدة، بدت آمال التحول عن قناعاتها عقيمة وباهتة لأن أهلها كانوا يتكالبون على جمع المال دون الاهتمام بحركات الإصلاح، وكانت الصالة التي خُصِّصَتْ لمحاضرات دوجلاس مكتبةً مهجوراً للبريد، وكانت مجموعة مستمعيه حفنة من سائقي عربات الأجرة - وهي عربات تجرها الخيول لنقل الركاب - سياطهم في أيديهم والقذارة تعلو ملابسهم، وما أن رأى رفيق دوجلاس - وهو رجل أبيض - تلك الطغمة من الناس حتى استقل أول باخرة إلى كليفلاند دون أن يكلف خاطره بإلقاء ولو محاضرة واحدة بها، تاركاً دوجلاس لمواجهة بوفالو بمفرده وظل دوجلاس يتحدث كل يوم داخل ذلك المكتب البريدي المتداعي موجهاً خطابه للمستمعين "الذين كانوا يزايدون عدداً وقدراً باستمرار." وخلال أسبوعين زاد عدد جماهيره من خمسة أفراد إلى خمسة آلاف، ولم يجدوا مكاناً يسع ذلك العدد بصورة كافية، وقد خاطب ثلث عدد سكان المدينة في

آخر أيام الآحاد- بالنسبة له- فى المنتزه العام، وكانت قوة كلماته تلهب الحماس فى الجماهير.

لم تواصل رحلة "المائة لقاء" باتجاه الغرب بصورة جيدة بعد ذلك لأن دوجلاس اكتشف أن إنديانا- وهي ولاية لنكونن القديمة - كانت تمتلئ بالعنصرية مثل ولاية مارى لاند، وفي ريتشموند- وهي أول محطة توقف لهم - واجهوا المشاكل والصعوبات إذ كاد الرعاع أن يقتلوا أحد المزارعين حين جرؤ على أن يسأل هنرى كلاي- أحد مرشحي الرئاسة من ولاية كنتوكى وهو بطل لنكونن فى نفس الوقت- أن يبدأ بتحرير عبيده الأربعين أولاً، وقام بعض من أولئك الرعاع - الآن - بالتجمهر حول دوجلاس ورفاقه يقذفونهم بالبيض الفاسد وغيره وقد أفسدوا بدلة دوجلاس الأنيقة. ثم فى مدينة بندلتون بولاية إنديانا اقترب دوجلاس أكثر من الاغتيال، ففى خلال نهار أول لقاء له هدد أحد العامة بالهجوم عليه وتدمير الكنيسة. نتيجة لهذا، قام أهالى بندلتون باستبعاد دعاة التحرير إلى الغابة حيث قاموا ببناء منصة يخاطبون الناس من فوقها، وفى اليوم التالي هاجم حوالي ثلاثين قتي من قتيه الغابات يقودهم صبى شرير- يرتدى قبعة من الفراء- دوجلاس وزملاءه. كانوا يشبهون فى سلوكهم ومزاجهم صديق لينكونن العزيز جاك أرمسترونج وعصابة كلارى جروف.

قام البلطجية بتدمير منصة الخطابة وضربوا أحد الدعاة على  
فمه مما أفقده عدة أسنان، فاخفى فجأة أحد زملائه وهو ويليام  
هوايت- المتخرج حديثاً من جامعة هارفارد والمنضم مؤخراً  
لمجموعة الدعاة- مما دعا دوجلاس إلى التقاط هراوة ضخمة والجري  
وراء البلطجية ظاناً أن هوايت فى خطر، وكان يعلم أنه ينتهك أحد  
مبادئ جاريسون بعدم استخدام العنف فى الدعوة وكذلك عدم  
تجاوز الرمز العنصري الذى لايجيز هجوم رجل أسود على رجل  
أبيض. لكنه لم يعبأ بذلك فمثل تلك الخرافات لاتعبأ بها عندما  
تكون حياة شخص ماثلة للخطر، وبرز البلطجية استعداداً للقتل  
بعضهم يتصايحون: "أقتلوا الزنجى! اقتلوا الزنجى الملعون!" فلاذ  
دوجلاس بالفرار نجا بحياته. لكن زعيم العصاة لحقه وهوى عليه  
بعصاه فحطم ذراعه وألقاه أرضاً، ورفع الزعيم عصاه لتسديد  
ضربة ثانية مستهدفاً رأس دوجلاس هذه المرة، لكن هوايت- الذى  
لم يكن قد أوذى بعد- رأى دوجلاس يقع أرضاً فأسرع لنجده،  
وجسده يسد الطريق على البلطجى "مانعا ضرباته المميتة" وأخذت  
بقية العصاة تضرب هوايت بقبضاتهم إلى أن أفلح سكان البلدة-  
الذين كانوا يشاهدون الموقف حتى هذه اللحظة - فى إيقاف الهجوم.

تسلطت تلك الحادثة على تفكير دوجلاس، وبقي يحلم بها طوال  
ثلاث سنوات تالية. فى الصباح كتب لهوايت ليعبر عن عرفانه



بالجميل بقوله: "لم أنسَ أبداً لكم كما أصدقاء كالأخوة، مستعدين للعمل والتحدى والموت، كل منا فى سبيل الآخر، وأنت غادرت منزلك وحياة الرفاهية بل الثراء كيما تقدم شيئاً لتحطيم قيود العبيد ورفع قدر السود الأذلاء." فمن أجل حماية دوجلاس، بذل هويت "دما نبيلاً حاراً كريماً ومقدساً ليهرقه بلطجى من بين تلك الطغمة الجهنمية." كما سيطرت واقعة الهجوم على سلوك هويت أيضاً، فهجر الخطابة بعد "رحلة المائة لقاء" وعاد إلى بوسطن ليقرض الشعر. لكنه كتب إلى دوجلاس مُحَرِّضاً إياه على الاستمرار فى القضية بقوله: "تقدم دوماً، ناثراً طلاقتك البديعة كشرارات الضوء المنطلقة من صلب مطروق، ولسوف توتى ثمارها!" لإثارة المزيد من حماسة صديقه، اقتبس من ذاكرته أبياتاً من شعر لورد بايرون-الذي بدأت كتاباته تُقرأ وقتئذٍ- وكتب:

ما أن تبدأ معركة الحرية،

رغم غمامها،

إلا أنها دائماً "تنتصر".

لكن حتى كلمات بايرون لم تكن مقنعة لمقتبسها، فهويت لم يقدم بعدها صفوف المعركة.

رغم تلك الروابط الأخوية الودودة، شعر دوجلاس أن الدعاة البيض لم يكونوا مخلصين فى مواجهة العسف الذى ساد البلاد، فهو

يتلقى نصف مايتلقاه المحاضر الأبيض رغم كونه الأكثر تأثيراً فى المؤسسة كلها، فعندما انتقد جون كولينز، تم توجيه اللوم له وتوبيخه "بسبب عدم معاضدة رؤسائه". لقد عامله رفاقه البيض على أنه مشاهد أو رمز بدلاً من معاملته كإنسان له شخصيته فقال: "كانوا يقدموننى على أننى أحد منقولات المؤسسة أو شىء من أشياءها، أو قطعة من أملاك الجنوب، وذلك حينما يؤكد رئيس الاجتماع أنه يستطيع الكلام". ظل يكره الطريقة التى كان رفاقه البيض يخاطبونه بها مثلما خاطبه جون كولينز مرة بقوله: "أمدنا بالحقائق فقط، وسوف تتولى نحن العناية بفلسفتها!"

لكن دوجلاس اكتشف أنه من المستحيل أن يلقى نفس المحاضرة أسبوعاً تلو الآخر لأن ذلك يبدو أمراً ميكانيكياً ضد طبيعته إذ كان الآن يقرأ بنهم محاولاً أن يسد فراغ الفكر الذى عاشه سنيماً طويلاً، وبينما كانت كلماته تتطور بقوة تحليلها وخطابها، أخذ ينوع محتواها وشكلها لأن أحد رفاقه البيض حذره قائلاً: "إن الناس لن يصدقوك حتى لو كنت عبداً سابقاً يا فردريك لو استمر خطابك على هذا النحو، ومن الأفضل أن تمزج كلامك بقليل من أساليب الكلام الريفى بدلاً من أن تبدو مثقفاً أكثر من اللازم!" مثلت هذه النصيحة صفة على وجهه، ورغم أن دوجلاس نجح فى تحويل كثير من الناس لصالح القضية أكثر من أي فرد آخر بالمؤسسة، إلا أن زملاءه البيض غالباً

ما عاملوه كطفل لا "كصنایعی ماه" أو أستاذ فى الأداء . كتب ذات مرة یقول: "لقد كنت أكبر وأحتاج لمساحة أكبر . " لكن بعض البيض حاول احتواء متین بقاءه أشبه بالعبد . كان ظهور بعض من ذلك التوتر عائداً للحسد ، وفى النهاية كان كل دعاة التحرير یكرسون حیاتهم من أجل القضية وأملوا فى تغییر العالم، ولكي تكون من الدعاة یجب أن تكون خطیباً عظیماً ، فإذا لم یكن أولئك طموحین ، أصبحوا هباءً منثوراً . لذا ، حینما تبزغ فجأة بداية كبداية دوچلاس تملأ فضاء المسرح وهى تتلقى هتافات مدویة تشق عنان السماء بینما تقع جهود الخطباء البيض على آذان صماء ، هنا تظهر إما بعض من معالم الكراهية أوالحقْد ، وتأخذ ردة الفعل هنا شكلاً من أشكال التعصب العنصرى . تبدأ هذه الأشكال من استهجان بعض الجماهير ضده ، إلى صدور خطاب خاص من أحد دعاة التحرير ببوسطون یشیر إلى دوچلاس بأنه "زنحی غیر واع" تلك الأمثلة الوضیعة لاتمحو الجهود المتنوعة التى أدت إلى إلغاء عربات الفصل العنصرى فى ولاية ماساتشوسیتس أو إعادة الالتماس فى الولاية عام ١٨٤٣ ضد حظر زواج السود بالبيض ، فدعاة التحرير أتموا ماكان قليل من الناس فى التاریخ الأمريكى قادرین على فعله: توحید عناصر وأجزاء المجتمع . وبعد مائة عام تظل قوانین الفصل

العنصرى ومعاداة اختلاط الأجناس حقائق حياتية مرت بالمجتمع الأمريكى .

بمعنى آخر كان رفاق دوجلاس على حق عندما حاولوا احتواءه، فمع قدوم عام ١٨٤٤ وبعدما ارتقى بنفسه إلى عالم المبدعين أمثال بايرون وبيرنز وشكسبير وكارلايل وإيمرسون وميلتون، بدا شيئاً آخر غير أن يكون عبداً وبدأت الجماهير تهمة بأنه لم يكن عبداً أبداً، ولأنه لم يقدم تفاصيل أكثر حول موطنه الأصلي أشعل كل ذلك الشكوك فى مدى صدقه، وبدأ يسمع - بصورة متزايدة - ما يقوله الناس بأنه لا يشبه ولا يتصرف ولا يتكلم كالعبيد . فقد لخص أحد الصحفيين - ممن قاموا بتغطية لقاء ضخم حول تحرير العبيد عُقد فى فيلا دلفيا عام ١٨٤٤ - أداء دوجلاس بقوله: "إن عديداً من جماهير الحضور لم يصدقوا - حقيقة - أنه كان بالفعل عبداً، إذ كيف لرجل خرج من نير العبودية منذ ستة أعوام فقط ولم يلتحق بمدرسة يوماً فى حياته أن يتحدث بمثل تلك الطلاقة وبذلك الدقة اللغوية وقوة التفكير؟ ولم يتوصلوا - جميعاً - لأي تفسير يشرح الأمر ."

هددت تلك الشكوك بشأن حالته وحول كونه مُطاردًا مستقبلاً دوجلاس المهنى . لذا، "قذف بالحذر إلى الريح" وكتب قصة حياته محدداً الأسماء والتواريخ راسماً لوحة للأوغاد على الشاطيء الشرقى، ولأنه قام بتسميع قصة حياته لسنوات عديدة فى حلقات

المحاضرات، كان يعرف جيداً ما يجب أن يقوله وكيف يقوله. ثم أكمل النسخ الخطية خلال شهور الشتاء عامي ١٨٤٤/١٨٤٥، وبعد ما قرأها ويندل فليبس - وهو خطيب لامع آخر - أخبره أنه لو كان مكانه لألقى بها في أتون النار، فلو "أن سيده ومالكة تمكن من إمساكه لن تستطيع ماساتشوستس كلها حمايته." هكذا قال له فليبس وكان على حق لأن أحد أحكام المحكمة العليا حديثاً في قضية برنج ضد ولاية بنسلفانيا أنكر أية سلطة للولايات في حماية الهاربين، وفي العام السابق، تم القبض على جورج لايتمر وهو عبد وأب لبناء مثل دوجلاس في بوسطن وتم حبسه في زنزانة ليفريت ستريت، ثم لم يُعد للعبودية مرة أخرى فقط بسبب قيام أحد دعاة التحرير الأثرياء بشراء حريته.

تجاهل دوجلاس تلك التحذيرات، وفي مايو عام ١٨٤٥ نشرت جمعية مناهضي الرق الأمريكية "قصة حياة فردريك دوجلاس . . عبد أمريكي كتبها بنفسه" مع مقدمتين كتبهما كل من جاريسون وفليبس لتأكيد مصداقية ماورد بالكتاب. كان الكتاب يُباع مقابل خمسين سنتاً، وكان ضربة قاصمة ذات لغة شعرية وصفحات ساخرة، وسرعان ما أصبح من أفضل الكتب مبيعاً في العالم إذ طُبعت منه أحد عشر ألفاً نسخة خلال ثلاث سنوات في الولايات المتحدة، وتسع طبعات بإنجلترا، وبحلول عام ١٨٥٠ كانت ثلاثون

ألف نسخة منه قد بيعت. امتدح النقاد فى إنجلترا وأيرلندا "طلاقة اللغة الفطرية"، وأطلق عليه أحد النقاد الأمريكيين "أكثر الاعمال رعباً فيما أصدرته المطابع الأمريكية . . وأكثرها أهمية." وأصبح دوجلاس - مثل بطله بايرون - مشهوراً ما بين عشية وضحاها. لكن مع الشهرة أضحت حريته الآن معرضة للخطر حيث يمكن لتوماس وهيو أولد ولأى محتطفٍ محتملٍ تتبع آثار تحركاته فى جرائد مناهضة الرق، وبالفعل قرأ العديد من مُلاك العبيد فى بالييمور وعلى الشاطئ الشرقى بمن فيهم توماس وهيو تلك الرواية رغم حظر توزيعها قانوناً فى ماري لاند أو أى مكان فى الجنوب. كانت عائلة أولد أشد غضباً بسبب وصف دوجلاس لحياتهم، وأطلق توماس عليه اسم الكاذب علناً، وسعى هيو للتأثر منه وقد أقسم قائلاً: "لن ندخر جهداً ولا مالاً لإعادة ملكيته ثانية" وعلى أن يضعه فى حقول القطن بالجنوب."

لكن دوجلاس كان يحيا آمناً تماماً فى الجزر البريطانية عندما أطلق هيو تهديداته، لأنه هرب إلى تلك الجزر بعد ثلاثة أشهر من نشره لروايته باحثاً عن ملجأ "من الاستعباد الجمهوري لدى إنجلترا الملكية" بنص مقاله، وبقت أنا والأطفال - إذ أصبح لهم أربعة أطفال الآن والرابع هو تشارلز الذى ولد فى أكتوبر من عام ١٨٤٤ - فى لين وعاشوا من حصيلة ربح كتابه وعمل أنا لنصف الوقت

كمذبرة منزل. قضى دوجلاس حوالي سنتين فى إنجلترا وأيرلندا واسكتلندا مخاطباً جماهيراً أوسع وأكثر حول العبودية فى أمريكا ضاماً آلاف المؤيدين لقضيته.

انتشرت مشاعر مناهضة الرق فى بريطانيا، وكانت بريطانيا قد أنهت العبودية بسلام فى إنجلترا عام ١٧٧٢ وفى مستعمراتها بالهند الغربية فى الأول من أغسطس عام ١٨٣٤، واعتبر دوجلاس حركة الخلاص والانعتاق فى الهند الغربية التى حررت ٨٠٠.٠٠٠ من العبيد بتمويل كامل من الحكومة البريطانية بمثابة "أعظم وأهم حدث من أحداث القرن". "كان ينظر لانجلترا باعتبارها منارة الإنسانية، وملاذ الأمل أن يلهم "الخلاص البريطانى" الأمريكين كيما يقنقوا آثار خطواتهم ويفتحوا عصراً جديداً للحرية العالمية." "كان هناك أثر إلهي فى ذلك القرار للأمة البريطانية. كانت روح الله تأمر شيطان العبودية أن يرحل مطروداً من جزر الهند الغربية البريطانية."

وقع دوجلاس فى هوى إنجلترا وكاد أن يستقر هناك بصورة دائمة. لقد أغرم بالسلوك الإنجليزى والقطارات النظيفة المريحة واختفاء الخنازير من شوارعها، كما عقد بعض الصداقات الحميمة واحتفى به المجتمع البريطانى، ولأول مرة فى حياته يلمس غياب العنصرية كلية أمامه، فقال: "من الوهلة الأولى التى خطوت فيها على شاطئهم وتأملت وجوه الناس حولى، رأيتُ فى كل وجه إنسانٍ

حولى إقراراً بإنسانيتى، وأحسست بغياب كل ما يمت لمشاعر الكراهية والاشتمزاز بصلة غيباً تاماً. ذلك الشعور الذى كان يطاردنا فى أمريكا. "كان يستطع الدخول إلى فندق أو مطعم أو ترام دون أى إزعاج، وأن يمر بأي شخص فى الطريق دون أن تمسه نظرة احتقار واحدة، بل ذهب إلى أبعد من ذلك بافتراضه أن كون المرء زنجياً يُعد ميزة اجتماعية فى المجتمع البريطانى فكتب ذات مرة لأحد أصدقائه متندراً: "وجدت أننى لم أكن أسود بدرجة كافية أمام الذائقة البريطانية. لكننى حينما أجعل شعرى أشبه بجلقات من الصوف يمكننى أن أبدو نصف زنجى على الأقل، وبأي مقياس." بدأ يحتفى بذكرى الأول من أغسطس وهى ذكرى تحرير الهند الغربية البريطانية بصورة أكثر مهابة من ذكرى الرابع من يوليو، ولم يهمل دوجلاس المشكلات الاجتماعية البريطانية خاصة الفقر المستفحل هناك، وأدرك أن الطبقة فى أمريكا نبعت من التميز العنصري أساساً أما فى بريطانيا فقد نبت التراتب الطبقي من وجود الطبقة العليا نفسها، فقام بصياغة عدة محالفات مع دعاة الدستور الذين كانوا ينادون بحقوق متساوية للفقراء والطبقات العاملة، وأقر بأن غياب العنصرية يعود فى جزء كبير منه إلى حقيقة أن عدداً قليلاً جداً من السود كانوا يعيشون هناك. لكنها فى النهاية مسألة وجود مبدأ الحرية والتحرر فى إنجلترا.



أدت إقامته بالجزر البريطانية إلى وضوح طبيعة المشكلات في أمريكا أمامه، واكتشف أن أكبر عقبة تواجه تحرير العبيد لم تكن الثروة التي تُربىها تجارُ العبيد ولا تدافع عنها، لكنها تكمن في التوجهات المتعسفة الشنيعة ضد الزواج. فالبيض قد وطنوا أنفسهم على وجود السود العبيد وعلى قهرهم "باعتبارهم أشياء لا يمكن تجنبها حتى لو لم تكن مرغوبة". فالتعصب العنصري يمنح ملاك العبيد شعوراً بالرضا عن أنفسهم، ويظهر ذنوبهم التي تنتج عن معاملتهم للبشر كأنهم ثيران أو أدوات للجنس، والسبب الأخير الذي دعا دوجلاس للعودة إلى الولايات المتحدة كان شعوره بالواجب تجاه رفاقه السود ورغبته الشديدة لإنهاء آلام العنصرية، فأعلن قوله: "إنني لا أحمل حباً لأمريكا، وليس لدى إحساس بالوطنية، إذ ليس لي وطن. إنني أحب الإنسانية عبر آفاق كوكبنا". "لأن ما كرهه كان القوانين الأمريكية والكنايس والجرائد والتشريعات التي تدافع عن بقاء العبودية، وحينما كان بالخارج قامت أمريكا بإلحاق ولاية تكساس كولاية للعبيد وشتت الحرب علي المكسيك سعياً لكسب أراضٍ جديدة لهم، وأراد دوجلاس أن يحطم أعمال الحرب والقهر هذه، وتمنى أن يمزق الدستور وينشره آلافاً من المِزَق، وأن يعيد بناء الحكومة من أساسها إلى قمته ليفي بحقوق مبادئ الحرية والمساواة الواردة في إعلان الاستقلال. باختصار أراد ان يستورد لأمريكا

بعضاً مما عاينه فى إنجلترا، وعندما غادر دوجلاس ميناء بريستول متجهاً للولايات المتحدة فى بداية أبريل عام ١٨٧٤ كان رجلاً آخر. لقد قضى "أسعد لحظات حياته" فى بريطانيا ومر مرحلة تغيير كبرى، وصرح بذلك: "لقد عشت حياة أخرى!" فهو لم يكتشف فقط شكل الحياة فى عالم بلا عنصرية، وإنما تعلم أن الحب الأخوي لا يحتاج إلى الشر، وبالعكس ارتباطه بويليام هويت وجد أن الصداقة التى عقدها فى بريطانيا لم توقف على مدى التهديد الذى يشعر به المرء خوفاً على الحياة. فى الواقع، عقد دوجلاس صداقات خلال عامين قضاها بالخارج أكثر من تلك التى عقدها فى وطنه طوال سنى حياته إلى اليوم، ومن شملهم بصداقته جوليا جريفيث، وريتشارد ويب، وجورج تومبسون، وتوماس كلاركسون، وإليزابيث بيز، وإيلين، وريتشاردسون؛ وكان يحظى بالشهرة والشعبية لدرجة أن بعض منندياته حضرها أكثر من سبعة آلاف شخص، وقد حضر حفل وداعه الذى أقيم له فى لندن حوالي أربعمئة فرد، وطوال تنقلاته قدم له عدد لا يحصى من الناس "يد الود والمعاونة والترحيب الصادق". بل إن أصدقاء دوجلاس البريطانيين قاموا بحمايته بطرق لم يعرفها أصدقاؤه الأمريكيون، وبعد أن سمعوا تهديد أولد لدوجلاس بإعادته للعبودية، حشوه على البقاء فى بريطانيا وجمعوا مبلغ ٥٠٠ دولار لإحضار أنا زوجته وأولاده كذلك عنده،

وعندما قرر دوجلاس العودة لأمريكا، اتصلوا بهيو أوكر الذي يملك  
رقبة دوجلاس قانوناً ودفعوا له (١٥٠ جنيه) إسترليني - أكثر من  
٧٠٠ دولار - مقابل حرية فردريك دوجلاس. كما جمعوا تبرعا  
اضافياً بلغ (٢٠٠٠ دولار) سلموها لدوجلاس كيما لا يقلق  
وأسرته بشأن مصاريف الحياة لفترة ما .

لم يقبل دوجلاس النقود إذ رأى أن قبولها سيخرجه من زمرة  
دعاة التحرر الذين يجب عليهم الكدح اليومي مقابل لقمة عيشهم،  
واقترح بدلاً من ذلك استخدام تلك الأموال فى شراء مطبعة ليبدأ  
بها إصدار جريدته الخاصة الجديدة. كانت المحاولات السابقة لإدارة  
مجلة خاصة بالسود قد فشلت لأن الجريدة التي تدار جيداً ويحررها  
رجل أسود ستكون دليلاً ناصعاً على أن الزنجي إنسانٌ كامل وليس  
سلعة يمتلكها آخر. كان واثقاً من النجاح لأن اثنين من أكبر محرري  
أمريكا وهما هولارس جريللى، وثورلويد بعدما قاما بقراءة قصته  
ونشر خطاباته من الخارج أطلقا عليه واحداً "من أكثر شخصيات  
العصر موهبة وطلاقة".

عندما وصل دوجلاس إلى بوسطن يوم ٢٠ أبريل كان رجلاً حراً  
بحكم القانون، ذائع الصيت عبر أجواء بريطانيا وأمريكا، ومستعداً  
لبدء حياته المهنية الجديدة كصحفي، فاستقل أول قطار إلى مدينة  
لين "وعلى مدى خمسين ياردة من منزله قابله ابنه ذوا العينين

البراقين الفضوليتين: لويس ذو الستة أعوام، وفردريك الصغير ذو الخمسة أعوام. أما ولده الأصغر تشارلز فلم تكن لديه أدنى فكرة عن يكون ذلك القادم إليه. بدت أنا كمرربة أكثر منها زوجة، وكانت تعاني من ضعف صحتها والعمل الزائد. صرحت له أنا بأنها كانت شديدة القلق بشأن أمنه لدرجة "أنها لم تسمح لنفسها بتوقع عودة زوجها لمنزله كي لا تصاب بحجبة الأمل." ولكن عندما اجتاز

فردريك الباب - وطفلاه متعلقان برقبته - غمرها "شعور زائد بالسعادة" فجأة.

لم تدم عودته للمنزل طويلاً إذ سرعان ما غادره - خلال أيام قليلة - لرحلة محاضرات أخرى. عندئذٍ قرر ترحيل أسرته مرة أخرى ونقلهم إلى روشيستر وهي مدينة صغيرة صاخبة ومحطة لقطار نفقى تتأجج بنيران حزب الحرية إلا أنها تقتصر إلى جريدة لدعاة التحرير. عارضت أنا ذلك الانتقال، لكنه أصر لأن هذا الانتقال الأسرى سيسمح له ببداية جديدة، فما كان له أن يدخل في منافسة اقتصادية مع جريدة الليبراتور كما لم يرد أن يخضع لتأثير رئيسه السابق. أدت رغبته في الانتقال إلى غضب دعاة التحرير في بوسطن. أما جاريسون، الذي كان ينظر إليه باعتباره تحت حمايته

ثم اكشف أن ذلك ليس أمراً ذا بال لدى دوجلاس، فقد شعر أنه كالحبيب المهجور ولن يغفر له ذلك المهجر أبداً.

اتسع مدى ذلك التيار ليشمل باقي الدعاة فى بوسطن فاعتبروا دوجلاس مرتداً، وعارضوا عملية شراء حريته لأن ذلك يقر بحق "نقل ملكية البشر" وبالتالي لا يكاد يتفق فى حده الأدنى مع مبادئ دعاة التحرير، وأرادوا من دوجلاس أن يعلن تخليه عن محاولات "عقته" من العبودية. أما الآن فهم يرون أنه من "الغريب" بالنسبة لعبد سابق تربى وسط تلألؤ من الجهل أن يتظاهر بقدرته على أن يكون محرراً ناجحاً، فالخطيب المفهوه الهارب - الذي يقوم بتعرية ظهره "المجلود" للجماهير التى يصدمها المشهد - أمر له مجاله، أما المحرر الذى يقوم بتطوير وتنقيف القراء المتعلمين بمبادئ الحرية والعدالة والإنسانية فيعد أمراً مختلفاً تماماً. الأمر لا يحتاج إلى جريدة - كما قالوا - لأنها لن تنجح، فجدوى ونفع دوجلاس مقصور على كونه خطيباً لا محرراً. لم يؤثر ذلك النقد على دوجلاس رغم أنه عرف أنه وهو يواصل طريقه لصناعة نفسه سيهجر أصدقاءه وحلفاءه خلفه، فأصدقاء اليوم غالباً ما يكونون غرباء الغد، خاصة دعاة التحرير الذين كانوا يفقدون إلى التوافق، وفى حين كان هو نفسه مستمراً فى التغيير، كانوا ثابتين مُجمدين وإن

تغيروا فى طرقٍ متنافرة لأن دوام الحال من الحال.



عندما عاد لنكون إلى مدينة نيو سالم من حرب البلاك هوك (الصقر الأسود) فى خريف ١٨٣٢، كان محل التجارة العامة قد نفذت موارده. من ثم، احتاج إلى عمل آخر رغم أنه لم يكن قلقاً إذ كان يتقاضى معاشه العسكرى (١٢٠ دولار) بالإضافة لوجوده وسط أصدقائه العديدين. فكر لنكون فى العمل حداً لكنه تذكر مدى كراهيته للعمل اليدوى بينما شغفته دراسة القانون لولا شعوره "بأنه لن ينجح فى هذا المجال دون تعليم أفضل". قرر أن يتعلم واشترى نصف نصيب فى تجارة عامة مشاركا ويليام بيرى الذى كان ضابطاً للصف عنده أثناء حرب البلاك هوك وهو رجل سكير من أبناء القرى، وقد اشترى نصيبه هذا بضمان موقعاً على إيصال ينص على موعد "للدفع الكامل لكل المبلغ". وكان ذلك استثماراً فاشلاً إذ كانت هناك ثلاثة محال تجارية بالقرية؛ إثنان منهم زائدان عن الحاجة. من هنا كانت المنافسة بينهم شديدة الشراسة، فساعده إخوانه من كلاريس جروف باستبعاد واحد من المنافسين عندما أثلتهم الخمر ذات ليلة فقاموا بتحطيم محل يملكه روبين رادفورد، دمروا نوافذه وكسروا معداته وأتلفوا كثيراً من بضاعته. لم يشجع لنكون أصدقاءه ولا قام بأي دور فيما فعلوه. لكن رادفورد "خشية أن تشارك عظامه مصير نوافذه" قرر بيع المحل فقام لنكون وبيرى بشراء ما تبقى من تجارته على حسابهم.

بدأ العمل يشق طريقه، وباعا من خلاله مواد البقالة والسلع الجافة، والخمور الرخيصة، وكان معظم دخلهما من تلك الخمور، ورغم أن لنكون لم يكن من شاريي الخمر بل ويعدها شرا مستطيرا، إلا أنه لم يسمح لأخلاقه أن تعوق عمله التجاري. فى الواقع، سعى هو وشريكه للحصول على تصريح ببيع الخمور فى زجاجاتها- طلبا للمزيد من الدخل- مما حول مشروعهما التجاري إلى مزيج من محل البقالة وحانة الشراب. فيما بعد- بعد عدة سنوات - عندما اتهمه خصمه السياسي ستيفن دوجلاس بأنه يمتلك مشروعا تجاريا مزدهرا للبقالة فى نيوسام، أنكر لنكون ذلك بقوله: "أنا لم أحفظ طيلة حياتى بمحل للبقالة فى أي مكان أبداً." لكن العديد من جيرانه يتذكرونه جيدا وهو يبيع الخمور مشيرين لتجارته على أنها "محل للبقالة". حتى تجارة الخمر لم تسهم فى إيقاظه، ففى خلال عام واحد ذوت تجارته، وأصبح بلا عمل مرة أخرى، وحصل له بعض أصدقائه على عمل آخر كعامل مساحة- لتحديد أبعاد الملكيات المختلفة - ولأنه كان مدينا بـ(٢٠٠ دولار) وعندما حان موعد استحقاق الدين ولم يدفع، تم بيع جواده وسرج الجواد وأدوات المساحة فى المزاد. مرة أخرى أنقذه أصدقاؤه فاشترؤا عدة المساحة خاصته وأعادوها إليه. انقلب حظ لنكون عندما تم انتخابه ممثلاً بمجلس الولاية.

كان لنكولن قد دخل الانتخابات - جزئياً - من أجل المرتب لكنه كان - أيضاً - يُحب الانخراط في السياسة وله العديد من الأصدقاء المؤيدين في مدينة نيو سالم. كان ينتمي - سياسياً - لحزب المحافظين، ذلك الحزب الذي بزغ نجمه تحت زعامة هنري كلاس لمعارضة الرئيس أندرو جاكسون من الحزب الديمقراطي. أسس كلاي مركز انطلاق للمحافظين دعاه "النظام الأمريكي" يؤيد من خلاله مبدأ حكومة مركزية قوية ووجود بنك مركزي وطني، وإصدار تعريفات حمائية، وطرق تشرف عليها الحكومة، وقنوات مائية والتحسينات الداخلية الأخرى، و"تبنى معظم المحافظين الشماليين - بمن فيهم كلاي - إصلاحات يمينية مثل الاعتدال في السياسة والإنفاق وحركة الاستعمار كوسائل لمعالجة السلبيات الناتجة عن تطبيق الديمقراطية مثل السكر والعبودية." وبينما بدا على الديمقراطيين ميلهم لدعم العبودية والدعوة لحقوق الولايات مع النظر لأنفسهم كحزب لبسطاء الناس، ادّعوا "أن حزب المحافظين يفضل نمو طبقة الأرستوقراط." رداً على ذلك أكد كلاي أن مؤيدي نظامه كانوا أكثر الرجال عصامية، وهو مصطلح تمت صياغته عام ١٨٣٢ وانتشر استخدامه بعدها. كان الرجل الأبيض بالنسبة لكلاي هو الوحيد الذي يكون عصامياً، وقد طبع لنكولن كل مظاهر نظامه الأمريكي كمحافظ وظل - وهو يشير إلى كلاي باعتباره "المثال الجميل لرجل



دولة بقيت أدافع عنه طيلة حياته المتواضعة" - هو نفسه على مبادئ المحافظين ما بقى من حياته.

فى عام ١٨٣٤ خلال حملته الإنتخابية تجاهل لنكون كونه منتمياً للنظام الأمريكى وفقاً لرؤية كلاي كمحافظ، إذ كانت مقاطعته منقسمة بين مؤيدي المحافظين فى نيو سالم وبين الفلاحين الكادحين الديمقراطيين فى الريف، وما كان لينجح منطلقاً من جناح المحافظين. لذا، فبدلاً من طرح القضايا السياسية للنقاش قام بمد يد المساعدة للناخبين طوعاً، وكان كثيراً ما يرحل حول المدينة كساع للبريد مكوّماً الخطابات فى قبعة ويوزعها على المرسلة إليهم فوفرت له هذه التنقلات فرصة لطلب أصوات الناخبين. كما أن عمله كمساح طبوغرافى ساعده كثيراً، ففى إحدى رحلاته تلك لمسح حدود بعض الأراضى على بعد إثنى عشر ميلاً غرب نيو سالم، شاهد ثلاثين فلاحاً يحصدون أحد الحقول وبعدما قدم نفسه لهم أخبروه أنهم لن يصوتوا لصالحه ما لم يقيم بمساعدتهم فى أعمال الحصاد. فأجابهم لنكون "حسناً يا فتيان! لو أن هذا كل ما فى الأمر، فأنتى متأكد من حصولي على أصواتكم". وأمسك بآلة الحصاد وتقدم الجميع إلى الحقل. وتذكر أحد الفلاحين ذلك بقوله "وامتلاً الفتان بالرضى، ولا أظن أنه فقد صوتاً واحداً منهم."

أهملت الحملة الانتخابية لنكون بضرورة دراسة القانون . حتى ذلك الحين، كان يشعر دوماً بقلّة استعداد له مثل تلك المهنة، وضحك بعض الناس في نيوسام عندما تنهت لأسماعهم فكرة عمله كمحام، بل أن بولنج جرين - قاضي الأمن "السمين" - سمع لنكون ذات مرة يقدم تعليقا قانونيا فانفجر ضاحكا لدرجة أن جوانبه السمينة اهتزت في ارتعاشات عنيفة. لكن خلال الحملة تلقى لنكون الدعم والتشجيع من محامي سبرنج فيلر - جون تود ستوارت، السياسي المحافظ وابن عم زوجته مستقبلا. بعد الانتخابات، استعار كتب القانون من ستوارت ويذكر ذلك بقوله: "أخذ الكتب معه إلى البيت، وأقبل عليها بنهم شديد."

بدأ لنكون دراسته القانونية بقراءة "تعليقات بلاك ستون"; ذلك المؤلف المكون من أربعة أجزاء لتاريخ القانون في إنجلترا والذي صدر لأول مرة عام ١٧٦٥ ثم أعيد نشره عدة مرات وكان مطلوبا دوماً عند المحامين الناجحين رغم حقيقة أنه "يأتي في الترتيب الثاني بعد الكتاب المقدس كمؤثر ثقافي وأدبي في تاريخ المؤسسات الأمريكية." فيه شرح بلاك ستون تطور القانون كعملية عقلية منهجية وعلمية "تصف بدقة أحكاما تتعلق بكل إنسان بدءاً من الملوك وصولاً إلى العامة" وكان تركيزه على النظرية والمبادئ لا على الإجراءات، وكانت رؤيته بشأن كونها عملية متصلة غير متقطعة

تتماشى مع الحالة القائمة، وظلت شروحه رائعة حتى للقراء المتعلمين، فرغم أن نثره كان رشيقا إلا أنه كان مكثفاً ومتسامياً وخصب المعاني.

لقد أثرت شروحات بلاك ستون بصورة حاسمة فى التفسيرات القانونية لحالة الرق. فمن ناحية يؤكد بلاك ستون أن "قانون الطبيعة باعتباره إملأً من الله ذاته" أعلى مرتبة من جميع القوانين الأخرى؛ فقانون الإله أو القانون الطبيعى يفوق القوانين الوضعية التى يشرعها الإنسان، وقد أسهم تأكيده هذا فى صدور قرار سومرست عام ١٧٧٢ القاضي بتحرير العبيد بفعالية فى إنجلترا (حيث أكد المحامون البريطانيون أن العبودية تقيض للقانون الطبيعى). أما فى الولايات المتحدة، فقد اعتمد حزب الحرية ودعاة التحرير فيه على كتاب بلاك ستون بقوة للتصريح بأن أية قرارات حكومية لا يمكنها أن تسود فوق القانون الطبيعى الذى يمنع الرق. من ناحية أخرى - رغم ذلك - افترض بلاك ستون أن القانون الطبيعى لم يؤثر على الحقوق التعاقدية لملاك العبيد.

قام أغلب المحامين الأمريكيين والقضاة بتفسير شروحات بلاك ستون بصورة متحفظة إذ أعطوا الأولوية للقانون الوضعي والقانون العام (المؤسس على سابقة) فوق القانون الطبيعى. نتيجة لذلك، جذبت مبادئ القانون الأمريكى فى حقبة ما قبل الحرب الأهلية

قليلاً من المصلحين الثوريين لأن تغيير المجتمع يحتاج إلى التخلص من السوابق القانونية. وبالتالي فالحامون الذين أصبحوا دعاةً للتحرير إما هجروا العمل بالقانون كمهنة مثل ويندل فيلبس أو أصبحوا أعضاء في حزب الحرية، وقد تأثر لنكولن ببلاك ستون كثيراً حيث يقول: "لم أقرأ أبداً مؤلفاً أثارني وهزني بشدة مثل ذلك." وأخذت معارضته لانتشار الرق تبرز تدريجياً انطلاقاً من احترامه للقانون الطبيعي والذي اعتبره مناقضاً للعبودية، والقانون الوضعي الذي شرع العبودية كان استثناءً للقانون الطبيعي بشأن الحرية. لكن بالنسبة للنكولن فقد رأى أن القانون الطبيعي لا يمكنه أن يتجاوز القانون الوضعي وذلك يعنى أن الرق كان محمياً في الولايات التي تشرع قوانينها لذلك إلا أنه على الحكومة الفيدرالية أن تمنع انتشار العبودية إلى مناطق جديدة ليس بها موثيق أو قوانين في هذا الشأن.

بينما كان الحامون النابهون يدرسون تحت إشراف مرشد بأحد مكاتب القانون، كان لنكولن يدرس دون معاونة أحد - حسب قوله - وربما قرأ مؤلف بلاك ستون الضخم مرتين ثم تلاه بكتب الإجراءات القانونية. كساعٍ للبريد ومالكٍ لحل بقالة - سابقاً - كان يقرأ غالباً أثناء العمل من أشعار روبيرت بيرنز وحتى أعمال شكسبير، بل وحتى الجرائد. لكن تلك القراءات كانت خفيفة أما دراسات القانون فتطلبت استغراقه الكامل فيها دون مقاطعة. لذا،

كان فى الأيام التى لا يعمل فيها يجلس بجوار شجرة بلوط ضخمة وينكب فوق كتاب بلاك ستون "مُغَيَّرًا مكانه كلما ارتفعت الشمس ويغرق فى التعلم" كما يبقى فى الظل "غير منتبه لأي شيء حوله سوى مبادئ القانون". استغرق كتاب بلاك ستون كل وقته حتى أنه كان يغفل عن موعد الطعام ففقد حوالى ثلاثين رطلاً من وزنه ليصل إلى (١٧٠ رطلاً).

بالنسبة لأغلب سكان نيوسالم، كانت دراسة لنكولن للقانون تشبه - قليلاً - محاولة أحد خريجي جامعة ييل الاشتباك فى عراك ومشاجرات الأحياء الشعبية. ذات يوم، رأى راسل جودبى - وهو مزارع جديد بالمدينة ذو لحية مدببة- لنكولن جالساً بجوار كوم من الأخشاب وهو يقرأ فظنه غريباً وسأله: "ماذا تدرس؟" أجابه لنكولن: "أدرس القانون." فصاح جودبى: "يا الله العظيم القادر!" لم يكن هو الوحيد الذى كان قلقاً بشأن سيطرة كتاب ستون على عقل لنكولن إلى درجة الوصول به إلى حافة الجنون.

هندم لنكولن مظهره قبل أن يبدأ مهنته الجديدة فى فنداليا عاصمة الولاية، فاقترض ٢٠٠ دولار، أي ما يساوي (١٥٠٠٠ دولار بعملة اليوم)، واشترى ببعضها أول بذلة يمتلكها فى حياته، وسروالاً على مقاسه تماماً، وبعض المستلزمات المطلوبة لتحقيق الاحترام وقميصاً أبيض ودلايات وصدرياً من الحرير وزوجاً من الأحذية

الجلدية طويلة الرقبة وبعض الملابس الداخلية وأخبر دأته بذلك قائلاً: "أريد أن أبدو فى مظهر رقيق فى المجلس التشريعى". لكنه مهما أنفق على ذلك لم يستطع أن يمحو علامات نشأته الرفيعة، فملابسه دائماً ممزقة "ومنسلة" وملطخة، والكلمات التى كان يستخدمها المتعلمون والمحترمون لوصفه غالباً ما كانت من مثل "مبهذل"، "جربان"، "قبيح"، "فطيع". بعكس دوجلاس، لم يبد لنكون أبداً كقطعة فنية جميلة. مع ارتداء لنكون هذا الكم الكبير من الملابس من أجل مهمته، نجد مبنى الولاية شأنه شأن جميع المباني الحدودية، وقد بدا متهاكاً لأنه لم يُشيد ليبقى للأبد رغم أن عمره عشر سنوات فقط، فالمرء يرى قطعاً من البلاستر تتساقط من سقفه مهددة حياة النواب، وغرفة الاجتماع المكونة من غرفة احتياطية ضخمة مزودة بمناضد خشبية خشنة، ووعاء كبير معه عشرة أكواب للماء (أو الخمر) ومبصقة تشبه صندوق المهملات يستخدمه ماضغو التبغ الذين يشكلون الجزء الأكبر من مرتادي الدور الأول للمجلس. هكذا تداعى المبنى حتى أنه فى عام ١٨٣٦ انهار تماماً بل تقريباً انفجر إلى داخله، وتعين بناء مبنى آخر للمجلس، وما كانت بلدة فانداليا بساكنيها الألف أفضل حالاً من مبنى مجلسها إذ لم يكن هناك فنادق ولا أماكن إقامة سليمة وملائمة، مما

أدى بنواب المجلس إلى الإقامة فى الحانات المتعددة حيث يسود  
السُّكْر والتشاجر ويصبح جزءاً من الجو العام للمكان.

قضى لنكون ثلاثة أشهر من السنة فى فنداليا، وفى الدورة  
الأولى للمجلس شعر بالخلج وعدم الأمان ونادراً ما تكلم رغم أن  
ثلث الأعضاء كانوا جُرداً مثله. لكنه تعلم كيف يقدم ويمرر  
الاقتراحات بسرعة فى مقدمة المجلس التشريعي وكيف يتعامل مع  
الحيوانات الضالة والمتوحشة، وكيف يجمع أموالاً لشق الطرق  
والقنوات الجديدة وكيف يُحسِّن نمو الأعمال الاقتصادية كي لا تعود  
البلدة مدينةً للأشباح؛ وكان أسلوب لنكون فى الكلام أسلوباً  
مجهداً، حتى إنه كان يتحدث بنغمة حادة تبدو غريبة عند  
صدورها من رجل فى حجم لنكون، بل إن تنوع خطابه - رغم  
تحسنه من قراءته لكتاب "الخطيب الكولومبي" - بدا مقتضياً، فقد  
اندفعت كلماته فى انفجارات متقطعة وبدا - غالباً - متمللاً أثناء  
حديثه، وعُرف عنه أنه يتكلم ويده فى جيوبه أو يلوح بهما بانفعال  
كرجل ريفي من قرى الغابات يتحدث إلى أشباهه، وكان يفتقر إلى  
بلاغة خطباء الشرق. لكن رجال تلك القرى كانوا يصابون بالشك  
أمام البلاغة الزائدة، ولو استفاد فريدريك دوجلاس ورفاقه فى  
بندتون من تلك المعلومة، لكانت مَدِينَتُهُم الصافية سبباً من أسباب  
هزيمة أبناء الريف هؤلاء. فى عام ١٨٣٦ عندما تقدم لإعادة

انتخابه، طالب الناخبون فى نيو سالم مرشحهم "بإبداء انتماءاتهم" وذلك بتحديد نقطة انطلاقهم من توجهٍ سياسى محدد، ومع تدفق المهاجرين الأيرلنديين إلى الولاية للعمل فى شق القنوات أضحت قضية حق التصويت مسألة مركزية لأن أولئك العمال لم يكونوا يحوزون أية ملكيات فصوتوا لصالح الحزب الديمقراطي. لذا، لم يرغب لنكون فى أن ينالوا حق التصويت أبداً إذ قال: "أدعو للسماح لكل البيض بحق التصويت، أولئك الذين يدفعون الضرائب ويحملون السلاح (وبالتالى يُقصى النساء كذلك). فالرجال البيض الذين يملكون ما يدفعون عنه ضرائب أو يخدمون بالقوات المسلحة الأهلية هم من يجب السماح لهم بالتصويت (ولم تكن هناك ضرائب على الدخل وقتها). كانت إشارته للنساء تستهدف التكييت لأن الكل يعلم أن النساء كانت لهن حقوق قليلة ولا يستطعن دفع ضرائب الملكية ولا الخدمة المسلحة ولا حتى التصويت. فى حين كان دعاة التحرير من أمثال دوجلاس وجاريسون ينادون بحقوق متساوية للجميع. أما لنكون فقد انضم لجماعة المحافظين واستخدم وضع المرأة باعتبارها من الدرجة الثانية مصدراً للضحك، كما أن السود حُرِّموا من حق التصويت فى ولاية إلينوى، فأراد لنكون الإبقاء على ذلك الوضع، وفى الحقيقة قام بنفسه بانتقاد مارتن فان بورين بقسوة لاعتناقه مبدأ حق التصويت للسود فى ولاية نيويورك. بالنسبة لقضية حق



التصويت، كان لنكونن برجماتياً، فالدعوة لحقوق السود والنساء تعد  
اتحاراً سياسياً. لكن فى الجزء الآخر من سياسته كان متبصراً  
ومثالياً، حيث أراد لولايته الحدودية أن تنشئ نوعاً من شبكة النقل  
شبيهة بما طبقته ماساتشوستس وقضت حوالى قرن فى تنفيذه،  
وأراد أن تقوم الحكومة الفيدرالية بالإتفاق على ذلك من حصيلة  
اجراءات بيع الأراضي العامة، كانت مبادؤه نخبوية، فالمهاجرون  
سوف يقومون بشق القنوات والطرق الممولة فيدرالياً لتفيد الرأسماليين  
لكنهم لن يُمنحوا حق التصويت.

لسخرية الموقف تجاهل لنكونن وضعه الاجتماعى ، لأنه كان  
يتشاك مع الكثير من أوضاع الفلاحين المعدمين وعمال الحفر، فهو لا  
يحوز أية ملكية ولا شيئاً ذا قيمة يمكن بيعه عدا مهاراته المتواضعة  
فى مجال العمل المساحي، وخدمته فى القوات الأهلية فقط هي  
التي تمنحه حق التصويت وفقاً لدعوته التي ينادى بها. لكنه كان  
يحسب نفسه على رجال الريف العصاميين ويخطط لبداية جديدة.  
وقد حصل على تلك البداية عقب انتخابات أغسطس عندما  
حصل على شهادة القانون التي سعى إليها. كانت منطلقات لنكونن  
تستهدف إنقاذ نيوسالم من التدهور، لأن الطرق والقنوات المائية التي  
تمر عبر المدينة كانت فى حالة شديدة السوء. بالتالى، أخذت  
أعمال المدينة التجارية فى الاضمحلال والهروب الجماعى إلى

المدن الأكبر. كان النزوح شديد الأثر لدرجة أن قيمة الأشياء هبطت بمقدار ٩٠% من أصلها فى سنة واحدة، وساعدت أجواء القلق بشأن مستقبل المدينة لتكون على الفوز رغم أنه خسر أصوات الفلاحين الكادحين فى المناطق الريفية مثل كلاري جروف، وحتى صديقه جاك أرسترونج، وهو فلاح فقير، قرر ألا يصوت لصالحه.

خلال دورة المجلس لعامى ١٨٣٦-١٨٣٧، صنع لتكون من نفسه زعيماً للمجلس، ١٤١ وعمل جاهداً ضمن مجموعة مكونة من ثمانية أعضاء على نقل العاصمة من فنداليا إلى سبرنجفيلد وإنشاء طرق وقنوات جديدة وكان أولئك الأعضاء المعروفون بـ"الطوال التسعة" - لأن متوسط طولهم كان ستة أقدام - يؤكدون أن فنداليا صغيرة جداً ونائية إلى الجنوب جداً فى ولاية يتطور النمو فيها إلى الشمال، فدبروا (١٠ ملايين دولار) على صكوك تصدرها الولاية لمدة سلسلة من السكك الحديدية فيها. لكن الاضطراب الذى وقع عام ١٨٣٧ دمر المشروع العظيم لبناء الطرق الذى تبناه التسعة الطوال وأغرق الولاية فيما يشبه الإفلاس، إذ بيعت الصكوك مقابل (١٥ سنناً) لكل دولار، وأصبحت إيلينوى معروفة "بالطرق غير المكتملة وبالقنوات شبه المحفورة"، وأضحت رمزاً للأزمة الاقتصادية لعدة سنوات. اتهم الناس لتكون بالتسبب فى الانهيار لكنه كان

يعرف كيف يقاوم وكيف يخوض عبر الهجوم بنجح فريق "التسعة الطوال" فى تحقيق هدفهم لنقل العاصمة إلى سبرنجفيلد التى كانت على بعد عشرين ميلاً فقط من نيوسالم، وقد نشط الاقتصاد هناك بفعل ذلك الانتقال، واستفاد منه لنكون وأمثاله من العصاميين الطموحين. فى الواقع، تبع ذلك انتقال لنكون إلى سبرنجفيلد حيث بدأ مشاركة زميله فى حزب المحافظين جون تود ستيورات فى العمل القانونى، إذ كان جون خبيراً قانونياً، وباستظهار واحدٍ من آخر قوانين الدورة التشريعية لعامي ١٨٣٦-١٨٣٧، كشفت الجمعية للمجلس عن مدى إغراق ايلينوى بين مباديء المحافظين فى النظر للعبودية، فقد مرر المجلس - بصورة مجهولة المصدر تقريباً - سلسلة من القرارات التى تحظر إنشاء جمعيات لدعاة التحرير مدافعة عن الحق "المقدس" والدستوري فى امتلاك العبيد فى ولايات يوجد بها ذلك النظام البشرى واقعاً، ودلت على ذلك بعدم قدرة الحكومة الفيدرالية "المركزية" على منع الرق فى مقاطعة كولومبيا دون رضا المواطنين.

كان لنكون مع رفيقه السياسى المحافظ دان ستون هما الخصمان الوحيدان هناك. لكن حينما أصدرتا اعتراضاً رسمياً، كانت وجهات نظرهما لا تختلف كثيراً عن آراء الجمعية العامة. الفارق الوحيد هو أن لنكون وستون وصفا العبودية بأنها "خطأ"، لأنها نجمت عن ظلم وسياسة خاطئة "لكنهما لم يكونا يؤيدان

جميعيات دعاة التحرير بوضوح" لأن دعاوى مباديء دعاة التحرير تميل إلى زيادة شرور الرق لا إلى القضاء عليها. " لكن كيف يزيد دعاة التحرير من شرور العبودية؟ ذلك ما لم يوضحاه أبداً. لكنهما في ولاية أسسها الجنوبيون لم يستطيعا إبداء تعاطفهما مع خصوم مؤسستهما. وقد عكسا صدى قرارات الجمعية العامة للمجلس بالتأكيد على أن أية أسئلة تتعلق بالرق وبعثهم لابد وأن تترك لسادة العبيد أنفسهم. كانت قرارات المجلس واعتراض لنكونون وستون يشوبها الحذر مع ردود الفعل المحافظة أمام مشكلة العبودية، وعندما دخل لنكونون انتخابات الرئاسة أشار لذلك الاعتراض وقال إن موقفه من العبودية لم يتغير منذ عام ١٨٣٧ حتى عام ١٨٦٠. لكن تلك كانت كذبة ووسيلة لانتفاء الاتهامات الموجهة له كرجل راديكالي. وخلال الأعوام الثلاثة والعشرين التالية، سيصبح أقل انتماءً للفكر المحافظ.

انتقل لنكونون إلى سبرنجفيلد يوم ١٥ أبريل من عام ١٨٣٧، مخلفاً وراءه بلدة تحتضر لتصبح - بعدها - مدينة للأشباح، ومعها مشروران فاشلين للزواج. في الخطبة الأولى تقدم للزواج من آن روتليدج ابنة أحد ملاك الحانات الذي كان يقطن عنده لبعض الوقت، "وهي أصغر منه بثلاث سنوات، وكانت قصيرة ومكئنة وتعد واحدة من أجمل بنات القرية." كانت مخطوبة لرجل آخر اسمه

جون ماكينيل مما أثار العديد من الأسئلة حول مدى جدية خطوبتهما وبافتراض أن ماكينيل غادر نيوسالم لزيارة والديه في نيويورك، إلا أنه ذهب لشهور طويلة مما أثار عددا من الأسئلة حول شخصيته، وفي بدايات ربيع ١٨٣٥ وافقت آن على الزواج من لنكونن إذا ما استطاعت الحصول على "فسخ مشرف لخطوبتهما" من ماكينيل. كان لنكونن قد عاد لتوه من الدورة الأولى للمجلس في فنداليا، وكان على غير عجلة من أمرهما في الزواج فآن تحتاج إلى وقت كيما تتخلص من خطوبتها، ولنكونن أراد أن يستكمل دراساته القانونية ليلحق بنقابة المحامين. لذا، حددا موعداً مؤقتاً في أخريات عام ١٨٣٦ أو ١٨٣٧، لكن آن أوقعتها "حمى" أصابتها في المخ- ربما كانت التيفود- في صيف ١٨٣٥ القاطن الماطر، ثم ماتت في أغسطس من نفس العام، وألقى موتها لنكونن في اكتئاب حاد (فقد كان حقاً يميل إليها) وتعامل مع الموقف بالاستغراق في دراساته القانونية، ورغم أن موت آن أزعجه، إلا أنه مثله "باقتراب نهاية نيوسالم أمامه".

كانت الخطبة الأخرى لماري أونز، امرأة من كتوكي قابلها لنكونن أول مرة عام ١٨٣٣ عندما كانت تزور أختها في نيوسالم. كانت امرأة متعلمة جيداً ومتحدثة وطيقة الكلام أحياناً، ومن نفس عمر لنكونن (خمس وعشرون سنة وقتها). انحدرت ماري من أسرة ثرية

متواضعة، وكانت "مهدبة السلوك ممتعة الحديث، وذات جاذبية فى المجتمع"، وفقاً لوصف أحد جيرانها. كانت بشعر أشقر وعينين زرقاوتين داكنتين، ولم يكن طولها عادياً بالنسبة لامرأة، إذ كانت تصل لخمسة أقدام وخمس بوصات ووزنها رطلاً. أوقع مرآها بلنكون فى الهوى، إذ راح يتفاخر أمام أحد أصدقائه بقوله إن ماري لو عادت لزيارة أختها مرة أخرى لتزوجها، وسواء سمعت أختها بذلك أم لم تسمع، فقد قامت بدور "الخطيبة" بينهما فأعادت ماري لنيوسالم لزيارة ثانية عام ١٨٣٦، وبدأ الاثنان فى التواد ثم عقدا الخطوبة فى الحال. أحبت ماري لنكون واعتبرته "رجلاً ذا عقل صافٍ، ورغم كونه جلفاً إلا أنه نشط ومبدع"، وتوقعت أنه سوف يسمو فوق مكاته البسيطة والمتواضعة فى المجتمع يوماً ما. ١٥١ لكن ماري كان لها طموحاتها أيضاً، إذ رأت أن لنكون "رجل هزيل الجسم متعثر الخطى" فى مظهره، وباختصار (ليس منظراً) وهو "غيب فى تلك الحلقات البسيطة التى تشكل السلسلة الكبرى فى سعادة المرأة".

ذات يوم وهما فى فترة التعارف ذهبا يتجولان ممتطين جوادين ومعهما بعض الأفراد القليلة من الناس فواجهها شجرة ساقطة وسط الطريق وبينما يقوم الرجال بمساعدة رفاقهم على العبور، انطلق من بينهم لنكون قافزا عليهم. تذكر ماري ذلك بقولها إنه حتى "لم ينظر

خلفه يرى كيف سأجتاز المسألة. " وعندما سألته - متضاحكة -  
عن ذلك الموقف أجابها أنها: " ذكية جداً بما يكفى لرعاية نفسها  
بنفسها. " لم تعلق على تلك الواقعة، لأنها أدركت أن وقاحة لتكون  
ناجمة عن قلة الخبرة وليس عن الوضاعة، ففي أغلب الأحوال كان  
" حساساً تجاه أى خطأ " كما قال بنفسه ، والرجال المتعلمون  
الواعون كانوا نادرين .

عندما ذهب إلى فنداليا لحضور الدور التشريعي لعامي ١٨٣٦ -  
١٨٣٧، شعر بإفتراده لماري، وظل ينتظر خطاباتها وكتب إليها  
بأسلوبه المتردد: " حقيقة لا يمكننى تحمل فكرة البقاء هنا عشرة  
أسابيع ... أرجو أن تكلمي لي حالما يصل اليك مكتوبي هذا ولو  
أممكنك أن تقولي لى شيئاً يسرنى، لأنني فعلاً لم أجد ما يسرنى منذ  
غادرتك. " لكن بعد انتقاله إلى سبرنجفيلد شعر لينكون فجأة بالبرد  
فى أقدامه علامة على بؤسه، وإذا ما كان قد حاول كتابة خطاب  
غرامى وهو فى فنداليا، تجده الآن يخطط ملحوظة تمتليء بالأسى:  
"إننى وحيد تماماً هنا كما كنت طيلة حياتى بأي مكان آخر. "  
لكنه لم يكن فى الواقع وحيداً من أجلها "وأخشى أنك لن تكوني على  
راحتك. فى سبرنجفيلد "فهنا ازدهار كبير فى حركة العربات،  
سيكون قدرك أن تشاهدها دون ركوبها، حيث ستكونين فقيرة  
دونما وسيلة لإخفاء فقرك، هل تظنين أنك قادرة على تحمل ذلك فى

صبر؟" لأنه كان مدركاً لمدى رفاهية تربية ماري مقارنة بنشأته الفقيرة، اتابه القلق حول قدرته فى توفير وسائل عيشها كما اعتادت أن تحيا . بالتالى، كان يعاني من أزمة فى إحساسه بالرجولة، فكان غير مطمئن بشأن الزواج من امرأة بهذا الوضع لدرجة أنه تمنى إيقاف الزواج. لكنه لم يرغب فى فقدان ماء وجهه إذا ما فك ارتباطه بها من تلقاء نفسه. لذا، صمم خطابه بحيث يدفع ماري لاتخاذ هذه الخطوة من جانبها، فكتب لها أنه: "مرتبطة بشدة بخطوبتهما والسعى للزواج بها . . متمنياً"إنها ترغب فى ذلك". ثم قدم لها نصيحته بقوله: "فى رأيى أنه من الأفضل لك ألا تفعل ذلك، لأنك لم تعادى الحياة الخشنة وربما يكون الأمر أقسى مما تتخيلين الآن." وباعتبار ماري سيدة راقية فقد أدركت تلميحه وسرعان ما فسخت الخطوبة .

بعد ثمانية أشهر، وبمجرد أن انتهت مخاوفه وبقيت كرامته كرجل سليمة، حوّل لنكون تلك الصدمة إلى نكتة، وفى أحد خطاباته بمناسبة "كذبة أبريل" عام ١٨٣٨، الذى أرسله إلى إليزا براوننج - وهي زوجة أحد رفاقه بحزب المحافظين وكان يشق بها- روى لها تلك الحكاية دون أن يذكر اسم ماري، وقال إنه وافق على الزواج بها حينما رآها "قبل ثلاث سنوات من الواقعة، معتقداً أنها ذكية وملائمة، ورأى عدم وجود سبب للاعتراض على خوضهما الحياة



يداً بيد معاً. " لكنه عندما رأى ماري مرة ثانية بعد السنوات الثلاث أربعه منظرها: "لأنها بدت غير ما تراءت في مخيلتي. كنت أعلم فعلاً أنها ممثلة، لكنها بدت الآن أشبه كثيراً بشخصية (فولستاف) السمينة التي أبتكرها شكسبير، وأضاف: "أعلم أنها كانت تدعى (العذراء العجوز)، ليس بسبب ملامح ذابلة لأن بشرتها كانت ممثلة بالدهون لدرجة لا تسمح بظهور الأخاديد عليها، وإنما كان ذلك بسبب تساقط أسنانها، ومظهرها الذابل المنسحق بشكل عام، وأيضاً بسبب فكرة ما طرأت على ذهني بأنه لا يمكن لشيء يبدأ من حجم طفل ليصل إلى هذا الحجم - الذي هي عليه الآن - إلا بمرور خمس وثلاثين أو أربعين سنة على الأقل عليها. " هنا يسقط لنكونلن مخاوفه بشأن الزواج من امرأة ثرية ذكية وشابة راقية ليحولها إلى شمطاء سمينة وعجوز ثراء، بل إن لينكونلن تهادى في وصف زواجه المقبل من ماري ليدعى أنه نوع من القيد الأكثر سوءاً من عبوديته السابقة لوالده، "وأقسم ألا يعود للتفكير في الزواج أبداً. " فقيود الزواج هددت اعتزازه برجلته، مثيرة إحساسه بالخوف من واجباته والتزاماته كزوج، إذ انتقل لتوه إلى سبرنجفيلد كيما يبدأ مستقبلاً مهنيًا جديداً، ومثل باقي أبطال المناطق النائية في المخيلة الأمريكية، كان في حاجة إلى فراغ كافٍ يتحرك فيه، وليس في حاجة إلى امرأة تقيده في المكان، ومن ثم لم يشعر لنكونلن بالارتياح للنساء

العزباوات اللواتي يجعلنه مصدراً للسخرية "كن يضحكن منه فى وجهه" هذا ما قالته إحدى الفتيات عنه. نتيجة لهذا، كان يفضل عليهن الرجال الذين كان يشعر معهم بالارتياح والضحك والتندر بل والعراك، وكما نوه بذلك أحد جيرانه فى نيو سالم قائلاً: "لم يبد عليه معرفة ما يقول وسط صحبة من السيدات العزباوات . . بل لم يكن يشعر بالارتياح أبداً مع النساء. أما مع الرجال فقد كان رفيقاً محبوباً. فى الواقع، كان يشعر بالحرج بشأن النساء لدرجة أنه عندما كان يعمل فى المحلات العامة كان يتجنب القيام بمخدمتهن، مفضلاً التعامل مع الرجال والصبية." فإذا ما كان لنكون زعيماً بين الرجال بفضل حجمه وقوته وعشقه للنكات القذرة، إلا أن نفس تلك الملامح هى التى تجعله غريباً بين النساء. يفسر ذلك أن رفيق لنكون وحبه فى حياته كان رجلاً يدعى جوشوا سييد، وكنا قد تقابلا بأحد المحلات العامة. ربما كانت علاقتهما الجديدة قد أسهمت فى التحول المفاجيء عن علاقته بمارى أوينز.

فى أبريل مضى لنكون فى طريقه إلى سبرنجفيلد على حصان اقترضه ومعه كل متعلقاته (قليل من كتب القانون وبعض الملابس) مكومة داخل حقيبتين بسرج الحصان، وتوقف عند محل بيل وشركائه على الجانب الغربى للمدينة، ووضع حقيبته على طاولة البيع، وتساءل كم يكلفه شراء مرتبة وأغطية ووسادة. كان البائع النحيف

الصغير خلف الطاولة هو جوشوا سييد، وهو شريك صاحب  
 الحل. كان له وجه طويل رقيق ذو خدين مرتفعين، وشعر ممشط  
 جيداً، وشفَتان ممتلئتان مفترقتان، وعينان تطل منهما الحكمة  
 والمرح. كان يصغر لنكونلن بخمسة أعوام ويبدو مثقفاً بل مهندياً.  
 كان ابن أحد مزارعي كينتوكي الأثرياء ممن يملكون حوالي ستين  
 عبداً، وجاء إلى سبرنجفيلد لعمل ثروته الخاصة، ورغم أنه لم يقابل  
 لينكونلن من قبل، كان يسمع عنه إذ حضر له مناظرة مع خصم من  
 الديمقراطيين في سبرنجفيلد عام ١٨٣٦. كان أول انطباعاته عنه أنه  
 "رجل طويل، قبيح، متناقل بلا ملامح." لكنه شاركه سياساته  
 المحافظة حيث أذهلته كلمات لنكونلن وها هو الآن يتناول القلم  
 والورقة ليسجل الحساب بما جمته ١٧ دولار. هنا قال لنكونلن:  
 "ربما كل ذلك رخيص بما يكفي. لكنني أود أن أخبرك برغم ذلك  
 الرخص، أنني لا أملك نقوداً لأدفعها. لكنك إن أردت بيعي هذه  
 الأشياء بالدين حتى عيد الميلاد القادم فلسوف أدفع لك خاصة  
 أن مهنتي هنا كمحام ناجحة، وإذا فشلت فقد لا أدفع لك أبداً."  
 كان في صوته تلك الرنة من الشجن التي جعلت سييد "يتعاطف  
 معه"، وحينما أخذ يخلق فيه رأي ذلك الحزن مرتسماً على وجهه  
 لدرجة أنه اقترح عليه حلاً بديلاً بقوله: "إن لدى غرفة واسعة جداً  
 وبها سرير مزدوج، أرحب بك لمشاركتي فيه إذا رغبت في ذلك."

فسأله لنكونن: "أين غرفتك؟" فرد عليه: "إنها فى الدور الأول." مشيراً إلى السلام ومرشداً إياه إلى الغرفة. دون كلمة، تناول لنكونن حقيبته وصعد السلام، وبعد دقائق هبط مرة أخرى وقد أشرق وجهه بالسعادة، وهو يقول: "حسناً يا سييد، لقد انتقلت ها هنا." هكذا أصبح الرجلان رفيقَي فراش. طوال الأربعة أعوام التالية، ولفترة طويلة بعدما تمكن لنكونن من توفير غرفة خاصة له، ناما معاً فى نفس الفراش الذى يعلو الحبل متشاركين أكثر أفكارهما حميمية. هكذا قال سييد واصفاً علاقتهما: "لم يوجد رجلان أكثر منا حميمية أبداً إذ كرس لنكونن قلبه كلية لي." وقد صرح بذلك صديق مشترك لهما حول تلك المشاعر قائلاً: "إن لنكونن أحب ذلك الرجل أكثر من أى إنسان آخر حياً أو ميتاً." حتى أن ابنه روبرت تود لنكونن أكد أن سييد كان "أكثر أصدقاء والده حميمية طوال عمره."

فى تلك الغرفة، تشاركا أحلامهما وطموحاتهما - لينكونن الطامح إلى الشهرة وسييد الحالم بالثروة - وتداولوا الشائعات حول سكان البلدة وسرعة نموها، وتناقشا فى السياسة وشجعاً معاً حزب المحافظين. لكنهما غالباً ما تكلمتا فى أمور الأدب وشؤونهما الخاصة. قد قام سييد بتعريف لنكونن بإبداعات اللورد بايرون ذلك الشاعر الليلى الحساس الشهير والبطل المثالى لدى سييد حتى أن سييد كان يرتدى "ياقة بايرونية" تدور حول عنقه صاعدة إلى أن

تلمس ذقنه. أما لنكولن فقد قام بإلقاء قصائد كاملة للأديب روبرت بيرنز ومقاطع طويلة من أعمال شكسبير من ذاكرته. من خلال تلك المشاركات، أصبحا يحملان مشاعرٍ ودِّ تجاه أدبائهما المفضلين، كما انجذبا بشدة نحو الأدباء المعذبين الرومانسيين من أمثال بايرون. عندما كان يصاب أحدهما بالاكئاب يسارع الآخر ليقوم بدور الممرض والراعي، ليساعده على الخروج من "وساوسه" هكذا أسماها لنكولن. استخدم المرح وسيلة للتخلص من الشجن ومجaraة مآسي الحياة. كانت العلاقة الرومانسية بين لنكولن وسبيد - لاعتبارات عديدة - تتبع خطى المثل المسيحية والكلاسيكية في صداقة الذكور التي كانت سائدة في عصر ما قبل الحرب فالصديقان الحميمان يصبحان رفيقي الروح، ويتحد جسداهما في روح واحدة، وفقا لما قاله أرسطو الذي ابتكر مثالا للصداقة الروحية ثم اندمجت فكرته في التقاليد الأمريكية والمسيحية، أنه بالتأكيد هناك أنواع مختلفة من الصداقة، معظمها نفعية. لكن في حالة الصداقة الروحية أو الرومانسية، فالرجلان يجبان بعضهما ويحترم كل منهما الآخر ويكونان في الأساس متشابهين، ويعبران عن عواطفهما بطرق روحية أو شاعرية أو فكرية، وغالبا ما تكون جسدية. كانت أشهر علاقة صداقة ذكورية في القرن التاسع عشر تمثل ذلك النموذج وتلقى أضواءً على طبيعة

العلاقة بين لنكولن وسبيد، وهى علاقة أشمايل وكويك ويح التى وردت بتفاصيلها الرومانسية فى رواية ملفيل، واصفة العلاقة بأنهما "كانا ينأمان معاً فى أجمل وأرق مشهدٍ محبٍّ.. كما لو كانا.. .  
أصدقاء ثدى واحد.. . كانا يشبهان.. الرجل وزوجته" فاتحين أعماق روحيهما كلاً لرفيقه، "ويستمتعان معاً فى" قلبيهما بشهر عسل صافٍ.. . كانا كهصفورين متوادين آمنين. "كان هناك - أيضاً- إحياء بانفعالات جنسية. رغم كبتها، كانت مشاعر الحب بين إشمايل وكويك ويح تتم فوق نفس السرير (فى خان سباوتر) حيث كان المالك وزوجته (مضفونين ببعضهما) فى إثارة تستدعى مسارات العشق فى فراش الزوجية. أما النموذج الثانى فهو علاقة "هك فن وجيم" إذ كان كل منهما ينادى الآخر باسم "يا عسل!"  
ودائماً ما كانا "عراة ليلاً ونهاراً" وهما يبحران أدنى نهر المسيسى فى خمسينات القرن التاسع عشر، غير بعيدين عن المكان الذى يعيش فيه لنكولن وسبيد.

كما هو واضح مما تشير إليه تلك النماذج، نجد أن المعايير الجنسية فى سنوات ما قبل الحرب الأهلية كانت أقل رفضاً عما هى عليه اليوم، فقواعد الجنس كانت تنساب لمتهاها لدرجة أن التمييز بين علاقات المثلية الجنسية وبين الطبيعية (بين طرفين مختلفين) لم يكن قائماً، فالأخلاقىون يصفون كل العلاقات الجنسية الصريحة المعلنة

خارج إطار الزواج بأنها خطيئة، ويتعاملون مع علاقات الجنس بين الذكر والذكر بصورة لا تختلف عن تعاملهم مع علاقات الجنس بين الذكر والأنثى، وهناك تعبيرات أكثر عمومية فى مجال الحب (أو حميمية العلاقة) بين رجلين أو امرأتين كانت تعد عادية تماماً : " فالنساء يتعاطفن ويقبلن وينمن معاً ويُعلن الحب تجاه نسوة أخريات. "، و"الرجال يفعلون نفس الأشياء مع رجال آخرين" دون أن يجدوا أى ملمح للاستنكار، ولو تم التعبير عن تلك العواطف بصورة جنسية صريحة، كان الأخلاقيون يرمونها "بالخطأ" بغض النظر عن كان يقوم بذلك ومع من .

لقد نبذ ذلك الانفتاح على علاقات الجنس المثلية جزئياً من تفسيرات الناس للكتاب المقدس حيث لا يعد الفعل الجنسي بين الذكر والذكر غير طبيعي ولا يتم التعامل معه بصورة مختلفة كثيراً عن ذات الفعل بين الذكر والأنثى خارج رابطة الزواج. لذا فقد رفعت الحكومة يدها عن الجنس تماماً، ونادراً ما تم تطبيق القوانين الضابطة لعمليات الدعارة أو اللواط أو دخلت فى حيز التنفيذ . كانت هناك أربع ولايات فقط تطبق فيها قوانين العيب التى تحظر الأدب الجنسي الفاضح بينما كانت كل ولاية جنوبية قد حاولت منع أدب دعاء التحرير داخلها . كما لخص أحد المؤرخين ذلك بقوله: "وسط المناخ الاجتماعي الحر والبسيط الذي ساد أمريكا قبل

الحرب الأهلية، كان التصريح بالعلاقات العاطفية المفتوحة بين الناس أمراً شائعاً، إذ كان الفاصل بين الصداقة الجنسية والرومانسية، بين اللذة والعشق، بين الشهوة والحب، حداً مشوشاً وغير واضح بالفعل.

هناك حالات قام فيها بعض الأصدقاء بالإفصاح عن علاقاتهم الجنسية علانية، فقبل لقاء لنكولن بسبيد بجوالي حقبة أخبر توماس جيفرسون ويزرث- وهو طالب حقوق من ساوث كارولينا عمره ٢٢ سنة- صديقه جيمس هنري هاموند بمدى حبه للنوم معه قائلاً: "أشعر بميل ما لمعرفة ما إذا كنت تنام - حتى الآن- فى قميصك الطويل، وإذا ما كنت - حتى الآن- تجد المتعة المرفهة فى... تلك اللمسات الممتعة التى غالباً ما حزت شرف الشعور بها؟" هنا يشوش ويذرث الحد الفاصل بين العشق والجنس، ويستكمل صراحته بقوله: "سيدى لقد كنت تقلق النوم الناعم لرفيق سريرك بمثل تلك الهجمات العنيفة الوحشية التى كنت تعادها معه، عندما لم يكن لديه أقل ممكنات الدفاع فى مواجهة تلك القوة المخترقة المخطئة." ومن الواضح أن صداقتهما تلك لم تهدد إحساسهما بالرجولة ولا مكاتهما الاجتماعية. بالفعل أصبح هاموند نائباً بمجلس الشيوخ للولايات المتحدة - محققاً الشهرة - وحاكماً لولاية وأنجب أبناءاً والتحق بالكونغرس.



كان اللواط منتشرًا أيضاً فى الجيش وبحارة السفن والأسطول وقوات المارينز، بل أن استثناء أحد الرفاق لرفيقه كان منتشرًا لدرجة أن أسموه "الاهتزاز" وقد أطلق هيرمان ميلفيل - الروائي - على إحدى شخصياته القصصية "الهزاز" فى قصة حياته على سفينة من سفن الأسطول ووصف البحارة وهم "يصقلون أعمالهم اللامعة - فى إبحاء جنسي - أو يعاقون أطراف أسلحتهم أو قطع الحديد المدببة ومثل تلك الأشياء . " كان أولئك البحارة يسخرون من دعاة الأخلاق الذين يعتبرون الاستثناء مرضاً يمكنه أن يقتل المرء ، وهناك بحار آخر احتفظ بمذكرات يومياته التى تروى تفصيلات عن ممارسة اللواط بكثرة يتعجب معها كيف أمكن لسفينة يحدث بها ذلك أن تصل لموانئها . كما قام الشاعر والت واثيمان "بممارسة الحب" مع الرجال والنساء كظهر لرؤيته الديمقراطية: "فالجميع ناقصون إذا كان الجنس مفقداً، أو إذا افتقدنا نعومة الرجل المناسب . " ويستكمل قوله جذلاً: "إننى مع هؤلاء الذين يؤمنون بالمتعة القصوى، فأنا أشارك الشباب حفلاتهم الماجنة بمنتصف الليل . " هكذا كان مدى علاقات الصداقة الرومانسية الأمريكية .

ليس هناك برهان واضح على أن لتكون وسبيد قد مارسا الحب الجسدي، ورغم أن خطابات سبيد إلى لتكون خلال فترة

علاقتها الحميمة (في أربعينات القرن ١٩) مع الأسف قد ضاعت، وأن يومياته - التي يدعى البعض وجودها - لم تظهر للآن بعد، لكن في أحد خطاباته للنكونل أودع سبيد زهرة بنفسج، وهي زهرة ترمز لعلاقة شبقية، وأجاب لنكونل بقوله: "إن البنفسجة الرائعة التي أرفقتها بخطابك وصلت حتى أنها انتشرت تراباً مع أول محاولة للمسها، ورحيقها أحفظ به وأرعاه." تفتقد خطابات لنكونل إلى سبيد - عموماً - العاطفة العميقة التي تصف بها الصداقة الرومانسية. لم يعلن لنكونل أبداً عن ذلك النوع من الحميمة الرومانسية في خطاباته ولا حتى لزوجته وأبنائه، إذ كان يفضل كتابة "الجمل القصيرة والأسلوب الموجز"، وكان هذا ما قاله لسبيد ذات ليلة وهو شكل كتابي لا يشجع على المراسلات الحميمة، فهو يكتب - خطاباته - كمحام لا كمحب. رغم ذلك، ما تزال الخطابات التي كتبها لسبيد أكثر النصوص وداً من بين ما كتبه لنكونل. كان يوقعهم بكلمة "المخلص للأبد" و"صديقك"، بالإضافة إلى أنه كان يتيح مساحة لسبيد كي يعلم مدى ما يحمله له من رعاية واهتمام، حيث بدأ أحد خطاباته بالعبارة التالية: "أنت تعلم جيداً أنني لا أشعر بأحزاني الشخصية أكثر مما أشعر به تجاه أحزانك أنت حينما أعلم بها." وعندما كان سبيد بعيداً عنه قال له إنه يفقده كثيراً وأنه قلق عليه. نجده يقول في خطابه: "أريدك أن تكتب لي في كل

بريد . " ثم يعترف فى آخر: "سوف أكون وحيداً جداً بدونك . " ثم يعبر عن حبه الخالد له فى خطاب آخر: "أنت تعلم رغبتى فى استمرار صداقتك للأبد ، وأنى لن أتوقف عن ذلك وأنا أعلم كيف أفعله . " لكن لنكونن عبر عن ميله الصريح لحب الذكر للذكر - فقط فى أشعاره ونكاته البذيئة - ففي قصيدة كتبها كجزء من حيلة ساخرة يصف فيها جاره بيلي بعدما هجرته النساء

احتقاراً ، أنه وجد متعة مع عشيق ذكر هو " ناتي " قال:  
لكن بيلي تزوج صبيّاً

والفتيات اللاتي جربهن كثيرات حوله

لكنه لم يجد بنهن من ترتضيه

فكل محاولاته ذهبت سدى

لذا عاد لمنزله من جديد

ومن يومها تزوج " ناتي "

وهما الآن متلازمان جيداً

وأمه سعيدة تماماً بذلك التلاقي .

بعد عدة سنوات سيكون على لنكونن أن يرد صدى هوايتما  
بإشارته اللعوب إلى رفيقه الحميم بكلمة "سريع" (= سبيد) فيقول  
"لقد نمت مع جوشوا طوال أربع سنوات، وأعتقد أنني يجب أن  
أعرفه جيداً . " ووفقاً لما قاله الجيران فى نيوسالم وسبرنجفيلد كانت

لدى لنكونل طاقة شهوانية قوية جامحة، وقد اعترف مرة لويليام هيرندون- الموظف لدى سييد ثم شريكه فى مكتب المحاماة وكاتب سيرته الذاتية- أنه فى عام ١٨٣٥ قد غرق فى "شهوته الشيطانية" واستأجر عاهرة وبعدها ركبهُ القلق خشية إصابته بمرض السيفيليس، لكن هيرندون صرح بما هو أكثر من ذلك ليقول إن لنكونل "نادرا ما ابتعد عن العاهرات اللواتي كان يعاملهن بسلوك مختلف عن السيدات العزباوات" وقد تذكر أحد جيرانه الجدّد بنيوسالم أنه كان يرتاد بيت الدعارة مع بعض من صحبته أثناء حرب البلاك هولك.

وعند اقتراب خاتمة حياته، أخبر سييد- وهو متزوج - هيرندون أنه قد احتفظ لفترة بإحدى العاهرات بمدينة سبرنجليفند، وجاءه لنكونل تدفعه "الرغبة للاستمتاع قليلا" سأله: "سييد، هل تعلم أين يمكنني أن أجد ذلك؟" فأجابه: "نعم، أستطيع . سوف أرسلك إلى مكانها بمذكرة بسيطة لأنك لن تستطيع الحصول عليها إلا بتلك المذكرة أو بحضوري معك بنفسي." لو كانت تلك التقارير التى تبين قيام لنكونل بممارسة الجنس حقيقية، فليس هناك مبرر للإعتقاد بأنه لم يمارس العلاقات الجسدية مع جوشوا سييد، ذلك الرجل الذى شاركه سريره طوال أربع سنوات، إذ لو كانت رغباته الجنسية لا كاج لها، فمن المتوقع أن يشبعها ليس فقط مع

الغرباء ولكن مع أشد أصدقائه حميمية أيضاً. مع كل ذلك فهو لم يعتبر أن شكلاً من أشكال الجنس مختلف عن شكل آخر، لأن مفهوم طرني العلاقة الجنسية المحدد باختلاف ثنائية الأطراف من "مثلية" إلى "مختلفة" قد انتهى منذ أحقاب مضت.

بغض النظر عن الكيفية التي ينظر بها المرء لعلاقتها، نجد سييد وقد وصف لنكونن بالتحضر في مظاهر عديدة، معظمها ينسب إلى قدرته على صناعة نفسه. كان سييد واحداً من أكثر الناس الذين قابلهم ثقافة، حيث نشأ في رفاهية وبجوحة من العيش في مدينة فارمنجتون وهي منطقة تتمليء بالمرزوعات من ضواحي لويزفيل وكان منزل عائلة سييد من منازل المستعمرات عالية السقف ومصنوعاً من الطوب (القرميد)، قام بتصميمه توماس جيفرسون أحد أصدقاء العائلة. تعلم جوشوا في أحسن المدارس الخاصة في الغرب، وكان بارعاً في القراءة مثل غالبية خريجي جامعة هارفارد أو ييل، وقد بين لنكونن معنى الاحترام في السلوك والملبس والكلام، وخلال أقل من عام بعدما عاشا معاً اكتسبت كتابات لنكونن عمقا ورقة كانت تفقدها، وبدأت تشابه أسلوب سييد الواضح الموجز في الكتابة. بدأ صوت لنكونن في الظهور للمجال العام أول مرة عند خطابه عام ١٨٣٨ الذي ألقاه في أكاديمية الشباب بسبرنجهفيلد، وهي جمعية مختصة بالتعليم والتقدم. كان أول خطاب يليقه - كمفكر

لاكسياسي- عنوانه "ديمومة مؤسساتنا السياسية" وحذر فيه من أن العدو الحقيقي لأمريكا لا يأتيها من الخارج وإنما يأتي من داخلها، من الرعاع وما يسببونه من خراب، وذكر لنكونلن أمثلة للعنف الجماعي الذي نجم عنه مقتل عدد من السود الأحرار في اجتماع لدعاة التحرير بولاية إلينوي، وكذلك مقاومو المسيحيين الذين نعتبرهم "عديمي النفع في أي مجتمع وإذا ما نحينا جانباً وقاحة الضحايا، فإن عنف العامة إذا ما حل محل القانون فإن الحكومة لن تبقى أبداً." ثم، في لغة تحريضية أخذ يبحث مستمعيه على "أن يقسموا بدماء الثورة" على تخليهم عن استخدام العنف الدموي. ففي حين قام الوطنيون الثائرون بتأكيد إعلان الاستقلال في يوليو عام ١٧٧٦، يكون على المواطنين الآن دعم وتأيد الدستور، وفي حين ساعدت "العواطف" أباءنا المؤسسين للدولة، يجب على العقل والهدوء والحسابات، والأسباب غير العاطفية أن توفر متطلبات المستقبل "وليكن احترامنا للقانون هو ديننا السياسي لهذه الأمة."

إذا ما وضعنا في اعتبارنا المهنة الجديدة للنكونلن كمحام، نجد ذلك الخطاب في إطار منفعة الشخصية. لكنه يعكس - كذلك - التغير المذهل في أسلوبه، الذي استخدم فيه لغة عاطفية لاستثارة عقل غير عاطفي، وقد كرر لنكونلن توجهه نحو العقل مغلباً إياه على العاطفة بعد سنوات قليلة لاحقة في خطاب ألقاه لمحاربة إدمان

المُسكرات مشبهاً فيه إدمان الكحول بالعبودية وبالطغيان، وأطلق على الثورة القائمة ضد شرب الخمر (والتي يقودها سكارى تائبين) أنها أكثر أهمية من الثورة السياسية لعام ١٧٧٦ فى نشر الحرية، لأن الخمر تودى بالناس إلى جنون الغضب، بينما الوعي يؤدى إلى "إحكام العقل"، وتطلع إلى عصر جديد "لن يكون فيه عبد ولا سكير على وجه الأرض". "ها هنا مرة أخرى استخدم فى خطابه أسلوباً عاطفياً لاستثارة العقل، وطلب من سييد أن يقرأه. وكان فخوراً بذلك الخطاب وأراد أن يعرف رأي مرشده فيه.

كان لاعتناق لنكون مبدأ سيادة العقل على العاطفة علاقة شخصية به ووطنية أيضاً، لأنه إذ لم يستطع التحكم - دائماً - فى نزعاته الجنسية، كذلك نجده ما استطاع كبح حماسه لصالح سياسات المحافظين، ففى ديسمبر ١٨٤٠ ارتكب أفدح أخطائه المخجلة طوال حياته العملية. لم يكد يصل إلى سبرنجفيلد عائداً بعد ثلاثة أشهر مرهقة لصالح حملة المحافظين لترشيح ويليام هنري هاريسون للرئاسة، حيث ظل متنقلاً بصورة دائمة على ظهر حصان، ومقيماً فى حانات صاخبة، وينام فى أسرة يشاركه فيها اثنان أو ثلاثة أشخاص، مستهلكاً طعاماً "شحمياً" وقهوة "ردئة" حتى شعر بالإرهاك تماماً، وعليه الآن أن يبدأ جلسة تشريعية يتلقى فيها هو وباقي أعضاء حزبه اتهامات الأغلبية الديمقراطية بأنهم

أفسدوا اقتصاد الولاية بمشاريعهم التي استهدفت بناء الطرق. كما أراد الديمقراطيون إفساد مشروع بنك الولاية، وهو مؤسسة دعا لإنشائها المحافظون. كانت الوسيلة الوحيدة أمام المحافظين لمواجهة ذلك عدم السماح للديمقراطيين بتوفير الحد الأدنى اللازم من الأصوات لتفعيل محاولتهم. وقد حضر لنكون وعدد قليل من المحافظين الاجتماع للتأكد من صحة الدعوة لتنفيذ الإستقصاء، وعند وصولهم أدركوا أن حضورهم ذاته يسهم في استكمال العدد المطلوب. هنا حاول لنكون ورفاقه الهروب - بصورة يائسة - من الموقف، وبعدما اكتشفوا أن الباب مغلق، فتحوا إحدى النوافذ وقفزوا منها للخارج. لكنها كانت حركة غبية، لأن الديمقراطيين أفسلوا مشروع البنك - على أية حال - وتمت محاسبة لنكون بتهمة "الإهمال فى أداء الواجب" وأضحت "جولاته المتقافزة" - كما أسماها - شهيرة جداً لدرجة أنه حاول الدفاع عن نفسه بعد أسابيع قليلة بإلقاء خطاب داخل المجلس التشريعي. لكن رئيس المجلس طلب منه الالتزام بالنظام وأوقفه عن الكلام. أشعرت تلك الواقعة لنكون بالإهانة بل من المحتمل أنها قد أدت به إلى هوة حادة من الأكتئاب خلال شتاء ١٨٤٠-١٨٤١.

كانت قدراته قد سُتلت حتى أنه التزم الفراش، وقال سبيد: "أن لنكون قد جُن". واتباه قلق شديد بشأن صديقه لدرجة أنه



"استبعد كل شفرات الخلاقة والسكاكين وباقي الأدوات الحادة الأخرى بعيداً عن الغرفة." وفقاً لما قاله سييد: "لقد كان الموقف مخيفاً." "كان الأمر الوحيد الذي منع لتكون من إقدامه على الانتحار" أنه لم يفعل شيئاً- في الحياة للآن- يتذكر به الناس أنه كان يعيش بينهم يوماً. "وكان يعزو" حالته العقلية اليائسة" إلى شريكه في العمل القانوني مضيفاً: "إنني الآن أشد الناس بؤساً في الحياة، ولو أن ما أشعر به وُزع بالتساوي على أفراد البشر فلن ترى وجهاً ضاحكاً بينهم على وجه الأرض، ومن الحال على المرء أن يبقى حياً بما أنا فيه. لذا يجب أن أموت- كما يبدو لي- أو أن أتحسن بسرعة." وصلت حالته إلى الحضيض مع عيد رأس السنة الجديدة، وكان لتكون يشير إلى ذلك بقوله: "ذلك الأول من يناير الحاسم من عام ١٨٤١." "لقد كان أسوأ أيام حياته، وأقرب لحظاته لقتل نفسه.

تراوحت النظريات الساعية لتفسير دواعي "ذلك اليوم الحاسم من يناير ١٨٤١." "لكن هناك حقيقة واحدة لا يمكن إنكارها، إنها قرار جوشوا سييد في ذلك التاريخ بالرحيل إلى كيتوكي، وإعداده سُبُل بيع رأسماله في محل البقالة لقد مات والده في ربيع عام ١٨٤٠، وأرادت والدته أن يعود هو للمنزل. كما كان هو نفسه يفكر في الانتقال منذ عدة شهور. ثم أدرك في اليوم الأول من السنة الجديدة ١٨٤١" أن صديقه سوف يتركه، وذلك ما قصم ظهره كما أوضح

هو فيما بعد: "لو لم يكن لنا أصدقاء، فلن يكون أمامنا بهجة، ولو كان لنا أصدقاء، فإن فقدانهم أمر مؤكد. لذا تألم مرتين بذلك الفقد." اتاب سييد القلق بشأن صديقه فانتظر حتى مايو ١٨٤١ كيما ينتقل إلى فارمنجتون، وعندئذٍ استرد لنكون عافيته ووعد سييد بأن يقوم بزيارته ذلك الصيف. بالفعل، وصل في أغسطس وبقي هناك حوالي شهر تقريباً. كانت تلك أول إجازة للنكون وأول تعرفٍ له على مجتمع الطبقة العالية بالجنوب، وقام أحد عبيد الأسرة برعاية شؤونه في غرفة شاسعة يتحرك فيها. أحب لنكون تلك الرفاهية لدرجة أنه اعتبر إقامته في فارمنجتون "وقت الفراغ وواحدة من أمتع لحظات حياته." كانت الواقعة الوحيدة المزعجة تلك التي حدثت أثناء العشاء ذات ليلة حينما مرر إليه أحد أعضاء الأسرة طبق المشهيات فأبقاه أمامه معتقداً أنه مخصص له وحده دوناً عن الباقين، مما أدى بجوشوا إلى تصحيح لنكون وتعليمه أصول مراسم العشاء وقال له: "انظر إلى يا لنكون، وافعل كما أفعل أنا!"

بينما كان دوجلاس يقضي أولى إجازاته في اجتماع لدعاة التحرير ببلدة ناتوكت، كان لنكون يقضيها في رحاب رفاهية الجنوب وسط حوالي ستين عبداً وواحد من هؤلاء هو خادمه الشخصي. لم يحب هو نفسه فقط تلك التجربة المرفهة وإنما لم يقيم أبداً بحث سييد على تحرير العبيد الذين ورثهم عن والده كذلك.

كما أن سييد لم يشعر يوماً بالذنب لامتلاكه عبيداً، وفعلاً بعد سنوات قليلة تالية، وحينما بدأ سييد يتاجر فيهم، لم يقل له لنكون شيئاً ولم تؤثر تلك المتاجرة فى صداقتهما . رغم أن لينكون كان يكره العبودية، إلا أنه لم يكن ثورياً، وما كان ليهدم الصداقة نظير معاقبة سييد . فوق ذلك كله، هناك بطله السياسي هنري كلاي، وهو مالك للعبيد أيضاً شديد الشراء فى كتوكى وبعد عودته إلى سبرنجفيلد، انقلب على مبادئه وقدم تبريرات لامتلاك جوشوا وعائلته للعبيد . خلال رحلة العودة للمنزل تشارك مع أحد تجار العبيد قارب السفر- الذي كان يحمل فيه قافلة عبيده- وقام بوصف تلك الرحلة وصفاً ينبئ عن أفكاره: "شاهدت نموذجاً رائعاً على سطح القارب يدعو للتمتع فى تأثير الحالة الاجتماعية على السعادة البشرية حيث كان هناك إثنا عشر عبداً مقيدين بالسلاسل ... مثل أسماك كثيرة معلقة على حبل الصيد، وكانوا- وهم على تلك الحالة- وفى طريقهم للافتراق عن مهاد طفولتهم وأصدقائهم وآبائهم وأمهاتهم وأخواتهم للأبد، بل والعديد منهم فى سبيلهم للافتراق عن زوجاتهم وأطفالهم، إلا أنهم- ورغم تلك الظروف الحزينة التى نزلها كذلك- كانوا أكثر المخلوقات سعادة ومرحاً فيما يبدو على ظهر القارب. " أستنتج لنكون أن "الله يجعل من أسوأ حالات الإنسان أكثرها تحملاً. " إذ كان الأمر بالنسبة للنكون أن

الله قد طبع السود بالقدرة على أن يكونوا سعداء ومرحّين تحت أسوأ ظروف الإنسان قسوة، ويُعد وصفه الساذج هذا تعاطفاً مع السود- وفي نفس الوقت - يُعد إدانة للببيض، وهو توازن دقيق حاول الإحتفاظ به بقية حياته.

لقد كشف لنكولن عن توجه مشابه نحو السود، ففي عام ١٨٤٠ كان يعيش في سبرنجفيلد ١١٤ نسمة من السود، وكانوا في أغلبهم من العمال وخدام المنازل. ستة منهم فقط كانوا عبيداً من ضمنهم امرأة واحدة كانت عبدة لدى أحد شركاء سييد التجارين الذي كان بدوره صديقاً للنكولن، وكانت إلينوى- نظرياً- ولاية حرة بفضل حظر الرق الذي شمل المقاطعات الشمالية في قانون الولايات الشمالية الغربية الصادر عام ١٧٨٧. لكن عندما تم تمرير القانون، كان هناك حفنة قليلة من العبيد يعيشون بأراضي إلينوى، وقام بعض السادة بجلب عدد آخر بصورة غير قانونية إليهم. أما دستور ١٨١٨ فلم يؤدّ لتحرير أي عدد من العبيد، فقط كان يمنع دخول المزيد من العبيد إلى الولاية. ٢١٨ نتيجة لذلك، زاد عدد العبيد في إلينوى إلى ٣٠٠ عبد عام ١٨٤٠م، ولم يفعل لنكولن شيئاً لتحريرهم، ولم يسع- حتى- لتعديل قوانين الولاية الخاصة بالسود والتي تحظر على السود الأحرار دخولها، لأنه لو فعل ذلك ستكون خطوة ضارة تفقده المتعاطفين الجنوبيين في الولاية.

على أية حال، كان للنكون - فى نفس الوقت - علاقات طيبة مع عدد من السود فى سبرنجفيلد، خاصة مع ويليام فلورفيل المعروف باسم بيلي الحلاق. كان قد ساعد بيلي على اكتساب العديد من الزبائن كما مثله قانونياً فى بعض القضايا فيما بعد، وأصبح محل بيلي "منزل لنكون الثاني" أخريات الأعوام من ١٨٣٠ حتى أوائل ١٨٤٠، وكان محطة توقف للذكور، فهو مكان للحلاقة والحصول على قصات للشعر، وتبادل بعض النكات، والشائعات، وربما لقراءة بعض من نصوص القانون عندما تضي الأوقات بطيئة. بذلك المعنى، مثل ذلك الحل مكاناً تشارك فيه مع سييد، فكان مرفأً للمثقفين وسط "قذارة وإزعاج" سبرنجفيلد. أحب لنكون خفة بيلي وروحه المرحية. لكن علاقتهما لم تهدد - أبداً - طموحه السياسي أو صداقته للبيض. مع ذلك، كان بيلي بالنسبة لسييد مجرد "سامبو" - وهو النموذج المثالي للخادم الزنجي - ولا يشكل تهديداً لمفهومه عن رجولة الإنسان الأبيض، ولو كان فردريك دوغلاس جاء - وقتها - من سبرنجفيلد إلى بندتون لإلقاء بعض من محاضرات دعاة إلغاء الرق، لاعتبره لنكون وقحاً وغير مهذب. كان امتلاك العبيد ركناً أساسياً فى مجتمع ولاية إلينوى لدرجة أنه لو كان المال ينتج بشراً، فإن المال - هناك - تنتج العبودية، وفى الواقع كانت اثنتان من الثلاثة اللواتى ارتبط بهن لنكون - وقد تزوج

إحداهن فقط- من بنات مالكي العبيد فى كتوكى، بل إن مارى أوينز عادت إلى أسرتها التي تملك عبيداً هناك بعدما هجرها لتكون ثم تزوجت ثرياً من مالكي العبيد وانتقلت بعدها إلى ميسوري حيث قام ولداها بالقتال دفاعاً عن الدولة الاتحادية. كانت مارى تود تشبه مارى أوينز من عدة وجوه وكذلك آن روتليدج، إذ كانت الابنة المتعلمة لأسرة أرستقراطية تملك عبيداً فى كتوكى. مثل آن، كانت قصيرة (خمسة أقدام وبوصتان) ومكنتزة، وكان لتكون يجب النسوة المكنتزات وربما كان ذلك عائداً لشكله المربع الذي أبعده عن الفكرة الكلاسيكية للجمال.

لكن مارى تود كانت مختلفة كلية- بصورة أو بأخرى لأنها كانت تتصرف حقيقة- كرجل، فهي طموحة ساعية للشهرة ومتحمسة للسياسة بنفس القدر الذي يتأب لتكون، ولأنها نشأت وسط أسرة متحمسة للمحافظين، كانت هي نفسها "صغيرة عنيفة من المحافظين" وقد أحببت هنري كلاي، الذي كان جاراً وصديقاً للعائلة وكرهت الديموقراطيين. قيل إنها في الرابعة عشرة من عمرها امتطت جوادها حتى آشلاند، وهى ضيعة كلاي، لتبلغه أنها تتوقع أن يكون هو الرئيس القادم للبلاد، إضافة إلى أنها أرادت أن تعيش "فى البيت الأبيض" كذلك. لم تمت تلك الرغبة لأنها بعد انتقالهم إلى سبرنجفيلد عام ١٨٣٩ "صرحت بنيتها الزواج من الرئيس القادم للولايات

المتحدة. " كانت شديدة الحيوية وتهوى الخروج، وإن قيدت نفسها قليلاً. كانت تمتع بذكاء حاد وتحب الشعر، ولها من البدهة ما يجعلها كفتاً لزوج المستقبل. باختصار، كانت نداً سياسياً ومثقفاً مكتملاً للنكولن. كانا قد بدأ التواد والتقارب عام ١٨٤٠ أثناء الحملة الرئاسية ومع الانتخابات تمت خطبتهما. يتذكر أحد جيرانهما من سبرنجفيلد رؤيتهما معاً جالسين فى غرفة وماري هي التي كانت تقود أطراف الحديث قائلاً: "كان لنكولن ينصت محملاً فيها كما لو كان مسحوراً بقوة عليا، لذا أخذ يستمع دون مقاومة. . وما يكاد يلفظ كلمة واحدة. " لكن بعد الانتخابات وبعد قفزته المخزية من النافذة وإحباطه وقرار سييد بالانتقال والعودة لكتوكي محاً كل ذلك من ذاكرته، إذ شعر بعدم الأمان بالنسبة لثروة ماري تود، وبعدم الارتياح بشأن الزواج عموماً. كان غير متأكد من مشاعره نحو ماري، وربما أسهم ذلك الفشل - كخطبة - فى المزيد من اكتابه. إلا أن جوشوا سييد استطاع جمعهما معاً مرة أخرى، ففي حين كان لنكولن يقضي إجازته فى فارمنتجتون فى أغسطس من عام ١٨٤٠، تقدم سييد لخطبة فاني هيننج - وهي امرأة من كتوكي - ثم شعر فجأة بالتردد، خشية أن تكون مشاعره غير كافية لهذا الارتباط، فتدخل لنكولن لإيقاظه من تلك الورطة وأخبره إنه "يرى فاني واحدة من أجمل فتيات العالم،" وأكد لسييد أن مخاوفه

بلا أساس وقبل الزواج بأيام عاودته مخاوفه أن أحلامه فى الجنة والسعادة بعد الزواج قد تتجاوز "الواقع بكثير"، وشاركه لنكونن مخاوفه من الزواج. لكن سيبد واصل إجراءات زواجه فى ١٥ فبراير ١٨٤٢ ثم أخبر لنكونن بعد ذلك بشهر أنه "أكثر سعادة مما كان يتوقع" وهكذا منح صديقه الثقة كيما يعيد ارتباطه بماري تود. أدت علاقتهما المتجددة إلى التركيز على العمل السياسي لكنها آلت- هذه المرة- إلى عراك ثم إلى زواج فى النهاية.

فى أغسطس ١٨٤٢ هاجم لنكونن أحد خصومه السياسيين بأسلوب تجاوز فيه حدود الخصوصية، وبمساعدة ماري كتب مقالاً ساخراً من كرامة جيمس شيلدر محرر جريدة "الديموقراطي" التى تصدرها الولاية. كان رجلاً متوسط الحجم، له شارب ضخم، وكُد وتعلم فى آيرلندا، وقد أتى لألبنوى عندما قارب على الإفلاس. لكنه سرعان ما أصبح عضواً ديمقراطياً بالولاية لا يتقبل الإهانة ببساطة. كان لنكونن قد نشر مقالاته بدون توقيع تحت عنوان (خطاب ريبكا) وكلماته تأتى على لسان زوجة فلاح فقير هى ريبكا. الخطاب- من الناحية الفنية- هو عمل من أعمال الخيال الأدبي، يشترك مع أسلوب رواية "هكلبرى فين" فى إستخدامه لتقنية الجدل وروح المرح، وهو يستعير لكثرة مقاطعة سانجامون وأصواتها وكذلك "صوت لنكونن" مثل: "زي ما كما مستنين" و"شلة رجاله



متسلحة" ... إلخ. استخدم الخطاب الفكاهة للهجوم على شيلدر سياسياً وإهاتته شخصياً، وبعد شيلدر الشخصية الرئيسية فى القصة، حيث يدعوه لنكون: "أحق بإضافة لكونه كاذب"، ويسخر من صورته التى يضعها لنفسه كرجل لا تقوى على مقاومته النساء، ويقتبس من شيلدر قوله: "فتياتى العزيزات، إن الأمر مؤسف. لكننى لن أستطيع الزواج منكن كلكن ... وأنا أعلم جيداً مدى معاناتكن. أرجوكن! أرجوكن! تذكروا أنه ليس ذنبى أن أكون بمثل تلك الوسامة والإثارة التى تفوق الحد." ألهب الغضب شيلدر بعدما اكتشف أن كاتب الخطاب هو لنكون، فأمره بسحب كل "التلميحات التهكمية" علانية وأن يعلن عن شخصيته الحقيقية ويقف أمامه كرجل حقيقي. عندما رفض لنكون قام شيلدر بتحديه ودعوته للمبارزة، وقبل لنكون التحدى لأنه "لم يعتقد أن التفاوض مع شيلدر من أجل مسألمته شئ يتفق مع شرفه وكرامته" ما لم يسحب شيلدر مطالبه.

بينما كانت المبارزات تحتفى فى المحاضرات الأكثر تقدماً فى الشمال الشرقى، ظلت شائعة فى الجنوب والغرب بالرغم من أن العديد من الولايات بما فيها إلينوى قد حظرتها قانوناً. كان لنكون قد انتهك مبادئ الشرف التى تحمي خصوصية الإنسان وعلم أنه سيفقد كرامته لو تراجع عن تحدى شيلدر، وهو منذ إحدى عشرة



سنة سابقة كان قد قام بمصارعة جاك أرمسترونج دفاعاً عن كرامته، والآن يكاد يموت دفاعاً عنها، ففي الجنوب وعند الحدود كلما أصبحت المجتمعات أكثر تحضراً كلما اعتبرت المبارزات أكثر وحشية، وفي ظل مبادئ المبارزات يكون على الشخص الذي تم تحديه أن يقوم بتحديد شروط المباراة. لذا اختار لنكون (سيفين عريضين من سيوف الفرسان) كسلاح للمبارزة، وصمم ميدانا للمبارزة يشبه فناء ملعب التنس، به عارضة ارتفاعها إثنتا عشرة بوصة بديلاً عن "الشبكة" وخطا بداية عند الجانبين على بعد ١٦ قدم من العارضة وخطوط جانبية تقاطع مع خط العارضة وخطى البداية، وعلى كلا المتقاتلين أن يبقيا داخل ذلك الصندوق المرسوم فإذا ما "خطوت عبر العارضة تكون سلمت نفسك طوعاً، وإذا ما خطوت خارج خطوط البداية تكون قد خسرت القتال".

كانت شروط لنكون مصممة لتمنح فرصة كبرى للرجل الذي يملك أكبر قوة يدين وأطولهما، حيث يعلم أن شيلدز رجل عادي الطول حوالي خمسة أقدام وسبع بوصات وبالطبع كان لنكون طويلاً جداً وله يدان طويلتان وقويتان أكثر من المعتاد، ورغم تلك الميزات فإنه قام بالتدرب على استخدام سيفه العريض وضرباته قبل المباراة، وخطط أن يبقى داخل مربعه ويتمايل مراوفاً حتى يخرج له أحد أطرافه ويفقده سلاحه أو ينجده حتى يخرج منه عن المربع

فيخسر القتال، وقد صرح بقوله: "لم أرغب فى قتله". ظل ذلك السلوك يصدر منه كرجل يعتق مبدأ العقل والقانون ويُسوِّدُهما على "الأسس الدينية لطبيعتنا" كما كان يؤكد فى خطابه التحريري.

تم بناء ملعب التنس وأصبح المبارزان مستعدين للبداية عندما تدخل الأصدقاء بسبرنجفيلد أخيراً لوقفها وقد صاح لنبكون أحد أصدقائه قائلاً لهما معاً: "أيها المغفلان الملعونان!" ثم توسل إليهما أن يُحكِّمَّا العقل. "هكذا" تم فض المشاجرة. "فور انتهاء معركة السيوف هذي، جدد لنكون وماري تود خطبتهما، وقام لنكون بحماية ماري مؤكداً لها أن اسمها لن يرتبط بمشكلة "خطاب ربيكا" ولم تحاول ماري بدورها منع لنكون من دخول المباراة لأنها- فوق كل ذلك- نشأت في كنتوكي حيث كانت المبارزات صلب قيام المجتمع، بل إن بطلهم المشترك- هنري كلاي- كان قد جرح من قبل فى إحدى المبارزات. فى نظر ماري كانت المبارزات علامة الرجولة، وربما أدت المشكلة مع شيلدز إلى إدراكهما مدى تشاركهما فى الميول ومدى عمق رغبتهما فى التضحية من أجل صالح المحافظين. لكن باقتراب موعد زواجهما، بدأ لنكون يشعر بالتردد فكُتب إلى جوشوا سبيد يقول: "هل أنت الآن تشعر بالارتياح كما لو كنت فى الجنة، وسعيد أنك تزوجت بما أنت عليه؟" ومن الواضح أن سبيد أجابه بنعم، لأن لنكون وماري تزوجا يوم ٤ نوفمبر عام ١٨٤٢ فى

حفل عائلى صغير. لم يكن سييد حاضراً، فيما يتذكر أحد الضيوف أنه "كان يبدو عليه- أي لنكون- بل ويتصرف كما لو كان ذاهباً إلى مذبحه" رغم أن امرأة أخرى قالت: "كان مرحاً جداً كهادته دائماً." "في حين تعرضت طبيعة زواجهما لكثير من الجدل على مدى واسع، إلا أن أمراً واحداً كان هو المؤكد: أن صعود نجم لنكون كسياسي ومحامي أخذ في التسارع بعد زواجه. في عام ١٨٤٢، انسحب لنكون من إعادة انتخابه لمجلس الولاية التشريعي لأنه كان قد قضى أربع دورات متتابعة منتخباً بالمجلس فأراد أن يركز طاقاته على ممارسة القانون وعلى سياسات المحافظين الوطنية، وقضى هو وزوجته عام ١٨٤٤ يعملان بلا كلل- وإن كان بلا جدوى- لإدخال هنري كلاي البيت الأبيض. بعد عامين- لاحقاً- انتخبه مواطنو سانجامون ومورجان ليصبح عضواً بالكونجرس الأمريكى. لذا، كان عليه أن يذهب إلى واشنطن.

لو كان طموح لنكون "آلة صغيرة لا تعرف التوقف" كما وصفه ويليام هيرندون، فإن ماري تود قد ملأته وقوداً وقامت بتزيينها رغم أن ذلك كلفه بعضاً من سعادته. بعد الزواج بدأ هو وجوشوا يتباعدان، وقد يميل المرء إلى الاعتقاد بأن لنكون كان أثناء زواجه يفكر فيه. على كل، فقد علمه جوشوا سييد معنى الحب، بل وقارب بينه وبين ماري تود كما أقر بذلك جوشوا فيما بعد بقوله:

"لولم أكن قد تزوجت وكنت سعيداً أكثر مما كنت أتوقع من سعادة، ما كان لنكون ليقدّم على الزواج!" كان لنكون قد قدم لماري خاتماً محفوراً عليه عبارة تقول: "الحب الخالد" ربما كانت تلك العبارة المحفورة رثاءً لصداقة مضت أكثر من كونها أملاً لزواج جديد .

خلال رحلته إلى الجزر البريطانية، قام فردريك دوجلاس بزيارة خاصة إلى مدينة آير، موطن ميلاد الشاعر روبرت بيرنز، وأطلق عليها "واحدة من أكثر زيارته إشباعاً لروحه" أثناء إقامته في اسكتلندا، لأنه رأى الكوخ المتواضع الذي عاش فيه بيرنز، ومشى جاثلاً في الشوارع التي ألهمته شعره وقابل أخته، وبينما يتكلم معها ظن أنه شاهد "بعضاً من شرارات الضوء الذي كان يشعل صدر بيرنز على الدوام". لقد لمس دوجلاس في حياة بيرنز وشعره معالم متوازية مع مأساته ومع حياة الزوج الآخرين، فكلا الرجلين وُلد فقيراً، ولقي الاضطهاد من النخبة البيضاء، وعومل كالحیوانات، ووجد في اللغة سبيلاً لإعادة صناعة نفسه وبناء رؤية جديدة للإنسانية. لقد علمت أشعار بيرنز دوجلاس أن يشعر بالفخر بأصوله الدنيا، "فذلكم الإنسان الأمين- رغم شدة فقره- هو ملكُ الرجال لذلك السبب." "لأن الفقير الأمين يسمو على وضاعة الثري الجبان. كما شارك دوجلاس بيرنز في حلم الحب الأخوي في قول بيرنز" فهذا الإنسان للإنسان عبر حدود العالم... سوف

يكونان أخوين من أجل ذلك. " لكن رغم توحد ذاته مع ذات بيرنز إلا أنه يحد في لورد بايرون كاتبه المفضل، إذ بينما تتبع مسرات بيرنز- إلى حد ما- من استخدامه للهجة العامية، يهرب دوجلاس من اللهجات المحلية حيث أدى بقاءه عامين في الجزر البريطانية إلى انقشاع لكمة العبيد المتلكأة في صوته، وأراد أن يبدو متقفاً مثل أصدقائه الأثرياء والأرستقراط في بريطانيا، وأصبح لورد بايرون بالنسبة لدوجلاس مثالا للأرستقراطي الشائر الذي تعتمد أرستقراطيته على القيم لاعلى الانتماء بالمولد حيث كان بايرون يمثل النموذج الكامل للكونية الإنسانية بصورة جذرية، لأنه أصبح ممثل العالم الأكثر شهرة قبل ظهور دوجلاس بزمن طويل. كان "تحفة فنية" ساعدت دوجلاس على إعادة صناعة نفسه مظهرًا وأسلوبًا و صوتًا، إذ شكلت مهارة بايرون في استخدام السخرية والتهكم كل كتابات دوجلاس. كما أن صعود ذلك الشاعر السريع إلى عالم الشهرة "المخجلة" شابه صعود دوجلاس إلى أن أصبح أحد دعاة التحرير "المهانين".

رأى دوجلاس في بايرون رمزاً للذكر العظيم المقاتل من أجل الحرية. فهنا نجد أحد الأرستقراطيين الذي تحول إلى مترد، رجلاً هبط في حالة اجتماعية ليصعد إلى حالة روحية، وضحى بحياته من أجل قضية الحرية. كان هناك شيء شديد الإثارة في توجهات

بايرون، سواء في الحياة أو في الفن . كان يولي وجهه معارضاً للمجتمع باحثاً عن تحقيق مبادئه في الحرية . كلاهما كان يؤمن بأن الواقع يجب أن يظل ملهماً لتحقيق المثال، وقد عاشا من أجل أحلامهما ولم يستسلما لأي تنازل عنها .

من ناحية أخرى، كان دوجلاس يعشق بيرنز، إذ وجد فيه رفيقاً لروحه الأدبية وصاحب أسلوب وسط العامة يتماشى مع جهوده لرفع مستوى الكلام الرفي إلى مستوى الأدب . كما أن حياة بيرنز انعكست على حياة لنكولن، الذي كان فلاحاً فقيراً نائياً نادراً ما ارتحل خارج دائرة أرضه، وكان يسعى لتمثيل الشعب سياسياً وشعرياً . كان دوجلاس ليتفق مع والتر وايتمان الذي قال إن أشعار بيرنز وشخصيته قد "حببت أمريكا فيه . . فهو . . سيكون ابن أهله وبيته إذا ما جاء لغرب الولايات المتحدة . . (والغرب هنا يشير إلى وسط غرب الولايات) . . ولربما أضحت زيارته إقامة دائمة هناك ."

يمكن أن تكون إشارة وايتمان لبيرنز هنا تنطبق على لنكولن كذلك مكملاً: "كان الرجل نموذجاً معتدلاً للإنسان الطيب، دافئ الدم، الودود، المنتعش، المتحمس في أواسط عمره ."

بالنسبة لبايرون، لم يقرأ له لنكولن كثيراً بالقدر الذي قرأ لبيرنز، ولم يكن يرى نفسه مجسداً في ثورية بايرون المهذبة . في الحقيقة، أدرك لنكولن وسط آرائه السياسية وصدقاته وارتباطاته الفاشلة

أن الواقع يبعد كثيراً جداً - ودائماً - عن المثال والنموذج، وذلك لم تكن حجر العثرة، إنما كانت تلك طبيعة العالم. كما أن شعوره بعدم الأمان في زواجه علمه أن "النزعة المثالية" كانت هي ذاتها المشكلة، أو كما قال لسبيد: "إن سوء الحظ الغريب لي ولك هو أننا نعلم أحلاماً عن السعادة والجنة تبعد تماماً عن أية راحة يمكن تحقيقها على الأرض." تلك الروح البراجماتية ساعدته على التسامح مع العبودية بينما هو يكرهها، أو مع الزواج بإنسانية يفقد معها الحميمية التي كان قد حققها من قبل، كما ساعدته على توفيق أحلامه في الشهرة مع حاله كإنسان مجهول إذ لفترة ما كان دوجلاس مشهوراً على مستوى العالم في حين كان لئكولن ما زال محامياً ببلدة صغيرة ورجلاً سياسياً غير معروف كلية خارج ولاية إلينوي.



obeikandi.com



## الفصل الثالث

### ناشطٌ راديكالي . . . وجمهوري

أيها الراسخون في الأغلال بالوراثـة— ألا تعلمون ؟ !  
إن الذين سيكونون احراراً، يجب أن يبدأوا الثورة . . . لورد بايرون  
من قصيدته " حج تشايلد هارولد " ١٨١٢م  
(إن مملكة تنقسم على نفسها . . . لا يمكن أن تقوم)  
من خرافات إيسوب " ٥٦٠ قبل الميلاد "

كان فريدريك دوجلاس يهوى استعراض الأكاذيب الأمريكية،  
وحالما انتقل إلى روشيستر في أواخر عام ١٨٤٧، بدأ يتابع الأعمال  
السياسية عن قرب مسلطاً الضوء على نفاق الأمريكيين وهم  
يتصايحون من أجل الحرية بينما يسعون لنشر العبودية. غالباً ما قام  
دوجلاس بمقارنة الأحوال الأوروبية بالأحوال في أمريكا على سبيل  
المناقضة ففي الأول من أغسطس في عام ١٨٤٨، أثناء الاحتفال  
بذكرى خلاص الهند الغربية البريطانية، أثنى على فرنسا لقيامها  
بإزاحة ملكها عن عرشه وإلغاء الرق. وفي فجاءة سامقة، نهضت  
فرنسا بدورها نحو شعارها الجمهوري "حرية ... ومساواة ...  
وإخاء" على النقيض من ذلك، تحدثت الولايات المتحدة الاتجاه  
العالمي نحو التحرر، ووقفت - تقريباً - وحدها كجزيرة للعبيد  
وسط عالم حر جديد، (فالعالم أصبح مجلول عام ١٨٥٠ بلا عبيد  
عدا الولايات المتحدة والبرازيل وكوبا وغينيا الهولندية). في السطر  
الختامي لخطابه قال دوجلاس إن رجال الدولة الأمريكيين أرادوا  
الاستمتاع مع فرنسا "بفلسفتها الجمهورية" لكنهم وجدوا ذلك  
مستحيلاً دون "التظاهر باستمتاعهم عبر حركة تحرير العبيد."  
أصبح رجال الدولة المشهورون مثل هنري كلاي "بطل لنكون"  
هدفاً مفضلاً لصب احتقار دوجلاس عليهم، وبعد انتقاله إلى  
روشيستر قلل كثيراً من أهمية كراهية كلاي المعلنة للعبودية،

فكلاي مثله مثل لنكولن يؤكد أن الرق مسؤولية كل ولاية على حده وأن ملاك العبيد هم فقط القادرون على إلغائه، وهذا الاعتقاد أشبه بمناشدة القرصان تسليم مسروقاته طواعية واختياراً، فهو يسمح لكل ولاية "أن تنهب وتعذب وتستعبد أي فرد من الجماعة البشرية داخل حدودها" كما صرح دوجلاس، وقد قلل ذلك من قيمة تأثير دعوة كلاي لإنهاء العبودية في ولايته - نفسه - كنتوكي حيث ظلت إلى عام ١٨٨٥، ومدتها تقريباً أربعين عاماً تالية قبل أن يتحرر أي عبد بالفعل. لم يكن ذلك فقط هو حاله، بل إن كلاي امتلك حوالي خمسين عبداً، كان يسرق حرياتهم كل يوم، وقد سأل دوجلاس أحد كبار رجال الولاية بقوله: "هل تعتقد أن الله سوف يعتبرك بريئاً عندما تموت ودماء أولئك العبيد الخمسين تلتطخ ملابسك؟"

كما أن دوجلاس شهّرَ برجال دولة آخرين من المجهولين مثل لنكولن، ففي يناير من عام ١٨٤٩ نشر كتاباً يحوي إحصاءات التصويت في مجلس النواب على قرار حظر تجارة العبيد، وقد شعر أغلب أعضاء الكونجرس الشماليين بصدمة هائلة لمدى انتشار هذه التجارة في رأس مال دولة حرة، حيث يُنصَب واحدٌ من أكبر أسواق تجارة العبيد في الأمة على مسافة قريبة من مبنى الكابيتول. كان أعضاء الكونجرس يرون بذلك السوق الضخم المخيف في طريقهم

لأعمالهم. كما كان عليهم أن يواجهوا تلك السلسلة الطويلة المنظمة من العبيد الذين يعبرون ميدان بنسلفانيا قادمين من جانب الكابيتول متجهين إلى جوار البيت الأبيض. تحلق أعضاء البرلمان الشماليون حول القرار، ومكنوه من الصدور، ولم يكن بينهم لنكون، فقد صوّت للإبقاء على تجارة العبيد فى المقاطعة رغم كراهيته لها وكان قد أشار- ذات مرة- لسوق العبيد بواشنطن بأنه "خطيرة تربية الزنوج"، واعتقد أن على مواطني المقاطعة أن يقرروا بأنفسهم مستقبل الرق ومستقبل تجارته هناك. كان الخوف قد ملأه بشأن التصويت، لكنه فكر فى الأمر على أنه "مثالي جداً وصعب التحقيق." ذكر دوغلاس ما حدث بصورة كئيبة وهويكتب: "كان على حق إذ بعد ستة أيام أعاد المجلس النظر فى القرار وأسقط تنفيذه، وفي كلا التصويتين أيد لنكون تجارة العبيد، وقد قام بالإدلاء بصوته متضامناً مع الجنوبيين مؤيدي تجارة العبيد، ومع قادة الدولة الاتحادية مستقبلاً مثل هاول كوب واليكساندر ستيفنز وروبرت تومبز وألبرت جالاتين براون.

أدت تلك التشويهاات للحقيقة وذلك الارتداد عن الحرية بدو جلاس الى أن يحول كلماته الى أسلحة للدفاع، ولو كان قدر العبودية أن يلتقى على أكثاف الشعب بولايات العبيد، حتى لو كانوا من معارضي العبودية بالطريقة التى نادى بها كل من لنكون وكلاي،

فليكن الأمر كذلك طالما كان "الشعب يشمل العبيد أيضاً. لذا بدأ بتعليم العبيد ما يجب عليهم فعله. بعد أشهر قليلة من تصويت لنكون، قام دوجلاس بتحريض العبيد على أن "يقتدوا بما فعله آبائهم عام ٧٦، حيث حذرهم من أن مالكي العبيد ينامون فوق براكين كامنة." وربما يأتي اليوم الذي تندفق فيه الحمم. لكنه مازال يأمل في حل سلمي لمشكلة الرق وأطلق على نفسه "رجل السلام".

لذا، كان يستخدم أداة الاحتمال "ربما" في كلماته. وقد نبع تحذيره من حدوث تمرد وشيك من مقولة الكتاب المقدس في رؤيا يوحنا: "إن أولئك الذين يقودون الناس للأسر، سيقعون فيه..." وإن "أولئك الذين يشهرون السيف، سوف يموتون به." كما قام بتعريف العبودية بأنها "كحالة حرب" تستدعي أن يشن الإنسان حرباً على الرق كيما يجلب السلام. ثم يقترب سريعاً من حالة الدعوة "بالاحتمال" إلى "التصرّح" بها، ويهجر حديث "اللاعنف" بأكمله ويحرض على بدء "القيامة" فوراً، وربما استجلب رؤيته من قصيدة بايرون "تشايلد هارولد"، ذلك الإنسان العصامي الآخر الذي أعلن قوله: "أيها العبيد بالوراثة، ألم تعلموا بعد أن الذين سيحررون أنفسهم لأبد وأن يضربوا أولاً." كان عليه أن يشهر سيفه ويشنها حرباً على أولئك الذين قاموا بتشويه الحقيقة لحماية أوضاع العبودية.

أصبحت جريدة دوجلاس عصاه الغليظة التي يهدد بها، وكان قد أسماها "نورث ستار" أي نجم الشمال، وهو ذلك النجم الدليل الذي يهتدى به الهاربون في طريقهم. ربما يكون ذلك الاسم صدقاً لجريدة "النجم الشمالي"، الصحيفة الخيرية التي تصدر في إنجلترا و تنادي بحقوق العمال والتي كان يقرأها دوجلاس خلال إقامته هناك. كانت جريدة "نورث ستار" أسبوعية ذات أربع صفحات تم تصميمها على نموذج صحيفة جاريسون "الليبراتور" واستعار من مرشده أسلوبه القاسي، السريع، المجسّد للصورة. لكن، بينما كان جاريسون لا يكل في هجومه ساعياً للحصول على الضربة القاضية في موضوعاته مع كل جملة يكتبها، كان دوجلاس يحب السخرية، والمرح، واستخدام التورية. لذا، كان يعجبه بايرون وبيرنز. هكذا بدأ نشره شديد الرقة، وقد فاق ما استعاره وما أضافه من وإلى مرشده فيما يكتب كثيراً. مثل جريدة "الليبراتور" سعت "نورث ستار" إلى تحقيق الخلاص العالمي للسود ورفعتهم دون إغفال حركات الإصلاح الأخرى مثل حقوق المرأة، والعمل، ومقاومة الخمور. لكن، في حين كان جاريسون يقلل من شأن السياسة، قام دوجلاس بتمهيد طرقها. كانت في أول إصدار لها، في ٣ ديسمبر ١٨٤٧، قد أبرزت ملامح خطابه إلى كلاي، يهاجمه فيه ويتهمة بالتساهل في مسألة العبودية، كما أن جريدة "نورث ستار" تخيلت -

وسط تنوع أصوات وموضوعات الجريدة - مجتمعاً جديداً يرتقي مجال الأمة ويعلي مبدءاً "كل الحقوق للجميع" الذي أصبح بعد ذلك شعاراً للجريدة. بإصداره تلك الجريدة، شعر دوجلاس قليلاً بأنه يصل الى نيويورك "توه خارجاً من أدران العبودية، فأنت تحيا على الأمل والتحفز، وإذا ما أستطعت اجتناب الدائنين (والخاطفين) لمدة ستة أشهر، فإن فرص تحقيق ذاتك كمحرر في صحيفة (أو كرجل حر) تزايد بصورة درامية. لم تكن تلك المغامرة متوقعة، حيث كانت هناك دائماً ظروف غير محسوبة بغض النظر عن مدى العناية الموجهة لإعداد وتخطيط الإصدار الأول.

انتقل دوجلاس إلى روشيستر في خريف ١٨٤٧ لإصدار جريدته، وأخذ يتجول هو وصديق له وأبقى أنا والأطفال في "لين" كيما يكرس كل طاقاته للمهمة القائمة أمامه، فقام باستئجار مكتب بالعقار ٢٥ بشارع بوفاك وسط قلب المدينة التي تمور بالأعمال التجارية للمقاطعة، وأنفق كل مبلغ الألفي دولار التي منحها له أصدقاؤه البريطانيون دفعة واحدة. امتهلاً مكتبه - في الحال - بالحوامل والطابعات والخوافض الصحفية المعدنية البراقة. كان ذلك أمراً سيئاً وخطأ فادحاً إذ لم تكن لديه أدنى فكرة عن إدارة المعدات أو ملاحظة الفنيين "الصناعية" الذين أسأجروهم للقيام بتجهيزات الطباعة وألواح الحروف وأدرك على الفور أن من الأرخص



له التعاقد مع ناشرٍ خبير. لكنه لم يستطع إعادة بيع المعدات التي اشتراها، وبدلاً من حصوله على ما يعادل ١٥٠.٠٠٠ دولار بحسابات اليوم متوافرة أمامه من بناء قاعدة كبيرة من المشتركين، لجأ من فوره الى الدين. اجتازت "نورث ستار" أولى أزماتها الخطيرة فى الأشهر الستة الأولى بفضل إصرار دوجلاس وإرادته الحديدية وليس بفضل أي شئ آخر.

أنفق معظم المحررين الصحفيين سنوات طوال فى التدريب بمكاتب الطباعة. كانت تلك مدارسهم وحرقتهم، حيث تعلموا كيف يصفون حروف الطباعة المعكوسة وهم يراجعون كل الحروف المتشابهة مثل التاء والتاء والصاد والضاد منعاً لأخطاء التهجي، وكيف يكتبون جملاً نظيفة متماسكة، وعندما أصبحوا محررين كانوا يعرفون كل صغيرة وكبيرة فى العمل الصحفي، وأضحى فى إمكانهم تحديد الصحافة الجيدة بمجرد تصفحها. كان دوجلاس قد تمكن من الخطابة والكتابة وبيع فيهما. لكنه تاه عندما دخل مجال التحرير والنشر. فى أية مدينة أخرى ربما تعرض دوجلاس للإفلاس. لكن مدينة روشيستر- المدينة الصناعية ذات الخمسين ألف نسمة- كانت بدورها قلب الإصلاح الراديكالى بوجودها على الطريق المباشر المتجه لكندا. بعبارة أخرى، كانت مدينة تحتاج الى قائد ومحرر جيد من دعاة التحرر وتحول مكتب دوجلاس بالفعل الى

محطة رئيسية فوق قطار الأنفاق، بل إن أحد أصدقائه يذكر أنه قد بُني بمكتب دوجلاس سُلّم سري يؤدي عبر باب مموه إلى مخبأ مخصص "للمطاردين". ربما تكون تفصيلات الحكاية مجرد خرافات لأن دوجلاس لم يكن لديه أية نقود تسمح ببناء سلم سري. كانت حكايات الأبواب الخفية والسلام السرية غالباً تشكل جزءاً من الذاكرة البدائية لمرحلة العبودية لا كجزء من تاريخها. ظل دوجلاس يؤدي الدور المركزي في وجود قطار الأنفاق. وفقاً لأحد تقديرات الملاحظين، قام دوجلاس بمساعدة حوالي أربعمائة هارب للحصول على حريتهم حيث أوجد لهم بيوتاً وأرشدهم الى طريق آمن لكندا، وقد تضمن أول إصدار من جريدة "نورث ستار" مانشيتاً رئيسياً يقول: "أخت... أُنقذت من العبودية." متبوعاً بمقالة تصف فتاة عمرها ثمانية عشر عاماً غادرت مكتبه لتوها في طريقها الى الحرية.

في بدايات عام ١٨٤٨ لحقت أنا والأطفال بفردريك في روشيستر، لكنها لم تشعر بالسرور لاضطرابها للانتقال من جديد، وقد كرهت مدينة روشيستر - بداية - إذ كان عليها العيش في بناء سكني رخيص ٨، بينما بيتها هو عالمها الخاص جداً. ثم تحسنت حياتهما المنزلية في أواخر ربيع عام ١٨٤٨، حيث باع فردريك منزله في لين، وبمساعدة وإجراءات أصدقائه الدعاة تمكن من شراء منزل ذي طابقين وتسع غرف، مبني بالطوب، في رقم ٤ شارع

أليكساندر بالقرب من مكتبه. كان منزلاً رائعاً بالنسبة لهم لأنه يحيط بمرعى واسع للأطفال وحديقة لآنا، وحجرة مكتب لفردريك. كان ذلك أول منزل أمكته تسميته منزله، وقد احتوت "حجرة مكتبه الصغيرة- الشبيهة بالعرين أعلى السلم- على منضدة صغيرة وبعض الكتب وقائمة من الكلمات التي وجدها صعبة التهجى."

أحببت أنا المنزل الجديد وقضت وقتاً طويلاً من حياتها "تحافظ على الأشياء فى وضعها الصحيح." أطلق عليها الأصدقاء "مدبرة المنزل النموذج"، ووفقاً لما ذكره أحد جيرانها، فقد ساعد سلوكها المدبر فردريك على الاحتفاظ بجريدته قائمة بينما كان يجاهد هو للحصول على المزيد من المشتركين، وحالما انتقلوا جاءتها الراحة بانتقال أختها للعيش معهم وساعدتها فى أمور التنظيف والطهي ورعاية الأطفال. خلال صيفهما الأول فى شارع أليكساندر، طلب فردريك من أحد أصدقائه الدعاة تعليم أنا والأطفال القراءة والكتابة، وكانت أنا مترددة لكنها حاولت "من أجل خاطر فردريك". رغم ذلك، فقد شعرت- وفى الحال- بتراحم مشاغلها، وعندما بدأت تهمل واجباتها المنزلية من أجل كتب النسخ والهجاء "انتهت تجربتها من أجل التعليم" للأبد. لم يعبر فردريك أبداً عن خيبة أمله لرفض أنا التعليق بقوة الكلمة المكتوبة. لكن ذلك لابد أنزعجه لأن الكلمات كانت حبه الأول، وكانت أنا تعلم ذلك جيداً.

أما عن الأشياء الوحيدة التي استمتعا بها معاً فكانت أطفالهما وعشقهما للموسيقى، ففي المناسبات يتجمع آل دوجلاس فوق حشائش نجيلهم الأخضر في مساء الصيف، وتعزف أنا على كمانها بينما يقود فردريك الأطفال لغناء تريلة "السيراف" أو أية تريلة أخرى من كتاب تريلات أنا، وعندما سمع أطفال الجيران صوت فردريك الصادح الطروب ولأذنه الحساسة، تجمعوا بدورهم، وبعد سماعهم لعدة تريلات أخرى طلبوا بعض الأغاني الشعبية، فاندفع فردريك وأنا في إطلاق ألحان ستيفن فوستر مثل "نيللي كانت سيده" أو "منزل كتوكي القديم". "بدت تلك الألحان الجنوبية الشعبية كمرثيات لشخصيات مضت. كان دوجلاس شديد الفخر بمنزله لدرجة أنه كتب إلى توماس أولد - سيده القديم - يوم ٣ سبتمبر ١٨٤٨، وهي الذكرى العاشرة لحصوله على حريته، يقول له إنه الآن يملك مأوى مريحاً "يشبه تماماً منزلك" ويقوم على رعاية أسرة سعيدة تتكون "من رفيقة مجتهدة ونظيفة (أنا) وأربعة أطفال أعزاء" تتراوح أعمارهم ما بين الرابعة والتاسعة.

رغم صعوده البازغ فجأة، إلا أنه كان يفكر باستمرار في ماضيه حيث أصبحت حياته السابقة كعبد الآن مصدراً - بالفعل - لكسب عيشه وحينما يبقى وحيداً في حجرة مكتبة كان يضع أحياناً - قلمه في أحد شقوق أقدامه التي صارت أكثر غوراً بفعل

الصقيع حينما كان عبداً. لم يكن ماضيه فقط حاضراً في ذهنه وإنما كان ملموساً أمام عينه. وقع دوجلاس فى هوى مدينة روشيستر أكثر المدن تحمساً لحرية المرأة وتحرير العبيد في الوطن. كما أنها لا تتصف بالقعود عن الحركة ولا بالرضا عن النفس؛ تلك السمات التي تسود النخبة الحاكمة لبوسطون. لقد كانت في قلب "الأتون المشتعل" للمقاطعة وهى منطقة بولاية نيويورك العليا على طول مجرى قناة إيريك التي اجتاحتها النيران الروحانية لحركة الإحيائيين الجدد الذين حولوها إلى بؤرة للإصلاح الراديكالي، لأن روشيستر كانت موطن الأختين فوكس اللتين اكتشفتا العقيدة الجديدة "الروحانية" عام ١٨٤٨، التي مكنت الناس من التواصل مع "الموتى". كانت المدينة على بعد ستين ميلاً فقط من شلالات سينيكا، التي شهد موقعها أول اتفاقية لحقوق المرأة في العالم أيضاً في نفس العام. رغم عدم وجود دلائل تشير لقيام وجلاس بممارسة الطقوس الروحانية، إلا أنه حضر مع ثلاثين رجلاً ومائة وعشرة امرأة اتفاقية سينيكا فولز، وخلال حلقة نقاش حول حق المرأة في التصويت، ألقى خطبة بليغة، وبذلك أنقذ الحركة من الانهزام.

لقد ذابت بعض معالم التعصب - نسبياً في مدينة روشيستر. بالتالي، سادت روح انفتاح تجاه السود لم يوجد مثلها في بوسطون. من المؤكد أن روشيستر لم تكن إنجلترا. لكن دوجلاس شعر فيها



بالأمن كأنه في منزله أكثر من أي بلد آخر في وطنه حيث قال فيما بعد: "لا أعرف مكاناً في الاتحاد - يقصد الولايات المتحدة - أينما أستقر بي الحال فيه وجدت فيه رفضاً أقل أو تلقيت فيه تعاطفاً وتعاوناً أكبر من هنا". كان لدى رجال الأعمال وزعماء الإصلاح في روشيستر سبباً قوياً لمصادقته وحمايته، لأنه كان أشهر مواطني المدينة ووجوده يساعد كثيراً في جلب الأموال والأعمال والموارد الأخرى. فبعدما طلب محرر جريدة نيويورك اليومية من أهالي روشيستر أن يقوموا بإلقاء مطبعة ذلك الزنجي في بحيرة أوتاربو وفي صاحبها - دوجلاس - إلى كندا، سارع مصلحو المدينة لنبذته في الحال. كما قام الصحفيون بالترحيب بدوجلاس كذلك، ففي بدايات عام ١٨٤٨ دعاه ناشرو المدينة لحضور احتفالهم السنوي بمناسبة عيد ميلاد الرئيس بنجامين فرانكلين في فندق إيرفنج هاوس، وعندما وصل عند بوابة الفندق قام أحد الموظفين بطرده ونعته صاحب الفندق بالدخيل قائلاً: "إن ذلك خرق لقواعد المجتمع التي تمتع الملونين من الاجتماع مع البيض". "فقام أحد المحررين بدعوته للدخول وطلب من المجتمعين التصويت على الموضوع، وتأكيد من الجميع تقريباً قبلوا انضمامه لدائرة محري روشيستر.

أصبح إسحاق وإيمي بوست من أقرب أصدقائه، وكان قد قابلهما خلال زيارته المبكرة للمدينة عام ١٨٤٠ وارتبطوا جميعاً

بعضهم. ذكر دوجلاس ذلك فكتب: "أحبتي إيمي وعاملتي كأخ لها قبل أن يعرفني العالم بما أنا عليه الآن." وقد بادلهما الود قائلاً: "إنه أحب إيمي وأعجب بها." كما أطلق على إسحاق: "العزیز إلى نفسي"، وتزاورت أسرنا دوجلاس وبوست كعائلة واحدة. رغم ذلك الدعم العائلي، اندثرت صحيفة "نورث ستار" واتهمت تقريباً في عامها الأول. في مايو ١٨٤٨ فور شرائه لمنزله، نشر دوجلاس دعوة عاجلة طالباً المساعدة التمويلية، وحصل على اشتراكات أقل من ألف اشتراك بالجريدة، فاضطر لرهن بيته ليبقى قائماً في العمل، ولكي يسرع حركة الاشتراكات ويحصل على نقود أكثر، ألقى سلسلة من المحاضرات التي أمدته بصافي دخل يتراوح ما بين ٢٥ دولار إلى ٥٠ دولار لكل محاضرة، وهو ما يساوي من ١٨٧٥ دولار إلى ٣٧٥٠ دولار بحساب اليوم.

واجه دوجلاس عدداً من المعوقات، إذا ما نحينا جانباً قلة خبرته كمحرر صحفي، منها خطأه في حساب الأساس المالي لمشتركي الجريدة إذ كان هدفه الوصول لعدد نصف مليون مشترك من قراءه الأحرار من السود منوهاً في أول أعداد جريدته: "تذكروا أن جميعنا واحد... وقضيتنا واحدة، وعلينا مساعدة بعضنا البعض!" ٣٣ كان دوجلاس قد استأجر عدداً من السود لمعاوته، منهم مارتن ديلاني- الذي تعلم تعليماً سريعاً بجامعة هارفارد قبل



أن يقوموا بطرده منها، وعمل محرراً مساعداً له وكان مسئولاً عن جلب الاشتراكات للجريدة- وويليام كوبر نيل، أحد رعايا جاريسون، وقد جاء من بوسطن لمساعدته لكن ديلاني تمكن من تسجيل اشتراكات قليلة. كما أن نيل- الذي لم يوافق دوجلاس على استخدام السياسة في الجريدة- عاد لذلك السبب إلى بوسطن.

فشل دوجلاس في تحقيق المجتمع الأسود المأمول. لذا، أصابه إحباط عميق وأخذ يلوم السود لعدم اشتراكهم في جريدته متعجباً: "على كل رجل أسود أن يطرح على نفسه سؤالاً واحداً: ماذا أفعل لرفع وتحسين أحوالي خاصة وأحوال إخواني عامة؟" إنهم لم يفعلوا شيئاً له قيمة؛ هذا ما توصل إليه في يولييه ١٨٤٨، وفي حين كان مقهوراً وأرباً وعمال أمريكا من البيض يثرون ويقاومون ويتوحدون، كنا "نحن الأكثر قهراً، متبلدون وغير مباشرين بما هو خير لنا عند مقارنة أحوالنا بهم." فمن بين نصف المليون زنجي حر، ألفان فقط اهتموا بمساعدة أنفسهم وأقل من ألف وأربعمائة منهم هم الذين أبدوا اهتماماً بحركة مناهضة الرق، ومن بينهم اشتراك مائة فقط في هذه الجريدة، ونحن "نصرح بذلك في أسف شديد، لا في غضب." لكن دوجلاس كان- حقيقة- غاضباً حيث لاحظ أن السود ينفقون بسخاء على منظماتهم الأخوية بينما يرفضون الاشتراك في جريدته. في يولييه ١٨٤٨ تجمع ما بين أربعة إلى خمسة آلاف من



السود في مدينة نيويورك للاحتفال السنوي بذكرى "الرفاق الغرباء" التابعة لأكبر منظمة أخوية سوداء في الوطن، بأعلامهم الداعية للحرية ورقصات العشاء الرسمية وأزيائهم الزاهية، وأنفقوا حوالي عشرين ألف دولار بمتوسط قدره أربعة دولارات لكل فرد، وما كانوا ليدفعوا دولارين مقابل اشتراك سنوي في جريدة "نورث ستار". مؤخراً فقط، عندما تحسنت أحواله التمويلية، أدرك دوجلاس أن تلك المنظمات الأخوية كانت ذاتها مصدراً رئيسياً للاعتزاز العرقي والارتقاء المتبادل.

كانت مشكلة نقص الدعم القادم من السود مشكلة صغرى، لأن مشكلة دوجلاس الكبرى نبتت من الانقسامات داخل حركة مناهضي العبودية مضافاً إليها الكراهية القادمة من الحلفاء السابقين من البيض، وسعت جريدة "نورث ستار" إلى سد الفجوة بين مجموعة جاريسون المسالمة "الجاريسونيين" وبين حزب الحرية وقامت باجتذاب القراء من كلا الجانبين. لم تقم الجريدة بإدانة عمليات التصويت والانتخاب (مثلما فعل جاريسون ورفاقه) ولم تكن تابعة لحزب الحرية كذلك. كانت مستقلة تماماً في عصر كانت أغلب الصحف تنحاز لحزب بعينه أو جماعة محددة. على ذلك، لم تمتد أي من الجماعتين بالدعم المطلوب والضروري.

إضافة لكل ذلك، كانت جماعة رفاق دوجلاس السابقين في بوسطن لا تزال في حالة غضب منه لأنه هجر الجماعة واستقل بجريدته الخاصة، وقد أطلقوا على جريدة "نورث ستار" اسم الأداة غير الضرورية، بل وغير المفيدة في سبيل قضية العبيد . وقاطعوا جريدته . بعد ثمانية أشهر من إصدارها الأول، لم يكن لدى الجريدة سوى أقل من ثلاثين مشتركا في كل أرجاء ولاية ماساتشوستس، الولاية التي كانت موطن حركة جاريسون لمناهضة العبودية وحاملة لواء الحرية، بل إن بعضا من مناهضي العبودية فى بوسطن أرسلوا إلى أصدقاء دوجلاس في بريطانيا طالبين منهم عدم الإشتراك بجريدته . رغم تلك المحاولات، أسس دوجلاس قاعدة من القراء المؤثرين ببطء شديد، وكان من بين أوائل المشتركين المعروفين بجريدته الأدبية هاربيت بيتشرستو ولوكريتشيا موط، ومثلها السيدة بايرون (أرملة الشاعر الشهيد) . كما انضم إليهم بعض من الأصدقاء الجدد من أقصى نيويورك وقرأوا جريدته باحترام وتقديس، كما فعل القراء القدامى من بريطانيا وذلك رغما عن الرسائل القادمة إليهم من بوسطن .

كان هناك صديقان - على وجه الخصوص - هما من وضعنا دوجلاس على طريق الأمان التمويلي . الأول كانت الصديقة جوليا جريفيث التي كان لوالديها علاقة وثيقة بحركة تحرير العبيد البريطانية،

وقد أصبح فردريك دوجلاس وجوليا صديقين خلال رحلاته في إنجلترا، وساعدته في الحصول على حريته وواصل مراسلاتهما بعد عودته للولايات المتحدة، وحالما علمت بأزمة جريدته حزمت أمتعتها في إنجلترا وحضرت إلى روشيستر مع أختها إليزا، وانتقلتا إلى منزل دوجلاس. كانت لجوليا حاسة تجارية رائعة، فقامت بفصل حسابي فردريك الخاص والتجاري كلاً على حده، وحصلت على آلاف من الدولارات بتنظيم عدة معارض خاصة بمناهضة الرق. كما نشرت عدة دعوات لطلب الامداد والتمويل والاشتراكات، وأنشأت حلقة قاعدية للدعم من النساء القارئات. ثم قامت بتعليم دوجلاس أسس فن التحرير الصحفي، مبتدئة بقواعد اللغة. الآن أصبح لا يعتمد فقط على حاسته الفطرية في الحكم على ما هو صحيح وما هو خطأ، فهي الآن مرشده الماهرة. كما قامت بتصحيح مقالاته التحريرية "بقلم أزرق مدق" وفحصتها كما لو كانت معادلات رياضية.

سرعان ما تعلم الكتابة بثقة دونما أخطاء، حيث يذكر ذلك بعد عدة سنوات "تصوروا ما كان يمثله تحرير صفحة واحدة لي قبل أن التقى بالآنسة جريفيث ... إذ لم أكن قد تعلمت كيف أتجهى كلمة بعد، وكنت أكتب ببطء يملؤني الحرج بشدة، جاهلاً— بكل أسف — بكثير مما يجب أن يعرفه كل تلميذ في أي مدرسة." كخطيب، لم

يكن دوجلاس بحاجة لمعرفة هجاء الكلمات بدقة. كما أنه أثناء كتابته لسيرته الذاتية "حكاية" عام ١٨٤٥، كان يستطيع الاعتماد على الآخرين لتصويب وتنسيق نصوصها .

أدى وجود امرأة بيضاء جذابة بمنزل دوجلاس إلى حدوث فضيحة، فعندما كان يقضي وقته بالمدينة، كان يمضي أغلب "مشاويره" سائراً مع جوليا . كما كانا يعملان معا طوال النهار بمكتبه، وغالباً ما يميكان هناك إلى وقت متأخر من الليل . من هنا افترض معظم الرجال البيض العنصريين- الذين نشأوا معتقدين أن كل الرجال السود يتحرقون شوقاً لامرأة بيضاء- أن بينهما خطايا كبيرة كلما رأوها معا لأن مجرد رؤيتهما في شارع مين بروشيستر يسيران متماسكي الأيدي (كما كانت العادة) يثير هياجاً كما لو كانا شوهدا عرايا . بدأت "التهديدات تنهال علناً" عليهما لو استمر ذلك الاندماج . لكن جوليا وفردريك مضيا قدماً دون اهتمام بأحد متجاهلين نظرات الناس المستنكرة . تابعت التهديدات دون أثر حقيقي، وعندما ذكر أحد الدعاة تلك الشائعات في روشيستر، أنكرها دوجلاس بشدة مصرحاً: "عندما تقوم تلك المدينة التي تدعى أنها تمتلئ بأخبار الفضائح المتعلقة بي وبالأنسة جوليا بوضع تلك "الأقاويل" في أسلوب محدد، وتعين شخصاً واضحاً يقف وراءها، ستكون هذه هي اللحظة التي سأقوم فيها بدحضها ."

أنت أسوأ الشائعات من دعاة بوسطن الذين اعتبروه مرتدًا ومهرطقًا، فأحد الزملاء القدامى أطلق على جوليا لقب "إيزابيل التي لا يباريها أحد في قدرتها على إحداث الفركة والوقية بين الأصدقاء." زاد جاريسون نار الشائعات وقوداً بقوله إن دوجلاس منذ انتقاله إلى روشيستر "فقد كثيراً من قيمه الأخلاقية... وأنه يحتفظ بواحدة من أسوأ مستشاريه في مطبعته، لدرجة أن تأثيرها لم يقف عند حد التسبب في تعاسة أهل بيته، بل انخرفت بقدرته على التقدير بشكل مدمر." أنكر دوجلاس أن وجود جوليا أدخل الألم على أسرته. لكن وفقاً لمصدر آخر ذكر أن إيمي بوست قالت إن أنا شعرت بخطورة جوليا على حياتها العائلية فطلبت أن تعيش جوليا وسط عائلة أخرى، وقالت لفردريك: "أنا لا يهمني من أمرها أن تكون في المكتب أم لا، لكنني لا أريدها في منزلي." هنا حاولت هاريت بيتشر ستو- صديقة دوجلاس وجاريسون معاً- إخماد تلك الشائعات لكن كلماتها تاهت وسط

قيادات الجمعية الأمريكية لمناهضة الرق.

لم يكن هناك أي دليل على وجود علاقات جنسية خاطئة بين فردريك وجوليا لأنه يعلم أنه إذا ما وقع في ذلك الجرم فإنه سيدمر مستقبله. لذا، فهما كان ما يحدث خلف الأبواب المغلقة، إلا أنه اتخذ كافة الاحتياطات للتأكد من عدم سيطرة ذلك عليه، وفي حين

كان لنكون من قبل يستطيع استئجار إحدى العاهرات لقضاء وطره منها، أو النوم مع صديقه الحميم طوال أربع سنوات دون أن يبدي أحد اعتراضا واحدا، نجد معايير استكمال الديكور المؤسس للسود صارمة وإن محاولة اختراقها مكلفة للغاية.

لو كانت جوليا جريفيث هي من قامت بتعليمه قواعد اللغة ومهارات العمل التجاري، فإن جيريت سميث هو الذي طور آراءه وأعاد صياغة كتاباته. نشأ جيريت في قرية بيتربورو، على بعد أربعين ميلاً جنوب شرق سيراكوزة، بين واحدة من أغنى العائلات بالبلد. كان والده شريكاً في أعمال جون جيكونب آستور التجارية، وكان يمتلك أكثر من مليون فدان في ولاية نيويورك. في شبابه، اقتدى بالورد بايرون وملاه الحلم في أن يصبح شاعر أميركا الملحمي والأرستقراطي، ويعيش أجواء الحرية المطلقة في أشعاره، وفعلاً أرتدى جيريت -معظم أيام حياته- ياقة القميص البايرونية العريضة. لكن سلسلة من المآسي دفعته إلى طريق الارتداد الديني والدعوة الثورية لتحرير العبيد. أدت اضطرابات عام ١٨٣٧ إلى إفلاسه تقريباً، وشدته إلى الإحساس بأزمات الفقراء والتعاطف معهم، فكرس حياته لخدمة من يحتاج إليه. بعد تجاوزه مرحلة الإفلاس، أصبح واحداً من أعظم الإنسانيين هناك حيث تنازل عن حوالي ما يساوي ٨ مليون دولار من الأرض - أي ما يساوي ٦٠٠

مليون دولار اليوم - وبعض الأملاك الأخرى معظمها للسود الفقراء .  
كما عقد صداقات عميقة مع أولئك السود وتواصل معهم أكثر من  
أي إنسان أبيض آخر . كما قال بنفسه إنه سعى في الأساس  
"لأجعل من نفسي إنساناً ملوناً . " جاءت أكبر أعمال سميث الخيرية  
قبل عام من انتقال دوجلاس إلى روشيستر . في عام ١٨٤٦ قام  
بالتنازل عن أراض مساحتها ١٢٠.٠٠٠ فدان في منطقة  
أديرونداكس لحوالي ثلاثة آلاف مسكين من الفقراء السود بولاية  
نيويورك ، أي حوالي ٤٠ فدان لكل شخص ، ولم يكن من بينها  
حيوانات الحقل لأنه لم يكن يملك سوى آلاف من الأراضي دون تقود  
سائلة . سميت تلك المناطق الواقعة في مقاطعتي إيسكس وفرانكلين  
باسم "تنبكو" تيمناً باسم تلك المدينة الواقعة في غرب إفريقيا ذلك  
المكان الذي يتجاوز آفاق التعسف الأمريكي القبيح . ملاً سميث  
الأمل أن تمكن تلك الهبة متلقيها من أن يكونوا مزارعين وبالتالي  
ناخبين مستقلين الإرادة حيث تطلب الولاية من العبيد أن يمتلك كل  
واحد ما قيمته ٢٥٠ دولار قبل أن يحوز حق التصويت .

اتهم الساخرون والأعداء سميث بأنه يخدم نفسه لأنه هو ذاته  
زعيم من زعماء حركة إنهاء العبودية ساهم في تأسيس حزب  
الحرية عام ١٨٤٠ والحزب الذي خلفه - حزب الحرية الوطني - في  
عام ١٨٤٨ . كان هذا الحزب الأخير هو أول من دعا للتحرر العالمي



والحقوق المتساوية لكل البشر . في عام ١٨٤٨ - تحديدًا - كان سميث هو مرشح الحزب لانتخابات الرئاسة فاكسب جماهيرية متتالية وسط الدعاة السود الذين أحببهم إصرار جاريسون على التمسك بعدم العنف وعدم السعي للحصول على حق التصويت، ومنذ جلبت عطاياه مزيداً من الناخبين لصالح حزبه، اتهمه آخرون بالانتهازية. لكن حزب الحرية الوطني لم يكسب سوى آلاف قليلة من الناخبين فقط لأن دوره كان رمزياً ومنازة للديمقراطية في جمهورية للعبيد . كان سميث يمثل أغلب دعاة التحرير البيض في نظرتهم لنفسه كنبي يقوم بتنفيذ إرادة الله في قتال خطيئة العبودية . فقط كان يختلف عنهم في درجة انشغاله بأداء هذه المهمة .

بعد أيام قليلة من إصدار دوجلاس لصحيفته، رحب سميث بدوجلاس في الولاية بخطاب مصحوب بعباء قدره ٤٠ فدانا في منطقة تمبكو كاتبا: "هنا في موطنكم الجديد نسأل الله أن يبارك لكم في أعمال المحبة التي تبذلونها من أجل شعبكم المقهور!" لم يكونا قد تقابلا أبداً، وكان دوجلاس يقرأ خطابه بصعوبة لأن كتابة سميث كانت أشبه "بنفش الفراخ" الذي كتبه شخص مشلول اليد .

بعد فك طلاس الخطاب قام دوجلاس بنشره في جريدته (وربما قام أيضاً ببيع الهدية)، وهكذا بدأت صداقتهما . بدا أن سميث كان يعرف متى يصبح دوجلاس في حاجة للمساعدة بمجرد إحساسه



الغريزي بذلك، إذ كانت تترى خطاباتٌ- في أوقات متفرقة- تحوي شيكاً هنا بمائة دولار وآخر هناك بمائتين.

كان جيريت سميث يختلف عن كل الرجال البيض الذين قابلهم دوجلاس لأنه وهب كل ثروته للسود محققاً بقليل من الشروط عليهم، وقد رحب بقدمهم للولاية مخصصاً قطعاً من الأرض تبلغ الواحدة منها ٤٠ فدانا. كما قام بدعم وتأييد صحيفة يمتلكها رجل أسود بهباتٍ منحها على فترات، واستمع لهم ووثق فيهم، وأيدهم واحترم ما قالوه له. في حين عامل جاريسون دوجلاس كابن له، أصبح سميث صديقاً له وزميلًا نموذجياً. اكتشف دوجلاس أن بإمكانه مناقشة ومعارضة سميث في القضايا الهامة دون تبادل الاتهامات، وكان الدستور واحداً من تلك القضايا، فعندما تقابلا كان دوجلاس متعلقاً بمبدأ جاريسون الذي يقول إن الدستور يؤيد العبودية وفاسد، وكان جاريسون حقيقة قد قام بإحراق نسخة منه علانية وأطلق عليه "معاهدة الموت" و"اتفاق مع الجحيم" لكن سميث كان ينظر إليه كوثيقة مناهضة للعبودية كُتبت بعناية، والاختلاف بينهما- هنا- هام جداً، وذلك لأن الكيفية التي تفسر بها الدستور هي التي تشكل الطريقة التي تهاجم بها العبودية. وقد استعار سميث وقليل من المنظرين أسانيد قانونية من كتابات

ويليام بلاك ستون للقول بأن القانون الطبيعي لا يتفق مع وجود العبودية وبالتالي يلغي أي قانون بشري يدافع عنها .

بدلاً من قراءة الدستور من منظور الماضي وبالتالي التعامل مع التراث الطويل من القوانين المؤيدة للعبودية والمنبثقة منه، حاولوا "استقصاء ما يجب أن يكون عليه الدستور" قادت هذه الرؤية المقدمة سميث وأعضاء حزب الحرية الآخرين إلى تفسيرات مبدعة ومفيدة، فالهدف الأساسي للدستور كما جاء في مقدمته هو تأمين نَعَم الحرية، وبالتالي فالدستور يتوافق مع الحقائق البديهية للحرية والمساواة اللتين جاءتا في إعلان الاستقلال، علاوة على أنه لم يذكر أبداً الفاظاً من قبيل "عبد" و"عبودية" أو حتى "زنجي" وهكذا لا يفرض قيوداً، ولا يسمح بالإضطهاد العرقي، ويحمي حريات الناس بطرق محددة. هذه العبارات الإجرائية تحمي الحق في الحياة والحرية والملكية مقدمة الحياة والحرية على حق الملكية وتحريم مد آثار الحرمان من الحقوق المدنية دون قانون يؤكد أن كل طفل يولد حراً بغض النظر عن حالة والديه، وتلك العبارات التي تؤخذ غالباً على أنها معضدة للعبودية تم تفسيرها ببساطة بصورة خاطئة، فالعبارة التي تناول كلمة "الهارب" تعني "الصناعية" والأطفال ولا تشير للعبيد، والعبارات التي تلحقها لا تمنح حماية لملاك العبيد، في حالة وجود التباس أو تعارض في المعنى يجب أن يسود القانون الطبيعي أو

القانون الإلهي، اللذان يجعلان العبودية في حكم العدم والخواء .  
كان تفسير سميث للدستور أكثر من طوباوي، بل كان تفسيراً  
فوضوياً، لأنه يتخلى عن سبعين عاماً من السوابق القانونية، ويشجع  
تفسيره هذا الناس على تأويل الدستور وفقاً لمعتقداتهم وتحديد معالم  
القانون الطبيعي تبعاً لقوانينهم الشخصية. وفي الواقع آمن أغلب  
الآباء والمزارعين المؤسسين للدولة أن الاستعباد خطيئة. لكنهم  
وفقوا مبادئهم وصاغوا ضمانات دستورية للعبودية، وكانوا - قياساً  
على اعتبارات عديدة - يمثلون توجه هنري كلاي، فهم يعارضون  
العبودية نظرياً، ويسعون لإلغائها كلية - كما قال كلاي ولنكونن -  
لكنهم كانوا متوافقين مع الواقع عملياً، لأنهم غالباً من ملاك العبيد  
بالفعل، ففي الأساس أطلق دوجلاس على مناقشة سميث  
الدستورية وصف "محاجة مجنونة"، وفي عام ١٨٤٩ صرح أن  
الدستور من خلال التحليل الدقيق لا يعد مؤيداً للعبودية. لكنه أكد  
أن نوايا المزارعين جعلت منه سلاحاً للمالكي العبيد، وطلب صياغة  
دستور جديد وحكومة جديدة. كان مذهب سميث الدستوري  
يرى أن الحكومة "لا تزيد عن كونها جماعة من العامة غير القانونيين  
الذين يتصرفون تبعاً لقناعاتهم وليس لأي مصدر آخر أو أعلى  
للسلطة." لأن أية حكومة لو أستطاعت تجاهل المقاصد الأصلية  
لدستورها "في مادة ما"، لربما فعلت ذلك في باقي المواد حيث "لن

تكون هناك حدود، ولا أمان ولا يقين" بشأن تفسير ذلك الدستور وكيفية تطبيقه. كان دوجلاس قد أرتبط بنموذج من القانون المؤسس على المقصد الأصلي لمشرعه.

لكن ذلك تغير عبر السنتين التاليتين، إذ كثيراً ما جادل دوجلاس صديقه سميث في المفاهيم المختلفة للقانون بينهما. مع بدايات عام ١٨٥١ اقترب دوجلاس من وجهة نظر سميث، فقال مرة: "لقد سئمت وتعبت من الجدل حول الجانب الخاص بمالكي العبيد" في الدستور حيث ظل معتقداً أن المزارعين قصدوا صياغة ضمانات معينة للعبودية حتى لو كان معظمهم ملأه الأمل في نهاية مؤكدة للعبودية. على أية حال، كان دوجلاس على استعداد أن يميل مع رياح المزارعين ونواياهم ومع السوابق القانونية. كان قد قرأ لتوه "تعليقات بلاك ستون" التي بينت له أن العبودية مناقضة مع العدالة ولا يمكن أن تكون قانوناً وتولاه القلق - الآن - بشأن مدى أخلاقية ابتداء "قواعدكم القانونية" لكي "تغلب على مقاصد صناع دستورنا" أما جيريت فقد امتص عوامل القلق هذي حينما أخبره - بصورة مؤثرة - أن القانون "دوماً يكون" في حالة تطور مستمر.

دعم دوجلاس ذلك المفهوم للقانون لأنه هو نفسه كان في حالة إعادة تكوين مستمر. بعد شهور قليلة في يونيو عام ١٨٥١، حوّل صحيفته إلى صوت يعبر عن حزب سميث (حزب الحرية الوطني)،

وكان للشراكة بينهما معنى رائع لأن سميث وفر لها ضماناً تمويلياً من خلال مخصصات شهرية مقابل مساحة أكبر لعرض مبادئ الحزب، واحتفظ دوجلاس فيها بإدارة ذاتية غير قليلة. مع هذا الاندماج قام بتغيير اسم صحيفته إلى صحيفة "فردريك دوجلاس"، وكان ذلك قراراً صائباً لأن اسمه تحول إلى علامة تجارية قابلة للتسويق. كانت رغبة سميث في جريدة ناجحة وجديدة الشكل قد هزته بعنف، وها هو يمنحها شكلاً جديداً مع شراء أوراق بيضاء لطباعتها وانتقاله إلى مكتب أوسع بمبنى وايلدر على ناصية شارع إيست مين وايكستشيج. وأبرز نفسه بصورة أكبر في جريدته الجديدة عما كان يفعل في "نورث ستار". كان الاسم الجديد للصحيفة يعكس ذلك الإسقاط الذاتي كما لو كان يقول: "هذه الجريدة الجديدة شكلاً وموضوعاً هي . . أنا". كما قام بتغيير توقيعه كمحرر بحرفي ف. د. الذي يذيل به محرراته.

كان دوجلاس يستخدم هذه الجريدة أصلاً ليتقي الاتهامات التي لم يكن يستطيع الكتابة عنها مباشرة. لكن الآن لا يستطيع أحد إنكار قدراته لذا عودَ نفسه وأعتق "حق وكرامة المحرر" فيطلق صيغة "سيدي المحرر لو سمحت!" لتنتشر حوله. الآن، هو سيد مهذب له مهنة محترمة وناجحة، وقد شكر دوجلاس سميث لدوره في تغيير جريدته وتغيير ذاته قائلاً: "إنك لم تحفظ الحياة لجريدتي

فقط، لكنك حفظت روحي أيضاً." فى ذات الوقت، شعر ويليام لويد جاريسون بخيانة دوجلاس عندما اكتشف اعتناقه لمبادئ تحرير العبيد بالطرق السياسية فأعلن أن "هناك أوغاد فى اماكن ما حولنا." وفى الحال، فصل صحيفة فردريك دوجلاس عن قائمة المستندات المعتمدة التي يرسلها لقرائه.

أصبح دوجلاس بالنسبة لجاريسون كالمرتد، ابن ضال فى عائلة مسيحية مزمتة، واتهموه علانية ببيع روحه وإفساد عقله مقابل أموال سميث. تجاهل دوجلاس ذلك التشويه الأخلاقي وحاول أن يفرز أوجه الاختلافات بينهما. لكنه سرعان ما تراجع، لأن الرجل الذي كاد يعبد ذات مرة، والذي قدم له الكثير فى سبيل إنجازه بمهنته مبكراً، رفض أن يحادثه طوال عقد تال.

بدأ دوجلاس -عندئذٍ- يستخدم العبارات التصريحية مثل "إن البراكين الفائزة سوف تثور." و"إن انتفاضة عبيد الجنوب سوف تحدث." قام دوجلاس بتحريض العبيد على اتخاذ شعار ولاية فرجينيا شعاراً لهم وهو "الموت للطغاة"، حيث تبرر حركة تحرير العبيد السياسية استخدام القوة لأنها تطالب كل مواطن أمريكي مخلص بالتدخل فى قضية العبيد حيثما وجدت. وبينما أدت حركة جاريسون المضادة للعنف إلى الانفصال عن جمهورية العبيد، فقد نادى حركة التحرير السياسية بشن الحرب على الطغاة.

من الواضح أن تحول دوجلاس الدستوري تزامن مع اتفاق المصالحة عام ١٨٥٠ الذي حوى سلسلة من ستة قوانين مررها الكونجرس، مستهدفة حل الأزمة الحزبية حول قضية العبودية. كان ذلك الاتفاق من بنات أفكار هنري كلاي الذي سعى لكبح جماح تهديدات الجنوب بالانفصال عن الاتحاد، فأغلب الجنوبيين يطالبون بامتداد العبودية إلى المناطق المنضمة حديثاً من المكسيك، ويهددون بالانفصال إذا قام أي عائق في طريقهم لذلك، في حين أصر العديد من الشماليين على استبعاد الرق من تلك المناطق. وعد كلاي بإجراء تنازلات لكلا الطرفين، وكان هذا من وجهة نظر دوجلاس قد "أمن كل الظروف لدوام للعبودية." بالفعل، حينما مات كلاي عام ١٨٥٢ كتب دوجلاس مقالة ينتقده بأنه قدم "ما لم يقدمه إنسان آخر فى هذا الوطن لجعل العبودية قائمة على الدوام" فهو الذي أسقط "آلفاً من ألمع نجوم الوطن" وعدداً لا يحصى من أعضاء حزب المحافظين غير المعروفين (مثل لنكولن) إلى حمأة التوافق والحداع.

كان قانون العبد الهارب أكثر أجزاء اتفاق المصالحة- لعام ١٨٥٠- إلهاباً للمشاعر كبديل للقانون السابق عليه لعام ١٧٩٣، فهو يحرم المشتبه بهم من حق اللجوء لمحكمة المحلفين أو حتى سماعهم أمام قاض ويستبعد شهادتهم، وهو يحدد مسؤولين مخصصين لهم

سلطة إرسال المشتبه به على الفور إلى أماكن العبودية دون "تأخير أو استئناف"، بل ويتقاضى أولئك المسؤولون مكافأة على إعادة المشبوهين للرق (وأصبحت ١٠ دولارات بدلاً من ٥ فقط). كما أن أي مواطن أو كل أعضاء جماعة ما ممن يمكن استدعاؤهم لمطاردة الهاربين، يتعرضون لدفع غرامة قدرها ألف دولار حال رفضهم لتلك المهمة، وأي فرد يضبط وهو يساعد أحد الهاربين يواجه عقوبة الغرامة والحبس، وقد غير ذلك القانون الرأي العام في الشمال حيث جعلت منه تربة ممهدة "وأرض صيد للخاطفين الجنوبيين" مما أقتنع عدداً لا حصر له من الشماليين بأنهم لا يستطيعون بعد الآن أن ينفذوا أيديهم من قضية العبودية.

ذلك كله ألهم هاريت بيتشرستو كتابة قصتها الذائعة "كوخ العم نوم" التي كان تأثيرها عميقاً لدرجة أنها دفعت الرئيس لنكولن لإطلاق لقب "المرأة الصغيرة التي ألقت كتاباً أشعل نار تلك الحرب الهائلة" على ستو عندما قابلها في البيت الأبيض. أطلق ذلك القانون شرارة خروج جماعي لسود الشمال نحو كندا. صرح بعض رجال الدولة من ذوي النفوذ بالشمال من أمثال ويليام سيوارد وسالمون ب. تشيز وتشارلز سمنر بأن ذلك القانون غير دستوري، وحرصوا الناس على مقاومته.



كان سيوارد قد أحدث حراكاً بالفعل فى مجلس الشيوخ عندما قال: "هناك قانون أعلى من الدستور . إنه ذلك الذي ينظم سلطتنا فوق مجال أراضينا . " لقد تجاوزت أصداء فرضية القانون الأعلى التى طرحها سيوارد مع إيمان دوجلاس الخاص بأن "سلطة الله أعظم من سلطة الإنسان."

اعتمدت استجابة دوجلاس لقانون العبد الهارب على وجود قانون أعلى - أيضاً . لذا، أضافت حراكاً أكثر لما هو قائم . فى عام ١٨٥٢ دعى لحضور الاجتماع الوطنى لحزب الأرض الحرة "فري سويل" الذي سعى لمنع انتشار الرق فى المقاطعات الجديدة . كان الاجتماع منعقداً فى بتسبورج . دخل دوجلاس قاعة ماسونيك الفخمة حيث ضم الاجتماع حوالي ألفين من أعضاء الوفود فى حالة انعقاد، وتعرف عليه قليل ممن يقفون فى الخلف يرتدون "جواكت زرقاء بأزرار من نحاس وبظلونات بيضاء" وقاموا بحثه على الكلام، فتقدم ببطاء نحو المنصة بهيئة وخطى من يخاطب نفسه بقوله "لسوف أجعلكم جميعاً تنصتون وتشعرون بي أيضاً !" ذلك وفقاً لما صورته أحد الصحفيين، وقد أعلن وسط الهتاف والضحك: "إن الطريقة الوحيدة لجعل قانون العبد الهارب مجرد ورقة مية هي أن نحصل على نصف دسنة من "الخاطفين موتي"، وعندما أضاف قوله: "إن ملاك العبيد لا يزنفون فقط حقهم فى الحرية، وإنما يزنفون

حقهم في الحياة كذلك. "تصاعد الهتاف أكثر قوة. وإن كانت العبودية نوعاً من حياة الموت كما وصفها دوجلاس أحياناً، إلا أنه الآن يطلب حكم العهد القديم للشأ ويؤكد أن "سطور العدالة الأبدية" تحتاج للتوهج بدماء الطغاة؛ هذا هو قانون الله، وعندما تدمر قوانين البشر حقوق الإنسان، يجب أن يقام حكم الله مكانه! كان يشير إلى مذهب سميث الدستوري بقوله: "إنه فخور أن يكون واحداً من حواريّ سميث."

قامت معظم الصحف الرئيسية بتغطية خطاب دوجلاس مضيفة المزيد لشهرته، وخلال رحلة عودته لبيته توقف للعشاء عند مطعم بإحدى المحطات. لكن صاحب المطعم رفض جلوسه بالمكان، فقام دوجلاس بطلب التصويت على ذلك بين الزبائن، ولما كان معروفاً لدى الجميع فقد صوتوا - دون تحديد - لصالح جلوسه معهم لتناول العشاء، موجّنين صاحب المطعم "لسلوكه المهين" فكون المرء مشهوراً يزيل عواقب التعصب العرقي كثيراً.

كان دوجلاس يخفف من نبرته العسكرية الحادة عندما يخاطب النساء، فقبل خطابه في بتسبورج بشهر واحد، دعت جمعية روشيستر النسوية المناهضة للعبودية ليدلي بخطاب ذكرى الرابع من يوليو عام ١٨٥٢ بقاعة كورنثيا الفخمة بالمدينة. انعقد الاحتفال يوم الإثنين ٥ يوليو، وربما كان ذلك لإلقاء الضوء على أمانى الأمة التي لم

تتحقق بعد . قد يكون خطابه هذا أفضل ما عرف عنه من خطاب شهيرة، وهو بمعايير الخطابة خطاب فريد يستخدم أساليب (المزاوجة الضدية) الساخرة. يبدأ خطابه بنشر مشاعر الارتياح بين مستمعين من البيض، فيملأهم الاعتزاز "بأمتكم" والأمل فيها، ويمهد الضمير "ك" فى أمتكم لذلك التحول المفاجئ في نبرة صوته التى تأتى عند منتصف خطابه بتساؤله: "اعذروني . . واسمحوا لي أن أسأل لماذا طلبوني للتحدث هنا اليوم؟ وماذا لدي أنا ، أو لدى من أمثلهم، لنفعله من أجل (استقلالكم) الوطني؟" عند ذاك وطوال الساعة التالية يقوم بتوبيخهم، مصوراً خطايا العبودية والتعصب العرقي داخل الوطن، وتأتي المزاوجة الضدية الثانية قبل نهاية الخطاب عندما يقول: "أترككم من حيث بدأت، يملأني الأمل. " كأنه يستقدم باراك أوباما في المستقبل الذي لا يراه. يُعد الخطاب تحفة رثاء وأنشودة حزن تجاهد لاسترداد مُثل ومبادئ مؤسسي الأمة، ولكنه- بعكس خطبه الأخرى العظيمة لهذا العصر- لم يلمس فيه موضوع الثأر من الخاطفين أو قتلهم.

في أواخر شهر يونيو من عام ١٨٥٥ بدأ دوجلاس ينشط وفقاً لخطابه الثوري، ففي سيراكوزا بقاعة سيتي، وهي مبنى أشبه بقلعة حصينة، ساعد على تأسيس حزب التحرير الراديكالي وهو الذي خَلَفَ حزب الحرية الوطني في قيادة حركة تحرير العبيد . لقد خرج

أعضاء حزب التحرير الراديكالي من رحم الجذور التي أخرجت حزب لتكون الجمهورية وفي نفس السنة، إذ تطور الفرع المحافظ لحزب الحرية ليشكل حزب الأرض الحرة " free soil " والذي نما بدوره ليصبح الحزب الجمهوري، في حين تحول الفرع الراديكالي لحزب الحرية والحرية الوطني ليكون حزب التحرير الراديكالي. كره كلا الحزبين العبودية بشدة. لكن الجمهوريين دعوا لعدم امتداد الرق (مؤمنين أن الدستور يحمي الرق في الولايات)، بينما سعى الراديكاليون إلى وضع نهاية لتلك العبودية في كل مكان. ينطبق على حزب التحرير الراديكالي مسماه (اسم على مسمى)، ففي اجتماعه الافتتاحي نادى اعضاؤه بإنهاء الرق عالمياً في الحال، وبحق التصويت الكامل لكل الأمريكيين بغض النظر عن الجنس أو اللون، وبإعادة توزيع الأرض بحيث لا يوجد غني وفقير، وبلا تدخل عنيف ضد قوى العبيد، وقد اعتمدوا على نصوص الكتاب المقدس (رسائل من الله) لمساعدتهم في تمهيد الطريق لعالمهم الحر الجديد. حضر الاجتماع مئات قليلة من الناس، من بينهم ثلاثة من خلصاء دوجلاس. كما كان هناك جيريت سميث المنظم الرئيسي للحزب، وكذلك جون براون وهو رجل عسكري نحيف، ذو عينيّن رماديتين، وعمره خمسة وخمسون عاماً، وكان دوجلاس قد اتخذهُ صديقاً حال وصوله إلى روشيستر. كما كان رجل أعمال مفلس

لأنه فشل في كل تجارة أو عمل خاطر بالدخول فيه، وأصبحت حركة تحرير العبيد هي حرقه الوحيدة، وقد عاش بين المستوطنين السود في تمبكو بولاية نيويورك. تأثر دوجلاس عميقاً براون بعد لقائهما الأول فكتب: "رغم كونه رجلاً أبيض، إلا أنه يحمل عاطفة الرجل الأسود، وهو مهتم جداً بقضيتنا كما لو كانت روحه قد وسمتها علامة العبودية." شارك براون كلاً من دوجلاس وجيريت مبدأً "أن مُلأك العبيد قد زيفوا حقهم في الحياة."

كان جيمس ماكون سميث هو الصديق الثالث الذي تواجد معهم، وهو مساهمٌ معتاد في جريدة فردريك وكان أعظم مثقف أسود بالأمة وأول طبيب أسود فيها من مدينة نيويورك. امتلك صيدلية وعيادة طبية على طريق برودواي. مثل دوجلاس، عاش ماكون سميث في بريطانيا، وقد حصل على درجاته العلمية-البكالوريوس والماجستير والدكتوراة- من جامعة جلاسجو بعدما رفضته الكليات الأمريكية بسبب جنسه الأسود. كما قام برئاسة المؤتمر الذي كان- في حد ذاته- عملاً ثورياً، لأن المرة الثانية التي رأس فيها رجل أسود مؤتمراً حدثت بعدها عام ١٩٨٨. وقد ظهرت إتهامات الحزب بوضوح أثناء إلقاء براون لخطابه.

كان براون في طريقه إلى كانساس للحاق بثلاثة من أبنائه ليشاركهم معركة الكفاح من أجل الحرية هناك، إذ كان إتفاق

كانساس- نبراسكا قد تحول إلى قانون، فاتحاً المقاطعات الشمالية أمام العبيد، وكان القانون الجديد يطبق مبدأ "إن السيادة الشعبية" على الأراضي الجديدة تدعو المستوطنين إلى إجراء التصويت على الإبقاء على العبودية أو إلغاؤها. أدى ذلك لتحويل كانساس إلى ميدان للمعركة بين مؤيدي الرق ومعارضيه من المهاجرين، وقد اقتبس براون من سفر العبرانيين (٩:٢٢) مذكراً مستمعيه أنه "دون سفك دماء لن تكون هناك مغفرة من الخطية." كما رجاهم التبرع بالمال والسلاح ليعود بهما إلى كانساس، وأشعل خطابه الحماس في مستمعيه. قليل من الناس فقط هم من اعترضوا على طلبه الصارخ للأسلحة. لكن واحداً منهم فقط هو الذي اعترض رسمياً، فأغلب الأعضاء وافقوه على أن المقاومة المسلحة هي الطريق الوحيد أمام رفاقنا على طريق الحرية في كانساس "لما شجع دوجلاس على طلب المساهمة ليحصل براون على ستين دولاراً وقليل من الأسلحة"

لمسوا ثمرة ذلك اللقاء بعد عام لاحق، عندما التقى التحريريون الراديكاليون مرة أخرى في سيتي هول بسيراكوزة لتحديد مرشحيهم. كان جيرري سميث قد أصبح مرشحهم للرئاسة ودوجلاس نائباً للرئيس. لم يكن من الممكن لقائمة تحوي أسمي جيريت سميث ودوجلاس أن تفوز لأن كلا الرجلين من نيويورك، فقام الأعضاء (تحقيقاً لرغبتهم في التنوع الجغرافي) بانتخاب صامويل ماكفرلاند من

بنسلفانيا رفيقاً لسميث في سباق الانتخابات. كان دوجلاس ورفاقه غارقين في وهم إمكان نجاح سميث في الانتخابات وحقيقة أن دوجلاس دعم الجمهوري جون فيرمونت المستكشف الصاعد الشاب بمنطقة الغرب وأول عضو بمجلس الشيوخ عن كاليفورنيا، وحتى سميث نفسه كان قد دعم فيرمونت بمنحه ٥٠٠ دولار، وكان هدفهما العاجل إحداث حراك شعبي ضد العبودية ومساعدة فيرمونت في الانتخابات ودفع الجمهوريين نحو موقف أكثر حسماً وجذرية لمواجهة العبودية.

عاد المؤتمر مرة أخرى مشتعل الحماس، فقد حدث منذ ستة أيام سابقة على انعقاده يوم (٢٢ مايو) أن تعرض تشارلز سومنر - وهو نائب من دعاة التحرير من ماساتشوستس - لضربات قوية على رأسه أوصلته لحافة الموت عندما قام بريستون بروك بضربه بهراوة ثقيلة وهو يعمل في مكتبه بمجلس الشيوخ، وكان بروك مخموراً وحوصر سمنر في مقعده الذي كان مثبتاً بالمكتب وبأرضية الحجرة، واستطاع سمنر بمجهود خارق نزع مكتبه والنهوض للدفاع عن نفسه ثم انهار بعدها على الأرض.

رغم أن جلسة النواب تم تأجيلها باقي اليوم، إلا أن بعض النواب مكثوا في المجلس وكانوا كلهم من دعاة تحرير العبيد، ولكن لم يهب أحدٌ منهم لمساعدة سمنر؛ وبينما دماؤه تسيل على السجادة، نظر

روبرت تومبز من جورجيا للمشهد معضداً، وجلس ستيفين  
دوجلاس من إلينوى باسترخاء متجاهلاً هذا الاعتداء، في حين قال  
جون كريتندن من بروكس "لا تقتله!"

كان سبب الهجوم عليه هو خطاب سممر الحديث الذي أسماه  
"جريمة ضد كانساس" الذي اتهم فيه مالكي العبيد باتهاك عذرية  
أرض كانساس، وقد ذكر سممر واحداً منهم وهو النائب أندرو بتلر  
من ساوث كارولينا وهو ابن خال بروك أحد مهندسي صناعة  
"قانون كانساس-نبراسكا"، فقال: "إن النائب قد قرأ الكثير من  
الكتب حول الفروسية، ويظن نفسه فارساً نبيلاً يحمل مشاعر  
الكرامة والشجاعة، وبالطبع كان قد اختار لنفسه سيدة يهاها  
يخصها بولائه وإخلاصه، ورغم قبحها الذي يراه الآخرون، يراها هو  
جميلة ومحبة، ورغم تلوثها أمام الجميع إلا أنه يراها طاهرة وعفيفة؛  
وأقصد بتلك الداعرة ... هذه العبودية.

بذلك الهجوم كان بريستون بروك يدافع عن شرف الأسرة وشرف  
الجنوبيين. فور هجومه على سممر، أضحى بريستون واحداً من  
أبطال الجنوب وبدأ يتلقى بعض العصي، والأوان الفضية والأطباق  
الذهبية كهدايا تذكارية من معجبيه لعمله الفذ، وعزز مكاتته في  
نفوس الجنوبيين حينما قال إنه: "كان على وشك أن يقطع رقبة كل  
دعاة التحرير." لم يقم الكونجرس حتى باستنكار ما فعل، بينما



كانت جراح سممر خطيرة لدرجة أنها احتاجت لأربع سنوات من العلاج المؤلم قبل أن يتمكن من العودة لمجلس الشيوخ.

كانت الأمور تسير بصورة سيئة في كانساس حيث كان "أشرار الحدود" الجنوبيون يشنون حرباً إرهابية ضد المهاجرين المقاومين للعبودية، وقد قام الرئيس فرانكلين بيرس - وهو ديمقراطي من نيو هامبشاير وصديق مقرب للكاتب ناثانييل هاوثورن - بدعم التشريع الفاسد المؤيد للعبودية وأطلق على معارضيه اسم "الخونة". وهكذا سمح فرانكلين بانطلاق غضب "أشرار الحدود" فقاموا بالاعتداء على أحد قادة التحرير حتى الموت بالفنوس والسكاكين، وأعلنت جريدة كانساس المؤيدة للعبودية أنها في مجال حربها تقول: "فلنجعل شعارنا "حرب بالسكين . . حرب بالسيف".

عندئذٍ في ٢١ مايو - قبل ضرب سممر بيوم واحد - هاجم حوالي ٧٥٠ رجلاً من أشرار الحدود المخمورين مدينة لورنس وهي منطقة قوية معادية للعبودية بصورة راسخة، فدمروا الصحف، وأحرقوا البيوت ونهبوها، وفجروا فندق فري ستات. كان الغزاة يرتدون قمصاناً حمراء وحمل بعضهم أعلاماً ورايات تعلن "سيادة الجنس الأبيض" وأن "الأباما تضحّي في سبيل كانساس".

بدأت الحرب الأهلية في الكونجرس، وفي كانساس تدعى الدعاة الراديكاليون مطالبين بالرد الفوري وقام دوجلاس بتلخيص المشاعر

السائدة وسط أعضاء الحزب معلناً أن الحرية "عليها أن تقطع دابر العبودية أو تقطع العبودية دابر الحرية". "وسط استحسان الحاضرين . تلك كانت المشاعر التي عمل وسطها جون براون تماماً لمدة أربعة أيام فور علمه بالاعتداء على سمنر والهجوم على لورنس . عشية ٢٤ مايو، قام براون ومعه سبعة رجال يشملون أربعاً من أبنائه وأحد أنسابه وآخرين بدخول منطقة سكنية لمؤيدي الرق حيث كان السكان يرغبون في إنهاء وجود دعاة التحرير، وذلك على حافة خليج بوتا وأتومي وذلك لإسكات صوت تلك الرغبة قبل أن تتحول إلى حقائق، فأيقظوا بعض السكان وسحبوا خمساً منهم تحت جناح الليل البارد واعدوا عليهم حتى الموت باستخدام السيوف عريضة النصل، مثل التي أختارها لنكون في قتاله ضد جيمس شيلدنز، وتم قطع رأس أحد الضحايا، "وقطع زور الآخر كلية ."

لم يكن دوجلاس يعلم بما فعله براون في ذلك الوقت، إذ علم فقط أن براون قد ذهب إلى كانساس ليصبح مقاتلاً فشجعه على ذلك . لكنه عندما علم - لاحقاً - بتفاصيل مذبحة بوتا وأتومي، برر ذلك السلوك أخلاقياً بقوله: "كان علاجاً مرعباً لمرض خطير" وأشبهه "بقتل قاتل" . وكما يعرف دوجلاس فالمرء يحتاج لأن يكون متوحشاً وسط بيئة متوحشة وإلا فالموت له .

أما بالنسبة لتبويضات أعمالهم الحربية، فقد استند الدعاة الراديكاليون إلى كتابات الرئيس السابق جون كوينسي آدامز بشدة إذ وصفه دوجلاس بأنه "أشهر رجل دولة أنجبته أمريكا". كان آدامز يكره العبودية، وكان من أبناء جون آدامز، كان متوافقاً بصدق مع وثيقة إعلان الاستقلال ومع الدستور. بالرجوع إلى عام ١٨٣٦، رد آدامز على المتحاربين الجنوبيين بأنه يمكن للكونجرس والرئيس بموجب نصوص سلطات الحرب في الدستور إنهاء العبودية في الولايات كلها. تمسك دوجلاس والراديكاليون بذلك التفسير المتعلق بحالة الحرب. لكن بمراجعة دقيقة للموقف، نجد أن تلك النصوص تُعرفُ العبودية بأنها حالة من حالات الحرب. هذا يعني أن الرئيس ومعه الكونجرس مضطرون لتحرير أولئك العبيد على الفور وإنهاء الحرب الأهلية التي تنشب في ولايات بها عبيد. لكن، طالما لم يتخذوا إجراء في هذا الشأن، يكون على شعب الولايات واجباً بالدرجة الأولى في الولايات الحرة أن يقوموا هم بشن تلك الحرب ضد العبودية للحفاظ على السلام وإنقاذ الاتحاد.

كانت أولى المجموعات التي تحركت بناءً على استخدام آدامز للمفهوم الدستوري بشأن سلطات الحرب هم الدعاة الراديكاليون، فحالما أطلقت القوات الكونفيدرالية نيرانها على سومتر فورت في أبريل عام ١٨٦١، أسرع تشارلز سمنر -الذي كان يرباه آدامز- إلى

البيت (بمجرد شفائه من واقعة حزنه) وأخبر لنكون أنه في ظل سلطة الحرب، يكون له الحق في تحرير العبيد .

حاول جنرالات الاتحاد جون فرمونت ودافيد هنتر وبنجامين بتلر استخدام تلك السلطة أثناء حملاتهم الحربية، بل إن الكونجرس اعتمد على نفس المصدر لتمرير قوانين المصادرة عامي ١٨٦١ و ١٨٦٢ التي منحت السلطة للجيش لمصادرة العبيد من ساداتهم "غير المخلصين للدولة"، وفي حالة تطبيق ذلك عام ١٨٦٢ كان ذلك لقمع العبيد أنفسهم. بالطبع، أصدر لنكون تصريح الانعقاد بالسلطة التي يحوزها كهائد عام للجيش والأسطول بالولايات المتحدة في زمن التمرد المسلح الموجه ضد سلطة الولايات المتحدة وحكومتها، وكوسيلة حربية مناسبة وضرورية لقمع التمرد المذكور. بذلك يكون دوجلاس ورفاقه قد سجلوا سابقة قانونية هامة.

تواصلت حرب الحرية من سيء لأسوأ، ورغم أن الحرب المكسيكية قد ضحت بشباب الشمال من أجل شراء مالكي العبيد لابتلاع المزيد من الأرض، ودفع قانون العبد الهارب بالشماليين لمطاردة واصطياد السود من أجل إمتاع أهل الجنوب وأموالهم، بل ورغم أن قانون كانساس- نبراسكا قد أدى إلى مسح الخط المقدس (٣٦.٣٠ درجة شمالاً) والذي لا يسمح للعبيد أن يتواجدوا بعده، وترك للسكان حرية اتخاذ القرار الذي يرونه بشأن الإبقاء على

العبودية أو إلغائها، إلا أن قرار المحكمة العليا في قضية دريد سكوت ضد ساندفورد عام ١٨٥٧ قد كللت حقبة جعل الجنوبيون خلالها من العبودية مؤسسة قومية، حيث تلاقت أيدي التوافقين الشماليين مع أيدي زعماء الجنوب في مؤامرة ضد الحرية "أسست لبقاء شر مستطير متمثل في ظهور عصابة [سلطة عمالة العبيد]". وفقاً لرؤية دوجلاس ولنكولن وعدد لا يحصى من الشماليين.

كان قرار قضية دريد سكوت، والذي أيده سبعة قضاة جنوبيون، يصرح بأن أية محاولة لمنع انتشار الرق هي محاولة غير دستورية. سمح القرار لملاك العبيد معلناً: "اذهبوا أينما شئتم، فكل الأرض ملككم! وسوف يقوم العلم الوطني بحمايتكم، وتقوم القوات الوطنية بإطلاق الرصاص على من يقاومكم". كذلك، أعلن القرار أنه في حال انتقال مالكي العبيد إلى ولاية حرة فإن الدستور سوف يقوم بحماية ملكيتهم كذلك. ليس هذا فقط، بل إن رئيس القضاة روجر تاووني قال إن السود "جنس متدن لدرجة عدم تأهلهم لأية حقوق يحترمها الرجل الأبيض، وأن (كل السود) يجب إخضاعهم قانوناً وعدلاً لحالة الرق." هذا ما قاله أعلى قاض "إنساني" في البلاد؛ ووفقاً لما ذكره تاووني يتعرض دوجلاس (أو أي أسود آخر) لتجريدته من أملاكه ويعاد استعباده أو قتله كالبهيمة دون خوف من قصاص.

من سخرية الأمور أن دوجلاس تأثر بتوقعاته لعواقب آثار الحكم في "قرار دريد سكوت". لماذا؟ لأنها قد تكون حركة المد الكبرى التي ستنتزع جذور العبودية وتجعل الملايين من الشماليين مؤيدين لقضية مكافحة الرق إذ يوجد - بالفعل - دعاة لتحرير العبيد أكثر من مالكي العبيد أنفسهم في الدولة. يقول دوجلاس إن قرار دريد سكوت سوف يتيح للجمهوريين أصواتاً كافية للسيطرة على الكونجرس وعلى الرئاسة وسوف يؤدي لتشدد الجمهوريين فيدركون أن العبودية كالحشائش الضارة التي ستنتشر في كل مكان إذا لم تُجث في الحال. هنا، سوف يقنعهم بتجاهل قرار المحكمة العليا طالما تجاهلت تلك المحكمة القانون الطبيعي. لم تكن آماله في نهاية سريعة للعبودية "أكثر إشراقاً منها الآن".

بعد عام من ذلك، امتدح دوجلاس خطاباً للكونغرس أشعل في نفسه آمالاً أوسع وأعم. كان للكونغرس آنذاك مع الناشئ الديمقراطي ستيفن دوجلاس على مقعد مجلس الشيوخ عن ولاية إلينوي وهو في بداية ظهوره كوجه معروف على المستوى القومي. في الواقع، كان دوجلاس قد أخطأ في تهجي اسم للكونغرس داعياً إياه "أبرام"، لكنه أحب ما كان يقوله ذلك الجمهوري القادم من

إلينيوي<sup>١١</sup> حيث أدرك لنكونلن حيثيات القرار القائم على حكم دريد سكوت مما دفع دوجلاس إلى إقتباس كامل عباراته بخطابه المسمى "البيت المنقسم" وذلك في قوله: "إن مجلساً منقسماً على ذاته لن يُكتب له البقاء، وأعتقد أن تلك الحكومة لا يمكنها تحمل كونها نصف حرة ونصف عبدة بصورة دائمة . . . ولسوف يكون عليها أن تكون شيئاً واحداً إما هذا أو ذاك: إما أن يوقف خصوم العبودية المزيد من انتشارها، وبالتالي يرسخوا الاعتقاد في أنها في سبيلها للانقراض، أو يقوم مؤيدو العبودية بدفعها قدماً حتى تصبح قانونية في كل الولايات. سجل دوجلاس ملحوظة على ذلك بقوله: "مقولة حكيمة وجيدة!"

انشغل دوجلاس بكتابة ردود فعله على قرار دريد سكوت هذا، معاوناً جون براون في إعداد خطة عسكرية بديلة لمشروع "الطريق التحتي" المسمى (الممر تحت الأرضي). تستهدف هذه الخطة إرهاب الجنوبيين بواسطة إقامة شبكة من المناضلين المسلحين في جبال أليجيني في ماري لاند وفرجينيا. كان على أولئك المسلحين

---

<sup>١١</sup> عندما قام دوجلاس بتسجيل مرات تصويت لنكونلن للإبقاء على تجارة العبيد بمقاطعة واشنطن D.C لعشر سنوات سابقة كان يسجل ألقاب المصوتين فقط وظهر اسم لنكونلن بجانب أعضاء المجلس الآخرين وبالتالي يكون من المتوقع أن ينسي دوجلاس أن لنكونلن قد قام بالتصويت لصالح تجارة العبيد من قبل.

القيام بغزو المزارع وتهريب العبيد شمالاً عبر الجبال إلى كندا. كان هدف الخطة تدمير القيمة الاقتصادية لامتلاك العبيد، حيث قال براون: "لو كان بمقدورنا دفع العبيد خارج مقاطعة ما سيكون ذلك مكسباً كبيراً، لأنه سوف يضعف النظام داخل كل ولاية... فارضين مباديء تحرير العبيد على ولايات الحدود." فوافقه دوجلاس قائلاً إنه يمكن للخطة أن تكون "فعالة جداً في تحويل عمليات امتلاك العبيد في ولاية فرجينيا وماري لاند إلى شيء لا قيمة له، مما يجعلها ملكية غير آمنة."

في فبراير ١٨٥٨، ولشهور قليلة سبقت خطاب لنكون "البيت المنقسم"، قضى براون ثلاثة أسابيع بمنزل دوجلاس في روشيستر كاتباً رداً على قاضي القضاة تاووبي وأسماء "الدستور المؤقت"، وقد صممه لحكم مجتمع المناضلين في منطقة "الممر تحت الأرضي". ربما قام دوجلاس بإعادة تحرير دستور براون لأنه أراد أن يصيغه بأسلوب أكثر بلاغة مما كان يكتبه براون، وباختصار يعكس "الدستور المؤقت" تفسير دوجلاس لدستور الولايات المتحدة، فهو يرى أن في وجود العبودية اعتبار البلاد في حالة حرب تستهدف الوفاء بتلك الحقائق الأبدية البديهية التي يفترضها إعلان الاستقلال "وتعارض بوضوح مع حكم قضية دريد سكوت، والتي تحدد المواطنة ليس



فقط في الرجال البيض وإنما كذلك في السود والنساء وكل إنسان آخر "حط من شأنه القانون الوضعي الذي وضعه آخرون".

كان براون يتحدث - بين الحين والآخر - حول تغيير خطته الخاصة "بالممر تحت الأرضي" وفجأة تسلط عليه العظمة فيخبر دوجلاس بأنه يستطيع "بقليل من الرجال المشابرين" أن يستولي على الترسانة الحربية الفيدرالية في هاربرس فيري بولاية فرجينيا وأن "يزود نفسه" بالمخزون الهائل من الأسلحة المكسدة هناك. كان دوجلاس يقول عن تلك الواقعة: "لم أعط لتلك الملاحظات أية أهمية من جانبي". استمر ذلك حتى شهر سبتمبر من عام ١٨٥٩، عندما كتب براون لدوجلاس يستدعيه للقاء عاجل في محجر قديم بالقرب من تشامبرزبرج في بنسلفانيا، وطلب منه إحضار بعض من النقود وصديق مشترك لهما اسمه تشيلدرز جرين - وهو أحد الهاربين ويعرف بلقب "الامبراطور". كان الأخير جريئاً معترفاً بكرامته ولا يتكلم كثيراً وكان براون يعرف طبيعة جرين "وما فطر عليه من قسوة"، فطلب حضوره هذا اللقاء.

وسط صخور المحجر أنصت دوجلاس وجرين لكلمات براون وسكرتيه جون كاجي - وهو صحفي متحمس تحول لمقاتل - لوصف الخطة الجديدة، وقام براون بأغلب الكلام؛ فهو ومعه عشرون رجلاً بينهم أربعة من السود يستعدون لغزو هاربرس فيري،

حيث يعرفون طبيعة الأرض جيداً. لقد عاشوا بالمنطقة منذ شهر يوليو واستأجروا منزلاً ريفياً، وكانوا يملكون بالمنطقة كفلاحين (وفي حالة براون كرجل يعمل بصيد السمك) وقد يتمكنون من السيطرة على ترسانة الأسلحة مع قدوم الليل ثم يصادرون الأسلحة، ويشنون الهجوم على ملاك العبيد بعدها، وسيكون الاستيلاء على الأسلحة "صرخة استدعاء" لحشد العبيد للانضمام إلى صفوفهم والتوحد خلفهم.

كان براون قد طلب بالفعل من عدد من السود، من بينهم السيدة هاربيت توماس - التي كان براون يدعوها جنرال توماس - ومارتن ديلايني، أن يقوموا بنشر أنباء الغزو عبر تجمعات العاملين بقطاع العنب حتى يصبح جماهير السود من العبيد والأحرار بالمنطقة مستعدين للانضمام لهم، ووفقاً لاقتراح قدمته توماس خطط براون لأن تكون الغارة يوم ٤ يوليو، لكن طرأت بعض عوامل التأخير عليها. أما الآن فقد أصبح مستعداً رغم أنه أحضر معه ألف فأس يستخدمونها كسلاح للعبيد الذين لا يعرفون كيفية تعمير بندقية. حرص براون كلاً من دوجلاس وجرين على الذهاب معه قائلاً: "تعال معي يا دوجلاس وسأدافع عنك بحياتي! أريدك معي لمهمة خاصة، إذ عندما أوجه ضربتي سوف تتراكم أسراب النحل وأنتظر معاوتك في إدخالهم الخلية." ولم يعلق.

أدرك دوجلاس ما يرمي إليه براون: تلك الكناية التي استمدها من أسطورة أيسوب التي تقول إن سرب النحل إقرب على سيده وأخذ يهاجمه. لكنه عارض براون في خطته وحاول نفيه عن تنفيذ تلك الخطة لأنها ستكون خطيرة لكل من يشترك فيها، وأخذ يشرح موقفه مفسراً أن هاربرس فيري تقع على منحدر منزلق بين الجبال وحيث أنها قريبة من واشنطن D.C. فسوف تحيط بهم القوات الفيدرالية بسرعة. علاوة على أن "مهاجمة القوات الفيدرالية ستثير كل البلد ضدنا". "كان ذلك ملائماً لبراون حيث أن "شيئاً صادمًا هو ما تحتاجه الأمة تمامًا". "قضايا يومين في جدل وتقاش إلى أن أخبر دوجلاس - أخيراً - براون أنه "مقبل على الوقوع في مصيدة محكمة وقد لا ينجو بحياته هذه المرة . وبعبارة براون الذي قارب التاسعة والخمسين من عمره وكان مستعداً للموت في سبيل قضية الحرية، فضل دوجلاس البقاء على قيد الحياة، وبينما كان يلتفت مغادراً سأل شيلدرز جرين عما سيفعله فصدته إجابة الإمبراطور: "أعتقد أنني سوف أذهب مع الشيخ". - يقصد براون. هكذا افترقا وانضم الإمبراطور للرجلين الأبيضين بينما عاد دوجلاس إلى بيته وحده.

بعد أسابيع قليلة، في ليلة الأحد ١٦ أكتوبر من عام ١٨٥٩ اقتحم براون وواحد وعشرون من رجاله هاربرس فيري واستولوا على الترسانة دون مقاومة. لكن براون تأخر فيما بعد بصورة غير

ضرورية، ربما لاضطرابه حينما لم ير أية جحافل تهول إليه مؤيدة،  
فالعبيد لم ينحازوا إلى صفه ولم يأت أحد . مجلول مساء الإثنين لجأ  
براون - محاطاً برجاله المسلحين - إلى حجرة إدارة السلاح وكان  
معه اثنان من أبنائه سوف يلقون حتفهم صرعى بجانبه لاحقاً، وفي  
صباح الثلاثاء وأمام أعين ألفين من المشاهدين حطمت كتيبة من  
قوات المارينز للولايات المتحدة بقيادة الضابط روبرت لي وجي  
ستيوارت أبواب الترسانة وأسرت سبعة أحياء ومعهم براون الذي  
أصيب إصابة شديدة أثناء الهجوم وقتل من قتل وفر من فر . بعد  
برهة قصيرة، سيصبح كل من لي وستيوارت من المتمردين والخونة  
تماماً مثل براون، لكنهما في ذلك اليوم كانا ضابطين ينفذان أوامر  
قيادتهما بإخلاص شديد .

تمت محاكمة براون والناجين السبعة معه بتهمة القتل والخيانة  
وحكم عليه بالإعدام شنقاً، وفي سجنه وخلال أيام محاكمته - بل  
في ساحة الإعدام - كان أداؤه الرائع يتحول ليجعل منه شهيداً بطلاً  
في نظر عدد لا يحصى من أهل الشمال . في الحقيقة، نجد أن أسعد  
أيام حياته كانت أثناء حبسه منتظراً الموت، إذ انتشرت أحاديث  
مقابلاته وخطابات محبسه وردوده على هيئة المحكمة عبر صفحات  
جرائد الشمال، بل وتم نشرها كأفضل البيانات مبيعاً وقتها، وقد  
تلقى ثناءً ورياءً يليق ببطل قومي من رالف والدو إمرسون المفكر

القيادي للأمة وهو ممن يعرفون دوجلاس براون، ونادراً ما يضع ثقله في القضايا الاجتماعية اليومية. لكنه عندما فعل ذلك، كانت لكلماته قوة الجبل الهادر، وفي نوفمبر عام ١٨٥٩، قبل شهر من موعد شتق براون - الذي حدث يوم ٢ ديسمبر - استعار إيمرسون كلمات أحد أصدقائه وأعلن أن براون "هو القديس الجديد الموجود بيننا في انتظار الاستشهاد . . وسوف يهب مشنقته مجدداً كما مُجد الصليب."

أدى الأثر الكبير لواقعة هاربرس فيري إلى تحول كبير في آراء الأمة، وليس من المبالغة أن نقول إن جون براون قد ساعد كثيراً في انتخاب لنكون؛ ففي مستهل الغارة حاول كل من ديمقراطيي الشمال ونظرائهم بالجنوب أن يحدوا حلقة ما تربط بين براون والحزب الجمهوري، لذا هُرع الجمهوريون لإنكار أي علاقة لهم بدعاة التحرير أو بالسود، وكان ويليام سيوارد واحداً من هؤلاء - وهو من أوائل المرشحين للرئاسة - حيث تراجع عن دعم عقيدته في وجود "قانون أعلى" وعن تأكيده وجود صراع لا يمكن كبحه بين الحرية والعبودية كما تراجع عن مطلبه بشأن إلغاء الحكم في قضية دريد سكوت عقب واقعة هاربرس فيري. وفي أخريات شهر فبراير، بعد إعداد براون بثلاثة أشهر وقبل شهرين من تحديد الجمهوريين لاجتماعهم، ألقى سيوارد خطاباً من مجلس الشيوخ قال فيه: "إن في ذلك

استسلام كبير لقوى العبيد " يصل به إلى تدمير ترشيحه للرئاسة ممثلاً عن الجمهوريين، وكان رد دوجلاس متهمًا أن "جون براون أرعب سيوارد لدرجة دفعته إلى إطلاق خطابه العظيم الأخير! ... ففي ذلك الخطاب انحنى سيوارد انحناءً أبعد كثيراً مما يطلبه المثل الشعبي "اتمسكن حتى تتمكن" .. ففسر الجائزة التي تغري المرء بالانحناء أولاً. وفي تحليل دوجلاس فإن جون براون - أو بالأحرى روحه التي ما زالت تحوم كأغنية حول الجميع - قد كلفت سيوارد التضحية بترشيحه للرئاسة.

كان ذلك مناسباً لدوجلاس لأنه كان في ذلك الوقت يعتبر لنكولن "رجلاً ذا شخصية مكتملة وأنه جمهوري ثوري" ممن يلتزمون تماماً بمبدأ الصراع الذي لا يمكن قمعُه بين الحرية والعبودية، والذي يتطلب علاجاً سريعاً وفورياً. وكان دوجلاس قد تأثر بعمق خلال مناقشات لنكولن مع النائب ستيفن دوجلاس وهو ما دعاه إلى وصف لنكولن بأنه "وصل لأعلى مرتبة في المذهب الجمهوري الحق، وهو رجل ذو إدارة وحسم ولن يتراجع عن معتقدهات."

كان دوجلاس لا يزال من دعاة التحرير الراديكاليين ورشح جيريت سميث مرشحاً رئاسياً عن الحزب مرة أخرى. كان سميث ممولاً رئيسياً لحملة الهجوم على هاربرس فيري التي قادها براون، مما زاد من قيمته لدى دوجلاس بل إن دوجلاس - في الحقيقة - أخبر

قراء جريدته أن "عشرة آلاف صوت يحوزها جريت سميث ..  
سوف تخدم قضية تحرير العبيد أكثر من تأثير مليون صوت يحوزها  
أبراهام لنكولن أو غيره من الجمهوريين." كان دوجلاس يعلم أنه  
بترشيحه لسميث يجعل من لنكولن موضعاً للاختبار، وربما قام هو  
نفسه بالتصويت - بصورة نفعية - لاحقاً لصالح لنكولن، وبعدما أمن  
لنكولن ترشيحه ممثلاً للجمهوريين، تنبأ دوجلاس - بمرح - باحتمال  
نجاحه في انتخابات الرئاسة طالما انقسم الحزب الديمقراطي إلى شيع  
شتى.

ظهر الانقسام في الحزب الديمقراطي بالتدرج كرد فعل للهجوم  
على هاربرس فيري، لأن قادة الجنوب أكدوا بعد واقعة هاربرس "أنه  
لولا وجود الحزب الديمقراطي لما حدثت غزوة هاربرس فيري  
بداية."

كان النائب جيفرسون دافيز عن المسيسيبي ينظر لجون براون  
على أنه نموذج يُقاس عليه الحزب الديمقراطي الذي "تم تنظيمه على  
أساس مبدأ شئ الحرب" على الجنوب، وطالب دافيز ومعه بعض  
الديمقراطيين بالجنوب الحكومة الفيدرالية أن تعامل مع قرار المحكمة  
بقضية "دريد سكوت" وتقوم بحماية ملاك العبيد في كل مكان،  
فرفض أعضاء الحزب الديمقراطي طالما تتناقض تلك السياسة مع  
مذهبهم في القيادة الشعبية. وهكذا انشق الحزب على نفسه، بقيام

ديمقراطيي الشمال بترشيح نائب إيلينوي ستيفن دوجلاس للرئاسة  
وقيام ديمقراطيي الجنوب بترشيح جون بريكريدج نائب كنتوكي نائباً  
للرئيس، وكما توقع دوجلاس أكد ذلك الانشقاق نجاح لنكون ١٥٤٠  
من هنا تكون مسيرة جون براون مستمرة في التقدم.

لكن إذا ما كانت روح براون قد ساهمت في انتخابات لنكون،  
إلا أنها ساعدت - كذلك - في قتله؛ فبينما كان جسد براون  
يتأرجح على مشنقه، وقف شاب أنيق يشاهد ما يحدث بعناية،  
وكان قريباً للمشهد بما يكفي ليرى الحركة الخفيفة لقبضتي يدي  
براون، وارتعاشة أطرافه والحبل يضيق بشدة على رقبته، وأزة  
عارضتي المشنقة تحت ثقل جسد براون الذي يصل إلى ١٥٠ رطلاً  
بسبب توقف حركته المفاجئ. كان هذا هو جون ويليكس بوث  
الذي تأثر بشدة مما يرى. لقد صرح بوث - فيما بعد - أنه قد ساعد  
في القبض على براون لكنه لم يكن ضمن قوات الجيش، ففي وقت  
القبض على براون، كان هو يؤدي وظيفة "ممثل احتياطي" بمسرح  
مارشال في ريتشموند بولاية فرجينيا. كان معجباً ببراون ورغم ذلك  
رغب بشدة في حضور عملية شنقه.

في يوم ٢٤ نوفمبر، وبينما يستعد قطار الميليشيا الرسمية لمغادرة  
ريتشموند متوجهاً لهاربس فيري، سأل بوث أحدهم إذا ما كان  
يستطيع الانضمام إليهم. لقد علم أن القطار مخصص لمن يرتدي زى



الميليشيا، فاشترى واحداً وصعد بينهم. في لحظة إعدام براون شحب وجهه واتبته نوبة إغماء فطلب من أحد الجنود قنينة خمر، إذ احتاج بعضاً من الخمر القوي ليتمالك نفسه. لقد رأى بوث نفسه في براون حتى لو كانا - معاً - يتعارضان في نظرتهما للمجتمع الصالح، فبراون يؤمن بالديمقراطية متعددة الأجناس، في حين يرى بوث نفسه فارساً أرستقراطياً من أهل الجنوب. كممثل مسرحي، كان بوث مشهوراً عبر البلاد وكان محبوباً خاصة من أبناء الجنوب الذين كانوا يكتبون إليه ملاحظاتهم كمعجبين ويجمعون صورته التذكارية وينتظرونه مهللين عقب أدائه المسرحي المتقن. يعتبر بوث العبودية دعامة المجتمع الفاضل ويؤمن - مثل القاضي روجر تاووني - بأن الحقوق الدستورية قاصرة على البيض فقط، لكنه رغم ذلك امتدح ثبات براون، وقدرته على تحويل الكلمات إلى أفعال وهيئته الشجاعة وطلاقة الخطابة عند هاربرس فيري، ووفقاً لما قالته أخته فقد "أقر ببطولة براون عندما رآه يموت."

بدا بوث كما لو كان يحسد براون على استشهاده، وقال في ديسمبر ١٨٦٠ إن براون قد أعدم بصورة عادلة لمحاولته فعل نفس ما يفعله لتكوين والحزب الجمهوري الآن ولكن بصورة مختلفة، وأن طريقة براون في استخدام القوة السافرة "أكثر قدسية.. من حيلة الجمهوريين الخفية." لن يمضي وقت طويل حتى يخطر بوث أخته بأن

لنكون "يسير على خطى براون، لكنه لم يعد صالحاً لمساواته بذلك  
الشيخ البطل ذي الأسمال البالية. يا الله . . إن جون براون رجل  
ملهم، إنه أعظم شخصية في هذا القرن." كانت روح براون تتقدم  
لثلم بوث أن يدين وطنه وأن يصبح - هو الآخر - شهيداً في سبيل  
قضيته فيما بعد .

عندما سمع دوجلاس بأنباء هجوم براون، كان ساعتهما يلقي  
خطاباً في صالة الجرانند ناشيونال في فيلادلفيا، وصدمة الأنباء  
"كالزئال، الذي تنقطع له أنفاس الشجعان." "ولسوف تنقطع أنفاسه  
بعد قليل لسبب آخر، إذ أكتشفت السلطات في حقيقة براون  
خطاباً من دوجلاس لبراون كان مؤرخاً بعامين قبل ذلك الحادث -  
أي عام ١٨٥٧ - لم يذكر فيه شيئاً عن هاربرس فيري، ولكنه كان  
يمثل دليلاً كافياً أمام الحاكم هنري وايز بولاية فرجينيا لاتهام  
دوجلاس "بالقتل والسرقة والتحريض على التمرد المدني بولاية  
فرجينيا." طلب وايز من الرئيس جيمس بوكمان ووزير الإدارة  
الحلية "البريد" المعاونة في القبض على دوجلاس وإرساله لمحاكمته  
وتنفيذ الحكم، واستجاباً لطلبه. فجأة أصبح دوجلاس المطلوب  
الأول جنائياً في أمريكا، ولولا وجود أصدقاء له لقبض عليه وأُخذ  
أسيراً، حيث قام عامل البرقيات بحشه على الحرب لعلمه أن  
الفيدراليين يسعون لأسره، فأخذ دوجلاس القطار التالي متوجهاً إلى

مدينة نيويورك، وقضى الليلة مع صديقة له في هوبكين بولاية  
نيوجيرسي، وأرسل برقية لعائلته يطلب من ابنه الأكبر لويس إخفاء  
أو تدمير أية مستندات تدينه مثل النسخة التي كتبها لبراون للدستور  
المؤقت وغيرها .

أوصله خط أيري للسكك الحديدية إلى روشيستر بأمان . لكنه  
علم هناك أن حاكم نيويورك قد يسلمه لفرجينيا عند استلامه أمراً  
بالقبض عليه . لذا، واصل طريقه ناشداً الأمان في كندا، مقتنياً أثر  
العديد من المطاردين الذين ساعدهم على الهروب إلى هناك . ثم  
واصل رحيله إلى إنجلترا ثم اسكتلندا لإلقاء عدة محاضرات معدة  
مسبقاً له . للمرة الثانية في حياته يهرب دوجلاس من الولايات المتحدة  
كمطارد ويعود من بريطانيا كرجل حر، فمع قدوم شهر يونيه ١٨٦٠  
أسقط وايز الاتهامات الموجهة إليه وقررت لجنة الشيوخ التي تحقق في  
واقعة هاربرس فيري إنهاء البحث عن المتورطين وإيقاف الموضوع  
تهدئة للتوتر الحزبي السائد .

لم ينتقد دوجلاس براون مطلقاً لتسببه في ورطة كاد يُقتل فيها  
لأنه - حقيقة - صرّح بحبه لبراون وكثيراً ما أطلق عليه "رجل  
القرن التاسع عشر" . لكنه استبعد نفسه - مؤكداً - عن ذلك  
الهجوم وأنكر تورطه فيه . كان تراجع هذا يعود جزئياً إلى  
اضطراره إلى ذلك وسط حكومة تفر بحكم قضية دريد سكوت

التي تشير إلى أن دوجلاس- أي العبيد وليس شخصه- ليس له تلك الحقوق التي على الإنسان الأبيض أن يحترمها "وفقاً لما ذكره الحكم." "ورغم أنه أعتبر استراتيجية براون الحربية استراتيجية مضللة، وأعلن سياسته في حرب العبيد بصورة واضحة بقوله: "إنني على استعداد للكتابة والخطابة والتنظيم، بل والتآمر ضد العبودية عندما يكون هناك أمل معقول في النجاح." كان- كما كتب من مأمنه بكندا- غاضباً من أولئك سواء في الشمال أو الجنوب الذين قالوا إن براون كان مجنوناً وقال: "هل البطولة والجنون مترادفات لغوية في قاموسنا الأمريكي؟" ذلك كان تساؤله وكانت إجابته أن أفعال براون معقولة تماماً "إذ كان يؤمن أن إعلان الاستقلال حقيقة واقعة، وأن الكتاب المقدس هو مرشد السلوك الإنساني، ومنطلقاً من هذين المصدرين، صدر نفسه في مواجهة الصفوف المتراسة للقهر الأمريكي."

عندما قال دوجلاس أن جون براون قد بدأ الحرب التي أنهت العبودية الأمريكية، وكان عليه أن يضع نفسه وقليلاً من دعاة التحرير الثوريين الآخرين ضمن أولئك الذين يدعمون أعمال براون بالصدقة والمال والكتابة، بهذا المعنى ساعد دوجلاس- كذلك- في انتخاب لنكون ثم في اغتياله. كانت لحظة تحول تاريخي؛ فحينما كان براون ورجاله يهاجمون هاربرس فيري، كان دوجلاس يلقي

خطاباً حول فضائل الرجال الذين يصنعون أنفسهم، حيث كان صديقه - لحظتها - يضحى بنفسه شهيداً ليستخلص دوجلاس دروساً من حياته الثورية المتطورة خلال اثني عشرة سنة مضت: من أُمِّيٍ يخطئ في الهجاء ومن كاتبٍ يبطئ في الكتابة حتى يصبح صحفياً ناجحاً ومثقفاً مفكراً وثورياً سياسياً معروفاً ومشهوراً. وقد حدد في خطابه معالم تنمية الشخصية. إنها الحظ والسعي، البيئة والاعتماد على النفس مضافاً إليهم الاعتماد على الله. لكن لب المشكلة في صناعة الذات هو أن تعيد تشكيل العالم حولك أيضاً. ربما يكون من المريح للمرء أن يتخيل ملكوتاً خالياً من الحروب والأخطاء والردائل. لكن الرجال الحقيقيين صانعي أنفسهم يقومون بشن حربهم ضد كل تلك الشرور "كيما تسود إرادة الله على الأرض كما هي في السماء". إن العلامة المميزة للرجال صانعي ذواتهم تراها في أناس مثل دوجلاس وبراون الذين يعرفون إرادة الله، ويعملون على هدى التضرع إليه ، وعملوا بلا كلل لتحقيق الجنة على الأرض.

عشق لنكون استعراض الأكاذيب الأمريكية؛ ففي ديسمبر عام ١٨٤٧ في خطابه الأول للكونجرس الأمريكي هاجم الرئيس الديمقراطي جيمس بولك لشنه حرباً غير دستورية على المكسيك. لقد كذب الرئيس بولك بشأن تلك "القطعة الخاصة من الأرض التي

أريقت عليها أول قطرة دم لمواطنينا" وهذا ما اتهمه به لنكون . ادعى بولك أن المكسيكيين قد غزوا الأرض الأمريكية وأطلقوا النار على قواتها فأسالوا أول قطرة دم للقوات الأمريكية ولذا أعلن الحرب على المكسيك، فكان رد لنكون أن ذلك الدليل "هو أبلغ خداع من بدايته لنهايته"، فالأرض التي سال الدم عليها كانت قطعة أرض متنازعا عليها بين نهر نيوسيز وبين ريو جراند، وكل إنسان يعلم ذلك جيدا لأن الولايات المتحدة عندما قامت بضم بعض الأراضي المكسيكية ترك الكونجرس "مسألة الحدود - بوضوح - لاتفاقات مستقبلية. حتى المكسيكيون أنفسهم أقروا بنزاع الحدود، كما أن بولك أعلن الحرب على المكسيك دون دعم من الكونجرس كما ينص الدستور. هكذا أكد لنكون "أن الرئيس وقع في الخطأ، فهو يشعر أن الدماء التي أريقت في هذه الحرب هي دماء هابيل . . متضرعا للسماء دعاءا على من قتله (يقصد بولك) ."

بعد أيام قليلة من خطابه المهكم على بولك، صوّت لنكون لصالح قرار يعلن أن الحرب كانت غير ضرورية وغير دستورية بدأها رئيس الولايات المتحدة بنفسه، وتحقق من أن القرار قد تم التصديق عليه. نبع هجوم لنكون على بولك - بقدر كبير - من جهوده التي يبذلها لتشكيك الديمقراطيين من أجل انتخاب رئيس محافظ وتوحيد حزب المحافظين وتخليصه من مشاعر مناهضة العبودية. وطالما كان حزب

المحافظين يمتلئ بمؤيدي العبودية الراسخين بالجنوب، أمل لنكون في الوصول إلى تراض معهم، وهكذا شاء ألا يقف في المواجهة كمناهض قوي للعبودية. وفي حين كان دوجلاس وبقية دعاة التحرير يدينون بولك باعتباره رئيساً يمتلك الكثير من العبيد ويسعى لاكتساب المزيد من أراض جديدة للعبيد، قام لنكون بالتشهير به كرئيس ديمقراطي يتصرف بطريقة غير دستورية، ووافق أعضاء حزب المحافظين في قولهم إن الحرب قلبت النموذج المثالي من التقدم - وذلك بتحويل أمريكا إلى قوة استعمارية - مما أشعل الانقسامات الحزبية وهدد وحدة الحزب، وردد أصواتهم التي تؤكد أن الحرب قد منحت الرئيس بولك وحزبه قوة أكثر من اللازم.

كانت معارضة الحرب عملاً مخادعاً، حيث كانت ناجحة عسكرياً. وقد أيد معظم الأمريكيين البيض حرب الرئيس بولك تلك، وفي الواقع اتفق ويليام هرندون - شريك لنكون وعضو بحزب المحافظين - مع رجال الحزب الديمقراطي على القول بأن الرئيس بولك عندما أصدر قراراً بتوجيه ضربة وقائية ضد دولة أخرى، لم ينتهك الدستور ولا السوابق القانونية. وبالتدريج سوف يصبح لنكون أعلى صوتاً في مناهضة العبودية، وسوف يتخلى عن السوابق القانونية وقرارات المحكمة العليا في معارضته لانتشار الرق. كعضو بالمحافظين، غالباً ما تعارضت مبادئه المناهضة للعبودية مع ولائه

الحزبي . لكن بعدما انحل حزب المحافظين أصبح جمهورياً وأصبحت مبادئه متسقة مع حزبه الجديد ، وبسبب طموحه السياسي ، حاول أن يكون مبدعاً بالدرجة التي كان عليها دوجلاس في قضايا الدستور . كان عليه أن يتبع الشماليين مكافحي العبودية وأن يعطي أولوية للحقوق الطبيعية قبل القانون الوضعي الذي هو من صنع الإنسان ، محولاً الدستور إلى وثيقة تعارض العبودية وتعد امتداداً لمثل ومبادئ وثيقة إعلان الاستقلال .

كان أغلب أعضاء الكونجرس يتركون عائلاتهم خلفهم ويذهبون إلى واشنطن . لكن ماري ، وقد هزها انتخاب زوجها ، أرادت أن تشاركه نجاحه بالذهاب معه ، فأحضروا ابنهما : الأكبر روبرت تود (بوب) ذا الأربعة أعوام وإدوارد (إيدي) ذا العام الواحد ، والأخير ظهرت عليه أعراض السل الرئوي ليموت بعد ثلاث سنوات لاحقة . كانت رحلة طويلة - حوالي ١٦٠٠ ميل - ومرهقة شملت عبدة وقارباً بحارياً يمر عبر عباب المسيسيبي ثم عبر نهر أوهايو عند مدينة كايرو التي تأتي بعد طريق هالك فنز ثم قارب بحاري آخر عبر نهر كينتوكي ، ومنه إلى ليكسنجتون بواسطة القطار حيث توقفوا عند منزل عائلة ماري الذي شهد طفولتها طلباً للراحة لمدة ثلاثة أسابيع قبل أن يستكملوا الرحلة لنهايتها . وقامت جماعة العبيد عند أسرة تود على راحتهم والعمل كأمهات للطفلين وغسل ملابسهم المتسخة .



في عام ١٨٤٧ كانت رحلات العبور بين أطراف الوطن غير مناسبة للعائلات التي تصطحب أطفالاً صغاراً، فركوب عربات السفر تشعر المرء بالحس داخل برميل خشبي متقلص وصاخب. أما القوارب البخارية فرغم اتساعها وفخامتها إلا أنها كانت تحمل بحارة ممن ينغمسون في الاستمتاع بمضغ التبغ، ووفقاً لما وصفه أحد المسافرين، ترى مجموعة من الشباب يتوسطون سطح الباخرة - خاصة وسط الأطلنطي أو الولايات الجنوبية - يخرجون علب التبغ خاصتهم وهم يصبقون كل التبغ عشوائياً "في زخات صفراء كالطر الغزير" مكونة "دائرة سحرية لا يجرؤ أحد من الدخلاء على الاقتراب منها". "لكن عائلة لنكون شعرت بالراحة أكثر في القطارات التي أوصلتهم إلى ليكسنجتون ثم إلى واشنطن لأنهم جلسوا بعربة السيدات التي يمنع فيها استخدام التبغ. ورغم تعرضهم لبعض المضايقات، مثل الاهتزازات المتكررة واحتكاك المعدن بالمعدن، وشرارات حمراء ملتبئة تتناثر من موقد القاطرة بوسط العربة؛ لكنهم في النهاية لم يكن عليهم تحمل مفاجآت مضغ التبغ.

عندما وصلت أسرة لنكولن إلى واشنطن في شهر ديسمبر من عام ١٨٤٧، بدت عاصمة الأمة ضخمة لكن غير مكتملة، يسكنها أربعون ألف نسمة، من بينهم ألفان من العبيد وثمانية آلاف من الأحرار. كانت أضخم مدينة رأوها في حياتهم حتى تلك اللحظة.



كان كثير من الأمريكيين يشيرون لها بأنها مدينة المساحات الشاسعة "لكن تشارلز ديكز الذي زارها قبل سنوات قليلة أطلق عليها "مدينة النوايا العظيمة." "لأنها كانت نصف مطورة إذ لم يوجد بها أعمدة إضاءة بالشوارع والطرق الخالية التي لا تؤدي إلى أي مكان، حيث تنتظر البناء على ضفافها لمنحها الحياة، وتوجد في كل مكان أبنية عامة تحتاج إلى "أناس يسكنونها كي تكتمل" كان شارع بنسلفانيا - وهو الطريق الرئيسي الذي يحوز العناية - قد تمت عملية رصفه بالأحجار الصلدة جزئياً والباقي منه كان يتحول إلى حفرة من الوحل عقب أي مطر غزير، بينما تتجول الخنازير بالشوارع، وتكاثف "أكوام القمامة والحيوانات الميتة وفضلات البشر في الأماكن القريبة"، وتنصب مياه المجاري من مبنى الكابيتول نحو فناء المول من المواسير لتصبح المنطقة مستنقعا كريه الرائحة ولا يطاق.

حتى مبنى الكابيتول الكلاسيكي الأنيق لم يكن قد اكتمل بعد، ولم تزل قبته التي تشبه خريطة لجمجمة الرأس لم يتم تنطيتها بعد بأسياخها الحديدية التي تقاطع كما لو كانت تشد الانتباه للقدرات العقلية والأخلاقية لشخصية الأمة (حيث بدت الأجزاء الأكثر ثباتاً في القبة متماثلة مع مناطق الجمجمة المسؤولة عن اكتساب المعرفة والكفاح). كان الكابيتول يواجه الشرق، لكن المدينة أخذت تتسع غرباً، فبدأ كما لو كان يدير ظهره للجماهير وللمدينة.

كما أطلق ديكنز على واشنطن اسم "المركز الرئيسي للبصاق  
المنتج برائحة التبغ" ولم يكن مبالغاً، فمضغ التبغ كان مسموحاً به في  
جميع الأماكن العامة، وكانت الأعمدة الرخامية للكابيتول  
والسجاجيد في مباني النواب ملطخة بالبصاق، وانتشرت أوعية  
البصاق - المباشق - في كل مكان لكن الناس كثيراً ما تجاهلوا  
أو أخطأوا تمييز أماكنها، فالعديد من رجال المجلسين - الشيخوخ  
والنواب - المنقخة خدودهم بسبب المضغ كانوا يقذفون البصقة  
ككرة طائرة لكنها تخطئ هدفها في الوصول للمبصقة تماماً، وقد كره  
أحد ممثلي نيويورك العمل في الكونجرس لأن الكثير من الزملاء  
"يقذفون ببصاق تبغهم فوق السجاد"، بل ويشربون الخمر أثناء  
العمل، وقام بتشبيه الكونجرس "بالحانة أو البار خاصة أثناء  
الجلسات الليلية". "لم يكن أبراهام ولا زوجته ماري ممن يمضغون التبغ  
أو يشربون الخمر (رغم أن العديد من النساء كن يفعلن). لكنهما  
أعتادا ذلك السلوك من سبرنجفيلد.

قطن لنكون بيت السيدة سبريجز الذي كان يمتلئ بالنواب  
الحفاظين ويطل على حدائق الكابيتول، وحالما وصلوا إلى واشنطن  
استأجرت ماري أحد عبيد السيدة سبريجز للعناية بالأطفال بينما  
كانت وزوجها يحضران حفلاً توديه فرقة سيرينادرز الأثيوبية وهو  
استعراض لفرقة الوجوه السوداء، حيث كانوا يطلون وجوههم باللون

الأسود ويتشبهون بالمهرج "بشفاء حمراء وأفواه ضخمة" ويغنون ويرقصون على أنغام الزنج مثل "أولد دان تاكر" و"لوس نيل" و"ريل رود أوفيرتشر". استمتع لنكون وزوجته بالعرض لدرجة أنها أعادا الكرة مرة أخرى. لكن فردريك دوجلاس كره تماماً التقليد العنصري في فرقة الوجود السوداء، فأولئك الممثلون البيض يبالفون في الرقص والغناء وتقليد الزنج، فدعا الممثلين "لتقديم الإنسان الملون كما هو دون مبالغة وليس كما يفعل فنانون الفرقة الأثيوبية كهادثهم" فلربما يفعلون ذلك لإسعاد البيض. لكن هذا الأمر يملأ السود بالقرق ويؤدي لتوسيع هوة العنصرية.

كان جوشوا جيدنجز، أحد زملاء لنكون من اليمينيين وأحد سكان منزل السيدة سبريجز أيضاً، قد أبدى امتعاضه لتردد لنكون وأسرته على استعراضات تلك الفرقة. كان جوشوا رجلاً أبيض الشعر يمثل أوهايو في الكونجرس ويشبه الواعظ. لكنه كان أحد دعاة التحرير المتحمسين، وصنع لنفسه اسماً في المجلس بسبب كلماته الصادقة ضد العبودية وصداقته وتعاونه مع جون كوينسي آدمز الذي كان بدوره عضواً بالمجلس، وبعد معركة طاحنة في مواجهة نواب الجنوب استطاعاً إيقاف تأثير قانون "قواعد الكلام" القانونية الذي أوقف الجماهير عن مناقشة قضايا العبودية طوال عقد كامل من الزمان، وكثيراً ما دخل جيدنجز في مناقشات حول الرق مع

نواب الجنوب في استراحة منزل السيدة سبريجز وأحياناً مع لنكون، وعندما تبدأ المناقشة يقوم لنكون بتغيير موضوع الكلام بإلقاء نكتة أو حكاية لتخفيف توتر الموقف. تلك كانت طريقته في التوافق مع الأوضاع عند مائدة العشاء، فاعتقد جيدنجز أن لنكون "يحمل آراء خجولة حول كيفية التعامل مع نواب الجنوب" بينما اعتقد لنكون أن معارضة جيدنجز لملاك العبيد تزيد من شرور الرق بدلاً من تخفيفها.

كما رأى لنكون أن موقف آدامز متطرف جداً في مناهضة العبودية، حيث بدا الرئيس السابق مسالماً إلى حدٍ كبير، بجسده المنحني بفعل الزمن ورأسه المبعثر بتجاعيد تقدم العمر. لكن ذلك كله لم يردع الجنوبيين عن إرسال تهديدات بقتله بين آن وآخر لمعارضته العنيفة للعبودية، فهو لم يؤكد فقط أنه "في حالة الحرب" يمكن للحكومة أن تنهي حالة الرق على الفور قانوناً، بل أضاف أن "للشعب الحق في إصلاح انتهاكات الحكومة"، حيث يمكن لهم السيطرة على الحكم كحق لهم لتوجيه عملها بما يتفق مع مبادئ وثيقة إعلان الاستقلال، ولذلك السبب تم اتهام آدامز بالخيانة وتوجيه اللوم إليه، فكان رده عليهم بالإشارة إلى تعريف الدستور للخيانة وإلى "العقول الجبابة" لرجال الجنوب الذين اتهموه زوراً. وقد

أصبح آدامز ثورياً في أخريات حياته ولمدة عشرين عاماً تقريباً بالبرلمان تحمل كثيراً من "الإهانة، والتهديدات، والبلطجة" من ملاك العبيد .

في أوائل ١٨٤٠ عندما كان في أوسط سبعيناته، صنف نفسه كواحد من دعاة تحرير العبيد، وقد نبغ تحوله من سماعه "لاعترافات جون كاهون الصريحة والصادمة" التي قالها لاكتساب تكساس إلى جانبه والعمل على استمرار العبودية، فيقول آدامز: "عندما أرى الجنوبيين يضربون بالدستور عرض الحائط من أجل تلك الأغراض التي سمعتها صراحة، لا أجد مناصاً سوى أن أكون من دعاة تحرير العبيد ... وعلى أن أواجههم (أي الجنوبيين) بكل الوسائل المتاحة لي، وعلى أن أقاتل الشيطان بنفس سلاحه." أصبح آدامز يشبه فردريك دوغلاس أكثر من لنكولن؛ فلا عجب أن يحبه أكثر.

احتفظ لنكولن بابتعاده عن آدامز ولم يحاول التعرف عليه. لكن آدامز كان قادراً على الاحتفاظ بلقبه "الشيخ المفوه" إذ رغم عمره المتقدم كان لا يزال يستطيع إلقاء خطبه البليغة. في يوم ٢١ فبراير عام ١٨٤٨، بعد بداية دورة المجلس بشهور قلائل، وقف آدامز في المجلس ليعارض قراراً بتقديم الشكر للكونجرس ولقادة حرب المكسيك لأدائهم "الرائع" وجهودهم في المكسيك، وكانت كلمته المدوية "المجلجلة" (لا!) هي آخر كلماته وآخر مواقفه ضد الرق إذ انهار جسده بعدها على مقعده ومات بعد يومين.

كان آدامز حلقة الوصل الملموسة عبر والده حتى مؤسسي الوطن، وأضحى موته علامة فاصلة على نهاية عصر مشهود، إلا أن لنكولن تظاهر بعدم وجوده لأنه لم يذكره ولم يأت على ذكر سرادقات العزاء الفخمة التي أقيمت لتكريمه. كان لنكولن أكثر احتراماً لملاك العبيد المحافظين في الجنوب، ولم يكن ذلك مثيراً للدهشة، فأكثر أصدقائه من ملاك العبيد اليمينيين (أو من أبنائهم) وكان يشعر بالارتياح وهو بينهم أكثر مما يكون بين دعاة التحرير الشماليين. لكنه بعدما سمع كلمة أليكساندر ستيفنز - وهو من النواب المحافظين عن ولاية جورجيا ويدين الحرب المكسيكية - تأثر لنكولن لدرجة أنه كتب إلى ويليام هرندون مذكرة عاجلة ليخبره أن ستيفنز "الرجل ضئيل الحجم، رقيق الوجه، قد اختتم لثوه أفضل خطاب سمعته وقد استغرق ساعة، فامتلات عيناى الذابلتان الجافتان بالدموع." ربما كان ما أثر في مشاعره هو بلاغة إيجازه وذلك ما أحبه - أيضاً - في كاهلون من "جمل قصيرة، وأسلوب مكتمل". غير أنه كان يعامل خطب جيد بنجز أو آدامز ضد العبودية - رغم طلاقها - كأنها لم تحدث. وقد فصل لنكولن نفسه عن آدامز حتى قيام الحرب الأهلية، فعندما قام بتحرير سيرته الذاتية في حملته الانتخابية للرئاسة أغنى السطر الذي يقول إنه كان "رجل آدامز الوفي" وكتب بدلاً عنها "المعارض لجاكسون بإخلاص."

كانت محاولة إبعاد نفسه المقصودة عن آدامز محاولات مضحكة، لأن كلا الرجلين سعيا لإنهاء العبودية تماما، وعارضا محاولات مذهبها إلى الأراضي الجديدة، وبالطبع سوف يتصرف لتكون - بالتدرج - على ضوء فهم آدامز لسلطات الحرب لإنهاء

الرق. لكنه ككاتب بالكونجرس ومرشح للرئاسة اعتبر آدامز حليفاً محتملاً بدلاً من كونه حليفاً مؤكداً، بسبب آرائه المتطرفة في مناهضة الرق

أراد لتكون تمييز نفسه داخل الكونجرس، ولم يشعر بالحرج أن يؤدي مهامه في ذات المجال الذي يخدم فيه المستيرون من أمثال آدامز وجيدنجز وستيفنز، ولم يتهيب الأعمدة الكورثية التي تحيط بمجلس النواب ولا كرسي رئيس المجلس المزين والمرتفع الذي يشبه منبر الواعظ، فقد انتظم في حضور كل الجلسات تقريبا ولم يعد الكلام في المجلس يخيفه كما لو كان في محكمة من محاكم إلينوي وكان واثقا من المهارات التي اكتسبها كمحام حيث عاش سنوات وسط قاعات المحاكم وتعلم كيف يميز بين الحقائق والأكاذيب فيقول: "لقد رأيت أحيانا محاميا جيدا يكافح لإنقاذ رقبة عميله في قضية ميوس منها مستخدما كل حيلته للالتفاف والتغطية والتعمية بكل ما أوتي من كلمات، فتبرز نقطة ما في القضية ما كان ليجرؤ على التصريح بها. لكنه لا يستطيع أن ينكرها أو يخفيها." في الحقيقة، كانت تمر عليه



أوقات يكون فيها هو ذلك "الحامي الجيد" الذي يستخدم كافة حيله لصالح عميله، وملاؤه الأمل أن تمكنه تلك المهارات من الصعود إلى القمة وذلك بكشف أكاذيب الرئيس بولك وحزبه الديمقراطي. لكن الكونجرس والرئيس أساساً أهملوه تماماً، وكان التوقيت جزءاً من المشكلة لأن الحرب المكسيكية كانت قد انتهت تقريباً عندما شن هجومه على بولك ولأنه كان يكرر ما قاله أعضاء حزبه طوال سنتين مضتاً، وقد مل الناس من سماع كون الحرب غير دستورية، وإذا ما كانوا مضطرين لسماع تلك المناقشات، فهم يفضلون سماعها من كوينسي آدامز أو جوشوا جيدنجز أو أليكساندر ستيفنز. فقد اعتبروا للنكون غير متسق مع نفسه في وجهة نظره تجاه مناهضة العبودية، خاصة فيما يتعلق بآدامز وجيدنجز، فهو بعكسهم لم يعارض ملاحق تكساس، التي أثارت الحرب بدايةً بسبب نزاع الحدود مع المكسيك، إذ قال: "إنني لم أهتم أبداً بمسألة تكساس. لأنني لم أتمكن من فهم كيف يمكن لذلك الملاحق أن يطلق شرور العبودية." لم يكن مهماً بأن يؤدي ذلك الملاحق إلى زيادة عدد ولايات مالكي العبيد بمقدار الربع، لأن ذلك بالنسبة للنكون كان يعني أن تكساس سوف يكون لها نفس عدد العبيد كالآخرات سواء أصبحت جمهورية مستقلة أم جزءاً من الولايات المتحدة.

لكن كانت هناك تناقضات أخرى أكثر خطورة في سجل فضاله تهدد شرعيته، فعندما نشبت الحرب عام ١٨٤٦، قام بتأييدها لاجتذاب ناخبي إيلينوي، حيث اندفع رجالها للالتحاق بالحرب وشجعهم بإلقاء خطاب حربي "ساخن وحماسي ومؤثر". ثم عندما وصل للكونجرس قال عن الحرب إنها غير دستورية واتهم بولك بالكذب، وأراد أن يعرف المكان الحقيقي الذي أريقت فيه الدماء. ثم بعد أسبوع قام بتأييد الحرب بالتصويت لصالح إمداد الجيش وتكريم قواده وأبطاله. نتيجة لذلك، اكتسب لنكولن اسم "لنكولن المخربش" الذي لا يثير فقط معنى "محامي التوافه" كما ذكر أحد الصحفيين وإنما معنى "السياسي ذي الوجهين" أيضاً في لهجة العامة.

خلال جهوده لتوحيد أعضاء حزبه الشماليين والجنوبيين معاً، هجر لنكولن - نظرياً - دعاوى مناهضة العبودية، فرض الاشتراك في مناقشة مشروع ويلموت بروفينرو الذي يمنع انتشار العبودية إلى الأراضي المكتسبة حديثاً من المكسيك رغم أنه صوّت لصالح القرار (الذي رُفض عند التصويت)، لكنه لم يرد إزعاج نواب الجنوب من المحافظين، لذا التزم الصمت أثناء المناقشات، وبالطبع فقد صوّت لصالح استرجاع تجارة العبيد في مقاطعة واشنطن مع نواب الجنوب، وكان ذلك موقفاً محرجاً لإنسان يعتبر نفسه خصماً للعبودية وكشف

دوجلاس موقفه ذلك في جريدته . وكجزءٍ من جهوده التوافقية، قدم لنكون اقتراحه الخاص بإنهاء العبودية في واشنطن، ويؤدي مشروعه إلى التعويض الكامل للسادة مقابل ما يمتلكون ويفرض فترة "تلمذة مهنية" على العبيد تؤخر حريتهم من ١٨٧٠ حتى ١٨٧٥، ويشجع تحرير العبيد كما يهاجروا إلى ليبيريا . كان المشروع يحتاج إلى إجراء اقتراع يقوم فيه المواطنون البيض بالتصويت عليه .

كان أكثر جوانب المشروع سوءاً أنه يتطلب عنفاً أكبر في عملية القبض على العبيد الهاربين الذين يغادرون المقاطعة وكانت هذه المادة خاصة مدمرة للاستقرار، إذ حدث يوم ١٧ يناير من عام ١٨٤٨، وبينما كان يقوم لنكون بتقديم نسخة من مشروع قانونه، اقتحم ثلاثة رجال مسلحين منزل السيدة سبريجز وأسروا نادلاً أسود يعمل هناك بالقوة "وفي حضور زوجته، كمموا فمه، وقيدوه بالسلاسل وتحت تهديد أسلحتهم أدخلوه أحد سجون العبيد بالمدينة"، ومنه أُرسل إلى سوق العبيد في نيو أورليانز ليُباع بأعلى سعر مدفوع . كان ذلك النادل قد عمل لدى السيدة سبريجز لعدة سنوات، وأحبه رجال الكونجرس المقيمون هناك ومن بينهم لنكون وكان هذا الرجل قد تعاقد على شراء حريته من سيده مقابل ٣٠٠ دولار منذ سنوات سابقة وقد سدد كل ما عليه سوى ٦٠ دولاراً باقية عندما اختطفه سيده فجأة من وسط عائلته وعمله ومستقبله،

وقد انزعج جوشوا جيدنجز بشدة لدرجة أنه تقدم بقرار لمجلس النواب مقترحاً عليهم إما أن يقوموا بمنع تجارة العبيد في المقاطعة أو "نقل مركز الحكومة إلى ولاية حرة أخرى". كانت مثل تلك الهبات الغاضبة من القوة بحيث لا يمكن تجاهلها. غير أن لنكون لم يذكر تلك الواقعة أبداً ولم يغير - حتى - في فقرات مشروع قانونه بشأن العبيد الهاربين.

كان مشروعه لتحرير العبيد توافقياً لدرجة أن أحداً من النواب لم يدع له، إذ كان يمثل خطة هنري كلاي - وربما بنى عليها - للقضاء على الرق في كنتوكي. وفي تماثله الشديد مع كلاي، كان لنكون يأمل في عتق العبيد دون المساس بحسابات السادة رغم أن الجنوبيين نظروا لمشروعه باعتباره "الخطوة الأولى نحو إنهاء الرق في كل البلاد" في حين وجده الشماليون مشروعاً غير مقبول. كان جيدنجز ثائراً ضد مادة "العبيد الهارب" بمشروع القانون، وبدأ النائب ويندل فيلبس - من دعاة التحرير في بوسطن - بمناذاة لنكون باسم "متعصب العبيد من إلينوي" وهو مصطلح التصق به بين بعض دعاة تحرير العبيد.

ما أثار الغضب عند جيدنجز وبقية الدعاة أن لنكون قام بدعم الجنرال زاكري تايلور مرشحاً للرئاسة. كان لنكون قد تصادق مع أليكساندر ستيفنز، الذي أصبح - مستقبلاً - نائباً كوفيدرياليا

الرئيس وتعاوننا على تنظيم "نادي ترشيح تايلور للرئاسة"؛ تلك الفكرة التي أثارت الاهتمام الوطني. كان تايلور لا يعرف شيئاً عن السياسة ولا حتى قام يوماً بالإدلاء بصوته، وكان يمتلك ١٣٠ عبداً. على تقيض هنري كلاي، لم يعتبر تايلور أن العبودية خطأ أخلاقياً. لكن لنكون وستيفنز اعتقداً أن ترشيح تايلور قد يعيد الحيوية لحزب المحافظين ويخفف كثيراً من التوتر الحزبي السائد.

إن الوعي بقضية مناهضة الرق، التي يشعر بها حزب المحافظين والتي أهملت بترشيح الجنرال تايلور وأدت إلى القصور في تكوين حزب "الأرض الحرة"، يدعو للتساؤل كيف يمكنهم أن يبقوا أعضاءً في حزب يعارض الحرب المكسيكية ثم في نفس الوقت يقوم بترشيح القائد الذي ساعد على الفوز بتلك الحرب؟! وكيف يقومون بالدعوة لترشيح رجل للرئاسة وهو يمتلك مئات من العبيد ولم يشعر للحظة أن العبودية خطيئة؟ وكيف يؤيدون مرشحاً رئاسياً لا يرى في انتشار العبودية مشكلة أخلاقية؟ في مؤتمر الحزب الذي عقده لتسمية مرشح الرئاسة في فيلادلفيا، قام كل من جوشوا جيدنجز وتشارلز سمنر وهنري ويلسون وتشارلز آدامز - ابن جون كوينسي آدامز - بقيادة عملية الخروج على الحزب لتكوين الحزب الجديد "حزب الأرض الحرة"، ولو كان كوينسي آدامز يعيش ساعتها لانضم إليهم بالتأكيد وأيد دعواهم.

دعم لنكونن ترشيح تايلور للرئاسة لأسباب فعية، وفي حين  
رغب بعض الأعضاء في ترشيح هنري كلاي، رأى لنكونن أن كلاي  
لن يتمكن من النجاح بقوله: "إن فرصتنا الوحيدة هي تايلور... وأنا  
لا أؤيده لأنني أظنه سيكون رئيساً أفضل من كلاي ولكن لأنني أعتقد  
أنه سيكون أفضل... رئيس ديمقراطي قادم." ومن الواضح أن  
لنكونن فضل الولاء للحزب على مبادئ مناهضة العبودية، وقد كره  
حزب "الأرض الحرة" الجديد برغم تركيزه على قضية مناهضة الرق  
كما احتقر حزب الحرية، وأكد - ساخراً - أن الشيء الوحيد  
الجيد الذي قدمته أحزاب مناهضة الرق هي أنها ساعدت على  
انتخاب رئيس ديمقراطي مؤيد للعبودية، فقد كلف حزب الحرية  
هنري كلاي بالترشيح للرئاسة عام ١٨٤٤، والآن قد يقوم أعضاء  
حزب "الأرض الحرة" بانتخاب المرشح الديمقراطي لويس كاس المؤيد  
للعبودية، ويؤكد أن المحافظين هم من معارضي العبودية بنفس القدر  
الذي يعارض به أعضاء حزب "الأرض الحرة" لكنهم يتجاهلون  
حقيقة أن أمثال القادة كلاي وستيفنز وتومبز وتايلور كلهم من ملاك  
العبيد الجنوبيين وبمعكسهم لا يوجد قائد واحد من حزب "الأرض  
الحرة" ممن يملكون العبيد.

كان تأييد لنكونن لتايلور يمثل حركة سياسية متمردة، وعلى أية  
حال فقد ساعد كثيراً في انتخاب ثاني (وأخر) رئيس يميني محافظ.

كان الرئيس تاييلور يميل إلى مواجهة الجنوبيين الجشعين الذين أرادوا مزيداً من الأرض لنشر العبيد فيها، وعند نهاية مدة دورته النيابية، شعر ببوارد تشرذم الأعضاء التي سيؤدي - عاجلاً - مجزبه الحبيب إلى الانقسام. ذات يوم من أيام مارس عام ١٨٤٩، كان جوشوا جيدنجز يتحدث مع أحد رفاق حزب الأرض الحرة صدفة عندما حضر إليه ريتشارد مير نائب فرجينيا، ولوح بقبضته في وجه جيدنجز قائلاً: "لعنة الله عليك . . نحن مجبرون وسنجبرك أيضاً بالقوة على أن تفعل الصواب (أي تأييد الجنوب) إذا لم نجد وسيلة أخرى."

كانت تلك التهديدات لا تمثل شيئاً لجيدنجز، لأن رجال الجنوب قد هددوه بالفعل مستخدمين الهراوات والمدى والمسدسات. لذا أطلق ضحكة أمامه وهو يقول: "إنك لن تستطيع إيذاءنا ."

استشاط مير غضباً وجذب جيدنجز من ياقته ملوحاً بقبضة يده مرة أخرى وسبه "بجملة من الشتائم"، فضحك جيدنجز من جديد وقبل أن يجد مير فرصة لضربه تدخل النائب توماس هينلي من أنديانا وأرسل مير بعيداً وهو يصيح. ما أن انتهت تلك المعركة حتى قام روبرت جونسون وهو ديمقراطي مخمور من أركانساس بمهاجمة أورلاندو فيكلين من إيلينوي وهو زميل لنكولن فجأة، وتحولت مواجهتهما بسرعة إلى ملاكمة تدور على أرضية مجلس النواب. هنا

تدخل صامويل إنج من الألباما وسط المعمة وأخذ يضرب فيكلين على رأسه بعصاه "وتسبب في تدفق الدم أنهاراً" ثم توقفت المعركة وحملوا فيكلين إلى الخارج "ووجهه يسيل دماً". شاهد لنكونن الأزمة دون أن يبادر إلى التدخل ربما لأنه أراد

تجاهل حقيقة قيام حرب أهلية مصغرة داخل أورقة المجلس .  
افتقدت ماري تود- التي أحبت الجلوس وسط الردهة والاستماع للمناقشات - حياة المتعة، وقد ملت حياة العيش في نزل السيدة سبريجز وغياب زوجها لساعات طويلة، فأخذت طفليها إلى العائلة في ليكسنجتون حيث قام العبيد برعايتهما وعند نهاية دورة لنكونن قابلته وهو عائد إلى سبرنجليفد . كانت دورة لنكونن في الكونجرس فاشلة، وهو لم يتقدم لانتخابات جديدة بسبب اتفاق مسبق بأن يخلي مقعده لمرشح يميني آخر بالإضافة إلى أنه ما كان ليتم ترشيحه بسبب فقدته لدعم الكثير من مؤيديه، وفي الواقع خسر بديله الانتخابات، وأخذ زملاؤه يلومونه على التخلي عن "مقعد" مضمون لليمينين دون فائدة .

بدا غير مستعد لتسليط الأضواء عليه على المستوى الوطني وبدأ خصومه يلتفتون لأسلوبه في الكلام وطريقة أدائه . لذا، كتب أحد الصحفيين من الديمقراطيين: "وترى إيماءاته الخرقاء، وتنويعه المضحك لصوته والتعبيرات الكوميديّة للملامحه، كل ذلك يتحالف معاً



لدفع المستمعين إلى الضحك المجرد توقع النكتة قبل ظهورها. " غادر لنكون ذو الأربعين عاماً واشنطن وآماله في الصعود الوطني السياسي قد تحطمت، ولو مات في العالم التالي لهذه الوقائع ما كان له أن يصنع التاريخ.

عندما عاد إلى سبرنجفيلد في ربيع عام ١٨٤٩ كان مذهولاً، وخفت ماري من آلام إحبائه بإغراقه في سيل من المديح والتنبؤ بمستقبل عظيم ينتظره، وكتبت مجموعة من الخطابات تطلب له وظيفة "من خلال المعارف" نظير دعمه للرئيس تايلور. منحه الحزب وظيفة حاكم منطقة أوريغون مقابل ٣٠٠٠ دولار في العام، وهو راتب محترم، فقبل الإغراء لكن ماري رفضت لذا ردّ العرض دون إجابة بالقبول.

اعتزل لنكون السياسة بشكل عملي ولم يحتل موقعاً رسمياً من أواسط عام ١٨٤٩ حتى معظم عام ١٨٥٤. خلال تلك الأعوام الستة مارس لنكون "أعمال الحماسة باجتهاد ومثابرة أكثر من ذي قبل" كما قال. وبينما كان عمله القانوني مع ويليام هيرندون ينمو، أصبح محامي القضايا المحلية وترك الارتحال إلا بقدر دائرة محاكم إيلينوي محل عمله، وقبل جميع أنواع قضايا العملاء، فدافع عن بعض شركات السكك الحديدية في بعض الحالات وهاجمهم في حالات أخرى، وقبل توكيلاً عن فتاة سوداء سعت للحصول على حريتها

يوماً ما، ودافع عن أحد ملاك العبيد الذي طالب باستعادة ما يملك في قضية أخرى. كما لاحظ هرندون، فقد "كان محامياً للقضايا القانونية بصورة مجردة." لكنه كسب أموالاً وفيرة خلال تلك السنوات، ومع عام ١٨٤٥ انتهى لتكون للطبقة العليا في سبرنجفيلد. رغم حالة الأمن المالي الجديدة التي كان يعيشها لتكون، فقد صادف زواجه هزات اجتماعية كادت تؤدي به للانحيار، إذ كان منزلها بيتاً ذا طابق واحد يوناني الطراز يقع على ناصيتي الشارع الثامن وشارع جاكسون، وسط مدينة سبرنجفيلد، ويخفى داخله ثروة فائقة حيث كانت انفعالات ماري صعبة الضبط وكان من الممكن أن تتحول إلى حالة عنف بسرعة، وقد كرهت "أصدقاء زوجها المخلصين" ونكاته المنزلية و"مظهره وسلوكه غير الملائم"، فبالنسبة للمرأة لا تزال ترى نفسها أرسقراطية من الجنوب، كان سلوك زوجها يعد مجلبة للخجل والإحراج. كان ما يشعل غضبها أكثر أن يهملها لتكون ويهمل أطفالها، ففي يوم أحد كان زوجها عائداً مع ابنه في إحدى العربات واستغرق في أفكاره لدرجة أنه لم يلاحظ متى تعثر ابنه واقعاً خارجها، وكان يستمر في طريقه للمنزل غير متبته لما حدث لولا أن ماري كانت تقف على الطريق وشاهدت الحادثة، وملاها الغضب حتى أنها وبجته على مشهد من الناس.

في واقعة أخرى، كان أبراهام جالساً في حجرة الجلوس يقرأ، وسواء لم يسمع أو أنه تجاهل صوت ماري يطلب منه - تكرر - وضع المزيد من الأخشاب في المدفأة، ووسط هياجها حملت جذعاً خشبياً وهي تحاطبه بشكل رسمي كهادتها "أيها السيد لنكون، لقد أخبرتك ثلاث مرات أن تغذي النار، وتظاهرت بأنك لم تسمعي! سوف أجعلك تسمعي هذه المرة." فواصل القراءة وهي تقترب منه رافعة قطعة الخشب ثم شعر بأن أنفه ينفجر إذ ضربته علي أنفه بشدة أسالت الدم منه لعدة أيام، وذهب إلى عمله يضع رباطاً طبياً على وجهه.

من مصادر التوتر بينهما كذلك اختلاف وجهات نظرهما بشأن التعاون المنزلي والأسري، ولكونها نشأت وسط بيئة بها عبيد، اعتبرت أن ليس عليها دفع أجور للفتيات الخادومات. لذا، كانت شديدة البخل عليهن، ولم تعد تلقي الإهانة من "الفتيات الأيرلنديات المتوحشات" اللاتي لم يأبهن بالرد عليها أو محادثتها كمادة الإماء. حيث كان عبيد أسرتهما يرتدون قناع الطاعة خوفاً من الجلد، وربما فكرت هي أن "إيقاف السوط يفسد العبد"، فبعد أن اختلفت مع إحدى تلك الفتيات أخبرته إحدى صديقاتها برأيها فكتبت: "لو أن السيد لنكون مات، فلن تجدني روحه - أبداً - خارج حدود ولايات العبيد."

على أية حال، تعاطف لنكون مع خادمت ماري، لأنه نشأ  
كفتى أبيض فقير كان عليه أن يدفع كل ما يكسبه لوالده، ويمكنه أن  
يشعر بما يشعر به من يعمل لصالح أحد الطغاة. بالتالي، عرض على  
الخادمت أن يزيد أجورهن حتى يجعل من عملهن أمراً محتملاً.  
كانت إحدى الفتيات تتقاضى دولاراً وربع أسبوعياً - وهو ما يعادل  
٥٠٠٠ دولار سنوياً بعملة هذه الأيام - فهددتهن بأنها ستغادرهم ما  
لم تتقاضى ٢٥ سنتاً زيادة في الأسبوع، فرأت ماري أنها وقحة  
وجادتها. لكن أبراهام جذبها بعيداً وقال لها بهدوء: "لا ترحلي!  
أخبري السيدة ماري أنك توافقين على البقاء مقابل دولار وربع  
وسوف أدفع لك الخمسة وعشرين سنتاً بيدك." لكن ماري سمعت  
الحادثة واثارت ثائرتها، فأمرت الفتاة بالرحيل على الفور وتحولت  
لزوجها قائلة: "وبالنسبة لك يا سيد لنكون، فأنا أشعر بالعار من  
أجلك!" استأجر لنكون فتاة بديلة ووعدها أن يعطيها ٧٥ سنتاً  
أسبوعياً كمكافأة فوق ما تدفعه السيدة ماري مهما كان، وحذرها  
من أن "تثرثر مع السيدة لنكون في ذلك الشأن."

هكذا تعلم لنكون كيف يستخدم الحيلة للحفاظ على السلام في  
بيته. وعندما طلب منه صبي من جيرانه أن يتبرع ببعض المال  
لصندوق الإطفاء بالحلي، أجابه: "سوف أذهب للمنزل لتناول  
العشاء ثم اسأل السيدة لنكون ما ستقوله في ذلك. بعد العشاء،

سيكون مزاجها راثقاً وسأسألها إذا ما كان في استطاعتنا أن ندفع خمسين دولاراً. هنا سوف تجيبني: 'بابا متى ستتعلم حسن التقدير؟ يكفيهم عشرون دولاراً. فتعال لي غداً وخذ النقود.' بذلك، حصل الصبي على التبرع. أما بالنسبة لماري، فهو يعرف كيف يفاوضها ويحصل على ما يريد.

رغم تلك العشرات الاجتماعية، إلا أن الحب المتبادل بينهما للسياسة أبقى علاقتهما متراضية بصورة نسبية كزوجين، وقد عكست ثوراتها الفجائية رغبتها الدفينة في أن يُسمع صوتها في مجتمع يُخرس صوت المرأة ويعاملها أفضل من الخدم قليلاً، ونظراً لطموحها من أجل زوجها، فقد أصرت على مشاركته عالمه الواسع، وعندما كان يتجاهلها أو يترفق بها أو حتى يرفض معاملتها كباتني الرجال، كان بإمكانها أن توقفه عند حده. ثم كان للقدر أيضاً دوره في تخفيف حدة التوتر بينهما إذ عندما مات ابنهما إيدي ذو الأربعة أعوام سنة ١٨٥٠، كادت الواقعة تدمر حياتهما معاً وأغرقا في حزن عميق إلى أن حملت ماري بويليام بعد أسابيع قليلة من موت إيدي. كما وقعا في حالة حزن أخرى في شهر يونيه عام ١٨٥٢ لموت بطلهما المشترك هنري كلاي، وقال عنه لنكولن أن كلاي "كان الرجل الذي قاتلت من أجله طوال حياتي المتواضعة... لأنه كان يؤمن... بعق البعيد إلى أقصى مدى" وقام بإجراء عدة توافقات لكنه لم يفقد

الهدف أبداً. كانت ماري- بدورها- تعتبر كلاي "النموذج الأمثل" لرجل الدولة رغم توقعها أن زوجها سيفوقه براعة، وسيصل إلى البيت الأبيض.

في السادس من يوليو عام ١٨٥٢، وهو اليوم التالي لإلقاء دوغلاس خطابه عن "الرابع من يوليو" في روشيستر، قام لنكونل برثاء كلاي في الكابيتول في سبرنجليفد. وقتها كان دوغلاس يقدم وصفاً لبلد آخذ في الانحدار، ولنكونل ينشر تسبيحة إلهام لرجل ولأمة آخذين في الصعود، وربط مولد كلاي بمولد الأمة "فالوطن الطفل والصبي الطفل بدأ سباق الحياة معا . . والآن تنعي الأمة الرجل . . " أطلق على كلاي أعظم عصامي أنجبته الأمة، وسلط الضوء على عبقرية كمصلح بقوله: "لم يوجد شخص مثله في حذره لتجنب الانقسامات"، ففي مفاوضات اتفاق المصالحة عام ١٨٥٠ قام كلاي "بطرده الشيطان الذي سكن جسد الهيئة السياسية، وأعاد السلام لأرض ممزقة." وبينما كان الشيطان بالنسبة لدوغلاس هو الرق والعنصرية، كان بالنسبة لنكونل هو الشقاق السياسي، فحياة كلاي تمثل له قوة الأمة وتقدمها. لكنه خلال سنوات قليلة لاحقة سيتبع دوغلاس ويركن إلى رثاء الأمة.

في الحقيقة، نجد أن ما لم يدركه لنكونل أن موت كلاي شكل علامة على نهاية عصر الحلول الوسط. في الوقت الذي ألقى فيه

دوجلاس ولنكونل خطابيهما، وكان قانون "العبد الهارب" وقصة هاربيت بيتشرستو "كوخ العم توم" وغيرها تحرك الشمال للثورة ضد العبودية وإلى تقسيم الوطن؛ كان الحزب الحجب للنكونل "حزب اليمين المحافظ" الذي تمكن من توحيد مؤيدي العبودية ومناهضيها بمهارة من قبل في طريقه للتشرذم والتفكك إذ ثار غضب أعضاء الحزب الجنوبيين بسبب رفض الحزب ترشيح ميلارد فيلمور عن الحزب. كان كثير من الأعضاء - ومن بينهم لنكونل - يعتبرون فيلمور "دمية بيد قوى العبيد"، وقاموا بترشيح بطل الحرب وينفلد سكوت كمرشح اليمينيين للرئاسة عام ١٨٢٢.

في نفس اللحظة التي كان لنكونل يلقي فيها خطاب رثائه لمؤسس وزعيم الحزب، كان الحزب يتداعى، وكانت انتخابات نوفمبر - بعد أربعة أشهر من الخطاب - هي آخر انتخابات يظهر فيها مرشح يميني محافظ على قائمة الرئاسة. بعد موت حزب اليمين المحافظ، اتبع لنكونل تقاليده وأعرافه في التوافق مع قوى العبيد، وحتى بعدما أصبح جمهورياً، كان يشير إلى نفسه "كعضو يميني محافظ قديم".

بعكس زملائه من مناهضي العبودية، لم يحاول لنكونل أبداً اختبار مدى صلاحية قانون العبد الهارب الصادر عام ١٨٥٠ لا على المستوى السياسي ولا على المستوى الدستوري، فهو امتياز ضروري للجنوب بقدر اعتقاد نواب الجنوب أنه إنهاء للعبودية في

مقاطعة واشنطن، وهو امتياز للشمالين، الذين كرهوا رؤية مزايدات بيع العبيد وهم في طريقهم إلى أعمالهم، واعتقد لتكوين أن الدستور يطالب بوضع "قانون فعال للعبيد الهاربين". فعرض على الجنوبيين أن يمنحهم أي تشريع يُصلح أوضاع العبيد الهاربين طالما كان الأحرار السود لا يتعرضون لخطر الاستبعاد أكثر من تعرض البيض الأبرياء لخطر الموت، بل إنه أكد أن قانون العبد الهارب بالنسبة للسود يماثل القوانين الجنائية بالنسبة للبيض، متجاهلاً حقيقة أن الهارب الأسير محروم من الحقوق الدستورية في محاكمة طبيعية وفقاً لإجراءات ذلك القانون.

استمر لتكوين في طريق التسوية مع مبادئ تأسيس الأمة، فعندما نادى بالمبدأ العام للمساواة، تخلى عنه كحل عملي لمشكلة الرق حيث اعترف بقوله عام ١٨٥٤: "لو تجمعت لدي كل سلطات الأرض، ما كنت لأعرف أبداً ما عليّ فعله في مسألة العبودية.."، وأضاف: "إن حافزي الأول يدفعني لتحرير كل العبيد وإرسالهم إلى ليبريا... إلى أرض وطنهم." لكن ذلك كان بلا جدوى، لأنه عارض - كذلك - عملية تحرير السود ومنحهم "المساواة السياسية والاجتماعية مثلاً". "لماذا؟" إن مشاعري الخاصة لن تسمح بذلك، ولو فعلت أنا، لرأينا جميعاً أن العدد الأكبر من الناس البيض لن يفعلوا. ربما تكون مثل تلك المشاعر غير عادلة. لكن ذلك الشعور



الجماعي - سليماً كان أم فاسداً - لا يمكن تجاهله بشكل آمن .  
لذا، لا يمكننا أن نجعل منهم (أي السود) أنداداً متساوين . " عند  
اعتبارات معينة، بقي لتكون يمينياً محافظاً لباقي أيام حياته، لكن  
انهيار حزبه حرره من دوافع الوسطية التصالحية لصالح الحزب  
ببساطة . أدى ذلك إلى تحوله لسياسي لامع مبدؤه الرئيس مثل  
دوجلاس (القانون الطبيعي لحرية العالم) .

استطاع لتكون إعادة صنع نفسه عندما بدأ يرى في ستيفن  
دوجلاس (وهو غير فردريك دوجلاس) خصمه وعدوه الرئيسي،  
وهو النائب الديمقراطي الممثل لإيلينوي وواضع قانون كانساس -  
نبراسكا لعام ١٨٥٤، وهو الذي استثار لتكون "كما لو كان ميتاً من  
قبل . " كان ستيفن هذا أصغر منه بأربع سنوات، وكان أشهر رجل  
في إيلينوي بين أكثر السياسيين نجاحاً في الوطن . ولد في براندون  
التابعة لفيرمونت، وتلقى حصيلة جيدة من التعلم، وتعلم اللاتينية  
واليونانية رغم أن والده الطبيب مات وهو طفل . درس ستيفن  
القانون لستة أشهر قبل أن ينتقل لولاية إيلينوي في سن العشرين،  
حيث كان الانضمام لنقابة المحامين أقل صعوبة من مثيله في شرق  
البلاد . عند بلوغه السابعة والعشرين من عمره أصبح أصغر قاضٍ  
بالحكمة العليا بالولاية ثم عُرف فيما بعد باسم القاضي  
دوجلاس . كان عمره ثلاثين عاماً عندما تم انتخابه بمجلس النواب،

وأربعة وثلاثين عاماً عندما انتقل لمجلس الشيوخ. مع بوادر خمسينيات القرن التاسع عشر (١٨٥٠)، أصبح واحداً من قادة مجلس الشيوخ، وعندما كان الناس يناقشون أسماء رؤساء الأمة كان اسمه عادة ضمن أسماء القمة.

بكافة الاعتبارات، كان س. دوجلاس خصماً للنكولن. كان أقصر من لنكولن طولاً (فطوله خمسة أقدام وأربع بوصات أي أقصر منه بقدم كاملة) وكان يسير متبخرّاً بعكس خطوات لنكولن الطويلة المتقافزة، وله مزاج متمر، وهيئته القتالية تماشى مع صوته الجمهوري (حتى إن بعضهم يراه زئيراً) مما أدى بأصدقائه لتسميته "العلاق الصغير". وبينما كان يعيش لنكولن متقشفاً وممتنعاً عن الخمر والتبغ، تجدد دوجلاس يحياً في بذخ؛ كان يحب الخمر الغالية والسيجار الفخم، وكان يشرب كثيراً ويحب أن يبدو في ضيعة حقيقية حوله. كانت أساليب نقاشهما مختلفة مثل أشكالهم وشخصياتهم، حيث كان يبدو لنكولن معقداً أو جامداً ويعتمد على الكلمات المنتقاة بعناية ليتخذها سلاحاً، في حين يتصرف س. دوجلاس كمقاتل مراوغ في شجار بإحدى الحانات غالباً ما يصدر كل جسده في المعركة. لذا، كتب أحد الصحفيين: "إنه يمتلك مهارات قتالية تنزع للانتصار." وأحياناً ما كان يبدو خارجاً عن السيطرة، ففي وسط إحدى جلسات الكونغرس وهو يتحدث - وكان مجهداً

من كثرة العمل - اقتلع ربطة عنقه، وفك أزرار الصديري "وأصبح منظره كملاك نصف عار... " كما ذكر جون آدمز وهو خائف، وأكمل : "كان وجهه هادراً وملاحه متشنجة وقذف بنفسه إلى حالة من الاهتياج ؛ ولو كان جسده من مواد قابلة للاشتعال، لاحترق من فوره .

إن حكم قضية دريد سكوت يحمي ملكية سادة العبيد حتى لو انتقلوا لولايات حرة، وكانت هناك "قضية مماثلة" تأخذ طريقها ببطء عبر المحاكم . فالقضية المعروفة باسم ليمون ضد الشعب شملت سيداً من فرجينيا هو جوناثان ليمون، كان قد جلب ثمانية من العبيد إلى مدينة نيويورك - وهي ميناء رئيسي - لشحنهم إلى تكساس . لكن السلطات أطلقت سراحهم حيث أن قانون الولاية يمنع السادة من جلب عبيدهم إليها ، فعارض ليمون القرار على أساس انه كان في مرحلة عبور بالولاية فقط وعلى هذه الولاية احترام ملكيات فيرجينيا . وقد توقعت صحيفة "النيويورك تريبيون" أنه بمجرد أن يكسب ملاك العبيد حق العبور "فسوف نرى الناس يشترون العبيد من أجل سوق نيويورك وعندئذ لن توقف أية قوة قانونية ذلك . " كما حذر القاضي صامويل فوت - وهو قاض بمحكمة نيويورك العليا من أن قضية ليمون لو وصلت للمحكمة العليا المركزية، سوف تكون تلك نهاية أي أرض حرة في الشمال . وقال

الحامي جورج تملتون سترونج إن "أي قرار ستصدره المحكمة العليا المركزية سوف يسمح لكل جنوبي أن يجلب عبيده إلى نيويورك وماساتشوستس ويحتفظ بهم هناك."

كان أولئك السياسيون من المهتمين بالشأن القومي ويتمتعون بقول لمآحة وليسوا مجرد متآمرين نظريين، ولو نظرت قضية ليمون أمام المحكمة العليا المركزية، لكان من المحتمل تقنين أوضاع العبودية في كل ولاية. لكن نشوب الحرب الأهلية أوقف ذلك كله.

بفضل خطابه المسمى "بيت منقسم"، صعد لنكولن منصة العمل السياسي والوطني. كان عمره تسعاً وأربعين سنة، أي ضعف عمر فردريك دوجلاس عندما دخل دائرة الضوء في العمل السياسي والوطني، وقد أصدر لنكولن الآن تصريحاً رسمياً بالتحدي داعياً دوجلاس كي يجوب الولاية مخاطباً نفس الجماهير ليلمس رأيهم وكان ذلك تقريباً - "الأسلوب الغربي المعتاد لعمل الحملات السياسية"، وقد اعترض س. دوجلاس لأن لنكولن يفتقر إلى المكانة الاجتماعية، وقالت صحيفة "شيكاغو تريبيون" إنه لو تراجع عن المناظرة سيُعد جباناً، فاستشاط غضباً، وأدرك أنه سيكسب كثيراً من مناظرتة لنكولن، وبالتالي تكون عملية إعادة انتخابه مضمونة تماماً، وملاؤه الأمل أن يستفيد من الحملة بإعادة توحيد حزبه؛ في حين رأي الديمقراطيون من أهل الجنوب أنه رقيق جداً في تعامله مع

معارضى العبودية أكثر من اللازم، كما أن مؤيديه من الشمال قد انكمشوا لأن الناكبين هناك اعتبروه مخلباً لأهل الجنوب .

بهزيمة لنكونلن فى منافسة جدالية، يمكنه أن يجذب كلا الجانبين، مما يضيف لمكاته ويعيد إحياء شهرته المعروفة . لذا، قالت إحدى صحف إيلينوى: "إن معركة الاتحاد سيخوضها الطرفان فى إيلينوى." وقد اتفقا بالفعل على خوض سبع مناظرات من أغسطس إلى أكتوبر ١٨٥٨، يستغرق كل واحد منهما حوالي ثلاث ساعات، ويتبادلان موقع من سيبدأ افتتاح كل جولة، وقد أخبر دوجلاس أحد أصدقائه قائلاً: "لسوف أذهب مالاً جعبي للقائه... فهو أقوى رجل فى حزبه."

قبل أسبوع من بداية المناظرات، تحدى س. دوجلاس لنكونلن لملاقاته فى قتال بقبضات اليد . ذلك لأنه اشتعل غضباً عندما اتهمه لنكونلن بالتآمر مع "سلطة عمالة العبيد" واستغلها لنكونلن فى إثارة ضحك المستمعين بقوله: "لقد ذكر شيئاً ما عن القتال بالمالكة كما لو كان يشير إلى مواجهة قتالية أشبه بإجراءات حربية ظاناً أنها ستثبت من هو صاحب عضلات الأكثر." لم يكن ذلك ليجدي فى حسم خلافهما حول قضية الرق، فخلف نكاته تقبّع خطورة قائلة، حيث ظل لنكونلن معتقداً أن مشكلة العبودية يمكن حلها سلماً رغم كل الشواهد التى تثبت العكس .



كانت المناظرات دراسة في المتناقضات، وقد سافر س. دوجلاس في قطار خاص وفي عربة خاصة مكدسة بعلب السيجار وزجاجات الخمر؛ وبدأ في أبهة الرئيس بذلته الزرقاء الجديدة وأزرارها الفضية والقميص القطني المكوي جيداً، وقد اصطحبته زوجته الجميلة الشابة آديل كوتس، التي كانت تصل لنصف عمره، خاصة وأن الرجال أطلقوا عليها "أجمل امرأة" تقع عليها العين. بينما سافر لنكولن بالقطار العادي وكان عليه أن يعرف بعضاً من اهتمامات وطبائع جماهيره. كان يرتدي ملابسه "اليومية العادية" وهي معطف من الفرو الأسود بأكمام قصيرة جداً، وبنطال أسود أبرز عقبيه وقدميه الضخمتين. كما أن ماري "زوجه" لم تحصل على لقب "الأنيقة"، بل إنها مكثت بالبيت بناءً على أوامر لنكولن لأنه لم يظن أن مظهرها الأرستقراطي يناسب منصبه المتواضع.

ظهر التناقض أكثر وضوحاً عندما بدأ الحديث. تشابهت منصة المناظرة مع حلبة الملاكمة، حيث كانت منصة مرتفعة محاطة بلفائف القماش، وأعلام ترفرف على جنباتها؛ وبدلاً من وضع الكراسي في الأركان، تم رصها متجاورة بينها منضدة صغيرة، واندفع س. دوجلاس منطلقاً من مقعده كما لو كان مشوقاً لتسجيل نقطة في مرمى الخصم. كان مشاكساً وجريئاً تملأه الثقة وبدأ غوغائياً في بعض الأحيان، "وتدافع صوته في نباح رتيب وحشي"، لكنه لم

يفلح. أما صوت لنكون فقد كان له تردد هائل، لكنه بدا حاداً ووصل إلى مدى طبقة الصوت الأعلى عندما يجتد، ولم يدر ما يفعله بشأن يديه، فمرة يضمهما معاً وهو يتكلم "أولاً أمامه ثم من خلفه" ومرات أخرى يومئ بهما، لكنهما كاتتا تتحركان بشكل غير ملائم كما لو كانت مفاصلهما جامدة، وأحياناً ما كان يلفظ مقطعاً صوتياً مع ثني ركبتيه كالمهرج، واعتمد على الإحساس العام بدلاً من اعتماده على الأسلوب اللغوي وعلى الروح الشعرية بدلاً من القتالية، وكان دائماً متمالكا لنفسه.

اجتذبت معظم المناظرات جماهير ضخمة، منها عشرة آلاف في أوتاوا، وخمسة عشر ألفاً في فري بورت وحوالي سبعة آلاف في تشارلستون، وكان هناك عشرون ألفاً في جولزبرج وإثنا عشر ألفاً في كوينسي. في فري بورت كانت الجماهير متزاحمة لدرجة أن المسؤولين اضطروا لاستخدام خطة اقتحام لشق طريقهم نحو المنصة. كما قدمت شركات السكك الحديدية رحلات قصيرة بقطاراتها المزودة بالأعلام واللافتات، بل وسافر الناس بالقوارب البخارية وعربات الركوب أيضاً، وبعضهم اصطحب أسرته بالكامل. كانت الأسرة تعتبر حضور أي مناظرة بمثابة إجازة صيفية أو استراحة قصيرة مع نهاية موسم الحصاد قبل العودة لزراعة قمح الشتاء، وقد جمعت تلك المناظرات بين جاذبية جلسات المحاكم وبين إثارة حفلات موسيقى



الروك؛ ولا عجب عندئذ أن تصل معدلات التصويت إلى ثمانين بالمائة  
إذا كان الناس شغوفين بالسياسة وبالخطب العامة، وكلاهما جاء في  
مشهد واحد .

كانت الحملة- بالنسبة لمن تابعوا لنكولن وس. دوجلاس- مجرد  
أداء لأدوارهما، لأن قضاياهما لم تتغير كثيراً. طعن لنكولن بشدة في  
عقيدة دوجلاس عن السيادة الشعبية مؤكداً أنها سبب الانحدار  
الوطني وأنها جزء من المؤامرة الكبرى لنشر الرق. أما س.  
دوجلاس، فقد أسمى لنكولن "المرتد" الذي رفض قرارات المحكمة  
العليا وأحد دعاة التحرير الذين سيدمرون الاتحاد. وفي صلب  
الموضوع، يمكن تلخيص الاختلافات في أن القاضي دوجلاس يُعلي  
من شأن حقوق الأغلبية (الرجال البيض) بما فيها حق رجل واحد  
في استعباد آخرين، بينما يدافع لنكولن عن (حق الأقلية) دون إخلال  
بالتراتب الطبقي القائم لأن رفع شأن المقيهورين- بالنسبة له- يرفع من  
شأن الأغلبية، وهذان هما وجهتا النظر المختلفتان في الخبرة  
الأمريكية للطبقة البيضاء .

طوال المناظرات كان القاضي دوجلاس يسخر من لنكولن  
باعتباره صديق وحليف لفردريك دوجلاس وكان لنكولن يستحق  
نوطاً من فردريك دوجلاس لمذهبه في تحرير العبيد، واستغل مدح  
دوجلاس له بشأن خطابه "البيت المنقسم" حيث كان لنكولن



"التجسيد الكامل" لمباييء دوجلاس. وقد تناولت صحف الديمقراطيين مسألة دعم دوجلاس للنكون، ودعاه فيها أحد المحررين "حليف لنكون" - ذلك الزنجي الذي خرج من أجله الرئيس. "ولعدة مرات، أنكر لنكون أية علاقة له بالمساواة العرقية والزواج المختلط، واستنكر فكرة مساواة السود بالبيض، وقدم اقتباساً من الكتاب المقدس لتوضيح وجهة نظره، لأن المسيح علم الحشود أمامه أن يكونوا كاملين رغم علمه أن كل البشر خطائين؛ وبالمثل فإن المبدأ القائل "إن كل البشر خُلقوا متساوين" كان مثلاً كي يكبح الإنسان من أجله ولا يمكن تحقيقه، فصرح قائلاً: "لو لم تتمكن من منح كل مخلوق حريته، فدعنا لا نفعل شيئاً يفرض العبودية على أي مخلوق آخر!"

خسر لنكون الانتخابات. لكن تلك المناظرات أسست شهرته الوطنية، وفي عام ١٨٥٩ بدأ قليل من مؤيديه يقترحون عليه الترشح للمستوى الأعلى. في أواسط هذا العام، أخبر أصدقائه: "أنا لا أعتقد أنني أصلح للرئاسة." كان قد قال مثل ذلك منذ ثلاثين عاماً مضت حول احتمالات نجاحه كمحام، لكنه كان - الآن - على حق بشأن عدم صلاحيته بالمقارنة بأي رئيس آخر إذ كان غير مستعد كليةً من حيث عدم حصوله على أي تعليم رسمي - نظرياً - ولكونه لم يقض سوى دورة واحدة غير ناجحة في الكونجرس وخسر

انتخابات مجلس الشيوخ مرتين، وليس له أصدقاء في شرق البلاد، وكل حلفائه كانوا جميعاً بالغرب؛ في حين كان المرشحون الجمهوريين مثل سالمون تشيز من أوهايو وويليام سيوارد من نيويورك من عمالقة السياسة مقارنة به، وكانت معهم قوة داعمة مؤيدة من الشمال. لكن، بعد غارة جون براون في هاربرس فيري، بدا كل من سيوارد وتشيز فجأة كالسبع المستهلكة، لأنهما حازا شهرتهما كراديكاليين متطرفين بالفعل، وظلا لسنوات يقاومان تفعيل قانون العبد الهارب بشدة وصرحا بأنه غير دستوري. لكنهما الآن في حالة اشتباه بالارتباط بالخيانة والقتل، وقد أطلق الديمقراطيون والجنوبيون على براون اسم "مخلب سيوارد" وأجبروا سيوارد على سحب أطروحته "العليا" في القانون مثيرين الشكوك حول طبيعة شخصيته. كما أن تشيز كان يعرف براون ودعم توجهه الحربي، وكان قد منح براون خمسة وعشرين دولاراً عام ١٨٥٦ وأوصاه بأن تكون لصالح "الثقة والاعتبار لكل من يرغب في رؤية كنساس ولاية حرة". في العام التالي طلب براون من تشيز تقوداً "من أجل العمل السري دون توجيه أسئلة" وأصبحت تلك التفاصيل صفحة أولى بعد غارة براون، وهدد الجمهوريون المتحفظون "بإغلاق الحزب".

فجأة أصبح لنتكون أكثر جاذبية للناخبين بالشمال لأنه كان أكثر تحفظاً من سيوارد وتشيز، واستخدم هجوم براون فرصة لإثبات

صحة عقيدته في القانون والنظام، وأن الطريق للتعبير عن "آرائنا بشأن العبودية ... سيكون عبر صندوق الاقتراع- الطريقة السلمية التي يقرها الدستور." ذلك ما قاله لجماهير كانساس في الأول من ديسمبر عام ١٨٥٩. بعد يومين، حذر جماهير الجنوب من انتهاك القانون بقوله: "إن الشيخ جون براون قد تم إعدامه بتهمة التآمر ضد الدولة ولا نستطيع الاعتراض حتى لو كان يتفق معنا في القول بأن الرق خطيئة، ولو أننا انتخبنا رئيساً بشكل دستوري، وقسم أنتم- لهذا السبب- بتدمير وحدة البلاد، سيكون واجبنا أن نعاملكم بالطريقة نفسها التي عمل بها جون براون."

فإعدام براون يشير إلى طريقة الاستجابة الصحيحة للخيانة. بعد شهور قليلة- أي في فبراير ١٨٦٠- أصبح لتكوين كثير التنبؤ ووصف آثار غارة براون، ففي أثناء خطابه بمدينة نيويورك قام بتشبيه براون، بالعديد من المتطرفين عبر التاريخ الذين حاولوا اغتيال زعماء أمتهم باسم ما هو أفضل، مضيفاً: "حين يرتكن الإنسان المتحمس إلى اضطهاد الحكم للناس حتى يتخيل أن السماء أوكلته لتحريرهم، يُقدم على المغامرة التي تنتهي بمصير قد لا يقل عن إعدامه"، وتم نشر الخطاب وتوزيعه على نطاق كبير، ومن اللطيف أن تخيل جون ويلكس بوث، الذي كان يؤدي نفس الدور في ريتشموند، يقرأ ذلك الخطاب ثم يقذفه بعيداً في اشمزازوقرف.



كانت نبوءة لنكونن جزءاً من خطاب هام ألقاه في نقابة صنّاع  
البراميل بمانهاتن، وكانت تلك رحلته الأولى إلى الشمال الشرقي.  
حضر لقاءه بعض من أهم الشخصيات المؤثرة في الحزب الجمهوري،  
ومعهم المحررون الصحفيون هوراس جريللي وهنري رايموند وويليام  
كولن برايان ونوح بروكس. كان لنكونن يرتدي بذلة جديدة سوداء  
لهذه المناسبة مفصلة جيداً عليه كلفتها ١٠٠ دولار. قبل إلقاء  
الخطاب، مر على استوديو ماثيو برادي، أكبر مصوري الأمة، وجلس  
أمامه ليلقط له صورة أظهرته كالرئيس واقفاً أمام أحد الأعمدة  
وبيده كتاب، وينظر فيما وراء الكاميرا نظرة تأملية. كان ذلك  
"البورتريه" هدية جميلة لنادي "اليقظة الشاملة" وهو نادٍ لشباب  
الجمهوريين سُمي بهذا الاسم لتوخيهم الحذر في مواجهة "سلطة عمالة  
العبيد"، وكان رمز "نادي اليقظة الشاملة" عيناً واحدة واسعة،  
تشبه عين لنكونن مكبرة في صورة برادي.

كان خطابه ذلك رئاسياً، ويمكن قراءته كما لو كان موجزاً قانونياً  
جيداً ضد قرار دريد سكوت، وقد استهان بججج القاضي  
دوجلاس وقاضي القضاة تاووني الذي ادعى أن واضعي أسس  
الدستور قد أقرروا نشر العبودية للأراضي الجديدة، قال ذلك لاجئاً  
لمحكمة الرأي العام، وقدم لهم دليلاً يؤكد أن واحداً وعشرين صوتاً  
من تسعة وثلاثين (وهي أغلبية واضحة) قد صوتت لصالح إقصاء

العبودية من البلاد، ولم يقل أحد منهم أن ذلك الفعل غير دستوري، بل إن القاضي دوجلاس وزمرته حولوا الدستور إلى وثيقة تبث الرعب في قلوب واضعيه. أنهى لتكون خطابه راجياً الجمهوريين أن يتماسكوا ويثبتوا في تسامح كريم مع الجنوبيين مثل الأب مع ابنه الضال، فقد أعاد الجنوبيون تهديدهم بالانفصال ما لم يحصلوا على ما يريدون، بالإضافة إلى أن ذلك الانشقاق سيكون خطأ الشمال، وقال: "اهدأوا، فعندما يصوب قاطع طريق مسدداً إلى رأسي ويزجر عبر أسنانه: (قف وأعطني ما معك وإلا قتلتك!)، ولم تعطه والتفت لقتله، عندئذ ستكون قاتلاً... دعونا نمتلئ إيماناً بأن الحق يصنع الحق!" كان يأمل من موجزه هذا أن يهديء من تهوهمهم، ونجح ذلك الخطاب نجاحاً مدوياً فتطايرت المناديل والقبعات في الهواء وتواصل التصفيق لعشر دقائق، وانفعل نوح بروكس محرر جريدة "النيويورك تريبيون" لدرجة أنه أسمى لتكون "أعظم رجل منذ ظهور القديس بولس" وقال - وهو خريج مدرسة هارفارد للقانون: "لقد كان أفضل خطاب سمعته في حياتي". كما قال أحد المراسلين وهو يبدو متأثراً كذلك: "لم يقم رجل بإحداث مثل ذلك التأثير على جماهير نيويورك في أول لقاء له بهم من قبل." من هنا بيعت صور برادي ونسخ من الخطاب مع ملاحظات إيضاحية عليه بالآلاف،

وفيما بعد قال لنكولن: "إن برادي "المصوّر" وثقابة صنّاع البراميل جعلاً مني رئيساً".

بعد شهور ثلاثة، صاغ شعاراً وسّع من مدى انتشاره أكثر، ففي بداية مايو عُقد اجتماع تحديد الترشيح لممثلي الولاية بمدينة ديكاتور، وقد اجتمعت الوفود في حشود كثيفة في فناء مزرعة مسقوف بالقماش. شعر مدير حملة الولاية ريتشارد أو جليسي أن لنكولن بحاجة إلى شعار مميز، فوجده بعد التشاور مع ابن عم لنكولن - جون هانكس الذي ساعده في بناء السور لبيته بعدما انتقل إلى إيلينوي منذ ثلاثين عاماً خلت. في اليوم الأول للمؤتمر، سار هانكس وأو جليسي عبر الممشى في الفناء وهما يحملان عارضتين من ذلك السور مزينتين بالشرائط وتتدلى بينهما لافتة مكتوب عليها: أبراهاام لنكولن

مرشح عارضات السكك الحديدية

للمرئاسة لعام ١٨٦٠

(هاتان عارضتان من خطوط السكك الحديدية التي وصل عددها إلى ٣٠٠٠ عارضة صُنعت عام ١٨٣٠ بيد توماس هانكس وأبراهاام لنكولن، وكان والده أول الرواد في ماكون كاوتى.)

انفجرت الجماهير وهي تصفق يحنون، قاذفين بكل شيء إلى الهواء في ثورة أطاحت بقماش السقف من أعمدته، حيث وصفها



أحد الملاحظين بقوله: "لقد طار السقف - حرفياً - من المبنى حماساً." تم استدعاء لتكوين للحضور إلى المقدمة وأقر بأنه "فعلاً" كان ينشر عوارض السكك الحديدية، ويزرع قطعة أرض صغيرة" على نهر سانجامون بالقرب من ديكا تور ولم يكن يعلم إذا ما كانت تلك العوارض الخشبية هي عوارض أم لا، لكنه صنع العديد منها وأفضل منذ ذلك الحين.

بتلك الكنية - "نجار العوارض الخشبية" - نافس كليات شعبية مثل "أولد هيكوري" للرئيس جاكسون و"تيب كانو" للرئيس هاريسون وسط الميول الشعبية. كان ذلك ما حدد صورة لتكوين الجماهيرية، ومعها صعوده من مقلب قمامة البيض الفقراء إلى مرشح للرئاسة، واعتناقه لمبادئ العمل الحر الذي يدعو كل إنسان "لتحسين أحواله" وفقاً لقوله. كان يمثل الصورة المكتملة - كذلك - لمكافحة عدو يعتمد على قوة عمل العبيد من أجل بقاءه.

أخذ شعور الشماليين بخطورة تنظيم "سلطة عمالة العبيد" يزداد بين كل الطبقات. كانت السلع في طريقها لهبوط أسعارها، لكن سوق العبيد كانت تزدهر إذ تضاعفت أسعار العبيد في أقل من عقد واحد بينما بقيت أسعار قطع الأرض أو فدادين الأراضي الحرة أو بضائع وول ستريت كما هي أو انخفضت مما حدا بالشماليين إلى إلقاء اللوم على نظام العبودية لهذه الظروف السيئة. ازداد

الطلب على شراء العبيد حتى إن العديد من رجال الشمال بمن فيهم صديق لنكونلن القديم أليكساندر ستيفن سعوا لإعادة سوق التجارة مع أفريقيا التي تم حظرها عام ١٨٠٨، فقام ملاك العبيد على الشاطئ الشرقي لماري لاند بتقديم تشريع لاستبعاد أو نفي كل السود الأحرار من الولاية.

أراد العديد من أهل الجنوب إلحاق كوبا كولاية للعبيد، وكان بعضهم أكثر جشعا قطع حتى في كل أمريكا الوسطى، وتحت قيادة النائب جيفرسون دافيز، كان مجلس الشيوخ بصدد إصدار تشريع يمنع الكونجرس من إقصاء العبودية عن أية ولاية، لأن المزارع الكبير جورج فيتزوف أراد نشر "منافع" الرق إلى الشماليين البيض، وفقاً لما قاله. ومع بدايات واقعة هاربس فيري، جلب معظم أعضاء الكونجرس الجنوبيين أسلحة مخفاة معهم أثناء العمل، وهي عادة ما كانت مسدساً أو سكيناً فقط "تستخدم عندما تخرج حليبات المنافسة عن السيطرة." وبدأت صورة نجار الخشب الصبور والجاد والحاسم- رغم أبوته مع اتساع أفقه- الصورة المناسبة أمام الشعب لاختياره رئيساً حتى للجنوب الشارد.

في ١٨ مايو، يوم اختيار الجمهوريين لمرشحهم للرئاسة، استيقظ لنكونلن مبكراً وسار على قدميه مسافة قصيرة ليصل لمكتبه القانوني (المبعثر)، وكان المؤتمر ينعقد في شيكاغو في فناء ضخم. لكن



التقاليد كانت تمنع المرشحين من الحضور وكان عليهم البقاء بالبيت، فبقى عصبياً لدرجة منعه من مواصلة العمل. لذا، توجه إلى مكتب جريدة "إيلينوي ستيت"، المشهورة بأخبار الشائعات، وهناك كان بعض الأصدقاء يلعبون لعبة من العاب كرة اليد في فناء خال بجوار الجريدة فلعب معهم، وعندما بدأ التصويت ذهب إلى مكتب البرق والتلغراف. في أول اقتراع حصل على ١٢٠ صوتاً وجاء في المرتبة الثانية بعد سيوارد، وفي الاقتراع الثاني تضاعفت أصواته - تقريباً - وفي الثالث تجاوز صوتاً وهي الأصوات المطلوبة كأغلبية، وبدأ الناس يهتفون، وصافح القليل منهم ثم استدار عائداً للبيت قائلاً: "أيها السادة، هناك امرأة صغيرة بالمنزل يحتمل أن تكون أكثر اهتماماً بذلك الخبر؛ أكثر - حتى - مني."

في اليوم التالي انخرط هو وماري في نقاش حول الخمر، فماري تصر على تقديمها للزوار لأن عدم تقديمها يعد "قلة ذوق" بينما تجاهل لنكون مطالبها محتتماً جداله قائلاً: "لأنها حافظت على المنزل ستة عشر عاماً ولم تمسك بيدها "كأساً من الخمر" أبداً ليشربه أصدقائي، كان حكمي ألا أغير عاداتي بسبب مركزي الجديد بهذا الخصوص." على أية حال، انتضح أن ذلك الجدل لم يكن ضرورياً لأن منزلها كان صغيراً لدرجة أنه لم يسع كل زوارهما. لذا هيئاً مكتباً لذلك الغرض في مبنى الكابيتول.



كتب إليه صديقه القديم جوشوا سبيد ليهنته، كان قد مر على فراقهما سنوات طوال بسبب انتقال سبيد إلى كينتوكي، وبسبب كراهيته للحزب الجمهوري وكذلك حقيقة أن ماري لم تحبه قط. في الواقع، حدثت أشياء بدت معها أنها كانت مهددة لاستقرار الأسرة بسبب وجوده أحياناً. من هنا نادراً ما كان لنكون وسبيد يرى كل منهما الآخر، وقليلًا ما كانا يتراسلان. كما شكلت له ملاحظة سبيد لمسة ذكرى بأن الصداقة والحب يمكنهما التسامي على الاختلافات السياسية حيث كتب له: "اسمح لصديق مخلص، ورغم كونك- كما تعرف- خصماً سياسياً، أن يهتك ويحب أن يتم انتخابك، وأظن أن لديك فرصة عادلة لذلك، ويملؤني الارتياح أنك ستقود الحكومة وتصنع شهرة خالدة لنفسك."

شعر أغلب الجنوبيين بالامبالاة. لكنه لو كان عقد حملته في ولايات القطن، لربما اعتقلوه أو حاكموه محكمة رمزية. وقد ألحقت صحف الجنوب لهذا ولأكثر منه إذ نشروا شائعات تدعى أن زميله من الانتخابات هانيبال هاملين من "مين" هو خلاسي مهجن بسبب سمرة بشرته، وأقسموا على الانفصال إذا ما تم انتخابه. انزعج لنكون من تلك التهديدات، إلا أنه كان- حقيقة- يتوقع الفوز في الانتخابات لأنه كان سباقاً يمر بأربعة اتجاهات فمع اختيار ديمقراطي الجنوب لجون بريكريدج وديمقراطي الشمال للقاضي دوجلاس،

واختيار حزب الاتحاد الدستوري لجون بيل من تينيسي الذي كان قوياً في ولايات الحدود . لذا، كتب لنكولن إلى هاملين يقول: "تبدو آفاق نجاح الحزب الجمهوري الآن متأرجحة جداً على المدى الذي أراه."

يوم الانتخاب ذهب إلى مكتبه في مجلس الولاية لمتابعة المستجديات، وفي الصباح ثرثر قليلاً مع "ثلاثة أو أربعة أصدقاء بهدوء وود كما لو كان في نزهة،" وفقاً لما قاله أحد المتابعين. وبدأ بعض المؤيدين أنه كان أكثر اهتماماً بالانتخابات المحلية عن انتخابات الرئاسة. لكن لتخفيف حدة قلقه كان يسأل عن بعض زملاء المحاماة داخل المقاطعة، وقد تبعه عدد كبير من الجمهور إلى قاعة المحكمة للإدلاء بأصواتهم، وهم يحبونه بحماس وتبعوه كذلك حتى مجلس الولاية عندما بدأت أخبار التصويت تصل، وكان قد نقل مكتبه إلى الحجرة التشريعية بالمجلس التي عمل بها طوال عشرين عاماً ماضية، وبعد دقائق قليلة من منتصف الليل وصلت برقية تفيد أن النصر كان أكيداً. هنا، رنت أجراس الكنائس وهرع الناس إلى الشوارع وهم يغنون "أيها الأب الشيخ! أيها الأب الشيخ!" وقد صرح لنكولن بأنه كان سعيداً جداً، وبعدما طوي البرقية أسرع إلى منزله صائحاً وهو يقترب: "ماري... ماري... لقد تم انتخابنا."

صرح أحد أعضاء الحرب الجمهوري بإيلينوي واصفاً الموقف بأن نتائج الانتخابات تكشف المدى الذي وصلت اليه حياتنا في هذه الأوقات الثورية. لقد فاز لنكون بكل أصوات الولايات الحرة عدا واحدة هي "نيوجيرسي"، لكنه حصل على أقل من أربعين بالمائة من التصويت العام وحوالي ٥٠٠٠.٠٠٠ صوت زائدة عن أصوات القاضي دوغلاس- ولو كان للسود وللنساء حق التصويت لفاز لنكون في التصويت العام- بينما لم يتلق "حتى صوتاً واحداً" في عشر ولايات في الجنوب.

كان ملاك العبيد يتحكمون في السياسة الوطنية لأكثر من جيلين كاملين، والآن انتهى طريق الفوز، وذهب "سحر القوة التي لا تقهر" وسيصبح لنكون أول رئيس مناهض للرق منذ جون كوينسي آدمز، فالثورة الكبرى قد هبت، وكتب تشارلز ابن جون آدمز في يومياته عندما علم بانتصار لنكون: "لقد خلعت البلاد هذه المرة وللأبد سيطرة ملاك العبيد عن عنقها." وباقتباس كلمات فردريك دوغلاس: "إن البركان الخامد قد بدأ ثورته."

كانت قصة إيسوب مرشداً لاغنى عنه في مثل تلك الأوقات، لأنه وقد تم بيعه كعبد- وذلك في التراث اليوناني- باعتباره أسير حرب، يفهم طبيعة كل من العبودية والحرب، ويدرك نفسية المجتمع العبودي؛ وتكشف أساطيره مجتمعاً يمتلئ بالحق والوحشية، حكامه من



الطفلة، والعيش فيه يعتمد على المكر والاعتماد على النفس، وتعكس قصصه حول الحيوانات عالماً ينحدر فيه البشر إلى مستوى الوحوش، ويسود فيه قانون الغاب وسيلة للحياة، ولا عجب إذن أن يهوى قراءته لنكولن ودوجلاس وعدد لا يحصى من الأمريكيين. قرأ دوجلاس ولنكولن أساطير إيسوب وهما صغيرين واحتفظا بكثير منها في الذاكرة، وفي أعوام الثورة بدءاً من عام ١٨٥٠ خاصة. ساعدهم إيسوب في ابتداع بعض المعالم المركزية للمجتمع الأمريكي، فكلاهما استمد من أسطورة الأسد والثيران فكرة ما، حيث يقوم الأسد بإحداث الشقاق بين الثيران بواسطة الخداع ليسهل عليه أن يأكلهم واحداً واحداً، ويتراءى المبدأ الأخلاقي هنا واضحاً: "مملكة منقسمة على نفسها لا يمكن لها البقاء". كما اقتبس دوجلاس من أسطورة أخرى ليصف الديمقراطيين وكذلك بعض الجمهوريين كذئاب في ثياب الحملان، وربما كانت أفضل قصصه هي قصة النحل الذي يطرد سيده.

باستخدام مقتبسات من إيسوب، جذب كلاهما الانتباه إلى كونهما من العصاميين الذين صنعوا أنفسهم بأنفسهم، وحيث أن خرافات إيسوب هي قصص للأطفال أصلاً، فالإقتباس منها يتشابه مع قيام رجل الدولة - الآن - بالإشارة إلى مرحلة قصص الأرنب "باجزاني"، وبالتالي تفترض أن قائلها تعلم تعليماً سيئاً أو لم يحصل

عليه مطلقاً. لكي تقلت من هذا عليك أن تكون خطيباً ماهراً ومفوهاً. وقد استخدم كل منهما أساطير إيسوب كصوص ساخرة مع سنوات الخمسينيات.

في القرن التاسع عشر هجر دوجلاس استخدام تلك الأساليب الرائعة الساخرة تقريباً، التي كانت تستدر انفجارات من الضحك، لأنه شعر أنها لم تعد ملائمة لموضوعاته فقال: "من أصعب الأمور التي كان على تعلمها أن أتوقف عن سرد تلك القصص الكثيرة المضحكة. لقد كنت أستطيع أن اجعل جماهيري تنفجر ضحكاً، وهم أحبوا ذلك... لكنني اقتنعت أن الخطر يحوطني بأن أتحوّل إلى مهرج، ويجب أن أحترس من ذلك." الآن، كان يقوم بكتابة خطبه ويقدم نفسه على أنه مثقف ومفكر، دون أثر واضح للكتلة العامة السابقة، وما زال بإمكان اقتباس من إيسوب أو فقرة من الكتاب المقدس إثارة الضحك، وبدلاً من تقليد أحد ملاك العبيد ذهب للسخرية من "سلطة عمالة العبيد".

أما لنكونين فعالياً ما كان يحتفظ بقصصه، الساخرة والكوميديّة سواء من إيسوب أو من إبداع خياله لإلقائها أمام الجمهور صغيرة العدد. كان خطاب "البيت المنقسم" الذي ألقاه يسخر من القاضي ستيفن دوجلاس وفرانكلين بيرس وروجر تاووني وجيمس بوكانان الذي صاغ إطار عصبة "سلطة عمالة العبيد"، وظلت افتتاحية

الخطاب الشهيرة "بيت منقسم على ذاته لا يمكنه البقاء أبداً..."  
تدين في وجودها لقصص إيسوب ولإنجيل مرقس

(إصحاح ٣: آية ٢٥). لكن هذه السطور المتوحدة المعنى لم يكن مقصوداً منها استثارة الضحك ولا حتى مجرد الابتسام. كانت قصصه لأصدقائه ومؤيديه تتمزج بشكل وإيقاع مزاجه الانفعالي. كما لم يفقد لنكون لهجته أبداً، ففي عام ١٨٦٢ سجل المحامي جورج تمبلتون سترونج من نيويورك صوت لنكون وهو يتحدث بلهجه العامية في يومياته بعد مقابلة أجراها معه، وكان لنكون يستجيب لضغوط دعاة التحرير الذين دعوا إلى تشريع يعق العبيد، فأجاب لنكون: "كويس. دا يفكرني بجماعة من الأشخاص التابعين للكنيسة الميثودية، ومساقرين في إيلينوي لما كنت صغيراً هناك، وكان لازم يعبروا قناة، كان الأمر سيء، قبيح في عبوره وانت تعلم، لأن المياه كانت عالية، وقعدوا يتناقشوا ويدرسوا أزايا هايعدوا، وتكلموا عن الموضوع ده حوالي ساعتين. واحد منهم فكر إنهم يعبروا بطريقة معينة لما يوصلوا، وواحد ثاني فكر بطريقة ثانية، وبدأوا يتشاجروا حوالي الموضوع لحد ما اتدخل أخ كبير السن وقال، هو قال، "أخواتي، الكلام ده هنا بدون فائدة، فأنا عمري ما هاعبر نهر... إلّا لما أوصل عنده." كان سترونج يحترم لنكون كثيراً وأسماء "البربري، والسيشي، والمتوحش، وغريب الأطوار أو الغوريلا،

فيما ينحصر مظهره الخارجي، لكنه أكثر إحساساً واستقامة بل هو غريب في أماته، وتكامله الواضح وبساطة أهدافه كلها سوف تعوض عن أخطائه اللغوية وأكثر. تمثل تلك القصة يسوب في كلماته المتناقضة وأفعاله، وفي "أنه خضع للاختبار." "كان أسلوب لنكون الشعبي جزءاً مما استثار معزة دوجلاس عنده عندما تقابلا، وقد اعتاد ذلك النوع من قواعد اللغة ومزاح المرح، ويوحى صوت لنكون - خاصة عند سرد إحدى قصصه - له بأن مع كل تلك الاختلافات بينهم إلا أن خلفيتهم الثقافية بها الكثير من العوامل المشتركة.



obeikandi.com



## الفصل الرابع مقاتلٌ من دعاة التحرير ورئيسٌ للحرب

"في يوم الكفارة...  
سوف تعبون- لجميع الاتجاهات-  
بوق الهتاف في كل أنحاء أرضكم."  
(سفر اللاويون: إصحاح ٢٥: آية ٩)

في أواخر مارس من عام ١٨٦١، ومع انفصال سبع ولايات في أقصى الجنوب واحتفال المتآمرين بولايات الكونفيدرالية الجديدة لأمريكا بجفلات فخمة، وخمور سيئة، وطلقات انتصار يصوبونها نحو السماء؛ فقد فردريك دوجلاس الأمل في أن تنفي الأمة بمتطلبات مبادئها الجيدة في النهاية أبداً. ١٠ أخذ دوجلاس يخطط لرحلة إلى جمهورية السود في هايتي، وفقاً لما قاله لقراء جريدته، وعينه ترنو للهجرة إليها وتشجيع الأمريكيين السود على ذلك أيضاً، وسوف يغادر ميناء نيوهافن بولاية كونيتيكت يوم ٢٥ أبريل ويصل ميناء بورت أو برنس وهي عاصمة هايتي يوم ١ مايو، ولو أوفت هايتي بآماله بأن تكون هي العاصمة الجديدة "كمدينة تقبع على قمة التل" ولو عكست على صفحاتها "أضواء الوعد العظيم" ولو كانت حكومتها "حرة مستقلة" في فعلها وقولها، عندئذٍ سينقل إلى هناك ويدعوها بكل فخر "موطنه". ٢٠

على الأقل سيزور المكان الذي شهد أضخم وأنجح تمرد للعبيد في العالم، حيث انتقض نصف مليون عبد عام ١٧٩١ ضد سادتهم وقتلوا جيش نابليون، وفي عام ١٨٠٤ أعلنوا قيام جمهوريتهم حرة من العبودية للأبد. على الأقل - أيضاً - سيصبح جمال هايتي الإداري فترة راحة محببة من رياح روشيستر المؤلمة. ٣٠ واستراح لفكرة السفر،



وشعر كما لو كان حِمْلُ الأمة كلها قد انزاح عن كاهله، لأنه ظل عشرين عاماً يخطب ويكتب المقالات مقاتلاً العبودية والعنصرية بكل ما أوتي من قوة، وقام بتشجيع السود للاقتداء به والنهوض والعمل المستمر، وقدم نفسه للعالم كرمز للأمل وأسوة يقتدي بها. الآن، بدت كل جهوده فجأة بلا جدوى، فأعلن بقلب حزين: "إن العبودية قد مست عقل الحكومة، وضاعت الفضيلة من بين أيديها تماماً." ٤ وإن أصدقاء الحرية قد فقدوا وسائل الدفاع عن أنفسهم "وإن التاريخ يبين أن الشمال لم يكن أبداً قادراً على الصعود في مواجهة سلطة وأهداف الجنوب." ٥ إن الجنوب مالك العبيد يمثل الشيطان بعينه، وثرواته شديدة الإغراء، وتهديداته مخيفة ومرعبة، وفوقه مفسدة كبرى، والشيطان قد هزم الخير، وأن الله يلهم دوجلاس كي يغادر تلك الأرض ليبدأ من جديد.

كان هذا تحولاً مذهلاً إذ ظل دوجلاس - لسنوات طوال - يسخر من ملاك العبيد لأنهم يحولون أرض الشمال إلى حقول صيد من أجل متعة الجنوب، بل إنه أصبح أكثر آملاً عندما فتحوا أراضي الشمال أمام العبيد، وانتعش رجاءه بعدما أنهت المحكمة العليا الشعبية للأمة مسألة قدسية الدستور، وكان قد أنهى سيرته الذاتية الثانية أيضاً التي نشرت في أعقاب صدور قانون كانساس - نبراسكا بعهد يوثق عقيدته بقوله: "قديم كالتلال الراسخة، وثابت كعرش

الله. ذلكم هو إيماني الروحي بأن قضية مناهضة العبودية سوف  
تنصر

كان ذلك الكتاب من بين أفضل الكتب مبيعاً وأكثر شهرة من  
كتابه الأول الذي صدر عام ١٨٤٥، وكان نجاحه- كما افترض هو-  
علامة ليس فقط على ارتفاع منزلته المتواصلة، واستمرار الاهتمام  
الشعبي بقدرته على إعادة بناء نفسه، وإنما هو علامة أيضاً على  
تصاعد عدم تسامح الأمة تجاه العبودية. وبينما كان الآلاف من  
رفاقه السود يهجرون شواطئ أمريكا بحثاً عن أوطان أفضل، كان  
هو يقاوم ذلك الدافع. في الواقع، لقد تلقى منذ شهر مضى فقط  
رسالة من أحد المشتركين بالجريدة يسأله إذا ما كان خطر له يوماً أن  
يهاجر إلى هايتي، فكانت إجابته حاسمة: "لا، أنا لا أفكر في الهجرة  
إلى هايتي في ظل أية ظروف قائمة أو محتملة أبداً. ٧" فما الذي أدى  
به لتغيير رأيه؟ وما الذي أغراه ليهجر إيمانه بأمريكا فجأة؟ الإجابة  
هي ذلك الرئيس الجديد أبراهام لنكولن.

لم يشعر دوغلاس بإحباط شديد كالذي شعر به عندما قرأ  
خطاب لنكولن الافتتاحي، حيث بث شكواه حول الخطاب بقوله:  
"إنه أفضل قليلاً من أسوأ مخاوفنا، فبدلاً من إلقاء اللوم على الجنوب  
بجسم، قام لنكولن بالتودد إليهم. ٨" وأقسم أن يُبقى على قانون العبد  
الهارب، وأن يقيم اتفاقات العبيد، وألا يتدخل أبداً في شؤون

العبودية بولايات العبيد، ولنكون هنا يؤكد لملك العبيد أنه "مطارد  
ماهر للعبيد ككلب صيد . ٩"

ويبقى الخطاب الافتتاحي من سيء لأسوأ إذ كان خطاباً ذا  
وجهين، ولنكون تم انتخابه على أساس حظر العبودية "حيثما  
كانت، وحيث سيطمئن قلب الرأي العام في الإيمان بالقضاء على  
العبودية مطلقاً" وذلك وفقاً لما نقله عنه دوجلاس، وأضاف أن  
لنكون أكد وعده باحتواء العبودية لكنه مع أول خطوة تالية باع ذلك  
الهدف الأسمى.

مرر الكونجرس -توا- اقتراحاً يتضمن ثلاثة عشر تعديلاً  
للدستور آملياً في استعادة خونة الجنوب للاتحاد من جديد ١١. رغم  
عدم التصديق عليها، إلا أن أول "ثلاثة عشر" تعديلاً كانت "حقيقة"  
مضادة تماماً للمبدأ "الواحد" الذي يرى إنهاء العبودية عام ١٨٦٥.  
لقد كان ذلك تعديلاً غير قابل للتعديل يؤكد العبودية في ولايات العبيد  
للأبد، وقد أشار لنكون له في خطابه الافتتاحي بقوله: "إنني أتهمهم  
تقديم اقتراح بتعديل للدستور، يمرره الكونجرس يؤكد أن الحكومة لن  
تتدخل في شؤون العبودية بولايات العبيد . . . . . وأنا لا أعترض  
على جعله واضحاً وغير قابل للإلغاء ."

يعد تصريح لنكونن بأنه ليس لديه اعتراض على التعديل خيانة فكرية وأخلاقية، لأنه يتعارض مع إيمانه "بالقضاء النهائي على العبودية" ١٣ فهو يوافق باختصار على استباحة الدستور ١٤ وببنفس الجملة يكون دوجلاس قد فقد إيمانه بلنكونن وبالأمة. كان ما استنتجه دوجلاس أن جزءاً من مشكلة لنكونن يكمن في عدم فهمه القانون بدقة، فهو قد آمن بمبدأ "القصد الأصلي" لصانع القانون مثلما كان دوجلاس قبل أن ينقلب إلى الإيمان بمبدأ مناهضة العبودية في تفسير الدستور. "إن مقصد واهب القانون هو القانون ذاته." هذا ما أعلنه لنكونن في خطابه الافتتاحي الذي أدى به للدفاع عن قانون العبد الهارب وإلى تأييد التعديل الذي يضمن بقاء العبودية بولايات العبيد للأبد. ١٥ وقد أجاب دوجلاس على ذلك بقوله: "إن هذا ليس بالضرورة صحيحاً... (فذلك) يعتمد على ما إذا كان القصد نفسه قانونياً أم لا." لأن، بعد كل هذا، القانون الذي يصرح بالقتل ليس قانوناً على الإطلاق لأن "نفس فكرة القانون تحمل داخلها فكرة الحق والعدل والإنسانية." ١٦

يقول دوجلاس للنكونن: "أعد قراءة كتابات بلاك ستون، فإنه يذكرنا أن القانون "ينهاها عما هو خطأ." ١٧ كان لنكونن يعرف ذلك أيضاً لأنه رفض - والسعادة تغمره - حكماً غير عادل للمحكمة العليا

في قضية دريد سكوت وصرح بأن الانفصال يعد مسألة تآمرية وهو "جوهر الفوضى" حتى لو أقرته المحكمة العليا "دستورياً وحقاً".

لماذا دافع لنكون عن قوانين ظالمة تحمي بقاء العبودية؟ لأنه أراد التصالح مع ملك العبيد لإتخاذ الاتحاد فقال في خطابه موجهاً حديثه لأهل الجنوب: "إننا لسنا أعداء، بل نحن أصدقاء." ١٩ لكنه عندما يسمي ملك العبيد الخونة أصدقاء، فإنه يضحى بحقوق السود في المقابل. ٢٠

لم يكن أصدقاء الجنوب من الشماليين أكثر أخلاقاً من شخصيته مثل ستيفن دوجلاس أو جيمس بوكانان؛ فمنذ ثلاث سنوات سابقة اتهمهم لنكون بالتآمر لقلب الحكومة، ثم عند انتخابه رئيساً للاتحاد فجأة أصبح أول رئيس عصري مناهض للعبودية- كما أسماه فريدريك دوجلاس- هاهو يتصالح مع ملك العبيد بقدر ما كان عليه أولئك المتآمرون. ٢١

وربما جاءت النهاية الشعرية لخطابه الختامي لتشعر دوجلاس بالغثيان، وفيها يقول لنكون: "يجب ألا نكون أعداء، فرغم أن مشاعرنا قد تحمل أثراً مما سبق إلا أنها يجب ألا تقطع أواصر محبتنا. إن الروابط الروحية للذاكرة التي تستمد من كل ميدان معركة ومن كل مقبرة لوطني، تستقر في كل قلب حي وكل قلب حجر فوق كل بقاع أرضنا. تلك الروابط ستكبر الصوت



الجماعي للاتحاد عندما تلمسها اليد الملائكية الجميلة لطبيعتنا مرة ثانية. ٢٢ لكن تلك الروابط الروحية من الذاكرة بالنسبة لدوجلاس هي التي تجاهلت صرخات السود القابعين في الأصفاد، وما لم تتم محاكمة ومطاردة أولئك الخونة فإن أي اتحاد بين الشمال والجنوب سيترك السود غير أحرار للأبد، ودمر لنكون في سعيه لإنقاذ الاتحاد كل مبادئه تقريباً.

لقد انتظر دوجلاس الكثير من لنكون. ٢٣ كان يفهم مدى صعوبة الأمر أمام رئيس تم انتخابه، فقد أعلنت ولاية ساوث كارولينا - بعد أيام من انتخاب لنكون وقبل أربعة أشهر من اعتقاله كرسي الرئاسة - عن خطتها للانشقاق عن الاتحاد، ومع أول فبراير كانت سبع ولايات أخرى قد هجرت الاتحاد. بعد ذلك بواحد وعشرين يوماً، وفي ذكرى ميلاد جورج واشنطن، تم تنصيب جيفرسون دافيز أول رئيس لكونفيدرالية الاتحاد الأمريكي للجنوب. خلال تلك الأزمة لم يكن الرئيس يوكانان قادراً على رد أي مؤثر، فقد كان هدفه الأساسي هو تجنب الحرب وفي حين كان يرى الانشقاق فعلاً غير دستوري، لم يفعل شيئاً لإيقافه بل شجعه نظرياً بالفعل عندما أكد للجنوب أن الحكومة الفيدرالية ليس لها حق استخدام القوة في ذلك الشأن، وألقى اللوم في حدوث حركات الانشقاق على عاتق حركة مناهضة العبيد، وقام بالدعوة لاجتماع

دستوري يقدم تعديلات يمكن أن تحمي بقاء العبودية في الولايات والأراضي الجديدة وتمنع ولايات الشمال من التدخل في تفعيل قانون العبد الهارب.

اعتقد دوجلاس أن بوكانان تجنب محاكمته بتهمة الخيانة وكان يعلم أن لنكون لا يستطيع اتخاذ خطوة في ذلك إلا بعد اعتقاله كرسي الرئاسة، ٢٤ فقام بشحن "الصمت الهائل" لنكون منتظراً استلامه مهام منصبه في الرابع من مارس ذلك العام، وقد ملأه الإعجاب "برفض لنكون الصارم" للدعوة لأي برنامج توافقي قد ينتهك "الوعد الجمهوري" بمنع امتداد العبودية، واعتبركية لنكون "الأب الشيخ الأمين" كنية صادقة وتعكس بدقة كلمات وأفعال الرئيس المنتخب. ٢٥

في صباح يوم ١٨ فبراير انضم دوجلاس إلى آلاف من مواطنيه الرفاق للترحيب بقطار لنكون الخاص وهو يتوقف لبرهة بمحطة نيويورك سنترال بروشيستر خلال رحلته المتعرجة من سبرنجفيلد حتى واشنطن. كانت هناك فرقة موسيقية تعزف، وظهر الرئيس المنتخب بالشفرة عند مؤخرة القطار وأخذ ينحني للحشود، وكانت انحناءاته متصلبة ومتردة. كانت ذقنه بارزة وبدا جسمه منكسراً إلى ضلعين عند وسطه، فبدأ أشبه بكسارة بندق خشبية. ٢٦ أدرك دوجلاس ما سوف يقوله لنكون عاجلاً بالفعل،

لأن خطبه خلال رحلة القطار كانت واحدة عند كل محطة توقف، ٢٧ وهكذا قال لنكولن: "أنا لست سطحياً لدرجة أعتقد معها أنكم جئتم هنا رغبة في رؤيتي كفرد، ولكن لأنني - الآن - أمثل الشعب الأمريكي . . . وأنا أظهر أمامكم مجرد أن أراكم، وأن أدعكم تروني، ولكي أقول لكم إلى اللقاء." ٢٨

توقع دوجلاس، وهو يتذكر كيف تحدى لنكولن ستيفن دوجلاس بنبل وفروسية منذ سنوات سابقة، أن يواجه لنكولن الجنوب بنفس الأسلوب إذ يجب عليه أن يأمر "سادة العبيد المتعالمين" أن يضعوا أسلحتهم وأن يعودوا للاتحاد وإلا واجهوا اتهامات بالخيانة (وهي جريمة عظيمة) وعليه أن يرد على تلك الأزيمة بحزم وحسم مثلما فعل الرئيس أندرو جاكسون في أحداث مشابهة عام ١٨٣٢، عندما قامت ولاية ساوث كارولينا بإصدار قانون فيدرالي ورفضت سداد رسوم معينة، فبادر جاكسون من فوره باتخاذ إجراءاته الحاسمة، وصرح بأن الخروج على الاتحاد يعد خيانة وهدد بغزو تلك الولاية وشنق الخونة مما أدى بالمتمردين للتراجع. على لنكولن أن يفعل تلك الأمور "وإلا سيصبح ممثلاً محترقاً لحكومة رعدية بائسة"، وواصل تحريضه للنكولن بقوله: "افعل الصواب، ودع الصراع ينشب، وسيوفق الله من هو على حق!" كما راودت دوجلاس الآمال أن تؤدي

أزمات الانفصال إلى تطرف لنكون. فوق ذلك كله، دخل الرئيس المنتخب إلى عاصمة البلاد في ظل تهديد واضح له بالاغتيال.

أقنع آلان بنكرتون - وهو رجل ذو لحية كالفرشاة ومن دعاة التحرير ورئيس وكالة بنكرتون للتحريات - لنكون كي يغادر بالتيمر متوجهاً لواشنطن متكرراً ليلاً، بعد اكتشاف دليل مادي على وجود مؤامرة ضده. أصبح لنكون فجأة "عبداً مسكيناً مطارداً وهارباً" . . . هكذا علق دوجلاس مضيفاً: "وهو يبحث عن مخبأ متجنباً المطاردين . . زاحفاً . . مضللاً من يسعون وراءه في جنح الليل."

بالفعل، غادر الرئيس المنتخب بالتيمر في قطار بالطريقة نفسها التي فعلها الشاب فردريك بيلي منذ ثلاث وعشرين سنة فائتة، متكرراً ومطارداً كذلك، وقد تعاطف دوجلاس مع مافعله لنكون بعكس العديد من الشماليين الذين سخروا منه فقال: "لقد فعل مافعله رجال أكثر شجاعة . . . ولاشك أن ذلك كان مؤلماً لروحه أن يضطر لتكييف نفسه مع أساليب حياة عبد هارب. ربما تدفعه تلك الأزمة إلى التعاطف مع السود والشعور بالآلم العبيد أكثر مما كان عليه من قبل."

هكذا، صعد دوجلاس من آماله عالياً لكي تهبط محطة تماماً، فخلال الشهر الأول من تواجد لنكون بموقعه تصرفت بطريقة أفضل قليلاً من الرئيس السابق بوكانان. لقد وعد - مثلما فعل بوكانان

تماماً - ألا يهاجم الجنوب، فقد صرح: "إن الحكومة لن تهاجمكم". وخفف من قلقهم مؤكداً لهم أنهم "سوف يحصلون على الإحساس الكامل بالأمن المطلوب تهدئة الفكر والتأمل". ٣١ كما نادى بالتعديل الدستوري لحماية بقاء العبودية للأبد في الولايات، وكرر دعوة بوكانان في وصية لهم "باحتيال وامتلاك والاحتفاظ بالقلاع الفيدرالية وترسانات الأسلحة في الجنوب".

كانت قلعة سومتر قلعة من تلك القلاع. كانت قلعة غير مكتملة البناء من الطوب تقع على صخرة من الجرانيت على بعد أميال قليلة من منتصف مدينة شارلستون بولاية ساوث كارولينا. ومن أوائل البرقيات التي تلقاها لنكون فور استئناف واجباته الجديدة كانت برقية من الميجور روبرت أندرسون قائد قوات الاتحاد بقلعة سومتر يقول فيها إن إمدادات تموين قواته آخذة في النفاد، وخلال أسابيع قليلة لن يجد رجاله الطعام. طوال الشهر التالي أصبح الشماليون مهومين بتلك القلعة، منتظرين ما سيفعله لنكون في ذلك. بتمسكه بتنفيذ الوصية، أخبر لنكون حاكم ساوث كارولينا فرانسيس بيكنز أنه سيقوم بإمداد القلعة بالطعام لا بالرجال أو السلاح، وكان - بهذه الخطوة - يضع الطعام للجنوبيين يستدرجهم لارتكاب اعتداء آخر على سلطة الاتحاد، وهذا ما فعلوه. في يوم ١٢ أبريل، بمجرد وصول قوارب الإمداد، قام الكونفيدراليون بإطلاق النيران على قلعة



سومتر، وقصفوها لمدة ٣٣ ساعة حتى استسلم الجنرال أندرسون وحاميته. ٣٣ فقال دوجلاس: "المجد لله .. لقد أتت الحرب أخيراً!" ٣٤ هنا سنحت الفرصة لتدمير العبودية "دعوا ذلك البائس المستعبد طويلاً ينهض، وفي تلك اللحظة المبشرة ينتزع حريته!" وصل عداء ملاك العبيد حداً لا يُحتمل أخيراً، مما دفع بالحكومة الأمريكية إلى قمع ذلك التمرد. ٣٦ أثار قصف القلعة أرجاء الأمة، وقبل أن يتلاشى دخان القصف في الهواء أصدر لنكولن نداءً يطلب فيه قواتاً عددها خمسة وسبعون ألفاً من الجنود لمدة تسعين يوماً لإخماد ذلك العصيان المسلح. ٣٧ وكانت الاستجابة لندائه شديدة لدرجة أنه حصل على خمسة أضعاف ما طلب، حتى إن دوجلاس اهتزت مشاعره فصرح بقوله: "إن الشمال الميت مازال على قيد الحياة، وشعبه المنتقم يعود للوحدة." ٣٨

واعتبر محاربة الشماليين للمتمردين الكونفيدراليين محاربة للعبودية كذلك في اعتقاده، فألقى رحلته إلى هايتي. لكن لنكولن خيب رجاءه مرة أخرى، لأنه عندما أعاد قراءة نداء لنكولن بدقة، أدرك دوجلاس أن الرئيس سوف ينحرف عن طريقه ويعود لحماية ملكيات السادة فالنداء يقول: "يجب أن تولى القوات عناية شديدة لما تفعل... كي تتجنب أية أعمال تخريبية أو تدميرية أو تدخل في

شئون الملكية. "٣٩ عندئذ انفجر دوجلاس ساخراً: "جميعنا يعلم أن ذلك يعني أنه لن تُبذل أية محاولات للقضاء على العبودية. ٤٠ لم يحدث هذا، فقور صدور النداء قامت إدارة لنكون بإعادة آلاف من السود الذين كانوا شغوفين لقتال ملك العبيد إلى حيث جاءوا، لأن دوجلاس وحده استطاع تجنيد عشرة آلاف جندي أسود خلال ثلاثين يوماً؛ لقد صرح بذلك في افتخار وأكد أن كتيبة سوداء واحدة تظاً أرض الجنوب "ستكون نداً لكيتين كاملتين من البيض. ٤١ فالسود حين يحملون السلاح سيرعبون رجال الجنوب. إن انتخاب لنكون "جعل العديد من ربّات المنازل عبر مناطق الجنوب يذهبن إلى النوم ليلاً يتساءلن في رعب ماذا سيفعل عبيدها، الذين امتلأوا أملاً بمباديء الحرية حديثاً، بهن وبأطفالهن. ٤٢ كما جعل العديد من السادة ينتبهون طوال الليل والسلاح بأيديهم، مستعدين لمواجهة أية انتفاضة، لم تحدث على أية حال. والمشكلة أن جموع المتعصبين من بيض الشمال كانوا تقريباً مرعوبين من أية انتفاضة للعبيد بنفس قدر الرعب الذي يملأهم من تمرد ملك العبيد. حتى الجنرال بنجامين بتلر - ذلك الضخم المرعب لقوات الاتحاد - بدا خائفاً بعد سماعه بوجود مؤامرة بين عبيد ماري لاند للتمرد، خاصة وأنه من مؤيدي العبيد وعضو بالحزب الديمقراطي في ماساتشوستس، ويميل لإطالة شعر رأسه في المناطق

القليلة التي ينبت فيها ربما لإعطاء مظهره بعضاً من الصرامة، فتمركز بقواته عند أنابوليس، وباعتباره أمراً لقوات كتيبة الولاية كتب الحاكم ماري لاند توماس هيكس يوم ٢٣ أبريل وذلك بعد أسبوعين من واقعة قلعة سومتر ليؤكد له أن قواته لن تتدخل بأي صورة بأمر ملكية العبيد، مضيفاً: "لذا، فأنا مستعد للتعاون مع فخامتكم في قمع أية محاولات لعصيان القانون فوراً وبكفاءة في ماري لاند". ٤٣

أغضب ذلك الخطاب دوجلاس، ولكن ما زاد شعوره بالمرارة سماعه أن ضباط الاتحاد أعادوا العبيد الهاربين إلى أسيادهم بسعادة بالغة، وحتى قبل واقعة القلعة، أخذ العبيد يهربون إلى قوات الإتحاد مقدمين خدماتهم مقابل الحماية والحرية. في مارس- مثلاً- هرب ثمانية عبيد من مزرعة قرب ميلتون بولاية فلوريدا بعدما سمعوا أن الحكومة تسعى لحماية قلاعها في الجنوب، وسافروا عبر المستنقعات والسنجات والأنهار عبر ثلاثين ميلاً دون راحة ووصلوا أخيراً بواسطة قوارب مسروقة إلى قلعة بيكنز عند فم خليج بنساكلولا، وصلوا يتساقطون من الجوع لكنهم يشعرون بالارتياح. كانوا قد توصلوا إلى أن خدماتهم ستقبلها القوات بكل سرور نظير إرسالهم إلى الشمال أحراراً، وكانوا على حق في افتراضهم أن القلعة تحتاج إلى الدعم والمساعدة. لكن الملائم أ. سليمير أمر القلعة وضعهم في القيود "وأعادهم إلى عمدة المدينة



تسليمهم لما لكهم". ٤٤ ووفقاً لما ذكره أحد الشهود، قام مالكهم بجعلهم عبدة للآخرين فجلدتهم بلا رحمة لساعات طوال ليحذر مئات الآخرين من اتباع ما فعلوا. البعض جُلد حتى الموت بالمعنى الحقيقي للكلمة، وآخرون أصيبوا بجراح ظللوا يعانون منها طوال أسبوعين. ٤٥ وقع ذلك التعذيب بسبب أن الحكومة الفيدرالية حكومة الاتحاد طبقت قانون العبد الهارب لصالح أناس ارتكبوا الخيانة ضد الاتحاد للتو! يعادل ذلك الموقف إعادة رجال الجنوب إلى الهاربين من قوات جيش جون براون، وهذا وضع غريب ولا يمكن أن يحدث أبداً للرجال البيض، وعندما قرأت ليديا ماريا تشايلد - وهي من دعاة التحرير - أنباء قلعة بيكنز في جريدة دوجلاس شعرت بأنها تريد سحق العلم الوطني قائلة: "يعلم الله أنني أريد أن أحب وأن أكرم علم بلادي، لكن كيف أفعل ذلك لعلم يُستخدم في تلك الأمور؟" هذا ما شعر به دوجلاس تماماً، وإلى أن يعلن الاتحاد قراره "بإنهاء العبودية" فالعلم "لا يستحق دعم ذراع سمراء واحدة". ٤٦

في ذات الوقت، كانت عداوة ملاك العبيد تزداد ضد البيض، واغتالوا البعض منهم فثار غضب أهل الشمال عليهم، وخلال شهر من نداء لتكوين انضمت كل من فيرجينيا ونورث كارولينا وتينيسي وأركانساس إلى الكونفيدرالية الجديدة كذلك، وفي

٢٤ مايو- أي بعد يوم من انشقاق فرجينيا رسمياً- قاد ضابط من قوات الاتحاد اسمه إيلمر إيلزورث كتيبه إلى مدينة الإسكندرية- سمية إسكندرية مصر- ، ولم يكن إيلزورث أيقاً لدرجة مذهلة فقط- إذ كان يشبه جون ويليكس بوث- لكنه كان صديقاً مقرباً للنكون وكان يعامله كابن له ومستشاره القانوني بل ودعاه للسفر معه في عربة الرئاسة الخاصة إلى واشنطن. في الإسكندرية، استولى إيلزورث على مكتب البرق والتلغراف وهناك لاحظ أن علم الكونفيدرالية يرفرف على سطح فندق هاوس القريب وهو مبنى ذو ثلاثة طوابق من الطوب أشبه بالصندوق، فاندفع هائجاً نحو الفندق وارتقى الدرج إلى السطح ومزقه وألقاه أرضاً، وعند نزوله كان مالك الفندق بانتظاره يحمل سلاحاً وأطلقه عليه من مسافة قريبة جداً مزقه إرباً. ٤٧ كما كانت هناك تقارير تفيد بقيام الكونفيدراليين بتسميم القوات المركزية الفيدرالية، وقيام بعض القراصنة بإرسال أسلحة الشمال إلى الجنوب، وأن بعض رجال الاتحاد تم محاكمتهم رمياً أو يهاجمهم الرعاع، فقال دوجلاس: "ربما بعد قتل بضعة من أمثال إيلزورث قد تبدأ الحكومة في معاملة المتمردين كأعداء بدلاً من اعتبارهم أصدقاء، وربما عندئذ تبدأ إدارة لنكون في معاملة السود على أنهم بشر". ٤٨

بدأت الأمور تتغير بعد مقتل إيلزورث، وفي ٢٤ مايو شعر بنجامين بتلر بتغير أحاسيسه تجاه السود بسبب إهانة جون أندرو له- وجون هو حاكم ولاية ماساتشوستس ومن دعاة التحرير- لإصرار بتلر على قمع انتفاضات العبيد. كان بتلر معسكراً في قلعة مونرو بفرجينيا، وسمح لثلاثة من العبيد بدخول معسكره كانوا على وشك إرسالهم إلى جيش التمرد لبناء التحصينات، وكان بتلر يحتاج إليهم فقام بتشغيلهم. لكن سرعان ما أرسل مالكمهم وكيله الذي اعتمد في حديثه على قانون العبد الهارب وأن على بتلر التزامات دستورية بضرورة تسليم العبيد إليه، فأجابه بتلر قائلاً: "إن فيرجينيا أقرت مرسوماً بانفصالها وصرحت بأنها بلد أجنبي... وليس عليّ أية التزامات تجاه بلد أجنبي." فعارضه الوكيل قائلاً: "لكذك تقول إننا لا يمكننا الانفصال عن الاتحاد ومن المنطق ألا تستمر في اعتقال أولئك الزوج." فرد عليه بتلر: "وأنت أكدت أنكم قد انشققتم، وبالتالي فليس لك حق عليهم." وواصل رغبته في الانتصار والفوز بتلك الحاجة قائلاً: "ولسوف أعتقلهم باعتبارهم محظورات حرب." ٤٩ استقر ذلك المصطلح في ذاكرة الشمال، وطارت كلمة "محظورات/ مهربات" عبر مجتمعات العبيد ووسيلة التواصل السريعة "جماعات قطاف العنب" وخلال ثلاثة أيام حصل بتلر على ما قيمته ٦٠٠٠٠ دولار "بحسابات اليوم" من أولئك العبيد

المحظورين، وبحلول شهر أغسطس كان عنده ألف رجل وطفل وامرأة. في ذلك الوقت، تحرك الكونجرس المحكوم بأغلبية جمهورية، وفي السادس من أغسطس قام بتوقيع القانون الأول للمصادرة، مصرحاً للجيش الاتحادي بمصادرة العبيد الذين ساعدوا الولايات الكونفيدرالية في الأعمال الحربية. ٥٠ فالتقارير التي ذكرت أن آلافاً من العبيد قد أرغموا على الخدمة لصالح الكونفيدرالية، وساهموا في تحقيق انتصارها في المعركة الأولى "موقعة بول ران" في يوليو، هذه التقارير أفتتعت إدارة الرئيس بالحاجة العسكرية لمصادرة العبيد، ووفقاً لما قاله دوجلاس فإن العبيد لم يقوموا فقط بتأدية المهام القذرة للمتمردين، وبناء التحصينات والعمل كحוזيين بل شاركوا في الحرب كجنود متمردين في وحدات الميليشيا بعد أن أرغمهم سادتهم على حمل السلاح ضد الشمال، وهو شيء يدعو للأسف. وبينما يستغل جيش المتمردين الرجال السود "كجنود فعليين يحملون بنادقهم على أكفائهم والطلقات في جيوبهم مستعدين لإطلاق النار على القوات الحقيقية للوطن"، تغض إدارة لنكونن بصرها متظاهرة أن أربعة ملايين عبد ومعهم نصف مليون من الأحرار غير موجودين على أرض الوطن. ٥١.

عندئذٍ وفي نهاية أغسطس تمر بدوجلاس بارقة أمل أخرى،  
حيث تمركر جون فيرمونت- القائد العام الاتحادي للإدارة الغربية-  
في منطقة ميسوري وهي ولاية حدودية تواجه بعضاً من أسوأ  
حروب العصابات. كان هناك حوالي ٦٥ ألف انفصالي يحجب  
معظمهم الولاية في جماعات صغيرة ويقومون باغتيال المزارعين وسرقة  
الخيول وقطع خطوط البرق، ويدمرون في طريقهم خطوط السكك  
الحديدية والجسور. ٥٢ نظراً للفوضى المنتشرة في ميسوري، اتخذ  
فيرمونت "قراراً حاسماً" ٥٣ فقد أصدر في الثلاثين من أغسطس أول  
تصريح تحرير للعبيد في تاريخ الأمة معلناً حركة الطواريء وقانون  
الأحكام العرفية في الولاية، وأمر بمحاكمة الانفصاليين المسلحين  
محاكمات عسكرية، وإعدامهم حال ثبوت جرميتهم، وأن يصبح جميع  
العبيد المملوكين لأولئك المواطنين الخائنين أحراراً بهذا الأمر. ٥٤  
أدرك فيرمونت أن الطريق الوحيد لكسب تلك الحرب هو أن  
تحرم أولئك العصاة من أملاكهم للأبد، وقد وافق في ذلك مستشاروه  
من دعاة التحرير أوينلاف جوي وجون جيرلي وزوجته جيسي.  
وكما حددها له لاف جوي: "لماذا تتخذ طريقاً مكلفاً ومجهداً" لقمع  
التمرد" في حين يوجد أمامنا طريق رخيص وقصير؟ ... دع  
الرئيس بسلطاته كقائد عام للجيش يعلن ذلك التحرير وسوف تنتهي  
الحرب في ثلاثين يوماً!" ٥٥ منذ بداية الحرب وحتى ذلك الحين أراد

فيرمونت أن يحول الصراع إلى ثورة إجتماعية بدلاً من إبقاء الوضع على ما هو عليه، ٥٦ وكانت الحرب بالنسبة إليه حرباً عسكرية وأخلاقية من أجل حرية العالم، لا حرباً من أجل إنقاذ الاتحاد بإهمال مأساة السود .

هز تصريح فيرمونت كل الجمهوريين عبر أنحاء البلاد، فقد عقدت بلدان الشمال مسيرات وتجمعات حاشدة بالمشاعل لتكريمه، وأطلق أحد الصحفيين الجمهوريين على تلك اللحظات أنها أكثر أحداث الحرب إثارة حتى ذلك الوقت. كما أن الكاتبة هاريت بيتشرستو قالت نيابة عن الكثيرين: "إن الساعة قد حانت ورجلها كذلك." تأثر وزير الحرب سيمون كاميرون لدرجة أنه أرسل برقية لفيرمونت يهنئه على شجاعته. ٥٧ بعد إثني عشر يوماً نقض لنكونن تصريح فيرمونت بتحرير العبيد إذ كان قلقاً خشية أن يفقد ولايات الحدود وفقاً لما أخبر به فيرمونت في خطاب خاص. لذا، طلب منه أن يقوم بتعديل تصريحه كي يتوافق مع قانون المصادرة الذي لم يسهم في تحرير عبد واحد، فرفض فيرمونت بشجاعة وأخبر لنكونن أنه لو سحب تصريحه "فسوف يتضمن ذلك أنني أراه خطأً، وأني تصرفت دون النظر لخطورة الموقف المطلوب، لكنني لم أفعل إذ تصرفت بدراسة عميقة وبناءً على قناعات معينة بأن ذلك معيار صحيح وضروري ومازلت أعتقد أنه كذلك." ٥٨

هكذا، اضطر لنكون لسحب قرار فيرمونت علانية، الأمر الذي سبب له كثيرا من الإحراج، وكثوع من الرد قام بإعفاء فيرمونت من منصبه ٥٩. هنا أطلق دوجلاس على لنكون أنه رئيس مؤصل في تأييد العبودية وأكد أنه لا يقصد أية إهانة بذلك، لكن سحب تصريح فيرمونت بعق العبيد هو أكبر خطأ فادح في الحرب حتى اليوم، أسوأ حتى من خطاب لنكون الافتتاحي الغادر. "كان تصرف فيرمونت المفصل والمحور الذي كان يجب على أساسه أن تدور الحرب" وفقاً لما ذكره دوجلاس في صحيفته، فلنكون أمامه الفرصة كاملة لتشكيل الرأي العام لا مجرد الاستجابة الطوعية له حيث كان يجب عليه أن يشكر فيرمونت لإتاحة الفرصة أمامه لإعلان صدقه أمام العالم ورفضه التوافق مع الخونة. لوهلة قصيرة ظن دوجلاس أن الحرب سوف يقوم بشنها "مقاتل حاسم" لا "محام مأكراً" ٦٠ وبالنسبة لدوجلاس كانت التضحية بفيرمونت هي عمل "لتهدئة مشاعر أنصار العبودية في ولايات الحدود". ٦١ كان ذلك عملاً مجبطاً جديداً في حرب لم تثمر سوى إحباطات إلا أن دوجلاس شعر أن كلمات فيرمونت الشجاعة سوف تنقض عاجلاً مثل قيامة المسيح من الهيكل - يقصد القبر - تدمير العبودية المتوحشة. ٦٢ لقد أكدت التضحية بفيرمونت لدوجلاس النتائج التي لا يمكن تجنبها في صراع ملحمي بينه لنا الوحي، عندما كان الملاك

ميكائيل وباقي الملائكة يقاتلون "المضيف الشيطاني للمشاعر السيئة" ٦٣ رغم الإحباطات الكثيرة التي سببها له لنكون، لم يأسف ودجلاس يوماً على إلغاء رحلته إلى هايتي إذ آمن أن قوى الحق لابد أن تسود في النهاية.

لقد ألهم موقف فيرمونت ودجلاس كي يهاجم بشدة أكبر في مواجهة لنكون، فطريقه "كان صوتاً واحداً متواضعاً" فقط . لكن ودجلاس كان يعلم أن قول الحق بقوة يمكنه أن يغير العالم. ٦٤ في مقالة وراء أخرى سعى وراء لنكون داعياً إياه لتحرير العبيد والسماح بتجنيد قوات سوداء، فكتب: "إن الزنوج هم مُعدة التمرد" وكل عبد يهرب من ولاية متمردة "هو خسارة لقوى التمرد ومكسب لقضية الولاء" وإن رفض تسليح السود يماثل القتال "بذراع واحدة". ٦٥ كما أدرك أن أسرع وسيلة أمام السود للحصول على حرياتهم هي أن يصبحوا جنوداً بقوات الاتحاد. كان عبيد الأمة البالغ عددهم أربعة ملايين ومعهم نصف مليون أسود حريادون ربع تعداد سكان الشمال ويمثلون مصدراً لا ينضب للقوة، ويوجد حقيقة نصف السود ممن يشبهون الكثير من البيض العصاة، ٦٦ وقد يفي استخدامهم باحتياجات البلد للقوات، ويمنع الحاجة للتجنيد الإلزامي، وهو أكثر من تعويض لتراجع الجنود البيض الذين يرفضون الحرب من أجل حرية العبيد. كاستراتيجي عسكري، فضل



دوجلاس الديموجرافيا على الجغرافيا . كما تحدى دوجلاس افتراض  
لنكون أن ولايات الحدود التي بها عبيد مثل ماري لاند وكيبتوكي  
وميسوري وديلاور ستفصل عن الاتحاد إذا تم تحرير العبيد . كانت  
أزمة ولايات الحدود هذي تدور حول سؤال بسيط: هل مواطنو  
الاتحاد الذين يملكون عبيداً يقدرّون وطنهم ويفضلونه على العبودية أم  
لا؟ ورأي دوجلاس أنهم يقدرّون الوطن، مما يعني أن تلك الولايات لن  
تفصل، ولو كان رأيه على خطأ ووضح أنهم يفضلون وجود العبودية  
على وجود الوطن فدعهم يذهبون! فهذا خلاص خير . . إلا أنهم  
كانوا ذئاباً في ثياب حملان. ٦٧

على سبيل التأكيد، سوف تنشب بعض حروب العصابات  
في ولايات الحدود حتى لو اختار رجال الاتحاد العبودية وفضلوها  
على الوطن. كانت ولايات ميسوري وكيبتوكي وماري لاند قد  
وقعت في حرب العصابات فعلاً، وشعر دوجلاس أن لنكون يستطيع  
التعامل مع الموقف. ٦٨. وعندما أثار انفصاليو ماري لاند التمرد  
وهددوا بالانفصال أواسط عام ١٨٦١، قام بإعلان قانون الطوارئ  
وأوقف العمل بقانون "المثول أمام القضاء" واعتقل كل دعاة الانفصال  
قبل أن يتمكنوا من التصويت على قرار الانفصال. كانت النتيجة  
"انتصاراً ساحقاً لمؤيدي الاتحاد". ٦٩ أيد لنكون قرار فيرمونت في  
إعلان الأحكام العرفية، وأخبره ألا يقتل أي سجين دون موافقة. ٧٠

كانت النقطة الهامة في موضوع ولايات الحدود لا تكمن في الوضع الرسمي للولاية وإنما في قدرة الاتحاديين على السيطرة على طرق النقل، ومشروعات الإنتاج، ومستودعات الأسلحة وسط حروب العصابات. فإذا لم يستطع جيش الاتحاد السيطرة على تلك الموارد، فإنهم سيواجهون صعوبة في الدفاع عن واشنطن المقاطعة، وسوف يفقدون مشروعات إنتاجية هامة وسيفقدون معها نهر أوهايو الإستراتيجي ويقع بيد المتمردين. وطالما بقي لنكونل أمراً قواده بسجن كل دعاة الانشقاق، فإن حرب العصابات في ولايات الحدود تبقى مشكلة قابلة للحل، ٧١ وكانت تلك الأفعال دستورية كما ذكر دوجلاس، وبحلول شهر سبتمبر ١٨٦١ أعاد طبع عدة أسطر رئيسية تقول:

"تقول حجة جون آدامز كوينسي بشأن سلطات الحرب: خلال الحرب الأهلية "تحل السلطات العسكرية- في هذه الأوقات- محل المؤسسات المحلية والعبودية بين باقي المؤسسات الأخرى" وتؤكد واحدة من أكثر المؤسسات الراقية حكمة بالأمة أن إعلان قانون الطواري، وتعليق العمل بقانون الإجراءات الجنائية العادي، وتحرير جميع العبيد هي إجراءات دستورية تماماً خلال الحرب الأهلية، وليس فقط لرئيس الولايات المتحدة، ولكن لقائد الجيش- أيضاً- السلطة لأن يأمر بعق جميع العبيد". ٧٢ كما سأل دوجلاس لنكونل:

"لماذا لا تستطيع أنت فعل ذلك؟ لو عاد الأمر لآدامز لكان أقر فيرمونت على تصريحه."

لم تكن سياسة لنكونل بالتغاضي عن قضية العبودية حماية لولايات الحدود خاطئة أخلاقياً، وضالة عن طريق الدستور فقط، وإنما كانت من المنظور العسكري مدمرة، وقد حدد دوجلاس أربع مشكلات رئيسية في سياسة لنكونل. أولها: أنه شجع إنجلترا وفرنسا على التدخل لصالح الكونفيدرالية "الولايات المنشقة"، فالخطر الذي وضعه الاتحاد منع المتمردين من إرسال القطن إلى أوروبا وتسبب في انتشار البطالة في إنجلترا وفرنسا. وما كانت تلك الدول لتحمل حرباً طويلة الأمد تؤدي إلى تجميع آلاف من شعوبها، وذبح آلاف منا، وإغراق الملايين من الأموال. "فلتجعلها إذن حرب تحرير" وستوحد العالم في الحال معك في مواجهة المتمردين، ولصالح الحكومة. "٧٣

ثانياً: سيتوصل العبيد عاجلاً إلى نتيجة مفادها أنه لو كان عليهم أن يبقوا عبيداً، كما يبدو من سياسة الاتحاد، فلسوف يفضلون الحرب ضد الاتحاد بدلاً من الحرب معه، وسيكون عليهم حماية أنفسهم فقط، فاختيار سيد يعرفونه أفضل من اختيار طاغية لا يعرفونه. إنهم مترددون الآن. لكن لو استمرت سياستنا تلك

"سوف يقررون أنه من الأفضل لهم أن يتحملوا شروراً يعرفونها فعلاً  
عن الذهاب لآخرين لا يعرفون عنهم شيئاً". ٧٤

ثالثاً: "إن مشكلة سياسة لتكون مع ولايات الحدود هي أنها  
مصدر إلهام للمتمردين حيث أمدتهم بالأساس الأخلاقي لما يفعلون  
بقولهم إن تلك الحرب تدور حول حقهم في حكم أنفسهم لا حكم  
العبيد، وبالطبع كان مبدأ الحكم الذاتي مبدأً طبيعياً له جذوره في  
فكر الثورة. لقد كان هو السبب الرئيسي الذي جعل الجماهير  
ترغب في القتال أو الموت دونه. إذن، فلتجعلها حرب تحرير للعبيد  
فيصبح قتال الاتحاد- فجأة على أية حال- من أجل الحرية بدلاً من  
الحرب للسيطرة على الجنوب، وليصبح قتال المتمردين من أجل  
ملكيتهم للعبيد لا من أجل الاستقلال". ٧٥

وأخيراً، لقد تطلبت السياسة القائمة مزيداً من التوافق مع  
العبودية، فالجمهوريون مثل وليام سيوارد قدموا وعوداً- بالفعل- بمنح  
الجنوب امتيازات ولم يكن هناك شك في استعدادهم لمنح المزيد من  
أجل إنهاء الحرب، إلا أن- وكما لاحظ لتكون نفسه: "أمة منقسمة  
على نفسها لا تستطيع البقاء. فواصلوا التنازل للملاك العبيد حتى  
تصبح الأمور كلها في وعاء واحد وتصبح العبودية مشروعة في كل  
الولايات". ٧٦

كاد دوجلاس يُطارَد شعبياً لانتقاده القاسي للنكولن . في نوفمبر من عام ١٨٦١ ذهب إلى سيراكوزه لإلقاء محاضرة حول "التمرد . . أسبابه وعلاجه"، وعندما وصل إلى محطة نيويورك رأى "عند كل ناصية" إعلانات عن محاضراته وبحوارها كلمات تطالب بإخراسه مكتوب فيها "الزنجي قادم، فهل سنتسامح مع مشاعره الدينية في مجتمعنا بجحة شعب يحب الحرية الدستورية أم سوف نلاقيه باستقبال (حار) يلائم إهاناته كما يستحق؟"

اختارت جماعة المحاكمة الرمزية المدينة الخطأ التي يقومون فيها بمهاجمة دوجلاس لأن سيراكوزه كانت واحدة من أكثر المدن حباً لتحرير العبيد في البلاد إذ قدم العمدة وقوة الشرطة والعديد من المواطنين حماية كافية حال وصوله، وتقدم للترحيب به الدكتور فيتنج، الرجل الرقيق الهش صاحب المسرح الأنيق الذي سيتحدث فيه لنكولن . لقد قام بإدخاله المسرح بنفسه رغم تهديد العامة بتخريب المكان . عندما سخر الرعاع من فيتنج بكلمة "عاشق الزنجي"، كان رده أن "مبادئه حول الحرية تنطبق على البشرية لاعلى اللون، وبعدها تحدث دوجلاس للحاضرين الذين ملأوا المكان ونال تصفيقاً هائلاً." ٧٧

أدت الحرب إلى توحيد دعاة التحرير ووفقت بينهم بصورة لم تحدث من قبل . ظل دوجلاس لفترة طويلة يملأ الساحات بكاملها



بجمهور المؤيدين . لكن مستمعيه الآن أصبحوا يضمون العديد من المحافظين والديمقراطيين الذين استمتعوا ليس فقط بأدائه الساحر ولكن أيضاً بالرسالة التي يحتويها . ٧٨ ولأول مرة خلال خمسة عشر عاماً ، لم يعد لون جاريسون ولا مجموعته الصغيرة تنتظر لدوجلاس كمدو لمنهاجهم السياسي في تحرير العبيد ، فهم عندما نشبت الحرب هجروا - فجأة - دعواهم بشأن الخروج على الاتحاد وكراهية الدستور وأخذوا يتفقون مع دوجلاس على أن الحرية تحتاج للقتال من أجلها في إطار الاتحاد وليس خارجه . وقد تأثر دوجلاس بشدة لتغير موقف رفاقه السابقين وسرعان ما انضموا جميعاً تحت لواء جمعية التحرير الوطني التي وحدث دعاة التحرير من كل المذاهب . لقد علم جيداً أن الصوت الموحد هو أكثر الأسلحة فعالية في مواجهة عناد لنكولن . ٧٩

في بدايات عام ١٨٦٢ ، ملأ دوجلاس قاعة اتحاد عمال البراميل في مدينة نيويورك بمستمعيه تماماً مثلما فعل لنكولن منذ عامين سابقين ، وتشابه مع خطاب لنكولن ذاك في مناقشة المصير الأمريكي وإلى هنا تنتهي المشابهة . ثم أعلن دوجلاس محاربة سياسة لنكولن بشأن الاستعمار الأسود ، مصرحاً بأن مستقبل ومصير الأفارقة الأمريكيين هو "مصير أمريكا" وشبه الأمة بكتاب

مفتوح، حبره الأسود هو ما يعطي معنى لصفحاته البيضاء، وألقى دروساً في الحكمة والسلطة والطيبة "وقداسة الأخوة الإنسانية". ٨٠

اخترقت تلك التحولات الفكرية حتى وصلت إلى مبنى الكابيتول، فأعضاء الكونغرس - الآن - أخذوا يتحدثون عن المشاعر بانتظام أو على الأقل بأسلوب ثوري أشبه بأسلوب دو جلاس، بل إن رئيس المجلس ثاديو ستيفنس الصارم كبير القدم فاق حتى تشارلز سومنر في حديثه في مجلس الشيوخ فارتفعت نبرته منادياً: "حرروا كل عبد . . اذبحوا كل خائن واحرقوا كل مأوى للمتمردين، لو كانت تلك الأفعال ضرورية لبقاء معبد الحرية هذا . . . فلا بد أن نعامل . . . تلك الحرب كثورة جذرية ونعيد صياغة مؤسساتنا!" ٨١

خصص راديكاليو أوروبا اهتمامهم الصادق بالروح الأمريكية الجديدة نحو تحرير العبيد، فكتب كارل ماركس كتابات إضافية عن الحرب من مقره ببيننا، وربما يكون قد قرأ لدو جلاس في ترجمة ما وأخذ يعكس بعضاً من أفكاره بالتأكيد لأن ماركس كتب يقول إن الولايات الحدودية "قد شكلت حلقة الضعف الرئيسية في قوى الشمال و . . . إن النظر بعين العطف لمصالح حلفاء غامضين أصاب حكومة الاتحاد بضعف لا يمكن الشفاء منه . . . و . . . قد أمن للخصم أكثر نقاطه ضعفاً وهي جذور الشر . . . متمثلة في العبودية

ذاتها. ٨٢" بدا الأمر كما لو كان انعتاق الإنسان عالمياً كان فكرة حان موعد تحققها أخيراً. هذا لاحظته فيكتور هوجو، وهو معجب آخر من معجبي دوجلاس. ٨٣

ظل دوجلاس ورفاقه عرضة للضرب والإهانة لعدة عقود، متهمين بأنهم يهددون استقرار الاتحاد. لكن بعد قيام المتمردين بإطلاق النار على قلعة سومتر، بدأت الجماهير فجأة تنظر إليهم كمرافين حاولوا طويلاً كشف شرور العبودية وإتقاذ وطنهم. ٨٤ وببطء شديد بدأ لنكون ينصت.

في عام ١٨٦١ كرس دوجلاس نفسه تماماً للصحافة فكتب كثيراً من المقالات وألقى قليلاً من الخطب أكثر من أية فترة أخرى منذ عام ١٨٤٣. بدا الأمر كما لو كان يريد دوام انتقاداته للنكون، فإذا لم يستطع أن يتحدث مع الرئيس مواجهة، فهو على الأقل يستطيع إرسال إصدارات جريدته إلى البيت الأبيض. ويلمح الشاعر الجديد، المدون أسفل المانشيت الرئيسي والمقتبس من سفر الأمثال ، إلى أن جريدته أصبحت أداة كلامه بدلاً من صوته: "افتح فمك، واقتض بالعدل، وحام عن الفقير والمسكين!" (١٢ آية ٨) (١)

١٢ آية ٨ : الإصحاح ٣١ من سفر الأمثال في طبعته العربية يقول: " افتح فمك لأجل الآخرس دعوى كل يتيم، اقتض بالعدل في، وحام عن الفقير والمسكين!"



كما عكس اسمها الجديد " شهرية دوجلاس " شكلها الجديد ،  
ومنذ عام ١٨٦٠ تحولت إلى جريدة شهرية تحوي ست عشرة  
صفحة بدلاً من أسبوعية تحوي أربع صفحات فقط ، مما سمح له  
بتوفير بعض المال وأبقى له قدرته على إصدار العديد من الصفحات  
كل شهر . قام دوجلاس بترتيب مقالاته تتابعياً حتى يمكن للقاري  
متابعة الأفكار عبر مجريات الشهر ، وكانت النتيجة نوعاً من سلسلة  
الكتاب الشهري مع كل إصدار منتقداً حالة الأمة . كانت " شهرية  
دوجلاس " شكلاً ملائماً لأمة تمر بمرحلة تعافٍ اجتماعي وجذري ،  
وقد مر الزمن خلال الحرب الأهلية بصورة مختلفة . فكان الأسبوع أو  
الشهر تراه يمر كلمح البصر . أما عندئذٍ فكانت اللحظة تمر بطيئة  
متراخية كما لو كانت دهرًا يتجمد فيها الزمن حيث كان ، فالناس  
تذكر جيداً المكان الذي كانوا فيه بمجرد قراءة خطاب لنكولن  
الافتتاحي ، وكذا عندما يتصفحون قائمة من الضحايا في جريدتهم  
اليومية بعد موقعة ما ، تبدو قائمة الموتى مناسبة كالنهر " نحو أسفل  
الصفحة الشاحبة " حتى تصطدم أعينهم فجأة - ومعها العالم أيضاً -  
بوقفة عند اسم من أحبوه . أضفت جريدته ثباتاً وتركيزاً على  
الأحداث المتتابعة المتدافعة ، فعلمت كالألبوم للصور يقوم بتجميد بعض  
اللحظات في حين يستثير الاندفاع المتقدم نحو الحرب عبر ترتيب تلك  
الروايات ، وقد تمنى الكثيرون من أهل الشمال أن يمر الزمن مسرعاً

من أجل استرداد النظام، ومواساة الحزن على الأبناء المفقودين. هنا يقول هيرمان ميلفيل في إحدى قصائده الدالة: "يا الله... آمل أن يمر الوقت بسعادة، وأن يلقي بالنحيب والنصر معاً لضياح، وأن تنتهي الحرب!" لكن دوجلاس أراد الثورة الاجتماعية، فعالمه لم يكن يتغير بالسرعة المناسبة والكافية. كان يقضي أغلب أوقاته في المنزل بروشيس تريكتب أو داخل مكتبه الذي مازال يحمل اسم "نورث ستار" وكان منذ سنوات قلائل مضت قد نقل عائلته إلى منزل أوسع رقم ١٠٢٣ شارع ساوث في بيتاكل هيلز على بعد نصف ساعة من وسط المدينة. ٨٧ وبدا ببتهم الجديد أشبه بفيللا أوروبية الطراز محاطة- في وقتها- بمديقة متسعة مظلة على تلال مائلة بخلفية طبيعية تنتشر فيها أشجار الفاكهة، ووصفها أحد الأصدقاء بأنها تمتلك "مظهراً شعرياً فريداً، وتشبه بصورة أو بأخرى جزيرة ما في عالم صغير منعزل حيث يجد أولئك- الذين يملكون شجاعة تحدي حكمهم المسبق المشين- حياة ثقافية ثرية بالداخل واستقبلاً يمتليء طبيعة وكرماً، وقلباً دافئاً أمريكياً إلى حد ما". ٨٨ يبين منزله الجديد- على مستوى أول- أسرة برجوازية سوداء لأن دوجلاس أصبح آمناً من الناحية المالية أكثر من ذي قبل حيث حصل طوال العقد الفائت- على أموال من إلقاء المحاضرات تعادل ما كان يتقاضاه أشهر الخطباء البيض في وقت كان المحاضرون فيه يعيشون

جيداً ٨٩. لكنه عندئذٍ، وكما لو كان يريد الانطلاق من تلك الواجهة الآمنة، قام بعزل نفسه من مجتمع البرجوازيين البيض، واكتسب مظهراً لمثقفٍ ثوري يترك شعره لينمو كثيفاً مع لحية صغيرة مشدبة، لأن أخلاق الشعر كانت بالنسبة للمفكرين علامة على حرية التعبير عن الذات، أي تجسيد خارجي للروح الداخلية للمرء. كما توحى "موضة" شعر الضأن واللحية المدلاة كالقدم، ولحية الجدي الرفيعة والشوارب الممتدة حتى الذقن والشعر المنتصب بأن صاحب تلك "الموضة" ذو عقل كهربى يمتد تياره عبر البشرة فتشقق أطراف شعره. كانت كلها مظاهر شائعة في تلك الأيام، وبدأ دوجلاس حتى بلحيته - الأشبه بلحية جدي - الجديدة رزيناً مقارنة بكثير من أصدقائه، فهو لم يُرد أن يتطرف كثيراً في مظهره الجديد، ولم يرغب في جذب المزيد من الانتباه لنفسه والمخاطرة باعتباره خارجاً عن أبهاء البورجوازية البيضاء ٩٠.

في عام ١٨٦٠، كانت أنا في حال غير جيدة، فابنتها الصغرى آنبي ماتت بعمر العاشرة، وكأن موت الطفلة أدى إلى انهيارها الجسماني والوجداني، فعانت كثيراً من الآلام العصبية (مرض شينجل) الذي أبقاها حبيسة المنزل بمزاجٍ ممرور. كان دوجلاس قد كتب لأحد أصدقائه يقول: "إنني جدٌ حزين أن أخبرك أنها ليست بحالة جيدة . . . . وإذا ما كان على أن أذكر جميع شكواها فلن

أجد مساحة كافية بالورق كي أوقع في نهايتها باسمي رغم أن العالم سوف يدرك أنني أقع تحت ثقل هذا كله. "كانت تمثل لدوجلاس حصاناً رديئاً، استخدمت كل "قواها الكلامية بسهولة وطلاقة لإبراز أخطائي في حالاتي المزاجية ووضعني كزوج وأب، ورأس للعائلة." ٩١

كان لأننا أسبابها السليمة للقلق منه، فرغم أن جوليا جريفيث لم تعد مصدر تهديد لها حيث تزوجت من موظف بريطاني ورحلت إلى إنجلترا منذ سنوات قليلة مضت، ظهرت امرأة بيضاء أخرى تتنافس بشراسة على استمالة عواطف دوجلاس. إنها أوتيلي آسبح التي أتت إلى أمريكا من ألمانيا عام ١٨٥٢ لتبدأ حياتها من جديد، وهي أصغر من دوجلاس بعام واحد، وهي تشبهه في كونها غريبة اجتماعياً هجرت وطنها قاصدة نيويورك وأصبحت أديبة رومانسية. لكنها كانت تفقر إلى إدراكه البراجماتي الواقعي. ٩٢

نشأت أوتيلي في مدينة هامبورج، وهي ابنة لرجل يهودي وأم وثنية. كان كلاهما بورجوازيًا مثقفًا، وكانت ابنته مخصصة للرومانسية الألمانية وشملت دائرة أصدقائها ومعارفها في ألمانيا كُتاباً وفنانين أو بدقة ممثلين، وحاولت أوتيلي ممارسة المهارات الثلاث. لكنها وصفت نفسها "تقريباً كمثلة"، وفي الواقع طبعها تقاليد

الرومانسية الألمانية نفسياً حتى إنها كفتاة بالغة رأت نفسها في بعض الشخصيات الروائية وتعاملت مع رواياتها المفضلة على أنها دليل لما يجب أن تكون عليه حياتها. ٩٣

حدثت أول ذروة رئيسية لها ذات ليلة من عام ١٨٤٣ عندما كانت بعمر الرابعة والعشرين إذ مات والداها وانتقلت هي وأختها إلى برلين للعيش مع أحد أعمامها، وافق العم والأخت جيداً بينما كرهته هي، وخلال جدل حاد بينهم صفعها العم فاندفعت تاركة المنزل وقررت أن يكون الرد الأمثل والشجاع على تلك الإهانة أن تتبع خطى بطل جوتة "فيرتر" ١٣ فهربت إلى حدائق تيرجارتن في برلين - وهي أكبر منتزه عام بالمدينة - واختفت وسط الشجيرات ثم طعنت نفسها ثلاث مرات بسكين. لكنها عاشت إنما أكثر تمسكاً بإيمانها أن الحياة لا بد وأن تتبع خطى الأدب.

جاءت الذروة الثانية في حياتها عام ١٨٥٦ عندما قامت بالهجرة إلى رويشستر لمقابلة فردريك دوجلاس حيث كانت تقيم في هوبوكن وتعمل كمراسلة أمريكية للصحيفة الألمانية التقدمية "ذا مورنينج جورنال للقراء المتعلمين" ٩٥ وبعدما أرسلت وجودها ضمن دائرة دعاة التحرير، كانت قد رأت لوحات لدوجلاس وقرأت كتبه

١٣ "آلام فيرتر": قصة حب يائس كتبها الأديب الألماني فولفجانج جوتة ونشرت عام ١٧٧٤.

وعرفت مدى طلاقته وجاذبيته. كان الهدف من مقابلته بروشيستر أن تطلب منه التصريح لها بترجمة كتابه الثاني الأفضل مبيعاً عن سيرته الذاتية إلى الألمانية "قيودي وحريتي"، وعندما قابلته في منزله رقم ١٠٢٣ بشارع ساوث، إذ دارت تأثراً بصوته ومظهره، وعندما رأت أنا لأول مرة ظننتها الخادمة ٩٦. منذ بداية علاقتهما، نظرت آسنج له بغرابة وجعلته مثلاً أمامها ٩٧. في مقدمة ترجمتها لكتابها ذاك تصوره كجسيد حي "لبطل خيالي" و"سيد كامل" لفن الخطابة، ذي صوت حاد مرن يقطر شهداً يصل للقلب كلما سمعته وتقول: "عندما يتكلم دوجلاس، ينداح مستمعوه مع كلماته .. كما لو كان حوارياً جديداً قد بدا لهم للمرة الأولى كحقيقة سكنت في صمت في سويداء قلب كل امرئ". ومثل القديس بولس استطاع دوجلاس أن يقلب إيمان الجماهير. وفقاً لما ذكرته آسنج، كان ازدياد حركة مناهضة العبودية يرجع أساساً لإنجازاته وشخصيته، وعندما وصفته جسمانياً وصفته بانتشاء بأنه: "رفيع وطويل ذو سمرة خلاسية خفيفة وبنية قوية .. وجبهة منتصبه دائماً .. وعبقرية واضحة وأنف معقوف .. وشفاه ضيقة انحنى في جمال خلاب". ٩٨ وقعت آسنج في هوى دوجلاس فما هي ترى الحياة تماثل الفن، لكن هذه المرة في قصة أخرى إذ ترى نفسها الآن البطلة الجميلة الرائعة المستمدة صورتها من إحدى رواياتها المفضلة "أقرا-

بن" الصادرة عام ١٨٤٩ للكاتبة الألمانية كلارا موندت ٩٩٠ في  
المشهد الرئيسي لرواية موندت تقع أقرأ في حب رجل ثوري مهذب  
أسود، ١٠٠ وفي الأحداث تقول آسنيج لنفسها، تماماً كما حدث في  
أحداث موندت، أن البطل الأسود متزوج بالفعل وهذا لايهمها حيث  
في الأدب العظيم- وهو يشبه الحياة المعاشة تماماً- على البطلة أن  
تتم قصة حبها وتضحى بنفسها في سبيل من تحب. كانت تلك  
الحبكة الرئيسية الحقيقية الوحيدة، فلا عجب إذن أن تجاهل آسنيج  
ذكر أنا في مقدمتها للكتاب. كما كتبت في تناقض غريب: "إن  
زوجة دوجلاس سوداء تماماً"، وفي تصريحاتها الخاصة كانت تشير  
لأننا على أنها "ولاية حدودية" تحمل علامة طريق بارزة (تقصد  
دوجلاس) ١٠٢٠

بالفعل، ضحت آسنيج بنفسها من أجل بطلها لأن شقتها  
هى التي اتخذها دوجلاس ملجأ في هوبوكن مع بدايات أحداث  
غارة جون براون وكان رجلاً مطلوباً تبحث عنه السلطات  
الفيدرالية من أول الرئيس حتى أدنى مسئول في كل مكان تطلبه،  
وكانت آسنيج هي التي هرعت إلى مركز البرق "التليغراف" لترسل إلى  
دوجلاس رسالة شفرية تخبره بضرورة تدمير أو إخفاء أية وثائق  
حساسة تتعلق بـ براون. دون معوتها، ربما لثم القبض عليه وإرساله  
الى فرجينيا حيث يحاكم ويعدم بالتأكيد ١٠٣٠



لقد حققت آسنيج قصة حبها لبطلها، في خيالها على الأقل، وأخبرت أختها في أحد الخطابات: "عندما ترتبطين بشكل حميمي برجل مثل ارتباطي بدوجلاس، سيكون عليك أن تعرفي رجلاً . . . من منظور لا يمكن أن يبدو إليك مختلفاً." وفي خطاب آخر تفخر بأنها ودوجلاس "قد اتحدا في حب أعمق من حب الكثيرين ممن تزوجوا." ١٠٤ قضت آسنيج معظم أوقات كل صباح مع أسرة دوجلاس، وعندما كانت تعود إلى هوبوكن في الخريف كانت تبقى متطلعة لإجازتها الأسبوعية "موعد خطابات دوجلاس لها." ١٠٥ وعندما خطط دوجلاس رحلته إلى هايتي، قامت بترتيبات الذهاب معه. كان واضحاً أنهما سيكونان معاً فقط طالما كان على آنا والأطفال البقاء في المنزل في روشيستر، وطمعت آسنيج في قضاء بعض من الوقت مع دوجلاس في بلد بعيد بدون "ولاية الحدود" آنا التي تتدخل في شؤون حبهما. ١٠٦

بلا أي شك، كان دوجلاس وآسنيج صديقين حميمين. لكن إلى أي مدى كانت علاقة حبهما عميقة وجنسية بشكل معروف؟ فالمصادر الوحيدة الباقية تفترض وجود حميمية جنسية بينهما تبدو من مجموعة الخطابات التي كتبتها أوبتلي لأختها لودميلا بعد الحرب. ١٠٧ في ذهن آسنيج أنها حققت ماتحب. لكنها كانت تكره أختها، ففي الحقيقة كانت آنا "ودودة ومحبة مقارنة بلودميلا." ١٠٨



إذ كانت أختها منافستها وغريمتها وكان واضحاً أن آسنيج أخبرت  
لودميلا بعلاقتها بدوجلاس بعدما علمت بأنها تزوجت بأرستقراطي  
ألماني، ووصفها للحب بأنه أعمق من الزواج يعكس أماني بالزهو  
والفخر، فمع الخصوم والغرباء كانت تغطي عدم شعورها بالأمان  
وغيرتها بالتباهي الثقافي. ١٠٩

يظهر دوجلاس في كتاباتها كصديق غامض، وكان منفتحاً  
بمشاعره نحو أصدقائه المقربين الآخرين من أول جوليا جريفيث وإيمي  
بوست حتى جيريت سميث، وفي الواقع نادراً ما ذكر آسنيج في  
كتاباته العامة أو الخاصة عدا في خطاباتة إلى جيريت سميث الذي  
كان صديقاً لآسنيج كذلك. قد يكون ذلك الصمت قد نشأ من  
شيء يريد دوجلاس إخفاءه إذ أمكنه عقد علاقات جنسية معها  
دون المخاطرة بأن تحمل منه وبالتالي تدمر مستقبله لأنها عام ١٨٦١  
كانت قد وصلت إلى الثانية والأربعين من عمرها.

كانت هناك عوامل أخرى عدا أنا أتمنعه من جعل ارتباطه  
بآسنيج أبدياً. من هذه العوامل - على أية حال - أنها كانت نخبوية  
"متعالية" إذ كانت غير متعاطفة كلية مع فقراء أمريكا وطبقاتها  
الجاهلة خاصة المهاجرين. كما أطلقت على نيويورك "ماوى حثالة  
الأمم بسبب الجماعات الأيرلندية الوقحة والجاهلة." لقد صرحت  
في أحد خطاباتها له: "إنه من السهل تعليم قطعة قواعد النحو عن

تعليم أحد سكان "ولايات الحدود". ١١٠ ظل دوجلاس يحمل مشاعر طيبة نحو زوجته رغم الضغوط الواقعة على زواجهما. كما أن معتقداتهما النسبية أبقتهما بعيدين، فدوجلاس يؤمن بإله حي يستطيع تغيير أمور العالم فيقول: "كل الأمور ممكنة بيد الله، وأنا أؤمن بالألفية". ١١١ كانت آسنج تفزع من تلك المشاعر لأنها كانت ملحدة في الصميم وتحمل تعاطفا قليلاً لمعتقدات أي شخص آخر حيث استبدلت الحقيقة في الفن والخبرة الجمالية بالعقيدة، وأقرت بالفجوة الروحية الشاسعة التي تفصل بينهما فصرحت: "إن التعاطف الشخصي وتوافق العديد من القضايا الأساسية تجمعنا معاً. لكن هناك عقبة تقف أمام الصداقة الودودة والدائمة هي بالتحديد . . . الإله المسيحي بشخصه". ١١٢

ربما كانت صدفة أنه في الوقت ذاته الذي تدخل فيه آسنج حياة دوجلاس وتشن حربها

-----  
!؟ - ١١١

الخاصة على أنا، تنقسم الأمة على نفسها، فالكثير من الأمريكيين نظروا لأمتهم كمائلة واحدة. كانت ماري تيشيسنوت قد كتبت في مذكراتها بعد فترة - رغم أنها أرستقراطية من الجنوب -

"لقد انقسمنا بسبب عدم توافق طباعنا ... لقد تم طلاقنا ..  
شمالاً وجنوباً لأننا كرهنا بعضنا البعض." ١١٣ في حين رأى  
دوجلاس أن هناك علاقة وثيقة بين العائلة والأمة وبين الطلاق  
والانفصال. ١١٤

لو كان تدمير العبودية الطريق الأسرع لإنهاء الحرب، فإن  
إيقاف التمرد داخل الوطن أكثر صعوبة في التعامل؛ فوسط ذلك الجو  
لم تعد قدرة دوجلاس على التمييز بين الصواب والخطأ قاطعة  
وواضحة، فهو غير مستساغ وصارم في معارضته للعبودية وتصميمه  
على أن يقوم الأمريكيون بالتفريق بين ولائهم للأمة وولائهم للعبودية.  
لكنه في علاقاته الشخصية يبحث عن التوافق والاعتدال، فقد أعاد  
وحدته مع ويليام لويد جاريسون خلال الحرب، مستبعداً صراهما  
الطويل المرير الذي امتد لعقد من الزمان. كما كتب خطابات ودودة  
لسيده السابق توماس أولد يخبره فيها أنه يحبه، بل ووزع عواطفه بين  
زوجته وأوبتلي آسنج طوال عشرين عاماً، واتخذ لنكولن صديقاً  
رغم انتقاده لسياساته.

\*

أخذ المد يتغير ببطء، وبنهاية فبراير قام دوجلاس بتجميع  
قائمة انتصارات الاتحاد من جانب والكونفيدرالية من جانب آخر  
واستنتج من منظور عسكري بحث أن الاتحاد قد سحق المتمردين



بفوزهم بثلاث معارك مقابل كل معركة يفوز بها العدو. كان الاتحاديون في كل مكان يتהלلون فرحاً بينما المتمردون يشملهم اليأس، وسوف تستمر مسيرة الإنتصار طالما امتلكت قوات الاتحاد قواتاً مدربة تعدل ثلاثة أضعاف قوات الكونغو الديمقراطية. ١١٥ كان المتمردون يتباهون بأن رجالاً واحداً من الجنوب يكافئ خمسة من رجال الشمال، فأخذ ذلك الفخر يتلاشى من صفحات جرائدهم، وأبدلوه "بصرخة السخط" وبالتالي يكون المتمردون قد فشلوا عسكرياً، وهذا ما استخلصه دوجلاس. ١١٦

كان "قلب الشعب" في مكانه الصحيح لدى مواطني الشمال، ففي فبراير ١٨٦٢ انطلق دوجلاس في رحلة إعصارية لمدة أسبوعين غطي فيها آلاف الأميال، تحدث لصالح جمعية تحرير العبيد وقابل فيها عشرات الآلاف من البشر، وتعامل مع تلك الرحلة على أنها حملة سياسية. وكبداية لكل حديث، كانت موضوعات الحرب والعبودية أكثر انتشاراً وشعبية من أخبار الطقس. هكذا، كان من السهل اجتذاب الناس رغم كونه أسوداً، وتحدث إلى المسافرين في محطات القطارات ومراسي الأنهار وفي العربات وعلى أسطح السفن، وأثناء تناوله طعامه بالمطاعم، بل مر بالموائد ليرى كيف يشعر الناس تجاه الحرب والعبودية؛ وفي المساء كان يذهب للناس في بيوتهم ويجلس حول النار للحديث حول مستقبل الأمة.

كما اختلط بالناس في الكنائس وصالات الاستقبال بعد محاضراته ليتوصل للرأي العام ومشاعره. رغم الطبيعة القاسية للرحلة والطعام السيء والدخان الذي ملأ جو القطار ومرور بعض المخمورين من الديمقراطيين الذين تجاهلونه مغمفين بكلمة "زنجي"، إلا أن تلك الرحلة ملأته بالشجاعة فقال جملاً: "إن الشعب جاهز تماماً لإزاحة العبودية من الوطن حالما تبدأ الحكومة في قيادة الطريق، أو تنحى عنه." فالرأي العام كان إلى جانبه، وانتصارات الاتحاد وجماعة تحرير العبيد أخذوا يحولون الشمال ضد العبودية. ١١٧

عندئذٍ، وفي أبريل من عام ١٨٦٢ مرر الكونجرس قانوناً لإلغاء الرق في مقاطعة واشنطن وكانت تلك أول مرة منذ عام ١٨٤٦- عندما ألغت نيوجيرسي العبودية بأول قانون يُمرر في تاريخ الأمة بشأن تحرير العبيد. ١١٨ منذ ذلك الوقت تزايدت أعداد العبيد بنسبة ١٥ مليون نسمة.

أرسل دوغلاس إلى تشارلز سومنر ليشكره على تقديم مشروع القانون إذ أصبحا صديقين مؤخراً، خاصة وأن ضرب سومنر بالعصا قد أدى به للتواضع، وأزال الكثير من التعالي الذي وقف في طريق علاقته بالسود. تراسلا بانتظام وأرسلا لبعضهما مجموعة من كتاباتهما، وكان سومنر "أفضل تجسيد لمبدأ مناهضة

العبودية الموجود الآن في مجالس الأمة. " قال دوجلاس في مذكرة تهنئة: "فليحفظك الله!" ١١٩

رغم تلك النجاحات الحالية، نظر دوجلاس للتكون على أنه مازال عائقاً، فهما كانت نواياه، كانت أفعاله "تحسب في خانة حماية ووقاية النظام العبودي." ذلك ما قاله دوجلاس لجماهير يفوق عددها ألفي شخص في الخلاء احتفالاً بيوم الرابع من يوليو في منطقة هيمرود بإقليم فنجر ليكس في نيويورك. ١٢٠ وقف كالنبي وسط أشجار الصنوبر في خطابه، وتجمع الناس حوله في دائرة. كان يرتدي بزة زرقاء فاتحة اللون تباري لون السماء، بدت ترسل أشعة لامعة منعكسة من الشمس على فترات. على مبعده، كانت فرقة موسيقية تعزف بهدوء كما لو كانت ترافق ابتهالاته الثرية والمتنافرة مع سياسات الرئيس المضللة. ١٢١

منذ بداية الحرب ولنكون تقوده فكرة ولايات الحدود لا الولايات الحرة إذ أراد "إعادة بناء الاتحاد على أساسه الفاسد القديم القائم على التوافق" فقط ذلك النظام الذي يحتفظ فيه ملاك العبيد بكل السلطات التي كانوا يملكونها دوماً. ١٢٢ على ذلك، رفض تسليح العبيد كما رفض تحريرهم. كما ألغى تصريح الجنرال فيرمونت بتحرير العبيد، ثم بعد ذلك قرار الجنرال دافيد هينتر الذي أعلن في مايو ١٨٦٢ قانون الأحكام العرفية في ساوث كارولينا

وجورجيا وفلوريدا وقرر إعلان عبيد تلك الولايات أحراراً للأبد .  
في ذات الوقت، منع الجنرالات الذين يناهضون العبودية من التدخل في  
شئون نظام الرق، بل وسمح للقادة مؤيدي العبودية مثل الجنرال هنري  
هاليك وجورج ماكيلان "باتهاك روح قانون المصادرة الذي اعتمده  
الكونجرس ويمنع جيش الاتحاد من إعادة العبيد الهاربين إلى ساداتهم  
الخونة، وكأننا أراد أن يضيف الإهانة للجراح. في نفس يوم تعطيله  
لقرار الجنرال هنتر بعق العبيد، صرّح علانية أنه سوف يدافع  
بصرامة عن قانون العبد الهارب. ١٢٣

أضحت سياسات لنكون أكثر مأساوية لأن الأمة أصبحت  
الآن أكثر قدرة عن ذي قبل على تحقيق مثلها العليا، فدوّن  
دوجلاس ذلك: "هناك مبادئ في وثيقة إعلان الاستقلال سوف  
تطلق سراح كل عبد في أرجاء المعمورة، وتعد الأرض لاستقبال  
ألفية الحق والسلام. " لكن بالنسبة للنكون "يا للحسرة!" ١٢٤ أخبر  
لنكون مستمعيه أن هذا الاتحاد لا يمكن إبقاؤه حيث لا يمكن إعادة  
بنائه، كما كان قبلاً. "عليكم أن تعرفوا تلك الحقيقة!" قال ذلك  
وقدم لهم استراتيجيتين بسيطتين لتدمير الوحشين التوأمين: التمرد  
والرق. أولاً، "على الكونجرس أن يقرّ قانوناً حاسماً للمصادرة يعلن  
أن كل عبيد السادة المتمردين أحراراً للأبد!" ١٢٥ ثانياً: على

الرئيس - كهائد للأمة - أن يصدر قراره الخاص بتحرير العبيد ليمنح قانون المصادرة أسناناً يأكل بها .

أعلن العديد من الحاضرين احتفالات الرابع من يوليو، بين أشجار الصبار تلك، أن لنكون كان نبياً إذ بعد ثلاث عشرة يوماً تالية - أي يوم ١٧ يوليو - اعتمد الكونجرس قانون المصادرة الثاني الذي أعلن أن كل العبيد داخل حدود الاتحاد أحراراً للأبد، ودعا الرئيس لتحرير كل عبيد السادة المتمردين. ١٢٦ طلب القانون من الرئيس أن يعطي مهلة لكل المتمردين قدرها ٦٠ يوماً للعودة إلى الاتحاد أو مواجهة المطاردة واحتجاز أملاكهم. كما يمنح السلطة للرئيس لاستخدام وتسليح السود في الجيش ويوفر "مستعمرات اختيارية" في بعض "البلدان الأجنبية" لأولئك العبيد الذين تم تحريرهم أثناء الحرب. ١٢٧

كان قانون المصادرة الثاني ثورياً في محتواه، رغم مادته الخاصة بالمستعمرات، فتأثيره يعتمد على لنكون وفقاً لما لاحظته دوجلاس بقوله: "إن السلطة الوحيدة القادرة على نفخ الحياة في ذلك القانون موجودة لدى الرئيس." فلو أمر لنكون قواده بمصادرة جميع أملاك المتمردين، وأصدر تصريحاً بعق العبيد وأمر الجيش والقوات البحرية بتشغيل السود، عندئذٍ سوف يؤدي القانون - مدعماً



بتصرفات لنكون المؤيدة- إلى تغيير الأمة. وإذا لم يفعل لنكون شيئاً،  
فسيبقى القانون أفضل قليلاً من رسالة ميتة. ١٢٨

انتظر دوجلاس ماسيفعله الرئيس بقلق، وفي يوم ٢٥ يوليو  
أصدر لنكون بياناً يحذر فيه الجنوبيين بضرورة إيقاف تمردهم  
وإعلان عودتهم للولايات المتحدة وإلا ستعرض أملاكهم  
للمصادرة. ١٢٩ لم يصل ذلك التصريح بالنسبة لدوجلاس إلى المدى  
المطلوب لأنه لم يذكر شيئاً عن حالة العبيد، وصمت عن تشغيل  
وتسليح السود، فما زال لنكون كثير التردد شديد البطء في أفعاله.

كان هناك مصدراً واحداً مشجعاً جاءه من تشارلز  
سومر، الذي قال إنه يعرف الرئيس عن قرب وحرص دعاة التحرير  
على الوثوق به حيث قال: "أتمنى أن تكونوا قد عرقتم الرئيس جيداً  
وسمعت تعبيراته الصريحة عن قناعاته بشأن العبودية ولربما تمنيت لو  
كان أقل حذراً. لكنكم ستحمدون له أنه خصم عنيد للعبودية في  
قرارة نفسه." وأضاف مدعماً للنكون: "... حتى لو كان عليكم  
أن تدفعوه قدماً." قام دوجلاس بنشر خطاب سومر في  
صحيفته. ١٣٠ بعد أسابيع قليلة، فقد دوجلاس الثقة في لنكون من  
جديد، ففي أغسطس التقى الرئيس بوفد من السود الأحرار من  
واشنطن وقام بتشجيعهم على الهجرة، وربما شعر دوجلاس بأنه  
عومل بازدراء عندما لم تتم دعوته للقاء، وكان قد اشتعل غضباً

برسالة لنكون أن السود هم من تسببوا في الحرب وأنهم لا يمكن أن يتساووا بالبيض، وأنهم يجب أن يهاجروا إلى بلد مداري. كما استنتج دوجلاس استجابة لنكون على أنها "إنني لأحبكم. عليكم أن تحتقوا من أرض الوطن!" ١٣١ لم يكن الرئيس يهتم بالإنصاف لما يقوله السود، فكل خطوة في مهامه الرئيسية تتعلق بالعبودية تثبت أنه نشط لتدعيمها وسلي "نحو قضية تحرير أولئك الذين يدين لهم بانتخابه. " ١٣٢ فجأة في ٢٢ سبتمبر، ومثل زلزال في السماء، أعلن الرئيس بيانه المبدئي بشأن تحرير العبيد إذ أعلن أنه يوم ١ يناير عام ١٨٦٣ سيكون كل عبيد الملاك المتمردين "أحراراً للأبد"، وأمر أفراد القوات المسلحة بالاعتراف بحريتهم (وكان قرار الانعقاد النهائي يخول للقوات المسلحة تشغيل السود)، بل إنه تقدم خطوة أبعد من خطوة قانون المصادرة بتحريض الكونجرس على تحرير العبيد في ولايات الحدود بتعويض سادتهم. بعد يومين، علق العمل بقانون "المشول أمام القضاء" لكل المتمردين ومحرضيهم وأمر بمعاملتهم كأسرى حرب. ١٣٣

كانت لحظة أنباء البيان التمهيدي لقرار تحرير العبيد أسعد لحظات حياة دوجلاس. كان يعمل بمنزله في روشيستر عندما سمع الإعلان وكتب استجابته للموقف وظهرت على الصفحة الأولى لجريدته. كاد لنكون يتسبب في انكسار مشاعره من "بطء

التشاور" وأغرقه ذلك في أعماق اليأس. ١٣٤ لكن مثل عمل ضاع وتم استرداده، تجددت آماله فجأة من أجل الأمة فأعلن: "لقد عشنا لنسجل هذا القرار الصحيح." ١٣٥ لقد كرس كل ساعة من ساعات يقظته منذ لحظات صباه لإنهاء العبودية. فحينما كان طفلاً على الشاطيء الشرقي لماري لاند، كان يتساءل لماذا السود هم العبيد؟ ومن تلك الساعة فصاعداً تردد صدى "الصرخة التي وصلت إلى شغاف روحي وأكثرها سكونا، ليلاً ونهاراً" وتساءل: إلى متى؟ إلى متى . . رباه؟ أيها القوة الأبدية للكون، إلى متى ستستمر تلك الأوضاع؟ ١٣٦ الآن عرف. إن خلاص الملايين أوشك على التحقق.

لم يعد لدى دوجلاس أي شك في أن إعلان الرئيس بالتحريم مع قانون المصادرة الثاني سوف يؤيدان سريعاً لنهاية الرق في جميع أرجاء أمريكا. "فالعبودية بمجرد إلغائها في ولايات التمرد سوف تصاب في مقتل في ولايات الحدود إذ عندما تتحول أركانساس إلى ولاية حرة، لن تستطيع ميسوري الاستمرار كولاية للعبيد." ١٣٧ ما لم يكن لنكون متأكداً منه هو إلى أي مدى سيستطيع لنكون الاستمرار في التمسك بقراره؟ لأنه خلال الأيام والأسابيع التي أعقبت ٢٢ سبتمبر نادراً ما ذكر الرئيس أي شيء عنه. الأكثر من ذلك أنه بدت دوافعه منطلقة من الضرورة العسكرية المجردة. كما أنه أبدى في كل تصرفاته السابقة

اقتداراً واضحاً لمشاعر العداوة الفاعلة ضد العبودية. ١٣٨ لكن  
دوجلاس عرف أنه لا لنكون ولا أي إنسان آخر له السيطرة على  
حركة العتق، فهناك أحداث أعظم كثيراً من سلطات الرئيس "قد  
انتزعت ذلك القرار منه". "هذا ما ذكره دوجلاس مضيفاً أن نفس  
تلك الأحداث سوف تدفعه للمزيد: توقيع القرار النهائي  
بالخلاص. ١٣٩ كل يوم، كان العبيد يفرون من ساداتهم باتجاه حدود  
الاتحاد، وكان دعاة التحرير يتحدثون بلغة واحدة، وعمل الجمهوريون  
في الكونجرس على إلغاء العبودية، وقام جنود الاتحاد بقتل خائني  
الوطن. كان كل ذلك جزءاً من موجة العناية الإلهية المقدمة  
لاكتساح الأرض. لذلك يصبح غريباً أن نفترض أن رجلاً واحداً  
بيده خلاص أربعة ملايين عبد. إذن، لن يتخذ أبراهام لنكون أي  
خطوة للتراجع، وحتى لو حاول فسوف تخرسه وتكسحه موجة  
التقدم.

وبينما اقترب يوم الخلاص، بدا دوجلاس غير قادر على  
الكلمات، ففي يوم ٢٨ ديسمبر، وهو الأحد السابق لتفعيل قرار  
التحرير، تحدث في كنيسة جبل صهيون الأمريكية بروشيستر وهي  
من الأماكن المفضلة لديه لأنه عرف شعبها وأحب حاراتها القوطية  
الطراز بزجاج نوافذها المتداخلة الألوان الذي يبدو - خاصة الآن -  
متزججاً. كانت السماء بلا سحب، "شمسها مشرقة والجو

معتدل" وكان ديسمبر بهيجاً كما لو كان مايو وكان اليوم "منسجماً مع صباح الحرية المجيد الذي على وشك أن يهل علينا". توقع المصلون ساعتين تقريباً من الوقت لأداء خطبة دوجلاس لكنهم بدلاً من ذلك تلقوا موعظة في عشر دقائق. كان ذلك أقصر خطاب في حياته لأنه بدأه بقوله: "ذلك يوم يصعب فيه الكلام ثراً . . . إنه يوم الشعر والغناء . . . أغنية جديدة". "١٤٠ هاكم واحداً من أعظم خطباء العالم، بدأ كلامه بقوله إن ذلك ليس وقت الكلام، فالكلام لا يمكنه أن يحمل العاطفة التي يريد نقلها للآخرين. إن الكلمات لا يمكنها أن تصور العهد الجديد القادم بدقة. لقد طغى أمله المستعاد من أجل الوطن على إيمانه بقوة تأثير "الحكي". ١٤١

في يوم رأس السنة الجديدة لعام ١٨٦٣ ألقى دوجلاس خطاباً قصيراً آخر، واستلهمت مئات الاحتفالات عبر بلدان الشمال روح العصر الجديد، ولم يكن دوجلاس وحيداً في تفضيله الموسيقى والشعر وصيحات الفرح على إلقاء المحاضرات. أما في بوسطن فقد شهد ثلاثة آلاف شخص من بينهم أغلب أدباء نيو إنجلاند حفل اليوبيل بقاعة "ميوزيك هول" بينما فضل دوجلاس حضور احتفال أقل أناقة أقيم بمنطقة تيرمونت تمبل القريبة في كنيسة معمدانية تقع على بعد مبنى واحد في مجلس العموم. كان منظر الكنيسة من المشاهد المتكاملة القليلة في بوسطن وكانت لها شهرة مثيرة بين

الراديكالين، فغالبا ما ألقى كل دعاة التحرير الرئيسيين خطبهم هناك، من ويليام لويد جاريسون ووينديل فيليبس حتى جون براون وجيريت سميث. حتى لتكون ألقى محاضرة بها، ودوت رنات لكتته الغربية في أرجاء حوائطها عام ١٨٤٨ أثناء دعوته لانتخاب زاكري تايلور. كما أن دوجلاس قد خطب في هذا المبنى في عدة مناسبات، كانت أقربها منذ عامين مضيا في ذكرى استشهاد جون براون، وقد حاولت جماعة من العامة منعه من الكلام. لكنه شق طريقه بقوة للمعبد "مثل محارب مدرب" وألقى رثاءه، ١٤٢ فياذا لم تستطع الكراهية أن تخرسه، فالسعادة الآن تطير به فلا يقدر على الكلام.

تقابل أكثر من ثلاثة آلاف من السود والبيض ودعاة التحرير في الصباح عند المعبد، وقد ألقى المؤرخ الأسود ويليام كوبرنيل محاضرة حول معنى "عيد العام الجديد للعبيد" قال فيها: "إنه تقليديا يصبح علامة على نهاية أسبوعٍ بكامله من الشراب والاحتفال والراحة في العمل، وكان معروفاً أيضاً "بيوم انكسار القلب" لأن كثيراً من العائلات كانت تباع وينفصل أفرادها. لكنه من الآن فصاعداً سوف تميز رأس السنة الجديدة "بالجد الخالد في تقويم الزمن". ١٤٣ خلال اليوم، أقيمت عدة خطب وقطع الموسيقى. لكن، لا وجود لإعلان قرار العتق النهائي. اختتم دوجلاس مساء تلك الجلسة بقوله إن تلك اللحظة تمثل افتراقاً حاداً عن خطايا الماضي "لقد مررنا بفترة من

الظلام الحالك، لكننا الآن نرى ضوء الفجر ونلتقي الآن للاحتفال به. "١٤٤ في المساء، امتلأ المكان بالموسيقى والأحاديث وغيرها بينما كان ينتظر كل امريء كلمة من واشنطن بقلق شديد، وفي الساعة ١١ مساءً قال دوجلاس: "لن نعود لبيوتنا حتى الصباح." إذ شعر بالكتابة وبدأ يفقد الأمل كله من جديد. لماذا يتأخر لنكون دائماً إلى هذا الحد؟ فجأة اندفع رسول داخل القاعة وأعلن: "إنه قادم... إنه على أسلاك البرق (يقصد القرار)." وانفجرت القاعة بصيحات الفرح. هنا قال دوجلاس: "لم أر سعادة مثلها قبلاً... ولم أر حماسة مثل تلك من قبل. لقد صفقنا لأبراهام لنكون ثلاث مرات ولكل امريء آخر ثلاثاً." عندئذٍ، بدأ يغني تلقائياً الأغنية البطيئة "فلتدوأيها البوق... دو!" وهي أنشودة جون براون المفضلة.

"فلتدوأيها البوق... دو،

بذلك الصوت المبهج الجاد

ودع كل الأمم تعلم

إلى أبعد حدود الأرض،

أن يوبيل العتق آتٍ الآن،

ليعيدكم أيها المرتهنون بالخطيئة لوطنكم!



بصدور قرار التحرير، تغيرت اتجاهات ودجلاس نحو لنكون  
فجأة بصورة درامية، ولم يعد ثانية لانتقاد الرئيس بقسوة رغم أنه  
واصل الاختلاف معه حول الكثير من الأمور. لقد عرف جيداً أن  
ذلك القرار يعد وثيقة ثورية حولت الحرب إلى "سباق حضاري ضد  
البربرية" بدلاً من القتال من أجل الأرض، ويتطلب هذا "طاقة وحياة  
أبعد كثيراً مما بها من كلمات" بالنسبة "له". كما أصبحت وثيقة  
مقدسة أخرى أعادت إعلان الاستقلال لمكانه الصحيح وسط قوانين  
الأمّة، وصرح أنه من الآن فصاعداً سيعيد يوم الأول من يناير ومعه  
الرابع من يوليو عيدين توأمين لميلاد الحرية. ١٤٦

كل ما كان يحتاجه لتكون هو الزمن، فكل شيء يحدث  
بصورة متسارعة يهتز ويدور خارج السيطرة حيث بدا عالمه كله  
دوامة أبدية من الحركة. لقد أراد من كل فرد في الوطن - خاصة  
الجنوبيين - أن يسيطر على نفسه وأن يهدأ قليلاً. لقد ضرب مثلاً  
كرجل دولة يسيطر على الزمن وعلى عواطفه. خلال الأشهر الأربعة  
ما بين انتخابه ووصوله إلى واشنطن، تصرف كما لو كان يمتلك كل  
أوقات العالم. في الواقع، قام هو وماري بالتعامل مع تلك الفترة كأنها  
شهر عسل للرئاسة، فذهبت ماري لنيويورك ثم إلى سانت لويس  
لشراء خزانة للثياب طالما سيتقاضى زوجها ٢٥٠٠٠ دولار في العام  
أي خمسة أضعاف متوسط راتبه السنوي السابق، ولن تقلق بعد



ذلك بشأن الأسعار، خاصة وأنها تحب التسوق، ولفت ذلك أنظار  
التجار الذين كانوا يتلهفون على عرض بضاعتهم وإقناعها بشراء ثوب  
آخر. ١٤٧

بقى لنكون في سبرنجفيلد يمتع جحافل زواره بحكاياته  
الطويلة، ونكاته الرديئة مقتبساً الكثير من خرافات أيسوب، وقد  
استمع عدد لا يحصى من الساعين إلى مكتبه لقصته عن الثور  
الآيرلندي وباتريك وحذائه الجديد. قال باتريك: "لن ألبسه أبداً  
... حتى أرتديه يوماً أو اثنين فيتسع قليلاً." في هذه اللحظة  
يضرب لنكون فحذه أو "يجذب ركبتيه لأعلى حتى يقترباً من  
وجهه" ويضحك بصوت كالزئير حيث تتردد أصدااء ضحكته حادة  
النبرات في أرجاء بيت الرئاسة بسبرنجفيلد. ١٤٨ كما قام لنكون  
باستقطاع جزء من وقته خارج العمل لزيارة زوجة أبيه سارة بوش  
جونستون لنكون التي لم يرها منذ سنوات، وكانت تعيش بمقاطعة  
كولز في جنوب شرق الولاية. وكما يصل إليها، كان عليه أن يسافر  
بقطار شحن بارد قدر ثم بواسطة عربة يجرها جواد ليصل إلى  
هناك. صرخت سارة عند رؤيته، فلم ترغب يوماً أن يرشح نفسه  
للرئاسة والآن يملؤها القلق "لما قد يحدث له في واشنطنون." فأكد  
لها: "لا.. لا يا أمي! ثقي في الله وسيكون كل شيء على مايرام،  
وسوف يرى بعضنا البعض قريباً!" ١٤٩



بدأ لنكونن يترك لحيته تنمو استجابة لمستشاريه من الجمهوريين والمحبين رغم أنها بدت كفروة خروف مشوهة طالما كان لديه سواف خفيفة على جانبي خديه. كان ما أقنعه لتجربة ذلك الشكل الجديد خطاب تلقاه منذ أسابيع قليلة سابقة على الانتخابات من الفتاة جريس بيريل- ذات الأحد عشر عاماً- في ويستفيلد بنيويورك بالقرب من بحيرة إيربي. كانت جريس قد وعدته باحضار أخوتها لانتخابه إذا ماترك لحيته تنمو قائلة: "سوف تبدو أفضل كثيراً لأن وجهك رقيق جداً... فكل السيدات يحبن سواف الرجل وسوف يدفعن أزواجهن للتصويت لك. عندئذٍ، ستصبح رئيساً." تأثر لنكونن كثيراً باقتراحها وأجابها بملحوظة شخصية صغيرة، قال لها فيها إنه لسوء الحظ ليس لديه بنات وأن لديه ثلاثة أبناء "أكبرهم في السابعة عشر من عمره والثاني في التاسعة والأصغر في السابعة من عمره. أما بالنسبة لسوافي، فلم أترك أياً منها تنمو من قبل. أفلا تظنين أن الناس سيقولون إنه شيء سخيف إذا مابدأته الآن؟" ١٥٠ إلا أنه نفذ نصيحته على كل حال ربما لاعتقاده أن السواف ستضفي عليه مظهراً أكثر تبجيلاً، أو قد يكون وافقها لأن وجهه- فعلاً- رقيق جداً.

علق العديد من الناس على طيش لنكونن وخفته خلال الشهور بين الانتخابات وبين استلامه لمهامه. لم يفهم ذلك الكثير من

الزوار، أو أنهم استنتجوا أنه غير صالح لحكم البلاد. لكن روح الدعابة كانت طريقته في التعامل مع الأزمات الخطيرة. ذات ليلة خلال عشاءه بأحد المطاعم، تقدم إليه أحد المعجبين ليخبره بأنه يأمل أن يسخر حياته لحمايته، فابتسم لنكون واندفع يقص عليه قصة جندي نسجت له أختاه حزاما مكتوب عليه: "النصر أو الموت!" فقال الجندي "لا،.. لا تكتبوا تلك الجملة بهذه الصراحة، بل اكتبوها هكذا "النصر أو الجراح البالغة!" ١٥١

استخدم لنكون روح المرح - أيضاً - مع السياسيين الذين كانوا يعارضونه. ذات مرة، سافر الحاكم السابق لولاية كينتوكي إلى سبرنجفيلد ليحضره على الاستجابة لمطالب الانفصاليين وابتسم لنكون - من جديد - ثم يروي له خرافة من أسوب عن الأسد الذي يقع في حب ابنة الفلاح، فطلب الأسد يدها - وهو منهار تماماً - للزواج، ووافق الفلاح شريطة أن يقوم الأسد بخلع أنيابه ونزع مخالبه كيما يهديء من روع ابنته فوافق الأسد، وحالما نزع أنيابه ومخالبه، ضربه الفلاح بهراوته وطرده بعيداً. أعجب المسئول الكينتوكي بالحكاية، ولكن لم تعجبه المقارنة بين الفلاح صاحب العصا وبين ملاك العبيد. ١٥٢.

نشأ جزء من طيش لنكون بسبب افتراضه أن الانفصاليين كانوا يناورون وأنهم سوف يعودون سراعاً للاتحاد، ومنذ اتفاق

ميسوري لعام ١٨٢٠، كان يقوم ملاك العبيد وحلفاؤهم بالناورة والالتفاف حول واشنطن حتى أصبحت نظم العبودية مؤسسة قومية كاملة، وأصبحت الحرية- في المقابل- رفاهية حزبية. وفي مواجهة العديد من خطط التوافق التي تدور في قاعات الكونجرس، وتهديدات القتل التي تجاهلها لنكون، التزم "صمًا مطبقًا" وفقاً لصياغة دوجلاس عدا محاولته طمأنة الجنوب إلى أنه لن يتدخل في شؤون العبودية بولايات العبيد ١٥٣. في خطابه "الخاصة والسرية"، هجر لنكون نبرة الطيش والتهور إذ كان يكرر قوله للجمهوريين عبر أرجاء البلاد: "لا تتركوا مكاناً لقبول السؤال حول امتداد العبودية إذ لو وجدت لضاع كل عملنا هباءً، ولاستمر الخطأ طويلاً، ولقمنا بالدور من جديد. . . . فلأن يأتي الزورق الآن أفضل كثيراً من أن يأتي فيما بعد". ١٥٤ إن هدف كل محاولات خطط التسوية هو "وضعنا مرة أخرى على الطريق السريع لإمبراطورية العبيد". ١٥٥ وإذا لم نقم باحتواء مسألة العبيد بحذر، سيحاول الجنوبيون مرة أخرى غزو أراض جديدة أو الاستيلاء عليها لإشباع شهوتهم في الشر.

لم يجد لنكون مشكلة في منح الجنوب المزيد من الإمتيازات، ووافق على إبطال قوانين الحرية الشخصية في ولايات الشمال التي تعوق تفعيل قانون العبد الهارب. ١٥٦ كان ذلك امتيازاً هائلاً لأنه

يرفض التدخل في شؤون العبودية بالجنوب، ثم هاهو يريد أن يقلص مساحة حرية السود بولايات الشمال. كان يقول: "بالنسبة للعبيد الهاربين . . . فأنا أهتم بهم قليلاً، بل إنه وافق على جعل نيومكسيكو ولاية للعبيد لحصر المزيد من امتداد الرق." ١٥٧ تمت تلك المشروعات والمفاوضات داخل خطابات السرية، أما في العلن فقد قدم نفسه كمؤجج لرجل الدولة الواثق الذي ينتظر في صبر وهدوء أهواء الجنوب. ١٥٨

وصل لنكون لمرحلة فقدان السيطرة أثناء أزمة الانفصال وهو يعد نفسه لمغادرة سبرنجفيلد متجهاً للبيت الأبيض، بل قام بحزم منقولات أسرته بنفسه مسجلاً عنوانه عليها (أ. لنكون - البيت الأبيض - واشنطن المقاطعة) ناسياً أن كل مواطن يعرف بالضبط إلى أين هو ذاهب. ١٥٩ لقد قضى نصف عمره في سبرنجفيلد وهو هنا تحول من صبي فقير وحيد جاهل إلى أول رئيس عصامي، وعجلت تعبته لمنقولاته بدفقة عاطفية بدا معها ماضيه وحاضره أشبه بدوامه من الفوضى فجأة مثل الصور التي تلتقطها من ألبوم الأسرة وتنتشرها في الهواء.

قبل المغادرة يوم ١١ فبراير، وليومين بعد عيد ميلاده الثاني والخمسين، ذهب ليودع شريكه القانوني ويليام هيرندون، فأشار للوحة الخشبية المعلقة خارج المكتب قائلاً: "أتركها معلقة هناك



دون إزعاج!" ثم خفض صوته وأضاف: "واشرح لعملائنا أن انتخابي رئيساً لا يغير من مؤسسة لنكون وهيرندون للمحاماة في شيء، فلو عشت سأعود ذات يوم وعند ذاك سنمضي معاً في ممارسة أعمال المحاماة إذا لم يحدث شيء آخر." ١٦٠ وعندما ودع جيرانه أصيب بصدمة فكان عليه أن يتوقف برهة ليجمع شتات نفسه ليقول: "إنني أدين لهذا المكان ولأولئك الناس بكل شيء... لقد عشت هنا ربع قرن، ومررت من الصبا إلى الكهولة، وولد أطفالي ومات واحد منهم ودفن هنا، وأنا أرحل الآن لا أعلم كيف، فلربما أعود أو لا أعود، وأمامي مهمة أعظم بكثير من تلك الملقاة على عاتق جورج واشنطن دون معونة الإله الذي رافقه في حياته، وقد لا أنجح وبذلك المعونة لن أفشل أبداً... فعناية الله ترعاكم! وآمل في صلاتي لكم أن تعودوني، إنني أودعكم وداع المحبة." ثم صعد قطار الرئاسة ولم ير سبرنجفيلد ثانية أبداً. ١٦١

عكس خطاب لنكون في وداعه إيمانه المتزايد بالله باعتباره المصدر الأساسي للقيمة الأخلاقية، وأضحى احترامه المفرط للقانون والدستور باعتباره "العقيدة السياسية للأمة" كهادته عند الحديث عنه وقد حطمته أفعال ستيفن دوجلاس وروجر تاووني وباقي قادة "سلطة عمالة العبيد" وحلت قوانين الطبيعة والقانون الإلهي محل تلك القواعد العلمانية. لكنه بعكس فردريك دوجلاس لم

ير في نفسه نبياً ينفذ إرادة الله، أو حتى يدعي علمه بما يريد الله تحديداً، فالله كينونة مبهمة لا حدود لها. إن أقصى ما يأمله المرء على الأرض أن يتعرف على علامات وجود الله ثم يعقد اتفاقاً (أو عهداً مقدساً) معه، وبالإيمان به، وهو الذي لم يضيع أبداً هذه الأرض المفضلة سوف يبادل الله تلك الثقة وذلك الإيمان بإرشاد ذلك المخلص إلى طريق الحق. ١٦٢

أمل لنكون في اتفاق مشابه بينه وبين ناخبه، وخلال رحلته التي استغرقت إثني عشر يوماً حتى واشنطن توقف القطار الرئاسي عند كل مدينة وقرية، وخرج لنكون من عربته إلى الشرفة ليلقي خطاباً موجزاً طلب فيه من الناس أن يساندوه طالما وقف هو لمساندة الوطن ودعم قوانينه حسبما يفهما. ١٦٣ كانت عربة لنكون أفخم عربة نقل رآها هو أو أي شخص آخر في حياته؛ عربة تحتل مساحة ٨ × ٤٠ أقدام من الفخامة. أصبحت هذه العربة نموذجاً لعربات سفر الدرجة الأولى لرجال الأعمال بعد الحرب الأهلية، وشابهت شقة طويلة ضيقة لها مدخل وصالة عند أحد أطرافها، وغرفة نوم رئيسية، وسرير ذو طوابق للطفلين ويلي وتاد، وأريكة نوم لروبرت الذي كان طالباً في هارفارد، وحجرة جلوس ضخمة عند الطرف المقابل بباب يؤدي للشرفة حيث وقف لنكون لتحية ناخبه. ١٦٤



قضى لنكون وقتاً أطول مع عائلته في القطار عما كان يفعل منذ زواجه، وروبرت الذي شعر بهجر أبيه من قبل أحب هذا الابتاه فضاع خجله وبدأ يثرثر مع الفتيات، ويشرب كثيراً من الخمر (دون أن يعرف والده) "بل وقاد القطار لفترة". ١٦٥ وقد تجاهل الواجب الوحيد الذي كلفه به والده ربما لأنه شرب كثيراً مما أدى بأبراهام إلى أن يفقد أعصابه ويصرخ في وجهه. كان قد طلب من روبرت حراسة حقيبة تحوي أوراق خطابه الافتتاحي حيث انكب على إعدادة بمجدية أكثر من أي مقال آخر كتبه، وطبع منه نسخاً لتوزيعها بين الجمهوريين لتلقي الاقتراحات حوله وخلال ليلة استراحوا فيها، سلم روبرت الحقيبة بغياء لبواب الفندق الذي قذف بها وسط حقائب مجهولة الصاحب، وجال لنكون بين الحقائب يبحنون بحثاً عنها، ولحسن الحظ وجد الحقيبة وكل النسخ سليمة. ١٦٦

في ١٦ فبراير توقف قطار الرئاسة عند وستفيلد بنيويورك فتذكر لنكون أن الطفلة جريس بيديل من تلك البلدة، وعندما أطل من الشرفة أخبر الجماهير أنه تلقى خطاباً منها منذ ثلاثة أشهر فقال: "كان خطاباً رائعاً، وقد نصحتني فيه أن أترك سوافي تنمو لكي تحسن مظهري ... وقد عملت جزئياً باقتراحها .. وهاقد فعلت." ثم واصل حديثه: "إذا ما كانت موجودة بينكم ... فإنني أود رؤيتها." فقام صبي صغير يجلس على قمة أحد أعمدة السور



فاغراً فمه وعينه على اتساعهم، وتفحص الجمهور وصاح فجأة:  
"هاهي ... ياسيد لنكون. " مشيراً نحو قاعة جميلة ذات عينين  
سوداوين تغشى وجهها الجميل حمرة الخجل. ١٦٧ فهبط لنكون من  
القطار وشق طريقه إلى حيث تقف جريس يملؤها الخجل "وقبلها  
عدة قبلات صادقة، ثم وسط صيحات الفرح الصادرة من  
المشاهدين المنفعلين ألقى عليها تحية الوداع. ثم واصل طريقه  
للمحطة التالية. "١٦٨

اتهى شهر العسل في بالتي مور عندما علم لنكون بخطوة  
وضعت لاغتiale، حيث قام حلاق بالمدينة مع بعض من رفاقه  
بالتخطيط لاصطياده خلال تغيير القطار على خطي بالتي مور -  
أوهايو الذي يؤدي إلى واشنطن. وبناءً على نصيحة آلان بنكرتون  
والعديد من الناصحين الآخرين، تسال الرئيس المنتخب للعاصمة  
كالمطارد لتضليل القتل المحتملين، ١٦٩ وعندما انتشرت الأنباء أنه  
دخل العاصمة ليلاً متنكراً، اتهمه الكثيرون من أبناء الشمال (عدا  
السود بشكل ملحوظ) بالجن.

في ذات الأوقات، تم تنصيب جيفرسون دافيز رئيساً  
للكونفيدرالية خلال أسبوع سابق على هذه الوقائع، وخلال الأشهر  
الثلاثة السابقة كان يقف نائب وراء آخر بالكونجرس بالعاصمة ليعلن

أنه سيستقيل من منصبه، ويبدى نيته للانفصال دون أن يقوم أي فرد بالقبض عليه أو اعتقاله.

كان أمام لنكولن الآن عشرة أيام لينهي إعداد خطابه الإفتتاحي وينهي تشكيل الحكومة ويقابل المئات من البشر ويحدد كيف سيقوم بإغراء المتمردين للعودة إلى الاتحاد دون التضحية بعده أن يمنع انتشار الرق وأن يسعى لإلقائه نهائياً. كانت أكثر عشرة أيام اشغالا في حياته حتى الآن. ١٧٠ كان ينام ساعات قليلة فقط كل ليلة، وهي عادة استمرت معه للسنوات الأربع التالية معجلة بتقدمه في العمر. في أول يوم له في واشنطن، تقابل لنكولن مع ستيفن دوغلاس ووفد من سياسيي ولاية إيلينوي بفندق ويلارد، وهو مبنى ضخم من ستة طوابق بالقرب من البيت الأبيض حيث سكن لنكولن بعائلته إلى أن يتعقد حفل الافتتاح. كان لقاءه بمخضمه القديم شيئا "سارا" لدرجة غريبة" ١٧١ لأن لنكولن هو من طلب أن يرى س. دوغلاس حيث كان يأمل في الحصول على تأييده. كانت تلك المرة الأولى في حياته السياسية التي يتشاركان معا في استراتيجية سياسية واحدة لإنقاذ الاتحاد في هذه الحالة، وفجأة لم يعد س. دوغلاس خصما، وشعر لنكولن أنه إلى حد ما لم يستقر بعد كما لو كان مداره السياسي في السنوات السبع الماضية قد تناثر قطعاً فجأة.

وزع لنكون خطاباً الافتتاحي للاقتراحات، وكان غرضه أن يهديء من فورة ولايات الجنوب (فيرجينيا، وماري لاند، وديلاور، ونورث كارولينا، وتينيسي، وكينتيكي، وأركانساس، وميسوري). تلك الولايات التي بقيت ضمن الاتحاد حتى ذلك الحين. كما ملأه الأمل في "أن يهديء الانفعالات وأن يكسب وقتاً". ١٧٢

في النسخة الخطية، أقسم لنكون أن يحمي الملكية الفيدرالية وأخبر المتمردين أن الاختيار بين الحرب والسلام في أيديهم. فوق كل ذلك، كانت تلك النسخة الخطية في صورتها الأولى تعد أقل مساومة وتوافقاً عن الخطاب الذي قام بإلقائه، ١٧٣ فهو قد عارض جهود الكونجرس لإصلاح الدستور بقوله: "(إنه) لم يتأثر كثيراً بأرائهم... وأنا أعمل من أجل السفينة القديمة ومع خريطة ربابتها القدامى". هو يعني دستوراً لم تعبث به الترضيات الهيستيرية، ١٧٤ وقد أقسم على استعادة القلاع الفيدرالية التي احتلها المتمردون بدلاً من حماية القلاع التي مازالت تحت سيطرة الاتحاد كخطة نهائية للولايات، وأنهى خطابه بمقارنة واجباته المقدسة بواجبات المتمردين العلمانية قائلاً: "إنكم لا تملكون ميثاقاً مسجلاً في السماء لتدمير الحكومة في حين أنني سأحوز قسماً أكثر قداسة لحفظ ذلك الحكم وحمايته والدفاع عنه، ويعود إليكم لا إلى ذلك السؤال الخطير حول "هل سيكون الأمر سلاماً أم هو السيف؟" ١٧٥ كان لنكون يعامل

المتمردين مجزم ولكن بيد متفهمة، ولو كان ألقى تلك المسودة لأصبح فردريك دوجلاس أكثر تعاطفاً معه ومع أزمته. قدم له قلة من الزملاء بعض الاقتراحات ومنهم فرانسيس بليز الكبير العضو الجمهوري عن ولاية ميسوري، وصديقه في سبرنجفيلد أوفيل براوننج وكذلك ويليام سيوارد- الذي وافق على أن يعمل معه وزيراً للخارجية. أحب بليز وثيقة الخطاب لأنها تذكره بالقبضة الحاسمة لأندرو جاكسون حينما واجه الانقلابيين في ساوث كارولينا منذ سنوات بينما وجده براوننج "كهنأً، ومدرساً بشكل جيد، وملائماً". وطلب تغييراً واحداً فقط إذ حضّ لنكون على إلغاء قسمه باستعادة القلاع الفيدرالية التي سيطر عليها المتمردون فكّـب له على هامش الخطاب: "من حيث المبدأ، النص صحيح وسليم كما يبدو الآن... والأماكن المستولي عليها يجب أن يتم استردادها... ولكن، ألا يمكن تحقيق ذلك دون إذاعة أنبائه في خطابك الافتتاحي؟" ١٧٦

أما سيوارد، فهو الذي كانت له عدة مشكلات جادة مع الوثيقة، فرغم أنه اعتبر أساسها الجدلي "قوياً وقاطعاً"، فقد رأى أن نبرتها حادة أكثر من اللازم وأنه لو ألقى الخطاب بهذا الشكل سوف تعلن فيرجينيا وماري لاند انفصالهما على الفور وبذا تصبح واشنطن محاصرة. ١٧٧ لم يخجل سيوارد من إبداء رغبته في التفاهم، لأنه منذ هجوم جون براون على هاربرس فيري

هجر مباديء الجمهوريين بشأن احتواء مشكلة العبيد، ويريد الآن أن يسلم المتمردين ويحقق عودة الاتحاد في سلام وبساطة، وكان مستعداً للتضحية بكل قطعة من أملاك الاتحاد لهم، بل واقترح التهديد مجبراً على إسبانيا وفرنسا لامتصاص حدة التوتر الحزبي. ١٧٨٠ تقريباً طلب سيوارد تغييراً في سطر من سطور نسخة الخطاب، وكان عنيفاً مع قلمه كما كان بريستون بروكس مع عصاه.

على كل، فقد اقترح ٤٢ تغييراً تبدأ من إلغاء أو إضافة كلمة حتى إضافة فقرة كاملة، وأخبر لنكون كي "يستبعد كل الجملة التي يعارض فيها إصلاحاً دستورياً يحمي نظام الرق وهذا مانقذه لنكون بالفعل". ١٧٩٠ كما أراد أن يلطف من الخاتمة واقترح فقرة بديلة هي: "إن الخيوط الروحية النابعة من الكثير من ميادين القتال ومن العديد من مقابر الشهداء سوف تتناغم من جديد في موسيقاها القديمة عندما ينفخ فيها الملاك الحارس للأمة". ١٨٠٠ كان للنكونل أذن أفضل كثيراً مما لدى سيوارد، فوافقه على النهاية الجديدة واستعاد كثيراً من كلماته لكنه أبدع التماساً أكثر طلاقة لاستعادة الاتحاد، ذلك الذي أهمل مأساة السود، إذ مازالت "جوقة إنشاد الاتحاد للنكونل ناصعة البياض تماماً". ١٨١٠ وكما لاحظ دوجلاس، فإن بهاء اللغة وضع قناعاً على قبح الرسالة. ألقى لنكونل خطابه الافتتاحي المراجع أسفل رواق مبنى الكابيتول، وكانت تطل من

خلفه قبه التي لم ينه ترميمها بعد، ويقف تمثال برونزي جديد للحرية  
وسط الحديقة في مواجهة الكابيتول، تمثال لامرأة تحمل سيفاً بيد  
وبالأخرى تحمل إكليلاً من الورود. تجتمع الآلاف حول الرواق  
للاستماع للنكون، وبدا عليهم تجاهل ذلك التمثال تماماً. كانت  
(المرأة التمثال) تقف وحيدة تحملق في ظهورهم كليتيمة، كانت  
تتظر إنهاء بناء القبة حين تجد عندئذ مأوى لها. ١٨٢  
ترامت عشرات الإشاعات أن لنكون قد يُقتل قبل توليه  
منصبه أو يُطلق عليه النار أثناء الاحتفال، وقام بعض الرجال بعقد  
مراهنات حول ما إذا كان سيبقى حياً حتى يُنصب رئيساً أم لا،  
وقد سمع أحد الصحفيين المسافرين جنوباً في نيويورك بعض سيدات  
الجنوب يتحدثن عن الاغتيال. قالت واحدة:

- إنني سعيدة أن لنكون لم يُقتل.

فسألتها الأخرى:

- ولماذا؟

ردت:

- لو أنه قُتل، فلسوف يصبح هانيبال هاملين (وهو أسود البشرة)  
رئيساً، وسيكون عاراً علينا أن يكون على قمة حكومتنا رجل

خلاسي ملون. ١٨٤

في الثاني من مارس، أي قبل ذلك بيومين، مرر الكونجرس الإصلاح الثالث عشر الذي يضمن بقاء العبودية في الولايات للأبد، وشعر لنكون بإمكان تأييده للقرار لأنه لم يسع أبداً للتدخل في شئون الرق في ولاياته، ١٨٤٠ ورغم جهوده لتهدئة الجنوب في خطابه، فسر المتمردون ذلك الخطاب على أنه إعلان بالحرب، فاستخدم أحد المحررين الصحفيين بساوث كارولينا مصطلحاً عنصرياً لوصفه فصرح: "إن قرد الأورانج - أوتاج في البيت الأبيض قد أطلق نفي الحرب... التي هي أيضاً رمز حريتنا." وقال محرر آخر من ريتشموند أن رسالة لنكون "تبدأ حرباً أهلية." وأخبر محرر ثالث أصدقاءه في فيرجينيا أنهم الآن يجب أن يختاروا بين "غزو يقوم به جيش لنكون أو يقوم به جيش جيفرسون دافيز." ١٨٥٠

أسفر أمل سيوارد في إضافة مزيد من التساهل في خطاب لنكون لمنع فيرجينيا وماري لاند عن الانفصال عن لاشيء ففيرجينيا انفصلت بعد أسبوع من قصف قلعة سومتر، وماري لاند كانت على وشك متابعتها لولا أن فرض لنكون الأحكام العرفية في الولاية لإخراص الانفصاليين. كان روجر تاوي قد أعلن أن تعليق لنكون العمل بالقانون العادي يعد أمراً غير دستوري، إلا أن لنكون تجاهل ذلك. هنا استفاد درسا من الجنوب خلال الحرب الأهلية

سواءً بين الشمال والجنوب أو بين السادة والعبيد؛ إن الطريق الوحيد لاستتاب الأمن هو تعليق العمل بالحريات الأساسية. ١٨٦

أصبح ستيفن دوجلاس مؤيداً شرساً للنكولن، فوقف بالقرب منه لحظة إلقاء خطابه وبينما يرقبه لنكولن، "فيما يفعله بقبعة متردداً" يقوم بحملها عنه في أدب وخلال الخطاب، كان يغمغم موافقاً: "حسناً... حسناً إنه كذلك! دون إجبار... حسناً، مرة أخرى." وبعدما أنهى لنكولن خطابه سارع بهتته ثم دافع عن الخطاب بحماسة قائلاً لأحد الصحفيين: "إنه لا يعني القسر." ثم إلى مراسل آخر: "إنه جيد تماماً!" رداً على اتهام المراسل للنكولن بأنه خان مبادئه بتأييد الإصلاح الدستوري فأضاف دوجلاس: "حسناً، وماذا في ذلك؟ إنه يبين أن السيد لنكولن لديه الشجاعة ليقول الحق سواءً من البرنامج أو بدونه." لأنه حض لنكولن على تأييد تلك الإصلاحات بمجرد أن يعتمد الكونجرس. ١٨٧

قام س. دوجلاس بمرافقة لنكولن إلى حفل التنصيب الذي أقيم في مبنى جديد عند ميدان جوديشاري، وتم تزيين حجرة الاحتفال بالأعلام من كل ولاية مع إضاءة وهاجة تصدر من خمس ثريات توقد بالغاز، وعند تمام الحادية عشرة مساءً بدأت فرقة البحرية عزفها لمقطوعة "المجد للرئيس" ومضى س. دوجلاس مع ماري "يدا بيد"، وعند منتصف الليل رقصا الرقصة الرباعية،



وكانت ماري ترتدي ثوباً أزرق مع ريشة زرقاء مشابهة وسط شعرها، وقام س. دوجلاس وزوجته بتقديم ماري لبعض نساء المجتمع في واشنطن. ١٨٨٠

في ١٤ أبريل وبينما كانت البرقيات تنهمر على واشنطن بأنباء تسليم قوات الاتحاد لقلعة سومنر، التقى س. دوجلاس بلنكولن لمدة ساعتين. تميز لقاؤهما "بالشعور القلبي نحو هدف وطني متحد وودود". مرة أخرى يقسم السيناتور أن يقف "بجوار الرئيس"، وأظهر له لنكولن قراراً بتجنيد ٧٥٠٠٠ متطوع، فقال س. دوجلاس: "لورفعتهم إلى ٢٠٠٠٠٠، لأنه كان بين القلة التي تؤمن أن الحرب قد تطول. لكنه لم يعرف أبداً إلى متى لأنه مات بعد شهر من تلك الجلسة بسبب مضاعفات الإسراف في تدخين السيجار والشراب. كان عمره ٤٨ سنة. ١٨٩٠ عكست صداقة س. دوجلاس للنكولن خلال الشهور الأخيرة دعماً ثنائياً حزبياً هائلاً - بين الجمهوري والديمقراطي - بين بيض الشمال الذين دعوا لقتال المتمردين وإنقاذ الاتحاد، فالعبودية لن تتأثر ولن يؤدي السود دوراً في جيش الاتحاد لأن س. دوجلاس مازال المتحدث باسم البيض العنصريين في أعماقهم الذين يعتبرون السود أنصاف بشر ولا يرون خطيئة في وجود الرق. أما لنكولن باعتباره من المحافظين المناهضين للعبودية فقد أربعه احتمال قيام ثورة اجتماعية وملاؤه

الأمل في الإبقاء على التراتب الإجتماعي القديم، وكما حددها هو في رسالته السنوية للكونجرس في ديسمبر ١٨٦١ بقوله: "وبالنظر إلى السياسة التي يجب إتباعها لقمع التمرد، كمت قلقاً وحذراً ألا يتحول ذلك الصراع، الحتمي لهذا الهدف، إلى قتال ثوري عنيف لا يمكن غفرانه." ١٩٠. لقد ركزت الحرب على البيض وعلى أمتهم فقط، ولم يستطع س. دوجلاس أن يتفق على ما هو أكثر من ذلك. وهكذا، بلفتاهما معاً تجاهل الخصمان القضية الرئيسية وهي "العبودية والجنس" التي تعاركا بسببها سنوات طويلاً. فلا عجب إذن أن يبطل لنكون قرار فيرمونت في سبتمبر ١٨٦١، ١٩١ لأنه يهدد رؤيته لإقناذ الاتحاد.

كان أغلب الجمهوريين قد أيدوا تصريح فيرمونت، حتى أورفيل براوننج صديق لنكون الذي كان من المحافظين في إيلينوي. لقد أخبره براوننج: "كان من الضروري أن تفعل خيراً، ولأن قراره (يقصد فيرمونت) حصل على تأييد كل المواطنين المخلصين من غرب وشمال غرب البلاد. ١٩٢. وهو مبرر بالقانون الدولي وكذلك بقوانين الحرب التي تقرأها كل الأمم المتحضرة. ١٩٣ وصل أغلب الجمهوريين بالفعل - من أمثال فردريك دوجلاس - إلى الاقتناع بأن إقناذ الاتحاد يتطلب إقرار سياسة تحرير العبيد. لكن لنكون كان قد تأذى بسبب إجابة براوننج فقال: "إن قرار فيرمونت كان غير دستوري، ولأن قانون

المصادرة الذي أصدره الكونجرس حديثاً يمكن الجنرالات من مصادرة العبيد، لاحتجيرهم، وإذا كان فيرمونت في حاجة للعبيد، كان يمكنه القبض عليهم وتشغيلهم وعندما تنقضي حاجته فليس من شأنه أن يصلح ظروف مستقبلهم الدائم، فمبدأ عتق العبيد لا يقرره إلا صانعو القانون لا الجنرالات، والأكثر أهمية أن قرار فيرمونت لن يتخذ الحكومة، بل على العكس هو ذاته تسليم الحكومة. "١٩٤

لقد آمن لنكون أن أي سياسة لتحرير الرق ستهدد إخلاص ولايات الحدود، خاصة ولاية كنتوكي، وربما كان قرار فيرمونت شعبياً في بعض الأماكن. لكن أهل كنتوكي كانوا على استعداد للانفصال بسببه. في الواقع، كان لنكون قد وجد جماعة من متطوعي كنتوكي يصيحون: "أسقطوا أسلحتهم وشستوهم!" بعدما علموا بتصريح فيرمونت. وما لم يبطل ذلك القرار لتوجهت بنادق كينتوكي نحو واشنطن، لا إلى الجنوب، فرد على براوننج بقوله: "أعتقد أن فقدان كنتوكي يعني أن نخسر اللعبة كلها... وبضياع كنتوكي لن نستطيع الاحتفاظ بميسوري ولا- فيما أظن- بماري لاند، فكلها ضدنا ومهمتنا التي بين أيدينا تفوق طاقتنا، وسوف نسلم بالانفصال أيضاً بما في ذلك تسليم مبنى الكابيتول هذا. "١٩٥

كان لنكون مرعوباً من فقدان كنتوكي، وبدأ خوفه من مؤامرة نظرية الدومينو لولايات الحدود، فلو أن كنتوكي ذهبت

فستلونها ميسوري ثم ماري لاند . عندئذٍ ، نكون قد خسروا الحرب . لكنه لم يشرح أبداً وبالضبط كيف يسبب انفصال كينتوكي وانفصال ميسوري ثم ماري لاند بعدها ، ولم يذكر كيف يمكن للانفصال أن يؤثر في كينتوكي علي أساس حرب العصابات المتفجرة هناك ، وانهارت مخاوفه بشأن كنتوكي عندما قارنها بأغلبية رجال الدولة من الجمهوريين من أول المحافظين منهم حتى المتطرفين في الجانب المقابل الذين آمنوا - مثل براوننج - أن قرار فيرمونت "كان ضرورياً ويفعل خيراً" . كانت حساسية لنكونل تجاه الكتوكيين نابعة من وجود أصدقاء مقربين يعيشون هناك ويقدمون له النصيح باستمرار ، وليس منهم من هو أقرب أو أكثر تأثيراً من جوشوا سييد .

أصبح سييد الآن من الأثرياء ملاك العبيد ، وأحياناً ما كان يتاجر فيهم ، وكان قد صوّت ضد لنكونل . لكن علاقتهما الوثيقة لم تتأثر ، وكل منهما كان يحمل قدراً كبيراً من الاحترام للآخر ، وقد عرض لنكونل على سييد مركزاً بالوزارة ، لكنه رفضه لأنه - إلى حد ما - يريد البقاء في كينتوكي ، وعمل كمستشار خاص للنكونل في ولايته يكتب له بانتظام عن الوضع هناك ، وأحياناً ما يأتي لواشنطن للتشاور معه . غضب سييد من قرار فيرمونت وسرعان ما حث لنكونل على إلغائه ، فلم يكن غير دستوري فقط ، بل سوف يلهم

العبيد للتمرد حيث قال له: "كلنا ممن يعيشون في ولايات العبيد سواءً داخل الاتحاد أو مخرصة له نشعر بخوف شديد من التمرد" فقرار فريمونت سيستميل كل العبيد "لمحاولة تأكيد حريتهم" ويتسبب ذلك في "إثارة الألم لدى السيدات سواءً كن على ولاء للاتحاد أم لا وللمجتمع كله." ١٩٦ وسيبد هنا يلح للاغتصاب والنهب. ظل سيبد في حالة إحباط لدرجة أنه ظل أياماً لا يأكل ولا ينام، وكان الأمر أن أحداً أخبره أن عصابة من المغتصبين والقلة قد أطلقوا بحرية داخل مجتمعه، فقام بإطلاق تحذيره: "لنتم إقرار تصريح فريمونت، لسوف يحطم كل مكانة لجماعة الاتحاد بالولاية، وسوف يتبقى حفنة من أصدقائه معه كرجال للاتحاد في الولاية كلها . . . ولسوف يمتد الشر والجريمة فيزداد التمرد على الأرض." ١٩٧ باستثارة شبح انتفاضة العبيد والخوف من الاغتصاب والنهب في أذهان وخيال البيض، أوضح سيبد للنكون أن لا يوجد مواطن فاضل في كينتوكي أو أي ولاية أخرى للعبيد يمكنه أن يتسامح مع سياسة العتق هذي. ١٩٨

بذلت جيسي زوجة فريمونت جهدها لإقناع لنكون أن يترك قرار زوجها نافذاً. كانت ابنة نائب ميسوري، السيناتور توماس هارت بنتون، وأكثر امرأة ترتبط بالسياسة في البلد. كانت قد قابلت تسعة رؤساء سابقين للدولة بالبيت الأبيض ومنهم أندرو

جاكسون الذي قام "بنعكشة" شعرها وهي صغيرة، وكانت "عيناً" و مترجمة للرئيسين التاليين لجاكسون" وقامت برحلة خاصة من سانت لويس حتى واشنطن آملّة في إقناع لنكون، وبعد إرسالها بطاقة تعريفها متسائلة متى يمكنها مقابلة الرئيس، كانت الإجابة: "الآن، وفوراً!" كانت الساعة التاسعة مساءً وكانت مرهقة لكنها استجابت، وعندما رآها لنكون أحنى رأسه قليلاً في سكون ولم يقدم لها مقعداً، وكانت "تلك إهانة يفهمها الإثنان" فسلمت له خطاباً من زوجها يشرح أسباب صدور قراره كضرورة عسكرية ودبلوماسية، وقالت - وهي تردد كلمات فردريك دوغلاس - إن حرباً من أجل تحرير العبيد سوف تمنع بريطانيا وفرنسا وإسبانيا من الاعتراف بالكونغريدالية. ١٩٩٠ فقطعها لنكون قائلاً: "إنك امرأة سياسية تماماً." ثم قال إنه قد عقد العزم وأن على الجنرال فريمونت "الأيحار الزوج للحرب! إنها حرب لهدف قومي عظيم، والزواج لا علاقة لهم بالأمر." ٢٠٠

لكن كل يوم "والزواج" يفرضون أنفسهم على الحرب ويطلبون أن يصبحوا جزءاً من ذلك الهدف القومي، وكل يوم يأتي المحظرون إلى خطوط الاتحاد، وكل يوم يقر ضباط الاتحاد بالضرورة العسكرية لتحرير العبيد وتشغيل السود. كل يوم يردد الجمهوريون، من أول المحافظين منهم حتى الراديكاليين فيهم، رأي براوننج في حث لنكون

وإدارته على إنقاذ الاتحاد بتق أولئك العبيد، وكل يوم يخضب  
فردريك دوجلاس وزعماء جماعات السود متحدين مع دعاة التحرير  
البيض ويمثلون شاهداً على حقيقة أن "الزنجي" لا انفصام له عن  
إنقاذ الاتحاد، وكما صاغها دوجلاس بعبارة "إن مصير الأفريقي  
الأمريكي هو مصير أمريكا ذاته". ٢٠١ كانت موجة التعاطف مع  
حركة تحرير العبيد تنمو ببطء.

فوق كل ذلك، تم اعتماد قانون المصادرة يوم ٦ أغسطس عام  
١٨٦١ وكان غموضه يحتاج إلى بعض التوضيح لأن أوضاع المخطورين  
به كانت مبهمة حيث لم يعودوا عبيداً بعد، ولكن "هل هم أحرار؟  
لم يبت القانون في ذلك". ٢٠٢

في بدايات عام ١٨٦٢ أخذ لنكولن يغير من وجهات نظره  
أخيراً بشأن تحرير العبيد. في الواقع، مر لنكولن بخبرة مشابهة في  
انقلاب توجهه، وربما بدأ ذلك مع وفاة ابنه ويلي في فبراير، ففي  
وسط الاحتفاء بتجديدات ماري الاستعراضية الغالية في البيت  
الأبيض، شعر ويلي فجأة بالحمى. كانت تلك إصابة محتملة بالتيفود  
بسبب نظام الصرف الصحي بالمدينة. كما أن ابنهما تاد أصابته  
الحمى لكنه شفي منها سريعاً في حين ازدادت حالة ويلي سوءاً  
ومكث لنكولن مع ابنه لمدة أسبوعين يضع الكمادات الباردة على  
جبهته ولا يمارس - نظرياً - أي عمل آخر. في ٢٠ فبراير مات ويلي

فأخبر لنكونن سكرتاريته بذلك قائلاً: "حسناً، إن نيكولاي ابني قد ذهب، لقد ذهب بالفعل ... ثم بكى صارخاً ... لقد كان صالحاً تماماً لهذه الأرض ... لكننا أحببناه كثيراً." وزاد انتحابه، وانهارت ماري لدرجة أن لنكونن بدأ يقلق على صحتها، ونقلوها إلى سريرها طوال أسابيع ثلاثة، ولعدة شهور كان مجرد ذكر اسم ويلي يلقي بها في طوفان من الدموع. "وارتدت ملابس الحداد السوداء وبدأت تدعو الروحانيين للبيت الأبيض علماً تتصل بابنها الميت. ٢٠٣

ربما أشعل موت ويلي عواطف لنكونن لمشاركة الوالدين الذين فقدوا أولاداً بطول أرض الشمال أحزانهم. في كل أسبوع كان يمر، تصبح الحرب أكثر دموية، وتطول قوائم الموتى في الجرائد اليومية. تقريباً كان لكل مواطن من يعرفه بين القتلى أو الجرحى في الصراع إلا أن لنكونن كان يشن حرباً ساعياً "وراء" أدنى اضطراب في الحياة المدنية "وشكلت الحاجة لتحرير العبيد من أجل إيقاظ الاتحاد عبثاً ثقيلاً على أكتافه. ٢٠٤ فاستدار نحو الله طالباً معوته معتمداً على "الذراع الإلهية" وباحثاً عن الهدى من السماء "وأمل في أن يكون أداة بيد الله لتنجز عملاً عظيماً." قال ذلك وهو يتحدث إلى وفد من جماعة الكويكرز الدينية الذين حضوه على إصدار قرار عتق العبيد، ٢٠٥ وأخذ يقتبس كلمات من هاملت: "هناك قدرة إلهية





تشكل مصائرنا، وتصبغها كما تريد . " لم يصف لنكون ذلك التحول بأنه انقلاب على توجهاته، وإنما قال إنه مر "بعملية بلورة" في معتقداته الدينية. ٢٠٦

في مارس ١٨٦٢ دُون لنكون مشروع قانون من أجل "إنهاء تدريجي للرق" وقد اتبع خطة تقاليد حركة التحرير في ولايات الشمال التي تبنتها منذ حروب الثورة لأن تحرير العبيد يتطلب تأييد الناهخين، وسوف يؤدي لتحرير الرقيق عبر جيل كامل أو أكثر قليلاً، وسوف يقوم بتعويض ملاك العبيد عن خسارة ما يمتلكون. لذا قال: "في رأسي أن تحرير العبيد تدريجياً، لا فجأة، أفضل لجميع الأطراف." ٢٠٧ كما حوى مشروعه القانوني سياسة عسكرية سليمة لأنه إذا قبلت ولايات الحدود ذلك، فلن يغريهم شيء للانضمام للكونفيدرالية، وأمل أن يتمكن من شراء ولاء تلك الولايات، وتكاليف تنفيذ ذلك ستكون أقل "من تكاليف ثلاثة أشهر من الحرب." ٢٠٨

استدعى تشارلز سومنر إلى البيت الأبيض وأطلعته على مشروع القرار وطلب منه في صوت متشوق قائلاً: "إنني أريد أن تقرأ رسالتي، وأريد أن أعرف مدى قبولك لها لأنني بصدد إرسالها للكونجرس اليوم." "افعل سومنر لدرجة أنه قرأ الرسالة عدة مرات إلى أن قال له لنكون: "حسناً"، لقد قرأتها بشكل كاف. هيا،

عجل! إذ لابد من إرسالها اليوم. "٢٠٩ أما الكونجرس، فقد تبناها في الحال. أما بالنسبة لفردريك دوجلاس فقد كان يعد مشروع لنكون شديد التحفظ وأنه لن يجد فرصة لاعتماده. لذا أغفله، فملاك العبيد كانوا ضد تحرير عبيدهم كلية حتى مع إغراء المال، وذلك لأن العبيد كانوا يدرون معدلات ربح أعلى كثيرا من البضائع والسندات أو حتى إقطاعات الأراضي، ومن الصعب أن تشبع النهم الجنسي لإنسان بشهادات البضائع. كما توقع دوجلاس لم تقبل ولايات الحدود مشروع لنكون، وفي أبريل تقدم الكونجرس الجمهوري الاتجاه، متأثراً بوضوح بخطة لنكون حول الإلغاء التدريجي للرق، خطوة للأمام واعتمد قانونا لتحرير الرقيق في كولومبيا، ولم يكن راضياً كلية عن المشروع، لأنه يحرق ثلاثة آلاف عبد فوراً وليس بالتدريج. كما تم فرض القانون على المقاطعة دون قبول ناخبها، لكنه كان قراراً يلتزم "بمبادئ لنكون" - التي يعتز بها - وهي "التعويض والاستعمار" فهو ينص على دفع ٣٠٠ دولار عن كل عبد للمالكه وتخصيص ١٠٠٠٠٠ دولار لنقلهم مجراً إلى أمريكا الوسطى، وهكذا وقع القانون ٢١٠.

وفي مايو ألقى لنكون قرار التحرير الذي أصدره الجنرال دافيد هنتر لأنه ينتهك مبادئ لنكون بشأن العتق. فهو يحرق العبيد على الفور، ولم يتم بتعويض المالكين ولا سمح لهم بأن يقولوا رأيهم في

ذلك، ولم يذكر ارتباط ذلك باستعمار أرض جديدة لهم، ٢١١  
وعندما ألغى قرار هنتر، التمس لنكون من مواطني ولايات الحدود  
أن يتبنوا اقتراحه بشأن تعويض نتائج تحرير العبيد، وبعمله ذلك قد  
يحفظ الاستقرار- كما قال- إذ قد نصل لنهاية سريعة للحرب ونقدم  
الحرية ببطء ولطف، فالسادة يمكنهم أن يتلقوا التعويضات والسود  
يمكن إرسالهم إلى أمريكا الجنوبية، وذلك التغيير الذي تأمله خطته قد  
"يأتي بلطف مثل الندى المتساقط من السماء لا يمزق ولا يحطم أي  
شيء". مؤكداً كلامه ثم يسأل: "هل من الممكن أن تقبلوا ذلك؟  
إذا لم تقبلوه، فهل لن يكون قادراً على مد يد المساعدة في المستقبل،  
ذلك ما أوحى به. لكن الثورة الاجتماعية وتحرير العبيد العاجل كانا  
فوق أكثاف الأمة بينما هو وحزبه كانا خارج الطريق يبحثان عن  
التغيير التدريجي. ٢١٣ ثم في يوليو في الثاني والعشرين منه، طلب  
الكونجرس دعم لنكون احتجاجاً أملاك المتمردين وتحرير عبيدهم،  
فقانون المصادرة الثاني يطالب الرئيس بإصدار تحذير عام للمتمردين  
يمنحهم ستين يوماً كفترة سماح للعودة تحت مظلة الاتحاد، ولو رفضوا،  
تعرض كل أملاكهم للاحتجاز، وبالفعل سيضطر الرئيس إلى  
احتجازها. ٢١٤ في قسم منفصل يقول القانون إن العبيد المصادرين  
سيكونون "أحراراً للأبد". لكن لم يكن واضحاً إذا ما كان قرار

الرئيس بحجز ملكيات المتمردين يتضمن في ثنياه مبدأً تحرير  
العبيد . ٢١٥

اعترض لنكون على قانون المصادرة الثاني على أساس أنه  
غير دستوري . كان أكثر ما أزعجه تلك العبارة الخاصة بتحرير  
العبيد . لكن اعتراضه نجم أساساً عن لفته المضطربة ، وحقيقة أن  
مشروع القانون قد كتب بصورة مرعبة . بعد مراجعته لغوياً مع أحد  
النواب ، قام لنكون باعتماده قانوناً ، لكنه اتخذ خطوة غير معتادة  
بإرساله انتقاداً مطولاً للكونجرس ككوع من الود الرئاسي الموجز . ٢١٦  
وبعد خمسة أيام أي يوم ٢٢ يوليو ، دُون قراراً بالعق متبعاً  
شروط قانون المصادرة الثاني ففتح المتمردين ستين يوماً للعودة إلى  
الاتحاد ، فإذا قبلوا سوف يقوم بتشجيعهم على تحرير عبيدهم بتقديم  
تعويضات وخطوات تحرير تدريجية مشابهة لما قدمه لولايات  
الحدود . لكن إذا أصر المتمرّدون على "عصيانهم" و"خياتهم" ،  
فسوف تعرض كل أملاكهم للاستيلاء عليها ، وفي الأول من يناير عام  
١٨٦٣ سوف يصبح عبيدهم "أحراراً للأبد" . بذلك يكون قد  
أمسك - بفاعلية - بغصن زيتون يمنح العتق التدريجي بيد ، والأخرى  
تعلن الحرب والتحرير الفوري للعبيد ، وطلب من المتمردين الاختيار  
تماماً كما فعل في مسودة خطابه الافتتاحي . ٢١٧

سأل لنكونلن معاونيه رأيهم في إعلان العتق الذي يقدمه، فانقسم الأعضاء؛ بعضهم يحثه على إصداره فوراً، وآخرون أخذهم القلق من أن يفقدوا بعض أصوات الجمهوريين في انتخابات الخريف، ومرة أخرى يتبع لنكونلن نصيحة ويليام سيوارد الذي طلب منه أن ينتظر نصراً عسكرياً حاسماً قبل إصداره، فتحرير العبيد يجب أن يعكس قوة دولة الاتحاد لا ضعفها. ٢١٨ هكذا أخفى لنكونلن الوثيقة بأحد أدراج مكتبه، وبدلاً من ذلك أصدر يوم ٢٥ يوليو "قرار حظر العصيان المسلح"، وهو مرتبط بقانون المصادرة الثاني وفيه يمنح المتمردين ستين يوماً للعودة إلى دولة الاتحاد "وإلا تعرضوا لعقوبة المصادرة أو الحجز لأملأهم". ٢١٩ لكن الوثيقة لم تذكر شيئاً عن تحرير العبيد، وكانت بالنسبة لفردريك دوغلاس ودعاة التحرير الآخرين قراراً يترك حالة العبيد في وضع فراغ قانوني بنصف حرية ولم تقل شيئاً - كذلك - عن تشغيل السود بالجيش في مجال آخر واتفق لنكونلن مع الكونجرس على أن السود يجب أن يتم تشغيلهم كعمال في الجيش، لكنه عارض بشدة تسليحهم كجنود، ولم تغير آراؤه حول تلك القضية منذ بداية الحرب. كما حذر ثانية من تمرد الولايات الحدودية إذا تم التصريح للسود بإطلاق النار على البيض، فصرح في أغسطس عام ١٨٦٢ بأن "الأمة لا يمكن أن تخاطر بفقدان مكتوكي في تلك الأزمة... إذ كي تقوم بتسليح الزوج، سنكون كمن

يحول ٥٠٠٠٠ من الحراب من الولايات الحدودية نحو صدورنا تلك  
التي كانت تحارب من أجلنا. ٢٢٠" ما لم يقله هو أن تسليح السود  
سيؤدي لتحويل ١٥٠٠٠٠ حربة سلاح ضد المتمردين. ٢٢١

قضى لنكون صيف ١٨٦٢ ينتظر ويصلي من أجل انتصار  
للاتحاد سيمكنه من إعلان نيته لتحرير العبيد أمام الجميع، وقد كرر  
تخريضه للجنرال المتفاجر جورج ماكلان للهجوم على قوات "لي"  
وسيعرض قوته في المواجهة. لكن ماكلان وهو قائد تنظيم متروك  
"موسوس" كان استراتيجياً سيئاً لأنه هول كثيراً من قوة عدوه،  
وأبدى كثيراً من الاحترام للمتمردين أكثر مما أبدى للجمهوريين. على  
سبيل المثال، رفض مصادرة منزل السيدة روبيرت لي لاتخاذ  
كمستشفى ميداني مما حدا بطبيب القوات إلى أن يسأل لنكون:  
"هل على جنودنا الشجعان أن يموتوا مثل الخراف المتعنتة لأن الجنرال  
ماكلان اختار أن يحمي أرضاً يملكها متمرّد؟" ٢٢٢ بل إن ماكلان  
تجاهل بعضاً من أوامر لنكون، فقواته تحبه ويعود ذلك - جزئياً - إلى  
أنه يحميهم من القتال ولأنه دائماً يخبرهم كم هم أبطال.

في الرابع عشر من أغسطس دعا لنكون وفداً من سود  
واشنطن المقاطعة إلى البيت الأبيض لتطوير خطة المستعمرات.  
كانت هذه أول مرة تلتقي فيها مجموعة من السود بالرئيس لمناقشة  
قضية من "القضايا العامة". كان المحترم جيمس ميتشيل هو الذي

رتب اللقاء، وكان ميتشيل من إنديانا هو ولنكون من نشطاء  
جميعات استعمار الغرب الأوسط، وقد عينه لنكون حديثاً مسؤولاً  
للهجرة والآن وقد أصبح العتق حقيقة واقعة، أمل لنكون في إقناع  
السود بواشنطن بقبول عرض الحكومة بإرسالهم إلى أمريكا  
الوسطى. ٢٢٣ لم ينضم للوفد أي زعيم أسود رغم أن الصحافة  
تجاهلت تلك النقطة. في الواقع، كان منهم أربعة أو خمسة أفراد من  
الحررين حديثاً، بل ومن المحتمل أنهم كانوا أميين، وكان ذلك الاختيار  
يتواءم مع هدف لنكون إذ لم يكن يريد مناقشة الموضوع وإنما أراد  
فرصة للتحدث مع السود ليعلمهم فضائل الاستعمار. ٢٢٤ وبالطبع  
كان فردريك دوجلاس آخر شخص يرغب في حضوره مثل ذلك  
اللقاء، لأنه سيتحدى لنكون عند كل نقطة حوار. كان كثير من  
السود يتبنون فكرة الهجرة ووافقوا لنكون على أن أمريكا التي يحيا  
بها السود والبيض لا يمكن أن تعيش في وئام. من هنا، دعم الزعيم  
الأسود هنري هاي لاند جارنيت رؤية لنكون بشأن الاستعمار  
"كأفضل حركة إنسانية رحيمة اقترحتها تلك الإدارة أو غيرها لصالح  
المستعبدين". ٢٢٥ لكن، على النقيض من لنكون، كان دعاة الهجرة  
السود قد هجروا إيمانهم بأن أمريكا أمة ديمقراطية.

كان الاجتماع ناجحاً في إطار أن كلماته وزعت في أرجاء  
الوطن ونوقشت داخل مجتمع السود، وانقسمت ردود الأفعال

حولها . لكن المعارضين "كانوا أكثر عدداً وأعلى صوتاً بالتأكيد"  
وعجلوا بعقد لقاءات اعتراضية في واشنطن وغيرها من مدن  
الشمال. ٢٢٦

ربما أمل لنكون في أن يجعل ذلك اللقاء من قضية عتق  
العبيد قضية مقبولة لدى ولايات الحدود. ٢٢٧ لو حدث ذلك، فهو  
يعلم أنه يقاتل في معركة عسيرة، فكل مرة يعرض فيها مشروع قرار  
بتحرير العبيد تدريجياً مع التعويض والنقل للمستعمرات، يهتّم ممثلو  
ولايات الحدود ومعهم ملاك العبيد لرفضها في الحال.

في ٢٢ أغسطس أصدر لنكون أهم قرار بشأن تحرير العبيد  
صدر حتى تاريخه، وجاء استجابة لمقال كتبه العضو الجمهوري  
هوريس جريللي معنوناً باسم "صلوات العشرين مليون"، وتحدث  
هوريس بلسان الشماليين متهما لنكون "باهمال مواد تحرير العبيد" في  
قانون المصادرة الثاني، والانحياز لسياسي ولايات الحدود. "٢٢٨

رد لنكون بتحديد مباشر وواضح لسياسته قائلاً إن "هدي في  
الأقصى في ذلك الصراع أن أنقذ كيان دولة الاتحاد، وليس إنقاذ ولا  
تدمير العبيد، فكل ما أفعله بشأن العبودية والجنس الملون، إنما أفعله  
لأنني أعتقد أنه يساعد على إنقاذ الاتحاد. "٢٢٩ كان خطاباً  
صادقاً، كما قال فيما بعد، ويتوافق مع كل تصرف فعله وكل كلمة  
قالها. ٢٣٠



نشر فريدريك دوجلاس رد لنكولن على جريلي بعد صدور قرار العتق، وحض قراءه على إعادة مطالعته من جديد قائلاً: "فبين سطره ترون أكثر الكلمات دقة ووضوحاً تحدد سبب صدور القرار متأخراً." فلنكولن أدرك- في النهاية- أن إنقاذ الاتحاد يتطلب صدور قرار تحرير العبيد. ٢٣١

في أواسط سبتمبر حصل لنكولن على المعركة التي كان ينتظرها، إذ أدى غزو (لي) لأراضي ماري لاند إلى إجبار ماكلان على الدخول في قتال في مواجهة الرئيس. ظل لنكولن غير متأكد من لحظة إصدار القرار، وتمنى أن يعلم أن الله أراد النصر لقواته، "ففي الصراعات الكبرى، يدعي كل طرف أنه يتصرف وفقاً لمشية الله. كلاهما ربما يظن ذلك، لكن أحدهما لابد وأن يكون على خطأ لأن الله لا يمكن أن يكون مع وضد نفس الشيء في نفس الوقت، ففي الحرب الأهلية القائمة من الممكن تماماً أن يكون مقصد الله شيئاً مختلفاً تماماً عن هدف أي من الطرفين. ٢٣٢ كان يريد أن يعرف إرادة الله في مسألة عتق العبيد خاصة، لذا صرح بقوله: "لو أعلم ماهي إرادته لنفذتها فوراً!" لكن الله لا يمكن الوصول إليه، حيث أن هذه الأيام "ليست أيام المعجزات" ٢٣٣ هكذا بحث لنكولن عن علامة تأتيه من الله، ومن بين أخبار غزو "لي" ظهرت علامة فجأة، وبينما يخبر وزراءه "أدلى بقسم وعهد أن لو منحنا الله النصر في

المعركة القادمة سوف يعتبر ذلك إشارة من الإرادة الإلهية، وأن  
واجهه أن يتحرك قدماً في قضية تحرير الرقيق. "٢٣٤

في ١٧ سبتمبر أعلن ماكلان عن انتصار جزئي على "لي"  
عند أتيّتما وضع حداً لخطورة تهديدات الكونفيدرالية، وبعد  
خمس أيام تالية في يوم ٢٢ سبتمبر جمع لنكون مجلس وزرائه معاً  
وأعلن نيته أن يصدر قرار العتق الذي قصده منذ فترة، وقبل أن  
يطلع مجلسه على صيغة القرار قرأ عليهم قصة جديدة من مجموعة  
أدبية كتبها الساخر أرتيموس وورد وكان واضحاً أنه يريد إضافة  
قليل من الطيش إلى تلك اللحظة المشهودة. ٢٣٥ كانت الطرفة التي  
تلاها بعنوان "الغضب السامر في أوتيكا" وهي مكتوبة بضمير  
المتكلم يقول فيها: "ذهب فنان بمعرضه إلى أوتيكا بمدينة نيويورك  
لعرض أعماله الشمعية التي تمثل شخصيات العشاء الأخير وجاء  
شاب يافع بعد رؤية المعرض وأخذ يضرب شخص يهوذا  
الأسخريوطي. قلت له:

- يا حمار، دي تماثيل من الشمع... مجرد تماثيل لحواريي  
المسيح، صور مزيفة.

قال لي:

- كل ده جميل إنك تقوله ... بس سبيني أقولك ياراجل ياعجوز  
إن يهوذا الأسخريوطي مايقدرش أبداً يبين نفسه في أوتيكا. هو



معفي من العقوبة في مكان ملعون زي ده، خصوصاً لما نشوف الجروح المحفورة اللي هو السبب فيها في جبهة المسيح. "٢٣٦

تجذب القصة الانتباه لشخص يتحدث بلهجة ريفية ويخلط بين الرموز الدينية والأشياء الحقيقية، وهنا كان لنكون يحذر مجلس وزرائه بأسلوب مرح، ويحذر نفسه من خطورة ادعاء معرفة إرادة الله. وما أن روى مجلسه تلك الحكاية الرمزية حتى أظهر لهم قرار تحرير العبيد التمهيدي والمؤرخ ٢٢ سبتمبر، والوثيقة تشجع استعمار السود المحررين لأراض جديدة وتقوم بتعويض المضارين بالقرار في ولايات الحدود، عاكساً في نفس الوقت توجهه المحافظ نحو قضية العتق. لكنه أيضاً يعلن أنه اعتباراً من الأول من يناير عام ١٨٦٣ "سيكون عبيد كل المتمردين من هذا التاريخ فصاعداً أحراراً للأبد. "٢٣٧ أضحت الستون يوماً التي يمنحها قانون المصادرة الثاني للمتمردين للعودة إلى صفوف الاتحاد ملغاة تماماً. يعد إصدار القرارات الثلاثة الهامة، التي كتبها لنكون بشأن تحرير العبيد عام ١٨٦٢ في اليوم الثاني والعشرين من الشهر التي صدرت فيه القرارات، ملمحاً شديد الرمزية فأول نسخة خطية لقانون العتق كانت مؤرخة ٢٢ يوليو، وكان رده على هوريس جربلي في يوم ٢٢ أغسطس، ثم يأتي قرار العتق التمهيدي يوم ٢٢ سبتمبر، فكل شخص يعلم أن الرجل الذي قاد أول ثورة للأمة وقام بتحرير عبيده

علانية في وصيته كإيحاء رمزي لتحرير العبيد تدريجياً وإرادياً كان جورج واشنطن وهو أيضاً ولد يوم ٢٢ من فبراير عام ١٧٣٢، وربما كان لنكون يقدم الشكر لواشنطن في تلك الوثائق الثلاثة وبتحويل الحرب- في النهاية- إلى ثورة ثانية ستقضي الخطى والمثل التي أرستها مبادئ الثورة الأولى. ٢٣٨ لم يكن فردريك دوجلاس الوحيد الذي خاف ألا يصدر لنكون قانون العتق النهائي، فالأديبة هاربيت بيتشرستو لم تحضر احتفالات رأس السنة بسبب شكها أن يقوم لنكون بتأجيل أو تجنب إصدار القرار. كما أن ليديا ماريا تشايلد ظنت أن الرئيس واقع تحت تأثير سحر ويليام سيوارد الذي كانت تطلق عليه لقب "الحية" واسم "المنافق الأثاني المحتال" الذي لا يمكن الوثوق به. كما أن صامويل جريدلي ازداد قلقه وكانت زوجته جوليا وورد قد حولت أغنية جون براون إلى نشيد "أنشودة معركة الجمهورية" وقالت: "إن الرئيس قد حول وجهه تجاه الرب رغم أنه يشعر بالحنج نوعاً ما من ربه."

لكن لنكون لم ينظر خلفه أبداً. كان يقول: "إنني قد أتقدم ببطء... لكنني لا أسير للخلف." وفي نوفمبر أخبر بعض الكتوكيين أنه "يفضل الموت على أن يقوم بسحب كلمة من قرار العتق." ٢٤٠ لقد عكس قرار العتق النهائي التطور المستمر للنكون في قضية تحرير العبيد، فلم تعد وثائقه تذكر الاستعمار ودعا بوضوح

لضم السود للخدمة في القوات المسلحة رغم بقائهم غير جنود . لم يهجر لنكون فكرة الاستعمار كلية ولا إيمانه بالتدريجية ولا بالتعويض أو العتق الإرادي . لكن لم يوجد بوثيقة القرار النهائي شيء من التدريجية ولا اللطف لأن هدفها كان سحق التمرد ، وكانت تبيحها غير المستهدفة هي الثورة الاجتماعية ، لأنها أعلنت أن العبيد في جميع أراضي المتمردين أحراراً في الحال وللأبد ، ودافعت عن مواد العتق في قانون المصادرة الثاني ، واعتمدت بوضوح على فقرة سلطة الحرب بالدستور . إن تحرير العبيد "كان معياراً سليماً وضرورياً لقمع التمرد المذكور . " ٢٤١ كانت عبارة "سلطات الحرب" متوافقة مع فهمه لطبيعة التمرد ، ولم يشرف المتمردين بتسميتهم كوفيدريالين أو حكومة . كان أقرب مصطلح استخدم للإشارة إليهم عبارة "الكوفيدريالية المدعوة" حيث كان يعتبرهم فوضويين وخونة ، وقد مكن قرار العتق لنكون وقادته العسكريين من محاربة العصاة بكلتا اليدين ، وفقاً لتعريف دوجلاس ، ومطاردتهم كخونة .

بمناسبة رأس السنة ، يأتي كل مسئول بالحكومة - تقريباً - بمن فيهم الهيئة الدبلوماسية في أزيائهم المزركشة والمذهبة إلى البيت الأبيض لحفل الاستقبال ، ويظل لنكون يصافح القادمين بيده ثلاث ساعات متواصلة ، وتبيست يده لدرجة أنها أخذت في الارتعاش عندما أمسك قلماً ليوقع به قرار العتق الشهير . لكنه قال : "لم

أشعرني حياتي باليقين أنني أقوم بالعمل الصحيح أكثر مما أقوم به الآن في توقيع تلك الورقة. "ثم أطلق مزحة: "إن الناس قد يرونه بيد مرتعشة أثناء توقيعهم ويفترضون أنه يشعر بوخز الضمير. " بعد توقيعها، أعطى قلمه وعليه آثار أسنان خفيفة، للجمعية التاريخية بماساتشوستس لحفظه. "٢٤٢ وبالخارج، تجمع البيض والسود معاً في حلقات مزاحمة على طول طريق بنسلفانيا وأخذوا يستمعون لرجال الوعظ وهم يقرأون عليهم تفاصيل القرار. هنا وصف ذلك المشهد القس الأسود هنري تيرنر قائلاً: "صرخ الرجال وأصبحت النساء بالإغماء ونبحت الكلاب وتصافح الناس بيضاً وملونين، وارتفعت أصوات الغناء... لقد كان عصر كل العصور حقاً واستراحة كذلك، ولن يحدث شيء شبيه بذلك نراه في حياتنا بعد أبداً. " بالنسبة لعدد كبير من الناس في ذلك اليوم، كانت المباديء الوطنية والنبوءات المقدسة كلها قد تم الوفاء بها، وبدأ أن الخط الفاصل بين الحاضر والمستقبل وبين السماء والأرض آخذاً فجأة - في الثلاثي ٢٤٣.

وفي تلخيص تطور تفكيره بشأن تحرير العبيد، قال لنكونلن إنه كان مناهضاً صارماً للعبودية دائماً وقال: "لو كانت العبودية ليست خطأ، فلن يكون هناك شيء خطأ. " لكنه، "... على النقيض من جون كوينسي آدمز وفرديريك دوغلاس وتشارلز سومنر وآخرين، لم

يؤمن بأن الرئاسة تمنحه (الحق المطلق) ليتصرف بناءً على ذلك الاعتقاد، حتى أثناء الحرب الأهلية، لأن إعلان الحرية أصبح قانونياً عندما صار جزءاً لا ينفصل عن الإبقاء على الدستور. "ظل لمدة عام يبطل قرارات التحرير لأنه لم يعتقد أنها أصبحت "ضرورات مطلقة" للحفاظ على الاتحاد، وقد أكد أنه لا يملك السيطرة على الأحداث التي أدت إلى إصدار قرار العتق بقوله: "إنني أدعى عدم قدرتي على السيطرة على الأحداث، وأعترف بوضوح أن الأحداث قد سيطرت على". "٢٤٤ ربما اقتبس من إدموند بيرك، الناقد الداهية للثورة، الذي قال إن زعيم الأمة "يجب في أغلب الأوقات أن يكون راضياً بالاتباع". "٢٤٥

إنها سخرية كبيرة وطريفة أن يعلو جمهوري محافظ قمة التحول الجذري لتاريخ أمة. لم يكن فردريك دوجلاس الوحيد الذي أدرك هذا، فليس هناك سلطة في الراديكالية أكثر من كارل ماركس الذي يؤكد الطبيعة الثورية لإعلان لنكولن بتحرير العبيد، فيكتب من فيينا عن ذلك القرار أنه "أهم وثيقة في التاريخ الأمريكي منذ تأسيس الاتحاد، وثيقة تنفلت من إفسار الدستور الأمريكي القديم ... لم يسجل العالم الجديد انتصاراً أعظم من انتصار هذه اللحظة (عندما) ... يقوم أناس عاديون ذوو إرادة خيرة بتنفيذ مهام ما كان العالم القديم ليحققها إلا بوجود بطل يقوم بتحقيقها". "٢٤٦ إنه

تقارب عجيب فيما بين ماركس ولنكولن، لكنه لقاء غريب أيضاً  
يأتي على شكل صداقة عبر الجنسية في طريقها عاجلاً للتحقق.

## الفصل الخامس

### أصدقاء

"أتوسل إليك أن تصفح عن ذنب إخوتك وعن خطيتهم، فإنهم  
صنعوا بك شراً." (سفر التكوين: ١٧/٥٠)



في بدايات أغسطس من عام ١٨٦٤ بدا لنكون كرجل تلقى الهزيمة. كانت هناك نقطة مجهدة في عينيه، وكان هيكله الطويل النحيل على وشك التداعي تحت أعباء الحرب. لقد تدفقت الأنباء طوال الصيف وأخذ نجم جرانت يأفل بعد انتصاره المذهل في فيكسبرج، وأطلق العديد من الناس عليه "الجزار ملوث اليدين الفارق في حملة الصحراء" وقد أقسم "أن يقاتل في تلك المواجهة حتى لو استغرقه ذلك الصيف كله." لكنه فقد - حتى الآن - أربعة وثلاثين من رجاله في أقل من شهر، وهو شخصية متأرجحة أدت بالصحف إلى أن تطبع قوائم زائدة من ضحايا الحرب. ٢.

أثناء حملة لجمع التمويل لتجنيد المواطنين في يونيو، حاول نكون أن يستحث الأمة "إن الحرب على أفضل صورها مرعبة . . . وتلك الحرب حربنا، وهي في حجمها ومدتها واحدة من أفظع الحروب. لقد حملت الحزن لكل بيت تقريباً حتى يمكننا القول أن السماء ترتدي السواد حزناً، ووعد أن يقضي على العصاة حتى لو استغرق الأمر ثلاث سنوات قادمة." لكن ذلك لم يمنح الناس الثقة. ٣. لقد اهتزت ثقة الاتحاد أمام هجوم جريء، ففي يوليو عام ١٨٦٤ اقتربت قوات الجنرال الكونفيدرالي جوبال إيرلي إلى حدود خمسة أميال من البيت الأبيض، وأحرقت منزل الربيع "الفضي" الخاص بمدير مكاتب البريد الجنرال موتجمري بلير، وخلال الغارة

على واشنطن قام لنكونلن بزيارة معسكر ستيفنز خارج المدينة ليرى ما يبدو عليه القتال، وتطلع وهو يرتدي قبعة الميمزة عبر الحصن والطلقات تاز من حوله، وبدا كما لو كان يتودد للموت واعتقد الجندي المتطوع أوليفر ويندل هولمز- وهو قاضي المحكمة العليا فيما بعد- أن لنكونلن مدني ساذج فصرخ فيه: "انبطح أرضاً .. أيها الغبي الملعون قبل أن يصيبك الرصاص!" ٤

امتلات مستشفيات واشنطن بالموتى والمرضى لدرجة الاختناق، وتسبب تدفق عربات الإسعاف إلى المدينة في اضطراب حركة المرور. في ذلك الشهر الأوغسطيني حاول والت وإيمان أن يسجل "الوقائع المربعة" في حياة المستشفيات بالتركيز على مصير شاب يافع من ويسكونسون ضئيل الحجم ذي لحية وهو جندي رائع يكاد يكون النموذج الأمريكي. كان الشاب محارباً لمدة ثلاث سنوات وبقى له أيام قليلة كي يخرج من الخدمة، وأثناء إحضاره لمقاتل برتبة رقيب جرح بأحد المناوشات، فأصيب بطلقة في ركبته، وتم بتر ساقه إلا أن باقي الساق أصيب بالتلوث، فكتب في يومياته: "اليوم يقول الطبيب أنني سأموت حتماً ... لقد انتهى كل شيء بالنسبة لي ... ياه، صغير أنا على الموت!" ٥

حتى مزاج لنكونلن المرح أصبح كدراً في أغسطس هذا وتذكر إحدى الحكايات أنه خرج لنزهة في حديقة لافايت، ووقف

عند التمثال البرونزي لأندرو جاكسون ممتطياً جواده النافر على قدميه الخلفيتين، فاقرب منه رجل نحيف بادي الجوع وسأله قليلاً من المال وهو لا يعرف أنه الرئيس، فسأله لتكون لماذا لم يلتحق بالجيش فأجابه: "لم يسمحوا لي بذلك وسأكون مسروراً لو ميت في سبيل بلادي! سيدي، لو منحوني فرصة لذلك!" فقال له لتكون إنه يستطيع مساعدته، وسحب ورقة مما يحمل وكتب عليها: "حامل هذا في شوق للذهاب إلى الجبهة والموت من أجل الوطن، ألا تستطيعون منحه فرصته؟" ثم وضعه داخل مظروف وأغلقه وأخبر الرجل أن يذهب به إلى مكتب التجنيد واختفى الرجل ولم يسمع عنه لتكون شيئاً بعد ذلك. ٦. والقصة رغم تلفيقها تبرز حالة دولة الاتحاد في بدايات أغسطس ١٨٦٤، فالمتطوعون نقص عددهم رغم دعوة لتكون لتجنيد ٥٠٠٠٠٠ رجل آخرين، وقد اختفت الروح العسكرية من الأغاني الشعبية وحل محلها النواح والرثاء مثل "لقد تعبنا من الحرب على أرض المعسكر القديم/ فالكثيرون قد ماتوا وذهبوا." كما أن إدارة الخزانة قد أنفقت كل رصيدها الذهبي مما تسبب في تراجع العملة إلى ٤٠ سنتاً لكل دولار. أخذ الناس يصرخون طلباً للسلام. ٧. حتى رجاله المخلصون كان الاحتفاظ بإيمانهم بالقضية صعباً، ورأوا أنه سيخسر الترشيح في إعادة انتخابه في نوفمبر بسبب الهزائم العسكرية بالإضافة إلى إصراره على

جعل قانون العتق "مادة أساسية في أية مفاوضات حول السلام".  
"ليته كان أبطأ أكثر من ذلك في اعتناق قرار تحرير العبيد خلال  
السبعة عشر شهراً الأولى من الحرب. إنه الآن مرتبط بشدة به."  
هكذا قال أهل الشمال. كما أن أحد مؤيديه كتب يقول: "يمكن  
الحفاظ على رباطة الجأش هذه الأيام بقوة حيوية الإيمان فقط. لكن  
ذلك أضحى كمثل جبل من مكانه." ٨  
تأكد لنكون من أنه سيخسر الانتخابات وقال: "سوف أهزم، ومالم  
يحدث تغير كبير، ستكون الهزيمة قوية." لقد كان يتلقى الهجوم من  
كلا الجانبين، فصوف الديمقراطيون المعارضة للحرب المعروفين  
"بالرؤوس النحاسية" أخذت تنمو، ١٠ وطالبوا بتحقيق السلام بأي  
ثم في الحال، وذلك ماسوف يترك العبودية قائمة بالتأكيد، وكذلك  
سيمتحن العفو للمتمردين. كما أخذت صحف ذوي الرؤوس  
النحاسية، وبعضها ممول من جواسيس المتمردين، تسعى خفية  
لاستثارة التعصب الأمريكي، وذلك من خلال محاولاتها لإنهاء  
الحرب والإبقاء على العبودية. هنا قالت إحدى المقالات: "إن  
عشرات الآلاف من الرجال البيض يجب أن يلحقوا الرمال كيما تهدأ  
حالة "الجنون الزنجي" لدى الرئيس." ١١

أصبحت العرقية "الجنس" هي القضية المركزية  
في الحملة، فصاغ محررو الديمقراطيون مصطلح "التهجين" أي خلط

الأجناس، واتهموا الجمهوريين بقيادتهم للزواج المختلط والمعايشة الجنسية المختلطة، وبذلك يلوثون الجنس الأبيض، وفي رسم كارتوني سياسي انتشر وأعيد طبعه مراراً يظهر لنكون وسط السود ومعه المتطرفون الآخرون في حديقة وهو يتحني بأدب لحبيبة تشارلز سومنر (أو خطيبته) السوداء قائلاً: "سوف أكون فخوراً أن أضم بين أصدقائي المخلصين أي عضو من أسر تكم الصديقة."

كان لنكون وفردريك دوجلاس أصدقاء حميمين أيضاً، هذا ما رددته ذوو الرؤوس النحاسية فالديمقراطيون قاموا باستغلال واقعة استقبال لنكون لدوجلاس بالبيت الأبيض منذ عام مضى ليطلقوا عليه حملتهم، فاقبسوا عبارات مثل قول دوجلاس: "إن رئيس الولايات المتحدة قد استقبل رجلاً أسود بالبيت الأبيض. (مثل سيد مذهب يستقبل سيداً آخر)" ١٣ ولو كانوا يعلمون بعلاقته بأوتيلي آسبج، لرسموا له كرتونا - دون شك - يصفهم داخل حفل مسائي بالبيت الأبيض. بالمقارنة، يُعد سباق الاصطياد الذي كان يقوم به ستيفن دوجلاس للنكون أمراً هيناً، ومع مخاض الموت الذي تعانيه العبودية الآن وصلت العنصرية العرقية إلى مستويات جديدة من العنف للحفاظ على تفوق الجنس الأبيض. بينما كان الديمقراطيون يقومون بمهاجمة لنكون من اليمين، كان بعض أعضاء حزبه يهجرونه من اليسار. بنهاية مايو عام ١٨٦٤، شكل

الراديكاليون الجمهوريون حزباً ديمقراطياً راديكالياً جديداً وعينوا جون فريمونت رئيساً وتوماس كوشرين - وهو ابن أخت جيريت سميث - مساعداً في حملته. ١٤ الذي عجل بذلك القصور هو خطة لنكون لإعادة البناء التي اعتبروها شديدة التساهل، فهي تعد بالعبء عن كل المتمردين عدا بعض القواد ذوي المراكز العالية، وتسمح للولايات بالعودة للانضمام للاتحاد لو أقسم ١٠% من الناخبين بالولاء للحكومة. كانت تلك الشروط تتواءم مع رغبة لنكون في تجنب اقتلاع المجتمع من جذوره، فإذا ما كان لابد من الثورة، فلا بد أيضاً ألا تكون متطرفة وهي تحتاج للسيطرة عليها وإلا سوف تلوها ثورة مضادة، ووفرت لويزيانا التي احتلتها قوات الاتحاد فرصة اختبار لسياسة التعمير المتساهلة التي وضعها لنكون إذ بالنسبة له ولقائده ناثانيال بانكس سارت مرحلة التحول من العبودية إلى العمل بأجر في هدوء ونجاح. ١٥ لكن المتطرفين عارضوا ذلك وأطلقوا على بانكس أنه "السائق المولود عبداً" وأكدوا أن نموذج لنكون للتعمير وضع "كل السلطات بيد جنس أبيض لم يتغير (في مبادئه)". ١٦

وبينما كان يُعد السود اسمياً أحراراً، كانت أحوالهم تقترب كثيراً من أحوال "أقنان الأرض"؛ فهم مقيدون بالأرض ولم يتمكنوا من مغادرة المزارع دون تصريح. كان عليهم أن يعملوا بالأجر من أجل البيض بأجور تقف عند ١٠ دولارات شهرياً وبينما كان في إمكانهم

اختيار من يعملون عنده، كانوا مكبلين بعقود سنوية تطلب منهم "العمل بإخلاص" و"بطاعة كاملة" لرؤسائهم وتمنعهم القوانين بهذه الصورة من اقتطاع أربعين فدانا لأنفسهم وإصلاحها ليعيشوا معتمدين على أنفسهم كمزارعين، وكان بعض الراديكاليين يشجعون ذلك.

وفي يوليو مرر الجمهوريون الراديكاليون بالكونجرس خطة بديلة لخطة التعمير وأسموها قانون ويد - دافيز وتطلب ٥٠% من المصوتين للتعهد "قسماً" بالولاء والإخلاص قبل عودة الولاية للاتحاد، وتحظر حق التصويت إلا على أولئك الذين يقسمون "بميثاق غليظ" على أنهم لم يساعدوا التمرد إطلاقاً، وأنكروا حق التصويت للسود لإرضاء المعتدلين والمحافظين إلا أن لنكون قد اعترض على القرار ١٨٠.

أدت المناقشات حول قرار التعمير إلى انقسام الحزب الجمهوري، وسيظل ذلك مصدراً للتنافس طوال الإثنتي عشرة سنة القادمة، فالجمهوريون يمكنهم الموافقة على مظهرين فقط في قرار التعمير: إصلاح دستوري يلغي العبودية واستسلام غير مشروط تنفذه ولايات الكونفيدرالية بينما أراد المحافظون من الرئيس السيطرة على عمليات إعادة الاتحاد بسلاسة وسرعة مع تحول بطيء لحرية السود وتقديم شروط كريمة للمتآمرين في حين يريد الراديكاليون

للكونجرس أن يهيمن على مستقبل الجنوب ضامناً للسود حرية فورية مع حرمان المتمردين من أي سلطة.

تقدمت جبهة فريمونت خطوة أبعد من مشروع قرار ويد-دافيز في إطار تأمين حقوق السود فقد سعت "الضمان حق جميع البشر في المساواة المطلقة أمام القانون". ١٩ كما نادى بإعادة توزيع الأرض للبشر المحررين الذين كانوا ضمن أملاك العصابة، وانتقدت إرادة لنكون في تعليق العمل بالقانون العادي، بل طالبت بإلقاء الصحفيين المتعاطفين مع التمرد في السجن. كانت الصيغة الأخيرة هذي (سجن الصحفيين) طلبة رخيصة في الهواء لأن فريمونت ومعه باقي الراديكاليين لم يشعروا بالندم بإعلان قانون الطوارئ كيما يسكنوا المتمردين ومؤيديهم.

تشابهت مبادئ جبهة فريمونت مع منطلقات حزب التحرير الراديكالي عام ١٨٥٥ في مناداته بالمساواة، ويمكننا أن نفهم تأييد فردريك دوجلاس لمبادئ فريمونت رغم أنه لم يحضر اجتماع ترشيحه. كان ناقداً حاداً لخطة لنكون للتعمير وإعادة البناء طالما كانت تطلب ١٠% فقط من البيض في ولايات التمرد لإعلان ولائها للاتحاد وحتى يمكن الاعتراف بحكوماتها، فذلك يناقض صلب فكرة الديمقراطية ذاتها. ٢٠ علاوة على ذلك، يشير صمت لنكون عن حق التصويت للسود إلى أن الرئيس يعارضه، فقال دوجلاس:



"إن ذلك عار لأن السود كانوا رجالاً بما فيه الكفاية. إنهم حاربوا وماتوا في سبيل وطنهم، ولكن ليس للتصويت فيه!" كان متأثراً جداً بتوجه فيرمونت بشأن "المساواة الكاملة" أمام القانون بما في ذلك حق التصويت للسود، والتعامل بالمثل ضد المتمردين لقيامهم باستعباد وقتل أسرى الحرب.

هددت تلك الانقسامات الحادثة في الشمال جهود الحرب، فبعد ثلاث سنوات من حمامات الدم وموت ٢٠٠٠٠٠ من أبناء الشمال، يقف النصر العسكري الآن على حافة أحد الانتخابات، فالحزب الجمهوري قد انقسم فعلياً، والديمقراطيون سوف يعقدون اجتماعاً لتحديد مرشحهم مع نهاية أغسطس، ولو فاز مرشحهم - كما يعتقد لنكولن ومعه أغلب الجمهوريين الآن - سيكون المتمردون هم الذين فازوا بالحرب فعلاً.

وسط تلك الانقسامات، أدرك لنكولن - بصورة غير مسبقة - أن مصير الاتحاد يرتكز على دور السود في المجتمع، فأقر علانية أن "سياسة تحرير العبيد واستخدام القوات الملونة" أسهمت في تسديد أقصى ضربة وجهت للتمرد" فالانتصارات العسكرية الحاسمة ما كانت لتتحقق "لولا مساعدة الجنود السود". ٢٢ فلربما يساعده السود على الخروج من مأزقه وإذا لم يستطيعوا إنقاذ الاتحاد، ربما يعاونوه في استمرار حركة الانعقاد. كان

لنكون مستعداً لتلقي خطط أخرى لإعادة الإعمار كبداية (رغم عدم وجود خطة راديكالية مثل خطة فريمونت) بهدف نزع فتيل الصراع بين الجمهوريين ٢٣.

في العاشر من أغسطس تقابل لنكون وذنه يمتليء بكل تلك القضايا مع جوايتون وهو كاهن شاب مدرب جيداً من دارت ماوث متحمس لعمله وقد حقق نجاحاً مشهوداً في رعاية الرجال المحررين حديثاً بمنطقة دافيز بند بولاية مسيسيبي وهي شبه جزيرة مساحتها ٤٠٠ ميل مربع جنوب فيكسبرج التي صادرها جرانت من أسرة جيفرسون دافيز. وضع جرانت ثقته الكبيرة في إيتون، وملاؤه الأمل في أن تصبح منطقة دافيز بند "جنة للزواج"، وهو لم يخطيء في هذا لأن السود عملوا باجتهاد هناك يزرعون القمح والخضراوات والقطن لصالح قوات الاتحاد وقدم ذلك المجتمع بديلاً رائعاً أمام لويزيانا كنموذج لإعادة الإعمار ٢٤.

كان إيتون أساساً يمتحن الهندسة واستطاع أن يؤمن بوجود الأرض في منطقة بند للرجال المحررين. ثم شكل نظاماً لعمل يدار ذاتياً مع كونه مشروعاً إنتاجياً - كما يسميه - وكان الرجال المحررون يسيطرون على مجتمعهم بأنفسهم بناءً على تصميم ابتدعه إيتون، فعملوا كمزارعين مستقلين مع إشراف الأكثر خبرة على المبتدئين.

كما كانوا مسئولين عن نظامهم القضائي ومحكمتهم، وبدأ إيتون في إنشاء المدارس.

كانت مزرعة دافيز بند أكثر إنتاجاً من أي مزرعة أخرى في وادي المسيسيبي. هذا ما قاله إيتون للكونكولن وأضاف أن ويليام ويلز براون وهو من دعاة التحرير السود وصديق لدوجلاس قد زار ذلك المجتمع في يوليو وأطلق عليه "أشبه بجنة لأرضية للأجنيين الملونين". ٢٦ أمل الرجال المحررون- في أنهاء المسيسيبي بعد تأثرهم بالتجربة- أن ينشؤوا مستعمرة جديدة تتبع نموذج دافيز بند.

انتعشت روح لنكونكولن بتقرير إيتون وخلال الأسبوع التالي تقابلا مراراً لمناقشة طبيعة ومصير السود المحررين. ٢٧ وافق إيتون لنكونكولن في إيمانه بأن "الزنج" مثل باقي البشر، وأنه من الأفضل أن نسرع في التجربة كيما يساعدوا الاتحاد. سأل لنكونكولن إيتون إذا ما كانت هناك وسيلة لتوصيل رسالة للسود عبر "تجمعات قطاف العنب" لتحريضهم على ترك مزارع ساداتهم و"اللجوء لحماية جيشنا". ٢٩.

إن وقوع مثل هذه الحركة سيؤدي إلى تقوية جنود الاتحاد ويدمر مصدر ثروة المتمردين، وربما يمنع التفاوض على اتفاق قد يُبقي أعداداً لاحصر لها من السود تحت نير العبودية. لم يكن لدى إيتون أدنى فكرة عن استخدام هذا المصدر الفعال في اتصالات

السود، لكنه اندهش لفهم لنكون الدقيق "للموقف في الجنوب" ٣٠. ثم الملح لنكون لغارة جون براون على هاربرس فيري مضيفاً أنه عارض أسلوب براون وتوقيته، حيث ربط الناس بينه وبين الجمهوريين كي يفقد الشعب ثقته فيهم، (وكان واضحاً أن لنكون ليس لديه أدنى فكرة بأن أسلوب وتوقيت براون معاً ساعداً على انتخابه) والآن بعدما أضحت الحرب بسببهم، ربما يجدون طريقة للاقتداء براون لتحرير عدد أكبر من العبيد لمساعدة الاتحاد. لكنه لم يدق في الفكرة، وجاء ذكر دوجلاس في حديثهما فذكر لنكون انتقاداته "بكل صراحة ممكنة". شجع ذلك إيتون على وصف حديث سمعه حالياً من دوجلاس بأنه نوع من الذم القاسي ٣٢. كان إيتون قد قابل دوجلاس منذ أسابيع في توليدو بأوهايو حيث توقف لزيارة أخيه في واشنطن، وعندما سمع أن هناك خطاباً سيلقيه دوجلاس، حضر إيتون الخطاب وبعدها "وجد الإثنين ما يتحدثان عنه" ٣٣.

قام دوجلاس- في خطابه بتوليدو- بمهاجمة خطة لنكون للتعمير لأنها شديدة التساهل وتجاهل إصدار قرار بحق السود في التصويت. ٣٤ أعلن دوجلاس غضبه العام من الرئيس لعدم توقيعه جزاء العين بالعين على المتمردين الذين كانت سياستهم استعباد واغتيال الجنود السود من الأسرى. قبل عام سابق، عندما قابل

دوجلاس لنكون في البيت الأبيض لأول مرة، وعده لنكون بتطبيق ذلك العقاب. لكنه أضحى متردداً في قتل البيض مقابل قتلهم السود، وقد وافق إيتون دوجلاس على ذلك الانتقاد لأنه باعتباره مسئولاً في الاتحاد عن السود المحررين، أدرك أنه قد يواجه ذلك المصير كالسود إذا ماتم أسره بواسطة المتمردين. ٣٥

كان لدى دوجلاس وإيتون مبرراً كافياً ليشعرا بالقلق، فقبل أشهر قليلة من حديث توليدو وقعت حادثة شنيعة تعد نموذجاً للتمرد البربري في قلعة بيلو على نهر المسيسيبي وعلى بعد أربعين ميلاً شمال ممفيس. كان للقائد المتمرّد ناثن بيدفورد فوريسٲ تاريخ طويل في تعذيب السود، وبعد الحرب ساعد في تأسيس جماعة الكوكلوكس كلان. كان فوريسٲ رجلاً عصامياً، والتقيض الجنوبي للنكون. ولد فوريسٲ في فاقة شديدة في كوخ خشبي على نهر تينيسي ولم يلق تقريباً أي مستوى من التعليم، واكتسب عيشه كنجار لألواح السكك الحديدية، وفي العشرينيات من عمره عمل مع عمه بإحدى المزارع، وادخر مبلغاً يكفي لشراء أحد العبيد، وخلال سنوات قليلة أقام "فناء للزنوج في ممفيس". هكذا أسماه وكون ثروة من تجارة العبيد وامتلك ضيعة ٣٦ عند بداية الحرب، كان يكسب حوالي ٣٠٠٠٠ دولار في العام، ما يساوي اليوم ٢٢٥ مليون دولار.

عند حدوث مذبحة قلعة بيلو، أحاطت قوات فوريسست البالغ عددها ستة آلاف جندي بحوالي ستمائة جندي من جنود الاتحاد الذين لجأوا للقلعة ثم سرعان ما استسلموا، وشكل السود نصف الأسرى. لكن فوريسست رأى أن أسراه السود وحلفاءهم مجرد عبيد متمردين، ولم يأمر بأسر أحد. هكذا ذبح رجاله حوالي ثلاثمائة رجل، أغلبهم من السود، وبينهم بعض المدنيين الذين كانوا بالقلعة، ووفقاً لشهادة بعض الأحياء فقد صرخ الجنوبيون: "اقتلوا كل الزوج!" ودوت الصرخة بأرجاء القلعة، وقد تفاخر فوريسست أمام قائده أن النهر المجاور للقلعة "اصطبغت مياهه بدماء القتلى وامتدت لمائتي ياردة . . . ومن المأمول أن تبين تلك الحقائق للشعب الجنوبي أن الزوج لا يمكنهم أن يصبحوا أندادا للجنوبيين." ٣٧ أشار لنكون لتلك المذبحة يوم ١٨ أبريل بعد ستة أيام من وقوعها في خطابه بالتيمور بقوله: "بعدما قررنا تشغيل الزنجي كجندي، فلا مفر من منحه كل وسائل الحماية المتوفرة لأي جندي آخر." وواعد بتطبيق العقاب بالمثل لو أمكن جمع أعداد القتلى أيا من كانوا. لكنه رفض إصدار قرار بالرد بالمثل ٣٨.

والآن يستمع لنكون باهتمام وإيتون يذكر انتقادات دوجلاس بالتفصيل ٣٩. يتخيل المرء هاتين "البقعتين المجهدتين" بعينيه تتمان بصورة معبرة. رداً على انتقاد خطة التعمير، سأله لنكون هل يعلم

دوجلاس شيئاً عن خطابه الحالي الموجه لحاكم لويزيانا ميشيل هان، فأجابه إيتون إنه من غير المحتمل ذلك لأنه هو نفسه لا يعلم شيئاً عنه. ٤٠. قام لنكون إلى مكتبه وسحب نسخة من خطابه إلى هان المؤرخ ١٣ مارس عام ١٨٦٤، وربما كان في غير حاجة إلى نظارته البيضاء ذات الإطار الصلب والتي بدت صغيرة على وجهه الضخم، لأنه كان خطاباً قصيراً وقرأه لإيتون: "أقترح- تحت رعايتك الخاصة- ألا نترك بعضاً من الناس الملونين خارج الموضوع (يقصد السماح لهم بالتصويت)، على سبيل المثال ذوي الذكاء العالي، خاصة أولئك الذين حاربوا بشجاعة ضمن صفوفنا لأنهم قد يساعدون في أوقات صعبة قادمة، في صون جوهره الحرية داخل أسرة الحرية. ٤١.

أذهل الخبر إيتون، فحتى الراديكاليون في الكونجرس لا يمكنهم تقديم مشروع لإعادة الإعمار يضمن للسود حق التصويت، فقال لنكون إنه إذا ما قدم عفواً عاماً فهو يحتاج- كذلك- لتوفير تصويت عام، أو على الأقل تصويت على أساس الذكاء والخدمة العسكرية. ٤٢. ثم وضع الخطاب جانباً وسأل إيتون- بتلك الصفة المتواضعة الغربية فيه- إذا ما كان فردريك دوجلاس "يمكن إغراؤه للحضور لرؤيته"، ٤٣. فأجابه إيتون: "إنه يعتقد أنه يستطيع

ذلك. "٤٤ فأخبره لنكونن موضوع مقابلته لدوجلاس منذ عام مضى وقال إنه يعتبره "واحداً من أكثر الناس جدارة في أمريكا. "٤٥

✱

عندما هبط دوجلاس في محطة بالتي مور وأوهايو على شارع نيوجيرسي وشارع سي، كان هناك رسول من البيت الأبيض قادماً للقاءه. ٤٦ كان لنكونن قد طلب من ضابط الاتصال الهندي ويليام دول أن يتأكد أن دوجلاس سيصل في أمان. في يوم ١٨ أغسطس أعلم دول الرئيس أن دوجلاس كان من المنتظر وصوله الساعة الحادية عشرة من اليوم السابق، لكنه لم يصل إلا أنه "من المنتظر أن يصل اليوم وسأقوم بتوصيله لكم فور وصوله. "٤٧

كانت مشاعر دوجلاس قد تحركت عندما علم أن لنكونن يريد رؤيته، فأولى مقابلاته مع الرئيس كانت تمثل أعظم شرف حظى به في حياته. مجرد أن يتواجد في البيت الأبيض فالأمر عند ذلك يكون خيالياً، فهو يحب لنكونن بشكل شخصي ويعتبره صادقاً ويشعر بالراحة في حضوره. ٤٨ لقد عامله لنكونن كرجل، لا كرجل أسود، وفي الحقيقة أظهر له الرئيس احتراماً من رجل عصامي لرجل عصامي مثله. لكن ذلك اللقاء لم يمنعه من انتقاد لنكونن بسبب



سياساته الخاطئة، وكما يعلم دوجلاس جيداً فإن بعض المحافظين يؤمنون بسياسات عنصرية لكنهم يعاملون السود باحترام عندما يلتقون بهم، كما أن بعض دعاة تحرير العبيد متعالون ويعطفون على قضايا السود، فالمعتقدات السياسية ليست بالضرورة مرتبطة بالسلوك الشخصي.

كان هجوم دوجلاس على خطة لنكونلن للإعمار ولا مبالاته البادية عقب كارثة قلعة بيلو هجوماً معتدلاً مقارنة بالوقائع. في خطابه حول أحداث الستة أشهر باسم "مهمة الحرب" الذي ألقاه على عشرات الآلاف من الناس، أطلق على افتقار لنكونلن "لكل المشاعر الأخلاقية" أنه الخطر الأكبر على الاتحاد. ٤٩٠ على كل حال، كان لنكونلن قد أخبر هوريس جريللي بأنه لا يهتم بالعبودية في حديث مشهور وأنه قال أشياء من هذا القبيل في رسالته السنوية للكونجرس. ٥٠٠ لكن عندما عبر منافسه التاريخي ستيفن دوجلاس عن نفس اللامبالاة تجاه العبودية عام ١٨٥٨ "استنكر لنكونلن ذلك الشعور وعده لا يستحق أن تلفظه شفاه الأمريكيين" وأن ستيفن دوجلاس كان يريد الهيمنة الشعبية بقوله: "إن السيد لنكونلن يريد الاتحاد." بالطبع، كان هناك اختلاف قليل بينهما. ٥١٠ وربما يكون

دوجلاس قد أضاف أنه ليس هناك موقف شخصي، فالمسألة مجرد لعبة السياسة.

في البيت الأبيض تقدم الرسول ليقود دوجلاس إلى غرفة الإستقبال، وكان لنكون في لقاء آخر، فأخذ دوجلاس مقعداً في ركن الحجرة وبدأ القراءة. ثم شعر بمحلمة إنسان أبيض تتطلع إليه، وبدأ عليه الغضب أن يشاركه نفس المكان إنسان أسود فرفع دوجلاس عينيه البارتين و(ضبطه) بفعل المحلمة. حاول "المذنب" القاضي جوزيف ميلز من ويسكينسون أن يتغلب على إحراجة بالسخرية من دوجلاس فسأله: "هل أنت الرئيس؟" فأجابه بهدوء وكرامة: "كلا، أنا فردريك دوجلاس". ٥٢

عندما قابل ميلز لنكون أخبره بما حدث، ثم أخذته عزّة العرق بالإثم فسأله: "الآن، سيدي الرئيس، هل أنت متعاطف مع اختلاط الأجناس؟ إنه نموذج ديمقراطي حديث لإنتاج رجال أصحاب للاتحاد. أنا لأقصد انتهاك براءة هذا الابتكار. ٥٣ تجاهل لنكون تلك المزحة بشكل واضح.

وجد دوجلاس لنكون "في حالة انزعاج" فمنذ لقاؤهما الأول منذ عام، صار كمن كبر عقداً كاملاً. امتلاً وجهه بالتجاعيد

وغارت خدوده للداخل . ٥٥ كان الإحباط يملأه بسبب الاحتمالات  
الكئيبة لعملية إعادة الانتخابات، وذلك وفقاً لما قاله لدوجلاس،  
بالإضافة إلى أن أغلب الناس شعروا أن سياسة مناهضة العبودية  
منعت استتباب السلام مع المتمردين، وأشار إلى خطاب حديث  
أرسله إلى هوريس جريلي الذي كان يأمل في التفاوض حول تسوية  
ما، وقد أوضح لنكون فيه أن أية اقتراحات للسلام يجب أن تبنى  
على "التخلي عن العبودية". ٥٦ أثارت تلك العبارة صرخة كبرى،  
والناس الآن تهمه برفض التفاوض. الأكثر من ذلك، أن نكون  
خشي من أن يصبح أحد رجاله العسكريين السابقين وهو الجنرال  
جورج ماكلان المرشح الرئاسي في مؤتمر الحزب الديمقراطي القادم في  
شيكاغو، ولو حدث ذلك، فهو يشعر أن ماكلان سوف يفوز.

سعى لنكون للحصول على نصيحة فردريك وأظهر له  
خطاباً كتبه ولم يرسله، دافع فيه عن نفسه ضد "مطالب السلام  
الصاخبة المرفوعة ضده"، ٥٧ وطالما لم تتقدم أية ولاية كوفيدرالية  
بمشروع سلام، فمن الخطأ القول أن نكون يرفض السلام. ذكر في  
الخطاب أنه لن يلغي قرار العتق ويعيد استعباد أولئك الذين خدموا  
قضية الاتحاد بإخلاص "وكعبداً أخلاقياً . . . هل يمكن لمثل تلك  
الخيانة . . أن تقلت من لعنة السماء؟ أو من لعنة أي إنسان

طيب ؟ وكمسألة سياسية، فإن إعلان ذلك المشروع سيدمر قضية الاتحاد نفسها. ٥٨"

لكن ماذا لو لم يكن لدى لنكون سلطنة مواصلة حرب تحرير أخرى ؟ وهذا أساساً ما قاله وهو أيضاً ما أزعج دوجلاس، ففي الخطاب يتخلى لنكون عن السيطرة على قضية إلغاء العبودية وبالتالي عن مسؤوليته، وفي النهاية على الناس أن تقرر. لقد وافقوا على محاربة الرق فقط كوسيلة لإتخاذ الاتحاد. لكن ماذا لو أراد الناس السلام دون تحرير العبيد ووافق على ذلك المتمردون ؟ عندئذٍ، لن يكون بمقدور لنكون عمل أي شيء لأنهم سوف يصوتون لإخراجه من الرئاسة ولن يعضد الكونجرس موقفه، وهو لم يستطع أن يجعل تحرير العبيد شرطاً للسلام حتى لو أراد هو ذلك. كان خطابه طريقة مبتكرة لاسترضاء دعاة السلام دون تنكر لسياساته. ٥٩ سألته لنكون: "هل أرسل هذا الخطاب ؟" فأجابه دوجلاس: "بالتأكيد . . لا . . لأنه سيوحي بمعنى أوسع مما اتيت توصيله، وسيؤخذ على أنه استسلام كامل وتخلي عن سياستك المناهضة للعبودية، وإذا ماتكلمت عن "حاجتك إلى القوة، فسوف يُساء فهم ذلك". ٦٠ لذا، لم يرسل لنكون الخطاب أبداً، وقد احتاج لنكون مساعدة دوجلاس في أمر آخر حيث كانت لديه خطة لإحضار

المزيد من العبيد داخل حدود الاتحاد، لكنه أراد أن يقوم دوجلاس بتنفيذها. شابهت خطته خطة براون في غزو الجنوب وتحرير العبيد هناك، وأراد من دوجلاس تنظيم فرقة من الكشافة السود "لدخول ولايات المتمردين، فيما وراء خطوط قواتنا، لتحمل أنباء قرار العتق، ثم تحرض العبيد على الهجيء داخل حدودنا." ذلك وفقاً للتلخيص دوجلاس لما حدث، ولو نجحت الخطة، فلسوف تساعد على بقاء الاتحاد وإنهاء العبودية. ٦١ استولت الدهشة على دوجلاس من تلك الخطة، لأنه علم جيداً أن لنكون يعتبر جون براون مجرماً ومجنوناً إلا أنه الآن يقتبس من صديقه القديم، ويدبر خطة مشابهة للإغارة على الجنوب، وذلك يشابه أيضاً خطة طريق "المر تحت الأرضي" الأصلية التي وضعها براون. تلك الخطة التي ظن دوجلاس أنها ستجح. ٦٢

أدت خطة لنكون (وجون براون كذلك) إلى تأثير مشاعر دوجلاس، وأزعجته حيث تفترض أن قانون العتق لن تكون له قوة فعالة بعد الحرب، وهزته لأنها كشفت أن لنكون يكره العبودية أصلاً وأصدر قراره بعتق العبيد لا مجرد أنه ضرورة عسكرية. لذا، لا عجب أن يطلب إصلاحاً دستورياً لإلغاء العبودية. ٦٣ فجأة، رأى دوجلاس لنكون تحت ضوء جديد، فالرئيس يرغب في الذهاب إلى

أقصى مدى في قضية الحرية- أبعد مما ظنه دوجلاس ممكناً لأن خطته (الشبيهة بمخطة جون براون) بينت ارتباطاً أخلاقياً أعمق ضد العبودية أكثر مما رأيت في الموضوع مما كتبه أو قاله. ٦٤ ظل لنكون طويلاً متباطئاً عن حزبه، لكنه الآن في مقدمته.

تحدث الرجلان ساعات طويلاً، وعند نهاية لقاؤهما اعتبر كل منهما الآخر صديقاً، وكان سكرتير الرئيس قد أعلن خلال حديثهما مرتين أن الحاكم ويليام باكينجهام من كونيكتيكت في الانتظار لرؤيته، فكان يقول له: "أخبر الحاكم باكينجهام أن ينتظر لأنني أريد محادثة صديقي دوجلاس مدة طويلة." في المرتين عرض دوجلاس الخروج، لكن لنكون اعترض. ٦٥

اعتبر دوجلاس ذلك اللقاء أول لقاء في تاريخ الجمهورية "يظهر(فيه) رئيس مثل ذلك الحياد نحو السود." ٦٦ وكان على حق لأنه لم يكن وحده الذي كان الرئيس محايداً تجاهه، حيث إن لنكون تقابل مع سود كثيرين بالبيت الأبيض (وبالطبع ليس من بينهم العبيد أو الخدم) أكثر من أي رئيس سابق. في عام ١٨٦٢ حدث أن تم تقديم الأسقف دانييل بين اليه، فقام بالمقارنة بين كرم وسخاء لنكون وتكبر واستعلاء الرئيس جون تيلر الذي قابله منذ سنوات عندما كان يلقي رثاء لأحد العاملين تحت إمرة تيلر. كما كان على المحترم

هنري هاي لاند أن يتعرف على دوجلاس الذي طلب منه أن يلقي موعظة في الكونغرس في ذكرى صدور قرار العتق. كما أصبح شريك دوجلاس في إدارة الجريدة مارتن ديلاني أول عقيد في الجيش الأمريكي من السود بدولة الاتحاد، وتقابل مع لنكون في بدايات عام ١٨٦٥ ليقترح عليه مشروعاً شبيهاً بمخطة جون براون، كان دوجلاس ولنكون قد ناقشاه. ٦٧

وبالمثل، أكدت النساء السوداوات امتلاء قلب لنكون بالشفقة، فإليزابيث كيكلي - خياطة ماري لنكون - كانت تتردد على البيت الأبيض لأخذ المقاسات وكذلك للتشاور وأصبحت صديقة ماري الأمينة؛ وهي التي منحتها لقب "الروحانية" بعد موت ويلي. كما أطلقت على لنكون "المبهدل". لكنها قالت عنه إنه كان طيباً ومراعياً لمشاعرها "أكثر من أي شخص آخر بالبيت الأبيض". ٦٨ وهناك سوجورنر تروث التي كانت مشوقة لمقابلة الرئيس حتى إنها أحضرت "أوتوجرافها" وطلبت منه التوقيع عليه وقالت إنها "لم تعامل بمثل تلك الطيبة والصدق القلبي إلا مع ذلك الرجل العظيم الرائع". ٦٩

وبمجرد قيام البيض والسود بالعمل معاً لتحقيق أهدافها المختلفة من أجل إنهاء العبودية وإتخاذ الاتحاد، حتى ازدهرت العلاقات والتحالفات بين الجنسين. كان معنى القتال لمواجهة

المتمردين بكلتا اليدين، أن إحدى اليدين هم البيض والأخرى هم السود. أدى تدفق السود جيئةً وذهاباً مراراً إلى دفع جريدة "الواشنطن كرونيكل" للتعليق على ذلك المشهد في بدايات عام ١٨٦٤ كالآتي: "منذ سنوات مضت، لو قدّم رجل ملون نفسه للبيت الأبيض زمن الرئيس ليفي، طالباً مقابلة رئيس البلاد، لكانوا عاملوه معاملة سيئة لوقاحته في جميع الأحوال". ٧٠ حدثت أقرب واقعة سابقة من ذلك النوع بالبيت الأبيض منذ إثنين وخمسين عاماً عندما تقابل مالك السفن الثري الأسود بول كوف بالرئيس جيمس ماديسون، وكان أحد أعضاء طائفة الكويكرز من ماساتشوستس الذي قاد حركة المستعمرات الجديدة كعلاج للعبودية الأمريكية والتعصب العنصري، وفي عام ١٨١٢ قام رجال الجمارك باحتجاز سفينته الشراعية وهددوه بتحطيمها. كان رد كوف أن حمل مشكلته إلى الرئيس، ٧١ وكان ماديسون من ملاك العبيد الذين - مثل أغلب مؤسسي الوطن - يطلقون على العبودية خطيئةً وسعى لإحداث تحرر تدريجي. مثل كوف، كان ماديسون من دعاة المستعمرات، وفي لقاءهما خاطب كون ماديسون - كما هو متوقع - بلغة بسيطة غير رسمية تخرج من إيمان أولئك الكويكرز فقال: "جيمس، لقد أوقعوني في مشكلات جمة، بل وأهنت وجئت إلى هنا طالباً حمايتك". وقد استجاب ماديسون لطلب كوف باستعادة



سفينة لعدة أسباب؛ أحدها تماثلها في رؤية مشتركة هي نقل الأمريكيين الأفارقة. ٧٢ كانت هذه أول مرة يقابل فيها أمريكي أفريقي رئيس الولايات المتحدة دون أن يكون ذلك خادماً أو عبداً، فما هو اختلاف لقاء كوف عن دوجلاس؟ بينما ماديسون وكوف يتشاركان رؤية واحدة للارتقاء بالسود تعتمد على تقلبهم للمستعمرات، يأتي لقاء دوجلاس ولنكون بصدد قضية الاتحاد متعدد الأجناس ٧٣.

في نفس الوقت، بعدما علم جون إيتون بقاء دوجلاس ولنكون، قام إيتون بزيارته. كان دوجلاس يقطع أرضية بهو منزل أحد أصدقائه جيئةً وذهاباً حينما كان يقيم مشت الفكر وواضح الاهتياج وكانت الأوراق ملقاة مع زجاجة حبر مفتوحة على طاولة الكتابة القريبة منه، وقد بدأ تحديد معالم خطة جون براون وأخذته الدهشة عندما رأى جون إيتون فأخبره بانفعال: "لقد أتيت تواً من عند الرئيس لنكون." ثم مكملًا: "لقد عاملني كرجل، ولم يدعني أشعر ولو للحظة أن هناك أية اختلافات في لون بشرتنا! إن الرئيس هو أكثر الرجال عظمة." ٧٤

بعد أيام قليلة، وصل رسول من البيت الأبيض يدعو دوجلاس لتناول الشاي، وكانت بالخارج عربة تنتظره لنقله إلى وزارة الحربية. اضطر دوجلاس للاعتذار لأنه وافق من قبل على إلقاء

محاضرة في ذلك اليوم، ٧٥ وتمنى أن يكون أمامه أكثر من فرصة لتناول الشاي مع الرئيس فيما بعد .

وهناك- عودة لروشيستر- واصل عمله في خطة براون، وقد استشار عدداً من الناس السود، وكلهم كانوا شغوفين بتدعيم الخطة، وأرسل تقريره النهائي يوم ٢٩ أغسطس إلى لنكولن. كانت الخطة تماثل خطة "الممر تحت الأرضي" التي صاغها براون وتعجل تشكيل قوات خاصة للجيش بأن يقوم عميل عام (سيكون دوجلاس ولاشك) بتعيين عملاء فرعيين لأماكن مختلفة عبر أراضي الجنوب، على أن يكون كل واحد عارفاً بمنطقته لقيادة فرق العبيد إلى حدود الاتحاد، ويقوم أولئك العملاء مباشرة بمراسلة قادة هذه الإدارة الذين سيساعدونهم "على متابعة مهمتهم دون عوائق". كما سيتم توفير الاحتياجات الضرورية للعبيد كاملة حتى يصبحوا مهيين لأداء الخدمة وسيتقاضى العملاء رواتب غير مقيدة، وقد ذكر دوجلاس للنكولن أن "كل عبد يهرب من ولايات المتمردين يشكل خسارة للتمرد ومكسب لقضية الولاء". ٧٦ وفي نفس اليوم ٢٩ أغسطس الذي أرسل فيه مشروعه للنكولن، اجتمع مؤتمر الحزب الديمقراطي في شيكاغو ورشح ماكلان للرئاسة، وكتب أحد مؤيدي لنكولن له يخطره أن مرشحهم سيكون واحداً "لأن جيفرسون دافيز قد يتسحب". ٧٧ والآن تظهر حاجة أكثر إلحاحاً لخطة براون. حوّل

دوجلاس دعمه إلى لنكونن كما تتحلى فريمونت عن ترشيح نفسه من أجل وحدة الجمهوريين، وأراد دوجلاس أن يحشد المصوتين من أجل لنكونن، لكن لجان الجمهوريين كانت شديدة الحساسية نحو تهمة "حزب الزوج" كما لاحظ دوجلاس. لذا، أخذ يعمل معهم من وراء ستار. ٧٨.

لم يتم تنفيذ خطة براون أبداً، لأن الجنرال ويليام شيرمان استولى على أطلانطا يوم ٢ ديسمبر في أهم انتصار للاتحاد منذ فيكسبرج، وانطلقت كلماته الشهيرة: "أصبحت أطلانطا لنا، وكسبنا معركتها بالعدل." تتردد عبر أرجاء الشمال. ٧٩. أمر لنكونن بإطلاق مئة مدفع تحية للنصر في كل واشنطن ودعا للاحتفال بيوم الشكر والصلاة. ٨٠. بمرور الوقت، بدأ شيرمان حملته نحو البحر، والجو الذي ظهرت فيه دعاوى "الرؤوس النحاسية" من أجل السلام فأخذ يفلت من أيديهم، وبدا واضحاً أن لنكونن سيفوز في الانتخابات عاجلاً واعتبرت خطة "براون" غير ضرورية حيث آمن كل شمالي - تقريباً - أن الحرب ستنتهي قريباً.

عد جون إيتون صداقة لنكونن - دوجلاس اختباراً لدبلوماسية الرئيس المعتمدة على الثنائية الحزبية إذ قال إن واحدة من مهارات الرئيس الكبرى "تبدو في تعامله مع أولئك الذين يميلون للتنقيب عن الأخطاء في سياساته." لم يكن لدى إيتون وسيلة

لمعرفة أن لنكون قد طور تلك المهارة على أطراف إيلينوي مع خصومه بدءاً من جاك أرمسترونج حتى ستيفن دوجلاس، لأنه أعلن من ٢٢ عاماً خلت قوله: "لو أردت أن تكسب شخصاً لصفك، فأقتعه أولاً بأنك صديقه المخلص." ٨١ وقد خدمته تلك العقيدة جيداً لأنه طبق تلك السياسة مع الكثير من السود بالفعل.

استطاع دوجلاس مصادقة لنكون لأن الرئيس تحول أخيراً لصالح قضية العتق، وظل هو - أيضاً - مخلصاً لصداقته التي يعتمد مبدأها على المشاركة في قضية واحدة، فكلا الرجلان احتاج كل منهما الآخر. احتاج لنكون لدوجلاس لإنقاذ الاتحاد، وهو قد خدم هدف دوجلاس بتحرير العبيد، وعند لقاتهما في أغسطس ١٨٦٤ أدرك الرجلان أن هدفيهما تؤمان يدعم بعضهما بعضاً.

لكن صداقتهما ارتكبت أيضاً إلى قدرتهما على التسامح، وكرجلين عصامين يقومان بتغيير نفسيهما باستمرار، أدركا أن عدو الأمس قد يصبح صديق الغد والعكس أيضاً صحيح، ورفضاً أن ينظرا لأنفسيهما باعتبارهما أشياء جامدة ساكنة. ولكي يحققا التحول، احتاجا للتسامح مع أعدائهما السابقين ونسيان سيئاتهم، والثقة فيهم باحتمال تغيرهم، وأدى بهما إيمانهما بقوة المغفرة إلى احتمال التقارب، ومنحهما القوة لمواصلة التطور.

✱



عندما تقابل دوجلاس ولنكولن للمرة الثالثة في ٤ مارس ١٨٦٥، كان الجو العام مبهجاً إذ جاء دوجلاس إلى واشنطن ليحضر التنصيب الثاني له، فالحرب أوشكت على الانتهاء وكان قد تم تجنيد ١٧٠٠٠٠ جندي أسود يزحفون منتصرين عبر الجنوب وقد مرر الكونجرس مؤخراً قانون الإصلاح الثالث عشر لاغياً الرق في جميع أنحاء الولايات المتحدة. ٨٣

كان اليوم بارداً ممطراً، وغطى الوحل الشوارع غير الممهدة "وتدقق الناس حول مبنى الكابيتول في حالة مزرية"، فالكثيرون منهم ظلوا متيقظين طوال الليل بعدما استقلوا قطارات خاصة للأقتراح الرئاسي تصل لواشنطن في الصباح . . . وبين رماد الجمر المتطاير من القطارات وبين الوحل والأمطار، بدت جموع الثلاثين ألفاً من الناس الحاضرين مرهقين تماماً ويغطيهم اللون الرمادي. "فقماش الكرينولين القطني "تكرمش"، والتنورات "تلطخت"، والملابس المموجة العتيقة والقطيفة وما إلى ذلك من ملابس جافة لوثها الوحل من أطرافها لأطرافها. ٨٤"

وصل دوجلاس قبل أربعة أيام من موعد التنصيب، وفي ٣ مارس احتسى الشاي مع سالمون تشيز وزير الخزانة السابق وهو الآن قاضي قضاة المحكمة العليا. كان دوجلاس قد التقى تشيز أثناء سلسلة محاضرات تحرير العبيد قبل الحرب وأحبه، وقد فرح بإحلال



تشيز محل تاووني الذي كان قراره في قضية دريد سكوت سبباً جزئياً  
في اشتعال الحرب، وقد خاطوا عباءة جديدة لقاضي القضاة كي  
يتلو- وهو مرتديها- قَسَمَ العمل بوظيفته وساعده دوجلاس على  
تجربة العباءة. ٨٥

استقرت القبة الحديدية الجديدة في خيلاء على قمة مبنى  
الكابيتول، وتوقفت عمليات التجديد تقريباً عام ١٨٦١. لكن  
لنكون أمر باستمرار العمل في استكمال القبة، لأن في استكمالها  
رمز لعودة الاتحاد حسبما يعتقد ٨٦. لكن بالنسبة للعديد من  
الديمقراطيين وبينهم هيرمان ملفيل، كانت القبة الحديدية الجديدة نذير  
شؤم . . . فكتب ملفيل:

قد تأتي القوة غير مُعمدة بالمسوح،  
والسلطان الذي لا يسعى إليه الأحرار كذلك.  
أما القبة الحديدية،

فتلقي بكل قوتها فوق الإحتمال،  
وتقذف ظلها الهائل بطول الميادين،  
بينما يهرب حلم المؤسسين منا . . . .

وهنا تثير القبة قلق وانزعاج ملفيل فهي قد (تقذف بظلها الثقيل  
بطول وعرض "الميادين والشوارع في أمريكا وتقرض سلطاناً غير  
مسبوق على المجتمعات والمدن وبذلك تدمر حلم المؤسسين للدولة،

حلمهم باتحاد غير مركزي وواسع لولايات الوطن، وتمنع وجود الحكومة المركزية. ٦٧

وقف تمثال "سيدة الحرية" البرونزي في فخار فوق قمة القبة، وبدت غريبة الشكل وهي ترتدي خوذة بدلاً من غطاء الرأس "الكاب" تماماً مثل إلهة الإغريق. لكن وزير الدفاع جيفرسون دافيز، الذي أشرف على نصب التمثال بحكم مركزه، كان يعلم أن وضع "الكاب" على رأس امرأة لدى الإغريق القدامى كان يعني أنها "عبد محرر". لذا، اقترح وضع خوذة بدلاً من الكاب. ٨٨

وقف دوجلاس بين الجماهير في انتظار بدء الاحتفال. ثم قام أحد الأصدقاء بالإشارة نحو أندرو وهو نائب لنكونل الجديد، وما أن لاحظ جونسون وجود دوجلاس حتى تحولت تعبيرات وجهه في الحال إلى "حقد واحتقار ممرور" وعندما رأى دوجلاس يراقبه أبدى "تعبيراً أكثر وداً وصداقة". أما بالنسبة لدوجلاس، فقد كانت تلك لحظة "تفتح فيها أبواب الروح الإنسانية فتبدي شخصيته الحقيقية"، فعاد إلى صديقه وقال: "مهما تكن طبيعة أندرو جاكسون، فهو بالتأكيد ليس صديقاً لنا ولا لجنسنا. ٨٩ ورغم أن سياسات لنكونل وجونسون بشأن التعمير متشابهة، إلا أن سلوكهما الشخصي تجاه العبيد كان متناقضاً.

مع مثل هذه الأعداد الكبيرة من الناس مجمعة حول الكابيتول، أخذ دوجلاس القلق بشأن محاولة اغتيال قد تقع، ولم يكن يشعر وحده بهذا القلق، فمنذ خريف ١٨٦٤ في الشمال انتشرت تقارير المراسلين تحدث عن مؤامرات تحاك بالليل، وقد استأجر لنكولن مؤخراً حارساً شخصياً وخلال إلقاء الخطاب وقف إلى جواره رجال شرطة في ملابس عادية مسلحين بمسدسات كولد ٣٨ وكان جونسون ويلكيس بوث أيضاً حاضراً يشاهد لنكولن من الشرفة اليمنى للمبنى، ووقف دوجلاس أمامه مباشرة، وكان بذلك يحتل موقعا ممتازا للرؤية. ربما كان يجب أن يقلق دوجلاس على نفسه لأنه منذ عام سبق أن حاول أحد الأشخاص اغتياله في بالتيمور. ٩٠ وكما ظهر بعد ذلك، كان الحفل "رائعاً تماماً، وشيقاً، وجاداً، وقلقاً للملاحظة دوجلاس" كما ساد "سكون ثقيل خيم على الجماهير" وأثناء إلقاء لنكولن لخطابه شعر دوجلاس أن الحفل يبدو كموعظة لا كخطاب دولة.

أكد لنكولن في خطابه أن الله هو "الغيب"، فكل طرف منا يقرأ نفس الكتاب المقدس ويصلي لنفس الإله، وكل طرف يتوسل مساعدته ومعوته ضد الآخر، وهو يتخيل أن غضب الله ينزل الانتقام على ملاك العبيد. لكنه يتجنب في حذر شديد ادعاء معرفته إرادة الله. فمثل ذلك الادعاء سيكون غطرسة "إن الله



القادر له - دائماً - مقاصده الخاصة، وإن الاتجاه الأمثل نحو الناس والأمم يجب أن يكون واحداً في التواضع والتسامح والمغفرة مع الشر نحو لا أحد، ومع الخير للجميع."

بعد الحفل، ذهب دوجلاس إلى حفل الاستقبال في البيت الأبيض، وبينما كان يهم بالدخول، جذبته إثنان من الشرطة بعيداً بوقاحة، وأخبروه أنه غير مسموح لأي شخص ملون بالدخول، فقال لابد أن خطأ ما قد حدث لأن مثل تلك الأوامر لا تصدر عن الرئيس. لكن الشرطين رفضا الاقتناع إلى أن قام بإرسال "كلمة" للرئيس بأنه موقوف عند الباب. وجد دوجلاس الرئيس لنكون في الحجرة الشرقية الأنيقة واقفاً "مثل شجرة صنوبر جبلية ببساطته العميقة وبهائه المنزلي". "٩١ قال لنكون: "ها هو صديقي يأتي إليّ". وأخذه من يده مضيفاً: "أنا سعيد لرؤيتك. لقد شاهدتك بين الجمهور اليوم تستمع لخطابي الافتتاحي". ثم سأله عن مدى تقديره للخطاب وأكمل: "ليس هناك شخص في هذا البلد أقدر رأيه أكثر منك". "٩٢ فأجابه دوجلاس: "سيد لنكون، لقد كان ذلك جهداً محترماً". "٩٣ حيث مثل الخطاب الافتتاحي له واحداً من أعظم فرائد الأدب الأمريكي وغالباً ما قام بالاقتراس منه ولم ينتقده أبداً رغم أنه ينتهي بجملة توافقية مشابهة لما جاء بخطاب "لنكون" الافتتاحي الأول.

أدرك دوجلاس الآن أن التوافق مع المتمردين ليس في ذاته سياسة مضملة، وربما عاد ذلك الفهم لعلاقته الودودة مع لنكولن، فهو- مثل الرئيس- يؤمن إيماناً عميقاً بقوة المغفرة التي تؤدي للتصالح. لكن المغفرة تكون لها قوة أخلاقية فقط عندما يعترف المتمرّدون بأخطائهم، وإلا فهي تزيدهم قوة وتسمح لهم بالاستمرار في الخطيئة وارتكاب الفظائع، فالمغفرة- عندئذٍ- سوف تؤدي لمسالمة البيض دون أي تغيير في سلوكهم تجاه السود، وفي النهاية كان ذلك بالطبع هو ما حدث.

في يوم ٩ أبريل، بعد شهر تال، استسلم "لي" للقائد جرانت عند أبوماتوكس. سمع لنكولن الأنباء مساءً وفي اليوم التالي أمر بإطلاق خمسمائة مدفع تحية لإعلان النص، وتجمع آلاف من البشر حول البيت الأبيض للاحتفال به. عزفت الفرق موسيقاها، ورفرفت الأعلام، وانطلق الناس في الغناء، والضحك، والصياح، ووصف ذلك أحد المحتفلين أن "كله... كله بهلّل". وبدأت الجموع تغني للنكولن، وفيما بعد ظهر في نافذة من الطابق الثاني، وطلب من الفرقة الموسيقية أن تعزف لحن "ديكسي"<sup>١٤</sup> وهو لحن مرح ارتبط

<sup>١٤</sup> كان الخط الذي يفصل بين ولايات الشمال الداعية لتحرير العبيد وولايات الجنوب "ولايات العبيد" يسمى خط ماسون/ديكسون وكان هذا اللحن منتشرًا جنوب ذلك الخط.

بقضية المتمردين، وقد قال لنكون للجماهير: "إنه واحد من أفضل الألحان التي سمعها في حياته. لقد حاول أعداؤنا مدة طويلة أن يخلصوا به أنفسهم، لكنني أصررت بالأمس على أننا (أسرناه) لدينا بشكل عادل." وهكذا عزفت الفرقة لحن "ديكسي" ثم انتقلت إلى لحن "يانكي دودل". في يوم ١٤ أبريل، بعد خمسة أيام من إعلان النصر، أرسل جون ويلكيس بوث إلى جريدة "الناشيونال إنتلجنس" في واشنطن. طوال الشهور القليلة الماضية استطاع بوث أن يجند فرقة صغيرة من جنود الكونفيدرالية لاختطاف لنكون ويطلب مقابله إطلاق ألف من سجناء الحرب المتمردين. ٩٥ كانت الخطة الأصلية أن يوقعوا لنكون في كمين خلال انتقاله بالعربة إلى وزارة الحربية وخطفه ونقله إلى ولاية فيرجينيا الكونفيدرالية، وكان بوث قد تقابل مع جواسيس كونفيدراليين في مونتريال بكندا وربما يكون قد تسلم منهم (أموالاً وتعليمات سرية). ٩٦ كما أن واحداً من رجاله قابل جودا بنجامين وزير خارجية الكونفيدرالية الذي كان يشرف على العمليات السرية. ٩٧ لكن بعدما استسلم "لي" لجرائت، كان على بوث أن يغير خطته لأنه لم يعد يستطيع تطبيق عملية المفاضلة، لكنه رفض أن يصدق أن الجنوب قد هُزم وأن العبودية انتهت تماماً، فكتب في يومياته: "إن قضيتنا أوشكت أن تضيع، ولابد من عمل حاسم وعظيم." ٩٨ كان خطاب بوث للجريدة دعوة لجمع السلاح

من أجل المتمردين "إن بلدنا أنشي من أجل البيض لا السود، فالعبودية تنشط النمو الاقتصادي وترتقي بالسود، وتمثل الخير العميم الذي أضفاه الله على بلدنا المحبوب." ٩٩ وقال إن لنكون يهدد بالقضاء على كل شيء فضيل في الجنوب، وقد شبه بوث لنكون ببوليوس قيصر، وهي شخصية يعرفها كلا الرجلان من خلال عشقهما المشترك لشكسبير، وبالفعل كان لنكون قد شاهد عرضاً لمسرحية "يوليوس قيصر" في مارس ١٨٦٤ بطولة إدوين بوث أخي جون بوث. ١٠٠ وفي نوفمبر من نفس العام مثل جون - نفسه - دور مارك أنطوني في عرض خيري لهذه المسرحية من أجل جمع أموال لعمل تمثال لشكسبير في سنترال بارك. ١٠١ لكن جون بوث فضل أن يقوم بدور بروتس في الحياة، وقد ختم خطابه لجريدة "الناشيونال إنتلجنس" بقوله: "عندما انتصر قيصر على أعداء روما، وهددت قوته وسلطاته حريات الشعب، نهض بروتس وقتله، وكانت طعنات خنجره تنطلق من حبه لروما. كان بروتس يوجه ضرباته لطموح وروح قيصر، وعلى قيصر أن ينزف دماً لقاء أفعاله." ١٠٢

وصل أبراهام وماري ليلة ١٤ أبريل متأخرين عند مسرح فورد بواشنطن لمشاهدة مسرحية "ابن عمنا الأمريكي" وهي كوميديا من الدرجة الثالثة، وكانا قد عزما الجنرال جرانت وزوجته

جوليا . لكن عائلة جرانت كانت قد سافرت إلى نيو جيرسي لرؤية أولادها، وفي صباح ذلك اليوم كانت ماري تشعر بصداق وقالت له إنها ترغب في البقاء بالبيت، لكن زوجها "كان مصرا على الترويج عن نفسه وارتبط ذلك بالمسرح"، فذهبت عائلة لنكون مع زوجين يجبان مرافقتهم: الميجور هنري رايبون وخطيبته كلارا هاريس ابنة نائب نيويورك، وبينما كانوا يدخلون مقصورة الرئاسة بالقرب من خشبة المسرح بدأت الأوركسترا تعزف لحن "المجد للرئيس" لإيقاف العرض قليلاً، فذهب لنكون إلى سور المقصورة وانحنى مبتسماً والجمهور يحياه بحنون. ١٠٣ وفجأة، بدأ المسرح كعائلة ودودة ورمزا مجسداً للأمة، على الأقل هذا ما شعرت به جوليا شيبيرد التي جلست وسط المسرح تشاهد العرض وهي تشرح لوالدها ما ترى: "الرئيس هناك، في أعلى اليمين بالمقصورة الخاصة المزينة بالأعلام الحربية في أناقة فوق صورة لجورج واشنطن، وابنة النائب هاريس الصغيرة الجميلة هي الوحيدة التي نستطيع رؤيتها من بين رفقة الرئيس لأن الأعلام تخفي الباقين، لكننا نعرف أن الأب أبراهام موجود هناك، مثل الأب الذي يتابع ما يهيم أبناءه من أجل متعهم وليس متعته، وكم يبدو المشهد اجتماعياً، مثل أسرة واحدة تجلس حول نار الحجرة. كل واحد كان سعيداً للأيام التي ضحكوا فيها وتصايحوا لكل طرفة كوميدية. ذلك ما كان عليه الشعور العام للدولة." ١٠٤

كان هناك واحد من أعضاء تلك الأسرة تهرب من أداء واجبه، إنه جون باركر ضابط الشرطة الذي تم تعيينه لحراسة مدخل مقصورة الرئيس الذي ترك خدمته لمشاهدة المسرحية، وبعد ساعة من مشاهدته لها خرج ليتناول مشروباً. كان لباركر تاريخ سيء في العمل، فقد تم اتهامه عدة مرات بالسُّكر. كما أهمل عمله لمدة أسبوع جرياً وراء متعته في بيوت العاهرات. ١٠٥

بعد العاشرة مساءً بقليل أبرز جون ويلكيس بوث بطاقته لبواب المسرح أسفل السلالم المؤدية لمقصورة الرئيس، وتعرف عليه البواب جيداً وتركه يمر لأن بوث قام بالتمثيل في مسرح فورد عدة مرات، وفي صباح ذات اليوم كان بوث قد أحدث ثقباً في باب المقصورة يتلصص منه، والآن وهو ينظر من خلال الثقب رأي لنكون من الخلف جالساً على مقعد متأرجح، ثم بهدوء دخل إلى المقصورة ورفع مسدسه نحو رأس لنكون على بعد قدمين فقط. ثم أطلق الزناد. كانت الساعة مقبلة على العاشرة والنصف مساءً. ١٠٦

حاول العقيد روثيون إمساك بوث. لكن القاتل جرحه بخنجره وقفز من المقصورة إلى خشبة المسرح. لكن مهماز بوث اشتبك في شراشف العلم المدلى من المقصورة للزينة، وسقط فوق قدم واحدة وقد انكسر عقبه، فلوح بخنجره الدامي صائحاً: "هذه نهاية كل طاغية!" وهذه الجملة هي شعار ولاية فيرجينيا، ثم هرب

من خلفية المسرح. عندئذٍ، وفي المقصورة، سمع كل واحد نحيب وعويل ماري: "إنهم قتلوا الرئيس . . إنهم قتلوا الرئيس . يا إلهي! لقد أسلمت زوجي للموت." ١٠٧ كان اليوم يوم الجمعة الطبية.

حالما أدرك الأطباء أن لنكون لن يموت لحظتها، نقلوه إلى منزل خاص يملكه ويليام بيترسون بجوار المسرح، وهو تاجر أدوات تفصيل. في خلفية الدور الأول كانت توجد غرفة ضيقة ذات سرير صغير، وحيث كان السرير صغيراً جداً بالنسبة لطول لنكون وضعوه بشكل مائل، ورغم علمهم أن طلقة بوث كانت مميتة لكنهم لم يريدوا للرئيس الموت داخل مسرح لأن الموت بهذه الصورة غير ملائم لوضع الرئيس ما لم يعدوه كفراً أيضاً في رأي الكثير من الأمريكيين. خلال التسع ساعات التالية انتظرت ماري وفاة زوجها، وظلت لساعات قلائل جالسة بجواره، ومن بين زفرتها المستمرة كانت تناديه بأسماء محبة وتطلب منه أن يقول لها بضع كلمات. لكن لنكون لم يستعد وعيه ثانية أبداً. ١٠٩ عندما وصل روبيرت تود لنكون ورأى حالة أمه، أرسل في طلب إليزابيث ديكسون أقرب صديقات ماري من واشنطن، التي ساعدتها خلال الأزمة وأقنعها أن تستريح في غرفة ملحقة حيث أمكنها أن ترتاح وأن تظل على زوجها كل ساعة، وأرادت ماري أن يحضروا لها ابنها تود ذا الإثني عشرة سنة للمنزل ليحضر وفاة والده، لكن الأطباء رفضوا ذلك بسبب أن

ماري كانت تقع في نوبة إغماء كلما صعب تنفس زوجها، ووجد إدوين ستاتون وزير الحرب الذي تولى مسؤولية الإجراءات التالية للحادث أن في وجودها خطر عليها، فأمر رجاله: "خذوا هذه السيدة للخارج ولا تدعوها تأتي هنا مرة ثانية!" ١١٠

امتألت الحجرة برجال الدولة، وكل وزراء لنكون تواجدوا هناك عدا ويليام سيوارد الذي تعرض للهجوم وكاد يُقتل علي يد لويس بن شريك بوث. كما أن بوث كان قد أمر شريكاً ثالثاً هو جورج آتزيروت باغتيال أندرو جاكسون نائب الرئيس. لكن آتزيروت تجاهل الأمر وتجوّل بلا هدى "خلال شوارع المدينة" وكان ستاتون عالي الكفاءة لدرجة أن كل مآمر ماري بوث قد تم اعتقالهم خلال ساعات قليلة، حتى بوث نفسه تم تعقبه وقتله يوم ٢٦ أبريل في مزرعة بشمال فيرجينيا. ١١١

ألقت ماري نظرة أخيرة على زوجها عند ظهور ضوء الفجر المطر القادم من النوافذ مثل "شموع خافتة"، وبسماع صوت غرغرة الموت أدرك الأطباء أنها بداية النهاية فاندفعت ماري في العويل: "يا الله، هل أسلمت زوجي للموت؟" ثم انهارت فجذبها ابنها روبرت بعيداً. ١١٢



عند الساعة ٢٢ ر ٧ صباح يوم ١٥ أبريل التقط لنكون آخر أنفاسه، فطلب ستاتون من الطبيب فينياس جورلي، كاهن أسرة لنكون وراعي كنيسة شارع نيويورك البريسبتارية بواشنطن، تلاوة صلاته فانهار روبيرت لنكون فجأة ومال على تشارلز سومنر مستنداً، وعندما انتهت الصلاة انهالت دموع ستاتون فوق خديه، ثم رفع ذراعه اليمنى قائلاً: "إنه الآن في ذمة التاريخ." ١١٣

عندما علم دوجلاس نبأ موت لنكون غلبه الحزن. كان في منزله في روشيستر وشعر بأن ذلك النبأ "مأساة شخصية وقومية". في ١٥ أبريل بعد ذلك، ألقى خطاباً مرتجلاً في سيتي هول حيث اجتمع عدد من المواطنين لثناء موت الرئيس، ولم يكن ذلك وقت الخطب وإنما وقت الصمت والصلاة- هكذا قال دوجلاس- وكان تردداً لمشاعره حول عدم قدرة الخطابة على التعبير عن مواقف معينة وذلك ليلة ذكرى الانعقاد وتحرير العبيد. هكذا ألقى خطاباً رائعاً مرة أخرى. ١١٤ فبعد اقتباسه كلمات من خطاب لنكون الافتتاحي، سعى دوجلاس لإبراز معنى مأساة موته "رغم أن أبراهام لنكون يموت إلا أن الجمهورية تحيا." وحد موت الرئيس فجأة بين السود والبيض في الشمال "وجعلت منا ذوي قربي" كان استشهاده رمزاً للمغفرة والتصالح العرقي ولسلام دائم لا يحمل شرا

لأحد ويحمل الخيز للجميع، وشبه دوجلاس لنكون - فعلاً - بمسيح أمريكا: "ربما يكون في دم رئيسنا الشهيد المحبوب خلاص وطننا." فالناس سوف يتحدثون، ويصبحون كالأقارب بفضل ولائهم للأمة بدلاً من ولائهم للون بشرتهم. "١١٥

وإذا كان موت براون قد بدأ الحرب التي أنهت العبودية - كما يعتقد دوجلاس - فإن موت لنكون يمكنه أن يبدأ طريق التوافق بين السود والبيض. تعامل أغلب البيض مع وفاة لنكون بأسلوب مختلف. على أية حال، فاستشهاده يؤدي لخلاص الأمة، ويمهد لعملية إعادة الوحدة بين بيض الشمال وبيض الجنوب، وأصبح يمثل مسيحاً أمريكياً غفر للمتمردين خطاياهم وسمح لهم بالعودة للاتحاد. قال أحد الكهنة يوم الأحد التالي لوفاة لنكون: "إن المسيح عيسى مات من أجل العالم، وأبراهام مات من أجل وطنه."

كما أصبحت عباراته الودودة لازمة شعبية يكرها الناس، وبالتالي أصبح جون ويلكيس بوث يمثل يهوذا الأسخريوطي الأمريكي. كما أطلق بعض الناس "الأسوأ" من اسمه "لأنه قام بالاغتيال بينما كان يهوذا الأول مجرد خائن يجمع الذهب ويترك الآخرين "ليقوموا بأعمال القتل". ١١٦.

قاد بيض الشمال عملية المصالحة، فضمنوا العفو لكل  
المتمردين - تقريباً - وأعادوا الأمل لك المصادرة لهم بدلاً من توزيعها  
على السود الذين ساعدوهم في الفوز بالحرب، وعكست تلك  
السياسة رسالة لنكون في التسامح في خطابه الافتتاحي، وبالتأكيد  
خطته في إعادة التعمير كذلك.

والمشكلة في هذا الشكل من أشكال المغفرة أن الجنوبيين  
لا يظنون أنهم أخطأوا، وأن العبودية ليست خطأ كما يعتقدون، وأن  
الشمال هو المعتدي فلا عجب أنه في العام الأخير للحرب لم يتمنى  
المتمردون أكثر من رؤية لنكون ميتاً (أو معزولاً من منصبه)،  
وحقيقة خطط الكونفيدراليون لتفجير البيت الأبيض، وعقب اغتيال  
لنكون، انتهج المتمردون عبر أرجاء الجنوب، ١١٧ وتوقف ابتهاجهم  
بسرعة لأنه بعد انتهاء الحرب وفقدان قضيتهم أراد الجنوبيون أن  
يعودوا للاتحاد فقبلوا سياسة لنكون بالتسامح دون إبداء أي ندم،  
وبدأ قادة التمرد المفكرون وكذلك الشماليون المتعاطفون معهم في  
التعامل مع موت لنكون باعتباره مأساة قومية، فأعلن أحد  
الصحفيين في الديمقراطية أنه "ب وفاة مستر لنكون، فقد شعب  
الجنوب أفضل أصدقائه." كما كرر الجنرال جوزيف جونستون قائد  
التمرد نفس المشاعر بقوله إن موت لنكون "كان أعظم مأساة محتملة  
للجنوب"، بسبب سياسته في التسامح. كما قال أليكساندر



ستيفينس نائب رئيس الكونغرس الرأى أنه "مر بأحلام مزعجة" غداة اغتيال لنكون، وخصص يوماً للصوم وللحزاء لتكرىم صديقه السابق. ١١٨. وتحولت مأساة موت لنكون فى الحال إلى نداء للمتمردين السابقين.

\*\*\*

= خاتمة =

في الرابع عشر من أبريل لعام ١٨٧٦، في الذكرى الحادية عشرة لاعتقال لنكولن، ألقى دوجلاس الخطاب الرئيسي في حفل افتتاح الذكرى برفع الستار عن "تمثال فريد مان" في حديقة لنكولن بمقاطعة واشنطن. خلف منصة المتحدث، جلس رئيس الولايات المتحدة جرانت ومجلس وزرائه، وقضاة المحكمة العليا، وأعضاء الكونجرس، ورجال الدين والدبلوماسيون وقليل من قادة السود، وتواجدت الفرقة الموسيقية على اليمين التي افتتحت الحفل بلحن "المجد لكولومبيا" وأمامهم التمثال الذي مازال محاطاً بالأعلام الأمريكية وانتشرت الجماهير في نصف دائرة عددها خمسة وعشرون ألفاً، أغلبهم من السود ١٠

كانت بداية تأسيس التمثال بواسطة امرأة محررة اسمها لوت سكوت، انتقلت إلى أوهايو عام ١٨٦٤ بعد اغتيال لنكولن بأسابيع قليلة، وقد وهبت خمسة دولارات لعمل تمثال لتخليد ذكره وتراكت الأموال عبر السنين في دفعات صغيرة يأتي أغلبها من السود الحريين حديثاً أو من المتطوعين السود، وفي النهاية تم سداد التكلفة النهائية للتمثال البرونزي من تبرعات السود وصلت إلى ١٧٠٠٠ دولار وقام الكونجرس بسداد ٣٠٠٠ دولار لقاعدة التمثال ٢٠ صمم التمثال الفنان توماس بول وهو نحات من بوسطن انتقل إلى فلورنسا بإيطاليا أثناء الحرب، وألهمته أخبار اغتيال لنكولن بإبداع تمثال عن الحرية من الرخام الإيطالي، وكانت اللجنة المسؤولة عن اختيار التصميم والمشكلة كلها من الرجال البيض قد سمعت عن نموذج بول، وكلفته بصناعة واحد من البرونز ٣٠.

تقدم الرئيس إلى مابعد منصة الخطابة لكشف الستار عن التمثال، وبعد لحظة صمت شد الحبال لترفع الأعلام، وعزفت الفرقة "المجد للرئيس" وهتفت الجموع، ولم يبد واضحاً هل كانوا يهتفون لجرانت أم للتمثال. كان التمثال يبين لنكولن واقفاً ويده اليمنى على منصة رفيعة تمسك بإعلان تحرير العبيد بينما يده اليسرى تلوّح مرتبة فوق رأس عبدٍ راكم، وعند القاعدة كلمة وحيدة تعني "العق".

كانت هيئة العبد الراكع أيقونة ورمزاً بين دعاة التحرير منذ بداية الحركة، ومع الحرب الأهلية أصبحت واحدة من أشهر (أو حتى أغرب) الصور في أمريكا ولأن التمثال تم إبداعه بواسطة البيض، ترى الصورة الأيقونية تصف العبد راکعاً وحيداً تماماً متوسلاً في صلاة ومتسائلاً: "ألسْتُ إنساناً وأخاً؟" بالنسبة لمعظم البيض، كانت الصورة الرمزية توحى بالتسليم لله وللبيض من أجل الخلاص. تمنى دوجلاس أن يعيدوا تصميم تلك الصورة النمطية، وقدم نحتاً يمثل المسيح واقفاً وأمامه العبد الراكع وقام بتوزيع تلك الصورة على أنها واجهة لكتاب مُهدى من الشعب. لكن في تمثال فريدمان تحول لنكون إلى مسيح أمريكا. ٥

بينما تقدم دوجلاس نحو منصة الخطابة لإلقاء كلمته، نظر إليه بعض ممن في وسط الجمهور ليرى إذا ما كان يسير متكئاً على عصا حيث أن ماري بعد وفاة زوجها أهدت دوجلاس بعضاً من أفضل عصي زوجها كذكاء لصدقاتهما، وحيث كان دوجلاس يعتبرها "رمزاً لعلاقة مقدسة" فربما تركها في المنزل. ٦ لم يجب دوجلاس ذلك التمثال حيث أخبر أحد أصدقائه لاحقاً: "إن إضفاء لمسة أكثر رجولة للتمثال ستوحى بالحرية." لكنه اليوم تجنب انتقاده وبدلاً من ذلك أشار إليه "كشيء سامٍ مثير" و"عطاء متواضع" وملاؤه الأمل في أن يوفر علاجاً لتلك الصورة الأبوية لعبد

راكَع أمام مَحَلَّصَه الأبيض ٧٠ علم دوجلاس أن تلك الكلمات قد  
تشعر بعض الناس بعدم الارتياح، واستطرد قائلاً: "إن الحقيقة تجربني  
أن أصرح- حتى هنا وبحضور ذلك التمثال الذي نصبناه في ذكراه-  
أن أبراهام لنكولن لم يكن، بكل معنى الكلمة، لارجلنا ولا نموذجاً لنا،  
فهو أساساً رئيس للناس البيض، كرّس نفسه كلية لرفاهية البيض  
وقد شارك أبناء وطنه الإحساس السائد بالعنصرية تجاه السود." ٨  
ثم خاطب دوجلاس- بعد ذلك- كبار الشخصيات من البيض في  
المنصة خلفه قائلاً: "أتم أبناء أبراهام لنكولن. أما نحن فعلى أفضل  
تقدير فأبناء زوجته." ٩ لاشك أن كثيراً من كبار الشخصيات  
البيض قد اعتبروا كلمات دوجلاس إهانة وأن مذاقها سيء. لكن  
أولئك الذين تبعدوا أسلوبه، يعرفون ميله إلى تغيير مجرى حديثه  
ومفاجأة الجمهور، وهو أسلوب التقطه منذ زمن طويل من كتاب  
"الخطيب الكولومبي" الذي كان يستخدمه الآن.

"بتغليب أولوية بقاء الاتحاد على مأساة السود، نجح لنكولن  
في تنظيم الشعب الأمريكي المخلص من أجل الصراع الهائل القادم  
أمامهم ثم إخراجهم بأمان من ذلك الصراع... ولو وضع تحرير  
العبيد قبل إنقاذ الاتحاد لكان خسر عدداً كبيراً من مؤيديه، ولوجد  
أن مقاومة التمرد مستحيلة، وعندما ننظر للسيد لنكولن من أرضية  
دعاة تحرير العبيد نراه متردداً، وبارداً، وكثيراً بل ولا مبال. وعندما



ننظر إليه بمقياس مشاعر أمته، وهي المشاعر التي ارتبط  
باستشعارها كرجل دولة، فهو سريع وغيور وثوري وحاسم  
أيضاً. "١٠

بالفعل، أجمل الخطاب خصائص رئاسة لنكون حيث قاد  
الحزب الجمهوري "اليمن المحافظ وقتها" الأمة خلال الثورة، "والرئيس  
الأبيض الذي عامل السود كأبناء لزوجه قام بتبنيهم كأبنائه تماماً مثل  
جزء من كيان الأمة، وهكذا بتكريم لنكون يكون السود قد كرموا  
أنفسهم" هكذا قال دوجلاس.

السخرية الكبرى هنا أن ذلك التمثال وبه ذلك العبد الراكع  
أمام لنكون الواقف أمامه كشخص المسيح كان أكثر دقة مما أراد  
لنكون أن يصرح به، لأن العبيد في عام ١٨٧٦ بدلاً من التقدم في  
طريق الحرية "كانوا يفرقون ركوعاً على ركبهم بعدما وقفوا لبرهة  
قصيرة تحت الشمس. "١١

ولأن رمز لنكون كمسيح أمريكي ساعد على تكفير ذنوب  
الكونفيدرالية، استعاد قادة التمرد السيطرة على إقليمتهم،  
واستطاعوا القضاء على الإصلاحات الدستورية التي أنهت العبودية  
ومنحت حق التصويت للسود وحق المواطنة لكل إنسان ولد على  
الأرض الأمريكية. كما أن أغلب القوات الفيدرالية "المركبة"  
غادرت الجنوب، وخلال أقل من سنة تلت الانتخابات المتنازع عليها

لرورزفورد هايس تم إخلاء البقية الباقية من قوات الشمال مخلقة  
خطة التعمير والنساء لمصير سيء بيد المتمردين القساة، وتحققت  
مخاوف دوجلاس من الحرب الأهلية، لكنه بقى - رغم ذلك -  
صامتاً. فلماذا كان هكذا؟

مثل معظم السود الآخرين والبيض من دعاة التحرير، شهد  
دوجلاس نهاية الحرب كخاتمة للعصر وخاتمة لعمل حياته. ١٢ كما  
كانت أيضاً نهاية لصناعته المتواصلة لنفسه إذ اعترف بقوله بعد  
الحرب: "سيطر على شعور غريب وربما شعور أحمق". كما أن  
السعادة الكبرى التي شعر بها في مساعدته لإنهاء العبودية "اختلطت  
قليلاً بشعور من الحزن، لقد شعرت بأنني قد وصلت لنهاية أفضل  
وأنبيل جزء في حياتي، فمدرستي انهارت، وكيستي هُجرت،  
وجماعة المصلين تشتتوا، ولم نجتمع معاً ثانية." إذ أصبح إنجاز حياته  
الآن "بين طيات الذاكرة". ١٣

كان ذلك اعترافاً مدهشاً، ففي خطابه المعنون "ماذا يعني  
الرابع من يوليو للعبيد؟" عام ١٨٥٢، قام دوجلاس بتلخيص فوائد  
التاريخ بقوله: "يجب أن تعامل مع الماضي فقط عندما يمكننا  
الاستفادة به في الحاضر والمستقبل." ١٤ لكن الماضي أصبح الخط  
الرئيسي السائد، وتجاهل خطابه يوم تمثال فريدمان ما كان يحدث

عندئذ للسود في الوقت الحاضر إذ كانوا يقتلون بصورة تكاد تكون منظمة، بل ويتم إرهابهم بواسطة الكونفيدراليين السابقين الذين حاولوا إعادة العبودية دون تسميتها كذلك. كما رفض الرئيس جرانت ورجال الكونجرس وقضاة المحكمة العليا - الذين أيدوا دوجلاس من قبل - أن يتولوا مرحلة جديدة من الحرب الأهلية. لقد أعلنوا الانتصار، لكنهم تحولوا إلى عميان لا يرون ما يحدث. هكذا أيضاً فعل دوجلاس. ففي خطابه تجاهل الانتهاكات المرتكبة في حق السود. ١٥. وهو في ذلك الإطار يشبه رياضياً معتزلاً أو قائداً سياسياً تراجع أعمال حياته وإنجازاته العظيمة وراء ظهره، ولم يعد قادراً على العودة لدخول المعركة بنفس الحماسة ونفس الأسلوب.

مثل نصب فريدمان لدوجلاس ولدعاة التحرير الآخرين الوصول للذروة المرتجاة بدلاً من أن يكون بداية لنضال جديد. فقرار تحرير العبيد كان "المفتاح للجنة الموعودة" ومثل باقي رفاقه، كان دوجلاس قد حدد الحرب بمفهوم توراتي كحرب رهيبة مزللة تتم بمجيء الملك ميكايل مع ملائكته لمحاربة الشيطان. لكن الحلم أسفر عن كابوس مرعب، فالعصر الجديد على مرمي البصر؛ وفي مواجهة الشكوك ومعالم الإحباط المتزايدة استدار دوجلاس ومعظم رفاقه الدعاة إلى

الماضي مصدراً للتعزية، ١٦ استمرت الحياة، ودوجلاس يصل لعامه السابع والأربعين.

عندما انتهت الحرب، كان قوياً من الناحية الجسدية والصحية وقد يعيش ثلاثين عاماً قادمة. لكنه خلال تلك الفترة تغير أكثر من أي فترة أخرى في حياته، ومنذ عام ١٨٧٠ حتى عام ١٨٩٥ أصبح قيادياً في الحزب الجمهوري ورجل دولة عجوز إذ آمن أن الجمهوريين قدموا أقصى أمل لديهم للسود، ونبع ولاؤه الراسخ لحزبه - جزئياً - من ذكرياته عن ثوريته السابقة. ١٧

في عام ١٨٧٠ انتقل دوجلاس إلى واشنطن "المقاطعة" واشترى جريدة "نيو ناشيونال إير" من جرائد الحزب الجمهوري، وبدأ معتدل الاهتمام بها. على أية حال، لم يخصص لها أوقاتاً كثيرة سواءً ككاشف أو كمحرر. لذا، افتقرت إلى الأسلوب الأدبي والعاطفة والشعور بالهدف الذي كانت عليه جريدة "نورث ستار" وتوابعها لأنها أهملت أحياناً بالقضايا الاقتصادية أكثر من اهتمامها بقضايا السود وذلك ما عكس تحولاً للحزب الجمهوري من الحقوق المدنية إلى اهتمامات العصر الذهبي للرأسماليين. بعد أربعة أعوام فقط من شرائه "نيو ناشيونال إير" في أعقاب اضطرابات عام ١٨٧٣، أخذت الجريدة في الهبوط، وفي آخر سنة لها كانت "تقرأ كجريدة يصدرها

"لوبي" كبار رجال الأعمال. "١٨ كان دوجلاس أكثر تأثيراً في الدعاية لمرشحي الحزب الجمهوري عام ١٨٧٢ لدرجة أنه ساعد في إعادة انتخاب جرانت، وقد أقنع السود بالبقاء مخلصين للحزب رغم الفساد الكبير والعيوب الخطيرة التي تسبب فيها كبار زعمائه مثل تشارلز سومنر لأن جرانت والجمهوريين شكلوا لدوجلاس "الأمل الوحيد المرئي للجنس الملون في الولايات المتحدة، فخارج هؤلاء لا نرى أية قوة تقف بين الزنجي والقتل، فمئذ عام سبق أرسل جرانت القوات الاتحادية لقتال جماعة الكوكلوكس كلان وبقية الجماعات البيضاء المسيطرة. لكن طالما كان الجمهوريون الأثرياء يسعون للتحالفات الاقتصادية مع المزارعين بالجنوب فقد أصبحت تلك الحملات نادرة." ١٩

إن حزب لنكون، الموجود به الآن جرانت ودوجلاس الذي شجع كثيراً من البيض على صناعة أنفسهم ووفر حالياً الحرية والمواطنة لكل مواطن أمريكي والتصويت لكل الناس، يمضي متسارعاً ليصبح حزب الصناعيين الأثرياء الذين أغلقوا أبواب الحزب دون أولئك الذين كانوا يناضلون من أجل الوطن.

عندما احترق منزل دوجلاس بروشيستر عام ١٨٧٢ اعتبر ذلك علامة على العصر، فبمجرد علمه بنأ الحريق استقل أول قطار إلى روشيستر، وعندما وصل هناك ذهب إلى فندق لكهم طرده

لأنه كان أسود، وياله من تغيير أحدثته الحرب! فمنذ عام ١٨٥٠ فصاعداً أصبحت روشيستر واحدة من أكثر المدن مناداة بالمساواة بين الأجناس في الوطن والآن لم يعد يستطيع حتى تأجير غرفة، مما دفع به إلى الشك أن شخصاً ما قد أحرق منزله عمداً. هذا ما استنتجه قائلاً: "تلك الروح التي طردتني من الفندق هي التي أحرقت منزلي." فانتقل بآناً والأطفال - بعد ما خرجوا من الحريق دون أذى في روشيستر - إلى واشنطن. ٢٠.

كان للإخلاص الحزبي والولاء للحياة السياسية في واشنطنٍ مقابل من الإكراميات، ففي عام ١٨٧٤ تم تعيين دوجلاس رئيساً لبنك فريدمان رغم عدم امتلاكه أية خبرة بنكية. عمل البنك بعد أن أنشأته الحكومة الفيدرالية عام ١٨٦٥ كمؤسسة مستقلة لمساعدة العبيد المحررين على ادخار أموالهم، ولكن حالما استقر دوجلاس بمكتبه الوثير الجديد، اكتشف أن البنك على وشك الإفلاس إذ كان مديروه البيض فاسدين أو غير أكفاء، حيث أقرضوا ٥٠٠٠٠٠ دولار للبارون اللص جاي كوك بفائدة قدرها ٥% (أقل من نصف الفائدة السائدة) وكان ذلك وسط أقاويل أن إمبراطورية كوك المالية في طريقها للانهار. أدرك دوجلاس في الحال أن مديري البنك أرادوا استغلال اسمه الموثوق به في استعادة ثقة العملاء، وحاول بصورة

مبدئية إقناذ البنك مودعاً ١٠٠٠٠ دولار من أمواله الخاصة، وأرسل برقيات إلى العبيد المحررين بالجنوب يحضهم على عدم سحب أموالهم في فروع البنك. لكن بعد ثلاثة أشهر على توليه الرئاسة، أغلق البنك أبوابه للصالح العام وقال مجملاً ما حدث: "لقد كان بقرة الرجل الأسود. لكنه كان "حليب" الرجل الأبيض." ورغم أنه حصل على ١٠% فقط من رصيده، نجد السود المحررين قد فقدوا نصف إيداعاتهم ٢١.

تسلم دوجلاس أخيراً في عام ١٨٧٧ تعييناً بوظيفة مغرية من الحزب الجمهوري، لأنه كان يشارك في حملة الترشيح للرئاسة التي قام بها الحزب لمرشحه راذرفورد هايس العام الماضي، وهي الانتخابات التي تم التنازع عليها مع المرشح الديمقراطي صامويل تيلدين. ثم منحت لجنة الانتخابات الرئاسية لراذرفورد هايس، معتمدة على التأيد - غير المسبوق - لأعضاء الكونجرس؛ ولتهدئة ديمقراطيي الجنوب وافق هايس على سحب باقي القوات الفيدرالية من الجنوب وهكذا أنهى مشروع التعمير، وتغطية خيائته للسود قام بتعيين دوجلاس مارشالاً لمقاطعة كولومبيا، فكانت تلك هي المرة الأولى التي يتلقى فيها رجل أسود وظيفة فيدرالية تحتاج لدعم نواب مجلس الشيوخ وكان منصباً مرموقاً لأن هذه الوظيفة تستلزم تجميع كبار شخصيات المجتمع حول المدينة. أصبح دوجلاس متباطئاً في

الهجوم على هايس مما حدا بالنقاد إلى القول بأن "وظيفة سميئة  
أخرسته دهرًا". ٢٢

أحيانًا ما أدى إخلاص دوجلاس الحزبي إلى عماء عن  
الصراع الطبقي الذي بدأ يشعل الانقسام العرقي من جديد، فالكثير  
من أثرياء الحزب الجمهوري أظهروا اهتمامًا بالسود كوسيلة للحصول  
على الأصوات والسلطة السياسية، وما أن يصلوا لمرحلة عدم  
احتياجهم لأصوات السود يهملونهم ويعودون لصياغة تحالفات مع  
النخبة الجنوبية التي لم تندم على ما فعلت بعد ٢٣.

أدت حالة دوجلاس الاقتصادية إلى عدم شعوره بأحوال جموع  
السود، فخلال العصر الذهبي أصبح جمهورياً ثرياً، وكان يتقاضى من  
خمسة إلى ستمائة دولاراً لكل محاضرتين، وفي فترة قدرها ٣  
أشهر، تلقى ٣٧٠٠ دولاراً لإلقاءه محاضرات على النخبة البيضاء  
حول موضوعات متنوعة مثل الصحافة والتراث الشعبي. وفي  
عام ١٨٧٧ اشترى ضيعة في أناكوستيا المعروفة بقلع التاج مكونة من  
بيت من الطوب مساحته ١٦ فدان تطل على مبنى الكابيتول، وبين  
رسوم الكلام والاستثمار ودخله الحكومي، كونه ثروة صغيرة  
مقدارها ٣٠٠٠٠٠ دولاراً. ٢٤



وبالنظر إلى وضعه الحالي كرجل دولة كبير، يصبح مفهوماً أن دوغلاس لم يعد يسعى لتغيير ثوري في عالمه أو يستمر في إعادة صنع نفسه، وقد تأكد بعد مشروع إعادة التعمير أن "الحكومة أفضل من الفوضى وأن الإصلاح الهادي أفضل من الثورة العنيفة". ٢٥ لقد كان ذلك انقلاباً عميقاً من منطلقه كأحد دعاة التحرير الثوريين، وهو الآن في الحقيقة يقلل من أحداث ماضيه المتطرفة، ففي كتاب سيرته الذاتية أعاد نشر كتاباته عن غارة جون براون لكنه ألغى الجملة التي كان فيها أقسى منتقدي لنكولن، فهو الآن يسميه "أعظم رجل دولة يرتقي قمة تلك الجمهورية" و"الرجل الأكثر مسؤولية تجاه الحرية الأمريكية"، ٢٩ بل إنه شبه لنكولن بالإله "فلا أحد غيره له طبيعة الإله". هذا ما قاله عام ١٨٩٣. ٣٠

أحياناً ما حاول دوغلاس أن يوصل أفكار لنكولن، كما فعل مع الله قبل وأثناء الحرب عندما أبرز نفسه كبي. فكما يتساءل المسيحيون الإنجلييون الآن "ماذا كان سيفعل المسيح؟" كان دوغلاس أيضاً يتساءل عادة "ماذا كان سيفعل لنكولن؟" وسأل هذا السؤال في خطاب له عام ١٨٨٣ في ذكرى "العتق" في مقاطعة كولومبيا "هل كان أبراهام يستطيع التنبؤ بالتكلفة الهائلة والصعوبات المرعبة، وإهدار الدماء المخيف، والأموال الضائعة خلال جهود إنقاذ الاتحاد؟ هل كان يستطيع التنبؤ بدموع الأرمال واليتامى ودمه

الدافئ المنهمر لمجرد صدور طلقة من يد القاتل؟ ربما فكر في ذلك. "كانت كل تصرفات دوجلاس تقول إنه كان مستعداً دائماً "لتنظيم، وتجميع، وحتى التآمر ضد نظام العبودية إذا ما كان هناك أمل معقول في النجاح." ٢٦ الآن أصبح يماثل لنكولن في توجهه التدريجي والنسبي المحافظ ناحية الإصلاح.

لم يكن تحول دوجلاس إلى ماضيه بعد الحرب أمراً فريداً، فهو يتوازي مع تراجع أغلب دعاة الإصلاح عن مبادئهم التوراتية إذ أصبح أكثر علمانية في رؤاه الشاملة ولم يعد يؤمن أن الله يمكنه التأثير في شؤون العالم، وبالتالي فوجود جنة على الأرض تبدو له وهماً خطيراً، فالحقائق المادية وقوانين الطبيعة قهرت كل "صلواته المسيحية". وبعد معاناة أربع سنوات من الحرب المرعبة، أصبح أكثر نفعية وأدرك تكلفة تحقيق المبادئ الوطنية. ٢٧

ظلت ذكرى صداقه للنكولن تؤثر على حياته ومع سنوات ١٨٨٠ أمكنه أن يتجاهل حقيقة كون أن الثمن كان عظيماً جداً أكثر من اللازم. ٣١ هل كان وقوع ٦٢٠٠٠٠ قتيل يساوي الحرية الاسمية المدعوة لأربعة ملايين عبد؟ لم يعد أكبر دعاة تحرير العبيد متأكداً من الإجابة.

في أغلب الوقت، لم يذكر دوجلاس تكلفة حرية السود على أنفسهم، فرغم أنه الآن أصبح أكثر نفعية وبراجماتية، وقادراً على

الموازنة بين مبادئه مقابل وقائع عالمه، إلا أنه ظل ناشطاً اجتماعياً  
لبقية حياته وكان يقول: "عندما كان العبد عبداً طلبت تحريره؛  
وعندما أصبح حراً، طالبت بحريته الكاملة: كل أركان الحرية. قد  
أكون فشلت في أمور أخرى إلا هذا فلم أفشل فيه." فقد طالب  
بحرية العبيد بعدة وسائل منها الاعتراض ضد المحاكمات الرمزية،  
وإرهاب عصابات الكوكلوكس كلان، وقوانين المستأجرين، وأساليب  
المزارعة، والحض على إصلاح داخل الحزب الجمهوري وغالباً  
باستعادة ذكريات العبودية، وتحرير العبيد، بل وتغيير لنكون. ٣٢

أحب دوغلاس بيته الجديد بتل التفاح في أنا كوستيا، وكان  
يمشي خمسة أميال كل صباح حيث يحملق بالكابيتول، وجرب  
الرياضة باستخدام "الدومبلز" بانتظام، وكان أطفاله وأحفاده  
يزورونه غالباً، وكان يدلهم بالرعاية والمال، واشترك في نادي اتحاد  
المدينة لشكسبير وتم تعيينه مسجلاً لأعمال مقاطعة كولومبيا التي  
تطلب عملاً أقل عبثاً من مهام مسئول البريد. ٣٣

ماتت أنا عام ١٨٨٢ بسن السبعين من عمرها، وكان  
دوغلاس في الرابعة والستين. ظلت تعاني آلام الروماتيزم التي أبقتهما  
بلا حراك، بل ومشلوله أحياناً. وفي شهورها الأخيرة، قدمت لها  
المرضات "رعاية صادقة ومستمرة" وماتت في هدوء. يذكرها  
دوغلاس بأنها "كانت عمود المنزل الذي جمعنا معاً. ٣٤ بعد ثمانية

عشر شهراً تزوج دوجلاس من هيلين بيتس، امرأة بيضاء تحمل درجة جامعية وتصغره بعشرين سنة وعملت كسكرتيرة له. أغضب خبر زواجه الكثيرين من البيض والسود، ومن بينهم بعض أعضاء الأسرة لأنه لم يشرح ظروف ذلك الزواج جيداً وقال: "بينما تمثل أنا لون أبيض، كانت هيلين تمثل لون أبي". "مما أوحى لبعض الناس أنه الآن قد انحاز للجانب الأبيض من شخصيته. وقد أصر - أيضاً - على أن النساء والرجال "بغض النظر عن الجنس أو لون البشرة" يجب أن "يسمح لهم بالاستمتاع بالحقوق الطبيعية العامة... (فاللون) كان قضية مصنوعة لتبرير الخط من شأن السود". ٣٥

أقاما زوجاً رائعاً، وبينما كان بينه وبين أنا القليل مما يتشارك فيه بعد مغادرتهم بالتمور، كان هناك الكثير من الاهتمامات المشتركة من أول الأنشطة الاجتماعية إلى عشقهما للموسيقى والأدب والسفر. في عام ١٨٨٨ ذهب في رحلة كبرى إلى أوروبا التي تمت حينئذ وسط موجة "موضة" الطبقة المتوسطة الأمريكية، وفي إنجلترا أقاما مع جوليا جريفيث كروفتس وهي التي لم يرها دوجلاس منذ ست وعشرين سنة، وزارا روما وباريس واليونان ومصر وجلسا معاً لالتقاط العديد من الصور. مثلت الرحلة تناقضاً صارخاً بالنسبة لزوجاه من أنا التي لم تكن تهوى السفر ولم تظهر معه في أية صورة. ٣٦

كانت أوتيلي آسنج تعيش في باريس عندما سمعت بزواج  
دوجلاس من هيلين بيتس. كانت منذ سنوات طويلة مضت، عندما  
هرب دوجلاس من أمريكا بعد غارة براون، قد ملأها الأمل في أن  
يقابلها في باريس- لكنه لم يفعل- والآن تأتيها الأنباء كالصاعقة فهيلين  
امرأة أصغر كثيراً منها وقد تزوجت بفردريك أمام الكاهن  
بالكنيسة. ٣٧.

وذات يوم مشمس، بعد الظهر، بعد زواج دوجلاس وهيلين  
بشهور قليلة تمشت أوتيلي آسنج نحو غابة بولونيا على الجانب الغربي  
لباريس وجلست على مقعد كان مختفياً إلى حد ما عن أعين المارة  
على ممر المنتزه وأخرجت قنينة صغيرة من حقيبة يدها وفتحت  
غطاء الزجاجاة. ربما كانت تفكر في "فيرتر" بطل رواية جوتة "آلام  
فيرتر" ثم جرعت كمية سيانيد البوتاسيوم الموجودة داخلها. تم  
اكتشاف جثتها فيما بعد تلك الليلة، وعندما وجدت الشرطة تلك  
الزجاجاة حددت سبب الوفاة بأنه الانتحار. ٣٨ عاش دوجلاس  
وهيلين كأزواج متحابين لمدة إحدى عشرة سنة حتى وفاة دوجلاس  
عام ١٨٩٥، وقد استمتعا بضيوف مميزين وطلبة من جامعة هاوارد،  
وتلوا أشعار بول لورنس دنبار والشعراء الآخرين، وأحياناً ماكانا  
يغنيان معاً.

عزف دوجلاس على الكمان وهيلين على البيانو. لكنهما  
غالباً ما ناقشا الحقوق المدنية وحضرا اجتماعات الإصلاح  
والمؤتمرات. ٣٩٠ قبل أسابيع قليلة من وفاة دوجلاس بالأزمة القلبية في  
فبراير ١٨٩٥ سافر طالب أسود شاب إلى بروفنس في رود أيلاند  
حدث كان يزورها دوجلاس، وأراد أن يعرف ما النصيحة التي يمكن  
لدوجلاس أن يقدمها لشاب مثله. كان يفكر في احتراف مهنة ما  
وكان سؤاله: "ماذا يمكنك قوله لشاب زنجي يريد أن يبدأ حياته؟  
وماذا يجب أن يفعل؟" هب دوجلاس واقفا بأقصى طوله ونظر إلى  
الشاب ثم إلى السماء وأجاب بصوته الأجش العميق: "إنشط ..  
إنشط .. إنشط !" ٤٠

obeikandi.com



## تقدير

بدأ هذا الكتاب كجزء من مشروع أكبر يدور حول الصداقة المتعددة الأجناس، وقد نشرت عام ٢٠٠٥ مقالة عن دوغلاس ولنكولن في مجلة "التايم" وأدين بالشكر لمحرريها كريسر فارلي وبريسلا بنتون وأنديا دورفمان لمساعدتي في صقل المقالة وأفكاري عن دوغلاس ولنكولن.

وأنا حسن الحظ جداً أن أمكنني العمل مع جون كارب عند تويلف، وهو محرر وناشر لامع وسعيد من يعمل معه وشخص مثالي في التفكير وله عين وأذن مثالية في تذوق النشر. كانت رؤاه سواء حين تتناول الخطوط العامة أو الحبكة أو خطوات الدراما واختيار الكلمات والنهايات مدهشة ودائماً ما كانت في موضعها، وكان نات جراي في مركز تويلف أيضاً متعاوناً جداً ومشجعاً، وقد أتيت لي منذ خمسة أعوام مضت فرصة الإشراف على رسالة نات في جامعة



هارفارد حول "جون براون في المخيلة الأمريكية" وظلت واحدة من أفضل ماقرات، وكانت حساسيته للغة فوق العادية. كما أود أن أشكر- أيضاً- كاتب النسخة الأولى رولاند أوتويل وهو صانع كلمات حذر وتفصيلي لدرجة وجدت نفسي فيها شديد التواضع عند مراجعة ذلك الكتاب، والشكر أيضاً واجب للمحرر الإداري للمشروع روبرت كاستيلو لاقتراحاته الحكيمة ومروته وصبره. كما قام بعض الأساتذة بقراءة بعض أو كل النسخة الخطية وأمدوني بملاحظات وتغذية راجعة هامة. كما أولت زو ترود النسخة عناية كبرى في القراءة، وقدمت لي تفاصيل مفيدة لدرجة أنني وجدت نفسي في هلع من كثرة تقاريرها الجيدة المنتظمة. كما أن دان آرون قد قرأ النسخة كاملة وكانت انتقاداته النفاذة لا تقدر، وقدم دافيد بلايت اقتراحات دورية وهامة وساعدني في توضيح مناقشاتي، وكانت جيمي جونز متعاونة عظيمة أخرى وقارئة مدققة، واقتراحاتها لا يمكن الاستغناء عنها، وقام جاري روس بتشكيل رؤيتي للنكولن وتقنيات الحكمي بأساليب تصل لما وراء هذين الموضوعين، وجعلت اقتراحات سالي جنكيز ومحادثاتها وأمثلتها للاقترب وتفسير الماضي مني كاتباً أفضل، وواصل دافيد برون دافيز رفع الأثقال ليلهمني كل أنواع الوسائل. كما أن أسئلة ستيف مينتر العميقة أجبرتني على إعادة التفكير أو إيضاح مظاهر مختلفة في

المشروع، وساعدني عدد آخر من الناس في أجزاء متعددة من الكتاب منهم لاري بويل ، دافيد دونالد ، ليلاند دولا ديورانت ، ستانلي إنجرمان ، جيف فيرجسون ، بول فينكلمان ، سكيب جيتس ، والتر جونسون ، راندال كيدي ، موريس لي ، روبيرت ليفين ، تيم مكارثي ، لوك ميغاند ، ريتش نيومان ، بيتر نوربرج ، سوزان أو دونوفان ، تشارلز أوجلييري ، روبيرت باكيث ، مانيشا سينا ، بن سوسكيس ، جيمس برورستيوارت ، روبيرت والاس ، وجون دود .

ثم هناك أساتذة لم أكن لأستطيع الحديث معهم مباشرة إلا أن أصواتهم مازالت ترن في سمعي خلال البحث والتدوين وهم روبيرت أبزوج ، وبول آنجل ، وجين بيكر ، وروي باسler ، وجون بلاسنجام ، وجابور بوريت ، وميشيل بيرلنجام ، وريتشارد كارواردين ، وجيمس كالايكو ، وسالي ديتون ، وماريا ديتريتش ، وإيريك فونر ، وفيليب فونر ، وويليام فري لينج ، وإيرنست فيرجسون ، ودوريس كيرتس جودوين ، وجون هاي ، وهارولد هولتز ، ومارجريت ليتش ، وويليام ماك فيلي ، وجيمس ماكفرسون ، وجون نيكولاي ، وجيمس أوكس ، وستيفن أوتس ، ولويد أوستندوف ، وبنجامين كوارلز ، ودافيد رينولدز ، وكارل ساند بيرج ، وجيمس سيمون ، وميتشيل فورنبرج ، ورونالد هوايت ، وجو جلاس ويلسون ، وجاي وينيك ،

وحيث كنت أعتد بشدة على الأصول الأولى للمراجع فإنني مدين بالشكر والعرفان للأرشيفات التالية شاملة الناس الذين جعلوا مادتها متاحة: مكتبة بوسطن العامة، ومكتبة الكونجرس، والأرشيف القومي، ومكتبة جامعة سيراكوزا، والجمعية التاريخية بنسلفانيا، ومكتبة جامعة روشيستر، ومكتبات كورنيل الجامعية بوسطن، ومكتبة نيويورك التاريخية، وجمعية فيلسون التاريخية، ومكتبة جامعة إلينوي في أوربانا-شامبين، ومكتبات جامعة هارفارد ومكتبات جامعة بيل.

كما أود أن أقر بالجميل لأعضاء عائلتي الذين خرجوا عن مساراتهم لمساعدتي في إنهاء هذا المشروع: بيل وجين ستوفر، وراشيل ستوفر وجيم لوسون، ومارك وبكي وكونور لافافر، وبريان وجين كانينجهام، وكريستين كانينجهام، وجيم وكاثryn هوردكين وديبورا كانينجهام، وإيريك إيسايا ستوفر اللذين أهديهما هذا الكتاب وجعلاه مكملاً؛ الأولى لتحريرها الرائع للكتاب ودعمها ونصحها عند كل مرحلة، والأخير لفضوله اللامحدود والتساؤل، ولكليهما لحبهما لي.

كامبردج

جون ستوفر  
- ماساتشوستس